بول إيكمان

قول الأكاذيب

قرائن على الخداع؛ في السوق والسياسة والزواج

نقلته إلى العربية

خلود غرايبة

العبيكان
Obeikan

obeikandl.com

Original Title
Telling Lies
Clues to Deceit in the Marketplace, Politics, and Marriage
Author: Paul Ekman
Copyright © 2009, 1992, 1985 by Paul Ekman
ISBN-10: 0393337456
ISBN-13: 978-0393337457
All rights reserved. Authorized translation from the English language edition
Published by W.W. Norton & Company Inc.,500 Fifth Avenue,
New York, NY 10110 (U.S.A.)
حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع دبليو. دبليو نورتن آند كومبني. الولايات المتحدة الأمريكية.

© العبيكان Obeikan 2012 ـ 1433

ح شركة العبيكان للتعليم، 1435هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إيكمان، بول

قول الأكاذيب قرائن على الخداع في السوق والسياسة والزواج./ بول إيكمان؛ خلود غرايبة.-

الرياض 1435هـ

348 ص؛ 16,5× 24 سم

ردمك: 9 - 613 - 503 - 603 - 978

1 - علم النفس 2 - السلوك (علم نفس)

أ. غرايبة، خلود (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 150 رقم الإيداع: 1435/1093

الطبعة العربية الأولى 1436هـ - 2015م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت
www.obeikanpublishing.com
متجر العبيكان Obeikan على أبل
http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023 ص. ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

obeikandl.com

قائمة المحتويات

شكر وتقدير 5

الفصل الأول: المقدمة 7

الفصل الثاني: الكذب، والتّسرّب، وقرائن وجود الخداع.. 17

الفصل الثالث: لماذا لا تنطلي الأكاذيب؟ 33

الفصل الرابع: كشف الخداع من خلال الكلمات، أو الصوت، أو حركات الجسم 67

الفصل الخامس: قرائن الوجه في الخداع 105

الفصل السادس: الأخطار والاحتياطات 139

الفصل السابع: مكشاف الكذب (البوليغراف) 163

الفصل الثامن: التّحقّق من الكذب 207

الفصل التاسع: كشف الكذب في التسعينيّات 241

الفصل العاشر: الكذب في الحياة العامة 259

الفصل الحادي عشر: نتائج وأفكار جديدة حول الكذب وكشفه 283

الفصل الثاني عشر: تعابير الوجه الصغيرة، والدقيقة، والخطيرة 303

الخاتمة 315

ملحق 321

قائمة المراجع 331

فهرس الكلمات 347

obeikandl.com

obeikandl.com

شكر وتقدير

أدين بالفضل لفرع البحوث السّريريّة في المعهد الوطني للصحة العقلية؛ لدعمه بحثي في "التواصل غير اللفظي" من عام 1963م إلى عام 1981م. لقد دعم برنامج جائزة بحوث العلماء في المعهد الوطني للصحة العقلية تطوير برنامج هذا البحث طوال السنوات العشرين الماضيــة، وساعــد على إخراج هذا الكتاب إلى حيّز الوجود أيضــاً. وأودّ أيضاً شكر مؤسسة هاري ف. جوجنهايم ود. جون ومؤسسة كاثرين ت. ماك آرثر لدعمهم بعض البحوث المذكورة فــي الفصلين الرابع والخامس. إلى جانب تقديري إلــى والاس ف. فريسن الذي عملت معه أكثر من عشرين عاماً، وهو مسؤول بالمثل عن نتائج البحث المقدَّم في هذين الفصلين، وقد نتج أيضاً كثير من الأفكار في هذا الكتاب من حواراتنا خلال العقدين الماضيين.

وأزجــي شكري أيضاً إلى سيلفان س. تومكنز؛ الصديــق، والزميل، والمعلم، لتشجيعه إيــايّ على إنتاج هذا الكتاب، وعلى تعليقاته واقتراحاتــه بشأن مخطوطته، وقد استفدت من ملحوظــات عدد من الأصدقاء الذين قرؤوا تلك المخطوطة، ومن وجهات نظرهم المختلفة، وهم: الطبيب روبرت بلاو، ومحامي المحكمة كاسبار ستانلي، والرّوائيّ جو كارسون، وعميل مكتــب التحقيقات الاتحاديّ(الفدرالــيّ) المتقاعد روس مولاني، والمفكــر السّياسيّ روبرت بكــس، والطبيب النفسيّ روبرت أورنستين، ومستشــار الإدارة بيل ليامز. وقد كانت زوجتي ماري آن ميسون، القارئة الأولى لكتابي، حليمةً وبنّاءةً في نقدها.

تناقشت مع إيرفنج جوفمان في كثير من الأفكار الواردة في الكتاب، وقد كان مهتمّاً في بحوث الخداع من زاوية مختلفة تماماً، واستمتعنا بوجهات نظرنا المتباينة غير المتناقضة، وكنــت سأحظى بعظيم الفائدة بتعليقه على المخطوطة، إلّا أن المنيّة وافته فجأة قبل تمكني من إرسالها إليه، أرى نفسي والقارئ خاسرين لهذه الحقيقة المؤلمة؛ لأنّ الحوارات في هذا الكتاب تزدحم في ذهني فقط.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

المقدّمة

فــي 15/9/1938، حيث واحدة من أكثر الخــدع الشهيرة والقاتلة على وشك الحدوث، اجتمع آنذاك مستشار ألمانيا أدولف هتلر ورئيس وزراء بريطانيا العظمى نيفيل تشامبرلين أوّل مـرّة، في حين كان العالَم يراقب اللقاء راجياً الأمل الأخير لتجنّب حرب عالمية أخرى، فقد تقدّمت قوّات هتلر قبل ستة أشهر إلى النمسا لاحتلالها وضمِّها إلى ألمانيا، وفي الطرف الآخـر، التزمت كلٌّ من إنجلترا وفرنسا الحياد مكتفيتين بالاحتجاج فقط ففي الشهر نفسه، وقبـل ثلاثة أيام من الموعد المحدّد لاجتمـاع تشامبرلين مع هتلر، طالب الأخير بضمٍّ جزءٍ من تشيكوسلوفاكيـا إلى ألمانيا، فاندلعت أعمال الشغب فـي تشيكوسلوفاكيا، وعندئذٍ شرع هتلر بالتعبئة القتالية للجيش الألماني سرّاً لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا، ولكن الجيش لن يكون جاهزاً قبل نهاية شهر أيلول.

إذا استطـاع هتلر إقناع التشيك بعدم تعبئة جيشهم بضعة أسابيع، فستكون لديه ميزة الهجـوم المفاجئ. وبالمماطلة لكسب الوقت، أخفى هتلـر خططه الحربية عن تشامبرلين، واعـداً بالمحافظة علـى السّلام إذا لبّـى التشيكيون مطالبـه، فانخـدع تشامبرلين بذلك، وحـاول إقناع التشيكيين بعدم تعبئة الجيش؛ لأنه يرى فرصـة سانحة للتفاوض مع هتلر، ثم كتـب رسالـة إلى أخته بعد التقائه بهتلـر، قال فيها: على الرّغم مـن الصلابة والقسوة التي ظننت أنني رأيتها في وجهه – يعني هتلر – فإنني شعرت أنّ هذا الرجل إنْ وعد أوفى..[1]»، وبعـد خمسة أيام، وفي معرض دفاعه عن سياساتـه ضد أولئك الذين يشكّون في مصداقيّة

وعـد هتلـر، ذكر تشامبرلين أنّ اتصالاته الشخصية مع هتلـر تمكّنه من القول: إنه يعني ما يقول[2].

عندمـا بـدأت بدراسـة الأكاذيب قبل خمسة عشـر عاماً، لم تكن لديّ فكـرة أنّ عملي سـوف يرتبـط بهـذه الكذبة، واعتقـدت أنّ ذلك سيكون مفيـداً للذين يتعاملـون مع مرضى الدماغ، فبدأت دراستي عن الكذب بعد أن طرح عليَّ المُعالج النفسيّ الذي كنت أخبره بنتائج دراستـي (قسمات الوجه عالمية أمّا الإيمـاءات فمحدّدة بالثقافات المختلفة) سؤالاً عمّا إذا كانـت السّلـوكات غير اللفظية تكشف كـذب المريض[3]، قد لا يكون هـذا الموضوع عادةً ذا أهميّة، ولكنه يصبح كذلك عندما يدّعي المرضى الذين يدخلون المستشفى الشفاء ليتمكنوا مـن الخـروج ومن ثمَّ الانتحار، إذ يخشى كلّ طبيب أن يُقدم المريض الذي يشرف عليه على الانتحـار حال خروجه مـن حجز المستشفى، وقد أثار قلق الأطباء الفعلي سؤالاً جوهرياً عن التواصـل الإنسانـي: هـل يستطيع الأشخاص – حتـى إنْ كانوا منزعجيـن – السيطرة على الرسائل التي تصدر عنهم؟ أو: هل يشي سلوكهم غير اللفظي بما تخفيه كلماتهم؟

لقـد اطّلعت مـرة أخرى على شرائط مصوَّرة لمقابلات جـرت مع مرضى نفسيين عن شواهـد للكـذب، وكنت قد أعـددت هذه الأفلام لغرضٍ آخر؛ هو عزل التّعابيـر والإيماءات التي قـد تساعد على تشخيص شدة نوع الاضطرابات النفسيـة، ولأنّ اهتمامي الآن منصبٌّ علـى الخداع، أعتقد أنني رأيت دلائل على الكذب في عـدد من هذه الشّرائط؛ لكن المشكلة تكمن في كيفية التأكد من ذلك. لم يكن هناك شكٌّ في أنّ الكذب موجود في إحدى الحالات المرضية بسبب ما حدث بعد المقابلة.

مـاري ربّة منـزل في الثانية والأربعين من عمرها، كانـت محاولاتها الانتحارية الثلاث الأخيـرة خطيـرة جدّاً، وقـد أسعفها أحدهـم مصادفةً قبـل أن تقضي عليهـا جرعة زائدة تناولتهـا من الحبـوب المنومة. لم تكن سيرتهـا المَرضيّة مختلفة كثيراً عـن نساء أخريات يعانيـن أزمـة اكتئاب منتصف العمـر. كبر أطفال مـاري، وهجروهـا، وكان زوجها مشغولاً عنهـا بعملـه، فشعرت أنها عديمـة الفائدة. وعنـد إدخالها المستشفى، لـم تكن قادرة على تحمّـل عـبء الأعمال المنزليّة، ولـم تستطع النوم جيداً، فكانت تجلـس وحيدة باكية معظم الوقـت. وقد تلقّت ماري علاجاً دوائيّـاً وآخر جماعيّاً في الأسابيع الثلاثة الأولى التي قضتْها

فـي المستشفـى استجابت إليهما إيجابيّاً؛ فأصبحت سعيدة، ولـم تعد تتحدث عن الانتحار. أخبـرت ماري طبيبها في إحـدى المقابلات المصوَّرة عن مدى تحسنهـا، وطلبت تصريحاً لقضـاء عطلة نهاية الأسبوع خارج المستشفى. إلّا أنها اعترفت قبل حصولها على التصريح أنّهـا كذبت للحصـول عليه؛ لقد عقدت العزم علـى الانتحار يأساً، وبعـد ثلاثة أشهر أخرى قضتهـا في المستشفـى، تماثلت إلى الشّفـاء حقيقة على الرغم من تعرضهـا لانتكاسة بعد سنة، وهي الآن، وبعد مضي سنوات عدّة خارج المستشفى، تبدو بصحة جيدة.

لقـد خدعت المقابلـة المصوَّرة مع مـاري معظم الأطبـاء النفسيين، وعلمـاء النفس الشباب وحتى كثيراً من ذوي الخبرة الذين شاهدوا عرض الشرائط المصوّرة(4). لقد درسنا المقابـلات ساعـات طويلـة، وراجعناها مرّات عـدّة، وتفحصنا كلّ إيمـاءة وتعبير بالعرض البطـيء للكشـف عن أيّ قرينـة ممكنة لوجود خـداعٍ مُحتمل. في لحظة مـا، رأينا بالعرض البطـيء توقّفَ ماري قبل إجابتها عن سؤال طبيبها عن خططها المستقبلية، وتعبيراً خاطفاً على وجهها يدلّ على تمكّن القنوط منها، لكنّ التعبير كان خاطفاً، لدرجة أنّنا لم نلحظه في المـرات الأولـى التي تفحَّصنا فيهـا الشّريط نفسه. وحال معرفتنـا أنّ العاطفة المخفية قد تكـون واضحة في هـذه التّعابير الخاطفة والدقيقة، أجرينا مزيداً من البحث، فوجدنا كثيراً منها كانت تغطيها عادة ابتسامة عابرة سريعة، علاوة على ذلك لاحظنا إيماءة دقيقة عندما كانـت مـاري تشرح للطبيب عن مدى قدرتها على التعامل مـع مشكلاتها. وقد أظهرت ماري أحياناً هزّة كتف جزئيّة لا كليّة؛ حيث كانت تهزّ يداً واحدة وتديرها قليلاً، أو ربما تكون يداها ثابتتين، ولكن هناك رفعة لحظيّة لإحدى كَتِفَيْها.

لقـد اعتقدنـا أنّنـا لاحظنا قرائن غيـر لفظية أخرى علـى الخداع، ولكننـا لم نستطع التأكد ما إذا كنا اكتشفناها أو تخيلناها. يبدو السلوك البريء تماماً مشبوهاً إذا كنت تعرف أنّ أحدهـم قد كذب مـن قبل، ولا تستطيـع أيّ وسيلة أخرى اختبار ما وجدنـا إلا المقاييس الموضوعيـة غيـر الذاتيّة لمعرفة ما إذا كان الشخص كاذباً أو صادقاً. لذا، كان لزاماً علينا الحصـول على دراسـات لعدد أكبر مـن الأشخاص؛ كي نكون على يقين مـن أنّ ملاحظاتنا عـن قرائن الخداع التي وجدناها ليست ذاتية. علاوة علـى أنّ ما يسهّل عملية كشف الكذب أن تكـون السلوكات التي تكشـف الخداع واضحة عندما يكذب شخـص آخر، ولكن قد تكون

علامـات الخداع خاصة لكلّ شخص، لقد صمّمنا تجربـة على غرار كذبة ماري، يُحفَّز فيها الأشخـاص الذين يخضعـون للتجربة كثيراً لإخفاء العواطف السلبيـة الشديدة التي تنتابهم فـي لحظة الكذب، كان على هؤلاء الأشخاص إخفاء مشاعر الحزن، والألم، والكره في أثناء مشاهـدة فيلم مزعج جدّاً يعرض مشاهد دموية، فضـلاً على أنه ينبغي لهم إقناع الشخص الـذي يقابلهم، والذي لم يشاهـد الشّريط، أنهم كانوا يستمتعون بمشاهدة فيلم عن الأزهار الجميلة (هذه النتائج سوف نتحدّث عنها في الفصلين الرابع والخامس).

بعد مضيٍّ أقلّ من سنة، وعندما كنا في المراحل الأولى من تجاربنا بشأن الكذب، استدعاني أشخاص يهتمون بنوع آخر من الأكاذيب؛ هل يمكن استخدام استنتاجات البحوث التي أجريتها أو الأدوات المستخدمة في القبض على الأمريكان المشتبه بهم أنّهم جواسيس؟ وبعد نشّرنا بسنوات لنتائج بحوث القرائن السلوكية على الخداع بين المريض والطبيب في المجلات العلمية، انهالتِ الاستفسارات تِباعاً؛ ماذا عن تدريب الأشخاص الذين يتولون حراسة موظفي مجلس الوزراء ليتمكنوا من القبض على الإرهابيين الذين ينوون القيام بعمليات اغتيال من طريقة سيرهم، أو الإيماءات الصادرة عنهم. هل يمكننا تعليم أفراد مكتب التحقيق الاتحادي (الفيدرالي) كيفية تدريب أفراد الشرطة على كشف الكذب بصورة أفضل؟ لم أعد أتفاجأ عند سؤالي عن إمكان مساعدة المفاوضين في كشف كذب خصومهم، أو ما إذا كنت أستطيع الحكم على صورة باتريشيا هيرست التي التُقطت عند مشاركتها في السطو على بنك، بحيث تُدان أو تُبرَّأ.

حظي موضوع كشف الكذب في السنوات الخمس الأخيرة، باهتمام عالميّ؛ اتصل بي ممثِّلا دولتين صديقتين للولايات المتحدة للاطلاع على البحوث في هذا الشّأن. وقد حاضرت في الاتحاد السوفيتي بمسؤولين قالوا إنهم من «المعهد الكهربائي» وإنّهم مسؤولون عن استجواب المتهمين.

لم أكن مسـروراً بهذا الاهتمام، وخشيت أن يُساء استخـدام استنتاجاتي وقبولها دون تمحيـص أو تروٍّ، لقـد شعرت بالحدس فقط أنّ قرائن الخداع غير اللفظية لن تكون واضحة فـي الغالب عند معظم المجرميـن، أو السياسيين، أو ممثّلي الدّول (الدبلوماسيين). وعندما سُئلت عن السبب عجزت عن التفسير. وكي أتمكن من تفسير ذلك، كان عليّ أن أتعلم لماذا

يخطئ الأشخاص عندما يكذبون. ليست الأكاذيب جميعها غير مُصدَّقة، فبعضها ينطلي على الآخرين بنجاح. وليس بالضرورة أن تكون هناك قرائن سلوكية على الخداع كتعبير يُحتفظ فيه لمدّة طويلة على الوجه، أو إيماءة عابرة، أو تغيّر آنيٍّ في الصوت. ليس بالضرورة أن تكون هناك علامات واضحة تفضح الكاذب. ومع ذلك، فقد علمت باحتمال وجود قرائن على الخداع. قد يفضح أكثر الكاذبين حنكةً سلوكُه الشخصيّ. وكي نعرف متى ينجح الكاذبون ومتى يخفقون، وكيف يمكن إيجاد قرائن الخداع، ومتى لا تكون المحاولة ناجحة، يتعين معرفة كيفية اختلاف الأكاذيب، والكذّابين، ومكتشفي الكذب.

تنطوي كذبة كلّ من هتلر على تشامبرلين، وماري على طبيبها على خدعة خطيرة وقاتلة كانت فيها المجازفة هي الحياة عينها، لقد أخفى الإثنان نيّات مستقبليّة، وادعى كلاهما وجود عاطفة لم يشعرا أنّها جزءٌ رئيس من كذبهما، ولكن الفروق بين الكذبتين كبيرة جدّاً؛ هتلر ممثّل بطبعه؛ لقد كان أكثر تمرّساً في الخداع من ماري، إضافة إلى مهاراته المتأصّلة.

حصل هتلر أيضاً على ميزة خداع شخص أراد أن يُضلَّل؛ حيث كان تشامبرلين ضحية مستعدَّة للتضليل، تريد تصديق كذبة هتلر بعدم التخطيط للحرب، لو أمكن إعادة رسم حدود تشيكوسلوفاكيا للوفاء بمتطلباته.

كان على تشامبرلين الاعتراف أنّ سياسته الهادفة إلى منع نشوب الحرب قد فشلت، وأضعفت بلاده أيضاً، وعلى صعيد ذي صلة، أشارت العالِمة السياسية روبرتا ويلستتر إلى هذه النقطة في تحليلها للخداع في سباقات التسلح، وفي مناقشة اختراقات ألمانيا للاتفاقية البحرية الأنجلو ألمانية في 1936م قالت: ... يجب على المخادع والمخدوع السماح للخطأ بالاستمرار، وأنّ كلاً منهما يحتاج إلى إيهام نفسه أنّ الاتفاقية ستُنفَّذ، لقد أدى الخوف البريطاني من سباق التسلح الذي تلاعب فيه هتلر ببراعة إلى الاتفاقية البحرية التي نقّح فيها البريطانيون ضمنيّاً معاهدة فرساي (دون استشارة الفرنسيين أو الإيطاليين). أما خوف لندن من سباق التسلح، فقد منعها من تعرّف الانتهاكات، والاعتراف بها في الاتفاقية الجديدة[5].

يتغاضى المُتلقّي في كثيرٍ من الخدع عن أخطاء الكاذب، فيفسّر السلوك الغامض تفسيراً إيجابيّاً، ويساعد المتلقّي المتواطئُ على المحافظة على الكذبة لتجنب العواقب الوخيمة في عدم الكشف عنها، وقد يتغاضى الدّيّوث عن علاقات زوجته العاطفية خشية افتضاح الأمر وحصول الطلاق، حتى وإن اعترف الزوج بخيانة زوجته بينه وبين نفسه، فقد يخفي هذا الاعتراف لتجنب اضطراره إلى إظهار معرفته أمامها، أو لتجنب المواجهة. وطالما لم يذكر الزوج شيئاً عن خيانتها، يظل لديه بريق أمل خافت في إخفائها، وأنه ربما قد يكون أخطأ الحكم عليها، وأنها ليست على علاقة غراميّة مشبوهة.

لا يعدّ الضحايا جميعهم راغبين في خداعهم. وفي بعض الأحيان، ليس هناك ما يمكن كسبه من تجاهل الكذب أو التّواطؤ معه. يحقق بعض مكتشفي الكذب مكاسب من خلال كشف الكذب فقط، وإذا كشفوا كذبة ما، فإنّهم لا يخسرون شيئاً؛ فمحقّق الشرطة يخسر إذا انطلت عليه الكذبة، وكذلك موظف القروض في المصرِف. بالمقابل، يقوم كلاهما بعمله على خير وجه من خلال كشف الكاذب ومعرفة الصادق فقط، وغالباً ما يكسب المتلقّي ويخسر عندما يُضلّل، أو من خلال كشف الكذبة، ولكن قد لا يكون الكسب والخسارة متوازنيّن.

طبيب ماري لديه مخاطرة بسيطة في تصديق كذبتها، وإذا تخلصت ماري من الاكتئاب، فقد يحصل الطبيب على بعض الفضل لتأثيره في شفائها، أمّا إذا لم تتماثل للشّفاء تماماً، فإنه لا يتحمّل من جرّاء ذلك خسارة كبيرة. وعلى عكس تشامبرلين، لم تكن مهنة الطبيب برُمّتها على تلك الدرجة من الخطورة، فهو لم يلزم نفسه علناً، على الرغم من وجود تحدّ لذلك، بحكم يمكن أن يثبت خطأه لو أنه كشف كذبتها، ولكنه يخسر كثيراً إذا خُدِع أكثر مما يكسبه لو أنه كان صادقاً. في عام 1938، كان الوقت متأخراً جدّاً بالنسبة إلى تشامبرلين لو أنّ هتلر غير جدير بالثقة، ولو لم تكن هناك طريقة لإيقاف عدوانه الحربيّ، وسيخسر تشامبرلين منصبه، وتنشب الحرب التي اعتقد أنه يمكن منعها.

وبمعزل عن دوافع تشامبرلين في تصديق هتلر، يرجّح أن تنطلي الكذبة بسبب عدم وجود مشاعر قوية لإخفائها، حيث تفشل الأكاذيب في الغالب بسبب تسرّب بعض علامات العاطفة المخفيّة، فكلما كانت العاطفة المرتبطة بالكذب أقوى، ازداد عدد العواطف

المختلفة، ويصبح احتمال افتضاح الكذب من خلال بعض صور التسرب السلوكي أكبر، لم يشعر هتلر بالذنب بالتأكيد، وهذا نوع من العاطفة يسبّب إشكالية مضاعفة للكاذب، حيث لا تشي علامات كثيرة على وجوده فقط، ولكن عذابه بسبب شعوره بالذنب يدفعه لاقتراف الأخطاء التي تُوقِعُ به. لن يشعر هتلر بالذنب تجاه الكذب على ممثّل البلد الذي هزمت ألمانيا في عهده هزيمة عسكرية مهينة، وعلى عكس ماري، لا يوجد لدى هتلر قيم اجتماعية مشتركة مع ضحيته؛ فهو لا يحترمه، ولا يبدي إعجاباً بشخصيته، أما ماري فكان عليها إخفاء مشاعر قوية كي تنجح في تمرير كذبتها، كان عليها إخفاء اليأس والكرب اللذين يحفزّان رغبتها في الانتحار، وكانت لديها أيضاً الأسباب جميعها لتشعر بالذنب بسبب كذبها على طبيبها؛ إنّها تكنّ له الاحترام والتقدير والإعجاب؛ كيف لا وهو يقدم لها يدّ العون والمساعدة!

ولكلّ هذه الأسباب وأكثر، سيكون من الأسهل كشف القرائن السلوكية للخداع لدى المرضى الذين يميلون إلى الانتحار، أو كشف الزوج أو الزوجة الكاذبين أكثر من كشف كذب ممثّل دولة (دبلوماسيّ) ما أو عميل مزدوج معين.

ليس كلّ ممثل دولة أو مجرم أو عميل مخابرات كاذباً ماهراً؛ إذ قد يقترف أخطاءً أحياناً. يسمح التحليل الذي أجريته لأيّ شخص من تقدير فرص التمكن من اكتشاف القرائن الدالة على الخداع أو التضليل، ورسالتي للمهتمين بكشف الأكاذيب السياسية أو الإجرامية لا تكمن في تجاهل القرائن السلوكية، بل في الحذر الشديد، وإدراك المحاذير والفرص أكثر.

على الرغم من وجود بعض القرائن السلوكية على الخداع، فإنّها لم تثبت حتى الآن. يتوافق تحليلي لكيفية كذب الأشخاص، ولماذا يكذبون، ومتى تفشل الأكاذيب، مع أدلة التجارب التي جرت على الكذب، ومع التفسيرات التاريخية والخيالية، ولكن لم يكن هناك وقت لمعرفة مدى صحّتها أمام مزيد من التجارب والجدال الدقيق. لذا، قررت عدم انتظار الإجابات من أجل نشر هذا الكتاب؛ لأنّ الذين يحاولون اقتناص الكاذبين لن ينتظروا أكثر، فحينما كانت أخطار الأخطاء مرتفعة، بُذلت المحاولات للكشف عن قرائن الخداع غير اللفظية. ويقدم «الخبراء» غير الضليعين بمعرفة القرائن والحجج جميعها خدماتهم على أنّهم مكتشفو كذب في اختيارات هيئة المحلفين والمقابلات الوظيفية. فضلاً على أنه يتم

إعـلام بعض أفراد الشرطة وكاشفي الكذب المحترفيـن الذين يستخدمون مِكشاف الكذب (البوليغـراف) عـن قرائن الخداع غيـر اللفظية، ومـن الجدير ذكره أن نصـف المعلومات الموجـودة في مواد التدريب التي اطلعت عليها غير صحيحة. يحضر موظفو المكوس دورات خاصة في الكشف عن القرائن غير اللفظية المرتبطة بالتهريب، وقد علمت أنهم يوظفون ما توصّلتُ إليه في تدريبهم، وعلى الرغم من استفساراتي المتكررة لرؤية مواد التدريب، فإنني لـم أسمع سوى: سنتحدث بشأنها في الحال. ولكن دون جدوى. علاوة على أنّ من المستحيل معرفـة ما تقوم به وكالات الاستخبـارات؛ لأنّ أعمالها سرّيّة، وأعلـم أنهم مهتمون بالكشف عن الكذب بسبب استدعائي من قِبَل وزارة الدفاع قبل ست سنوات لأشرح الفرص والأخطار المرتبطة بعملي، ومنذ ذلك الحين، سمعت شائعات تشير إلى أنّ العمل لا يزال مستمراً، وقد عرفت بعض أسماء الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا متورِّطين بذلك.

لـم يُردّ علـى رسائلي، أو أنهم اعتذروا عن عدم إعطائـي أيّ معلومات. وما يقلقني هو فهـم الخبراء الذين لا يجادلهم أحد من العامّـة، والنقاد المولعين بانتقاد المجتمع العلميّ. يهـدف هذا الكتاب بيان وجهة نظـري حيال الأخطار والفرص المرتبطـة بالمشروع لأولئك الخبراء ومن يعملون لديهم.

لا يكمـن هدفي من هذا الكتـاب مخاطبة أولئك المعنيين بالخـدع القاتلة فقط؛ لأنني أعتقـد أنّ فحص كيفية كـذب الأشخاص وصدقهم قد يساعد على فهـم كثيرٍ من العلاقات الإنسانيّة. إذ إن هناك عدداً قليلاً فقط من الأشخاص لا يتورطون بالخداع أو إمكان الخداع فـي الأقل، فقد يكـذب الأهل على أطفالهم بشـأن الجنس لتجنيبهم معرفة مـا يعتقدون أنّ أولادهـم غير مستعدين له لحداثة سنّهم، وبالمقابـل، يكذب المراهقون على ذويهم لإخفاء مغامراتهـم العاطفيـة؛ لأنّ الأهل لن يفهموها، وقد يحدث الكـذب بين الأصدقاء (حتى أعزّ الأصدقـاء يخفي عنك شيئاً مـا)، والطلاب ومعلميهم، والطبيـب ومريضه، والزوج وزوجه، والشاهد وهيئة المحلفين، والمحامي والزبون، وبين مندوب المبيعات والعميل.

إنّ الكـذب سمـة رئيسة في الحياة، ويرتبـط فهمه بصورة أفضـل بالعلاقات البشرية جميعهـا. قـد يرتعد بعضهـم من هـذه الحقيقة؛ لأنهـم يرون الكـذب خلقاً ذميمـاً، ولكني

لا أشاطرهم هذا الرأي، من السهل القول بعدم وجوب كذب أيّ شخص في أيّ علاقة، بالإضافة إلى أنني لا أفترض وجوب تعرية كلّ كذبة.

آن لانديرز؛ كاتبة عمود نصائح في مجلة كلّ الحقّ، تنصح قرّاءها بالصّدق بصفته هراوةً تُوّقع ألماً قاسياً. قد تكون الأكاذيب قاسيةً أيضاً، لكن ليست جميعها كذلك، فبعض الأكاذيب، وعدد أقلّ من الكاذبين، يدعون ذلك إيثاراً. يتم الاستمتاع ببعض العلاقات الاجتماعية بسبب الأكاذيب التي تحرص على عدم فضحها، ولكن على الكاذب عدم الافتراض أنّ المتلقِّي يرغب في التضليل، وعلى كاشفي الكذب أيضاً عدم الكشف عن الأكاذيب جميعها؛ فبعض الأكاذيب غير ضارة، وقد تكون إنسانيّة، إضافة إلى أنّ افتضاح الكذب قد يلحق المهانة بالكاذب أو بطرف آخر.

ولكن لا بدّ من النظر في جميع ما سبق بمزيد من التفصيل، بعد مناقشة موضوعات أخرى عدّة. إنّ نقطة انطلاقنا في هذا الكتاب هي تعريف الكذب، ووصف صورتيه الأساسيتين: الإخفاء والتّزوير، ونوعي قرائن الخداع: التّسرّب ودليل الخداع.

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

الكذب، والتّسرّب، وقرائن وجود الخداع

بعـد ثماني سنوات مـن استقالة الرئيس ريتشارد نيكسون، أنكـر أنه كذب في السابق، ولكنـه اعتـرف شأنه شأن باقي السياسييـن باللجوء إلى المراوغة، وأشـار إلى أهمية كسب العلاقـات العامة والمحافظة عليها قائلاً: لا يمكنك قول ما تفكر فيه بشأن هذا الشخص أو ذاك؛ فقد تحتاج إلى الاستعانة به يوماً ما... ولا تستطيع الإفصاح عن آرائك في قادة العالم؛ فقـد تضطـر للتعامل معهم فـي المستقبل[1]». وليـس نيكسون وحده الـذي يتجنب مصطلح الكذب عندما يكون الكـذب مشروعاً.* يذكر معجم أكسفورد: «في الاستخدام الحديث، تعدّ كلمة «الكذب» في العادة مصطلحاً قاسياً للتجريم الأخلاقي، ويميل الأشخاص في محادثات الكياسة إلى تجنبه.

---

* قد تتغير الاتجاهات؛ فقد سوّغ جودي باول ، السكرتير الصحفي للرئيس السابق جيمي كارتر، بعض الأكاذيب قائلاً: منذ اليوم الأول، سأل أول صحفي المسؤول الحكومي أصعب سؤال؛ عمّا إذا كانت هناك ضرورة لمناقشة ما إذا كان للحكومة الحقُّ في الكذب من عدمه. فكان الجواب: نعم، يحقّ لها ذلك. في بعض الظروف والمواقف، ليس للحكومة الحقُّ في الكذب فقط، بل عليها الكذب أيضاً. فقد واجهت في أثناء عملي في البيت الأبيض مثل هذا الأمر مرتين». واسترسل في وصف واحدة منها حين كذب ليجنب بعض الناس الأبرياء تماماً الألم العميق والإحراج، واعترف أنّه كذب مرّة أخرى في التغطية على الخطط العسكرية بشأن إنقاذ الرهائن الأمريكيين في إيران(جودي باول، الجانب الآخر من القصة، نيويورك: وليامز موروز وشركاه المساهمة، 1984م).

obeikandl.com

في كثير من الأحيان، تُستعمل مرادفات لمفهوم الكذب كالزّيف، وعدم الصدق بوصفها بدائل أقلّ حدّة في الوصف[2]. من السهل نعت الشخص غير الصادق بالكاذب إذا كان شخصاً غير مرغوب فيه، ولكن استخدام ذلك المصطلح صعب جدّاً إذا كان الشخص غير الصادق محبوباً أو أنه محطّ إعجاب وتقدير.

قبل فضيحة ووترجيت بسنوات، بيّن نيكسون الكذب لخصومه الديمقراطيين مداعباً: هل تشتري سيارة مستعملة من هذا الرجل؛ الكاذب والمحبوب؟ أشاد معجبوه من الجمهوريين بهذه القدرة على الإخفاء والتمويه على أنّها دليلٌ على دهائه السياسيّ.

على كلّ حال، لا تتعلق هذه القضايا بتعريفي للكذب أو الخداع، فأنا أستعمل الكلمتين هنا للمعنى نفسه، إنّ كثيراً من الأشخاص، كأولئك الذين يقدمون معلومات غير صحيحة من دون قصد، ليسوا صادقين، لكنهم لا يكذبون، فالمرأة المصابة بوهم جنون العظمة على أنّها مريم المجدلية ليست كاذبة، على الرّغم من أن ادعائها غير صحيح. وإعطاء عميل ما نصيحة استثمارية غير موفقة ليس كذباً، إلّا إذا كان الناصح يعلم عند إعطائه النصيحة أنها غير صحيحة، والشخص الذي يعطي انطباعاً زائفاً بمظهره ليس بالضرورة كاذباً، وتمويه حشرة (فرس النبي) نفسها كي تشبه ورقة شجر ليس كذباً، أمّا الشخص الذي يشير إلى ارتفاع جبينه على أنّه يمتلك ذكاءً أكثر مما يمتلك فكاذب.*

يستطيع الكاذب اختيار عدم الكذب، فتضليلُ المتلقّي بالكذب متعمّدٌ؛ لأنّ الكاذب ينوي خداع هذا المتلقّي، ربما يمكن تسويغ الكذبة أولاً من وجهة نظر الكاذب أو المجتمع، فقد يكون الكاذب شخصاً محترماً أو سيئاً، وقد يكون محبوباً أو مكروهاً.

* يُعدّ تخمين أساس هذه القوالب النمطية مثيراً للاهتمام، إذ يُفترض أن تشير الجبهة المرتفعة إلى وجود دماغ كبير، وأنّ الشخص صاحب الشفاه الرقيقة يكون قاسياً على عكس القرينة الدقيقة التي تشير إلى أنّ الشفاه تصبح أضيق في حالة الغضب، فضلاً عن أنّ استخدامَ علامة تدل على حالة عاطفية مؤقته أساس الحكم على السمة الشخصية خطأٌ أيضاً. يشير مثل هذا الحكم إلى أنّ الأشخاص أصحاب الشفاه الرقيقة يبدون كذلك؛ لأنهم يضيّقون شفاههم باستمرار عند الغضب، ولكن الشفاه الرقيقة قد تكون كذلك ميزة وجه موروثة. النمط القائل إنّ الشخص ذا الشفاه الغليظة شهوانيّ يسيء فهم القرينة الصحيحة، في أنّ الشفاه تغلظ وتحتقن بالدماء في أثناء الاستثارة الجنسية، ويكون حكمه غير دقيق باعتمادها ميزة دائمة؛ ولكن يمكن أن تكون الشفاه الغليظة أيضاً من ميزات الوجه الدائمة[3].

obeikandi.com

قد يختار الشخص الذي يكذب أن يكون كاذباً أو صادقاً، على معرفته بالفرق بينهما[4]. لا يفي الكاذبون، الذين يعرفون أنهم يكذبون ولكنهم لا يستطيعون التّحكّم في سلوكهم، بمتطلبات العيّنة التي أبحث عنها، ولا حتى الأشخاص الذين لا يعرفون أنهم يكذبون، وهم ضحايا الخداع الذاتي.* بمرور الوقت، قد تصبح الكاذبة مقتنعةً بكذبتها، وبحدوث ذلك لن تكون كاذبة، وسيكون عدم صدقها لأسباب سأناقشها في الفصل التالي، صعب الاكتشاف، تُظهر حالة كذب وقعت في حياة موسوليني أنّ تصديق الشخص لكذبته قد لا يعود بالفائدة دائماً؛ ففي عام 1938م، خُفّضت وحدات الجيش الإيطالي من ثلاثة أفواج إلى فوجين، وكانت هذه رغبة موسوليني؛ لأنه تمكّن من قول أنّ الفاشية امتلكت ستين فوجاً بدلاً من نصف ذلك العدد، ولكن التغيير تسبب بفوضى عارمة في الوقت الذي كانت فيه نُذُرُ الحرب تلوح في الأفق، ويبدو أنّ الكذبة خدعت أشخاصاً آخرين إلّا شخصه[5]».

ليس الكاذب وحده من يجب التفكير فيه عند تعريف الكذب، ولكن يجب أن يخضع المتلقّي للدراسة أيضاً، ففي الكذب لا يطلب المتلقّي أن يُضلَّل، ولا يعطي الكاذب أيّ إشعار مسبق لنيّته القيام بذلك، ومن الغريب نعت الممثلين بالكاذبين، إذ يوافق جمهورهم على تضليلهم لبعض الوقت عن طيب خاطر، ولهذا السبب وُجِدَ الممثلون، فهم لا ينتحلون شخصية غيرهم كما يفعل المخادع، بل يُشعرون المشاهدين أنّ هذا مجرد تمثيل ليس إلّا، ولا النّاصح الذي أشار على الزبون بمعلومات غير موفّقة، ولن يكون هناك كذب لو أنّ المريضة النفسية ماري أخبرت طبيبها أنها تدّعي شعوراً لا تمتلكه على وجه الحقيقة، ولن يعدّ هتلر كاذباً لو طلب إلى تشامبرلين ألّا يثق بوعوده.

إذن في تعريف الكذب أو الخداع، ينوي أحد الأشخاص تضليل آخر، ويقوم بذلك متعمداً دون إشعار مسبق للمتلقّي في تضليله، ودون أن يطلب إليه المتلقّي صراحة القيام بذلك.**

---

* ومع أنني لا أجادل في وجود الكاذبين مرضياً وضحايا الخداع الذاتي؛ لأن ذلك أمر صعب الإثبات، فإنّ ادّعاء الكاذب لا يمكن الاعتماد عليه دليلاً، فقد يدّعي أيّ كاذب هذه الافتراءات حال تم اكتشافه للتخفيف من العقاب الذي سيطاله.

** أشدّد هنا على ما يدعوه جوفمان الأكاذيب السافرة «التي يمكن أن تكون دليلاً لا يرقى إليه الشّكّ، في أنّ الذي يقول الكذبة يعرف أنه يكذب وهو يقوم بذلك طواعية». لم يشدّد جوفمان على هذه التفسيرات غير الصحيحة، ولكنه شدّد على غيرها، تلك التي يكون فيها الفرق بين الصواب والخطأ أقل ما يمكن للدفاع عنه: «... ولا يكاد يكون هناك مهنة أو علاقة لا يشارك فيها أصحابها بممارسات مخفية تتنافى مع الانطباعات المرعية» هذان الاقتباسان من: (*The Presentation of Self in Everyday Life* (New York: Anchor Books, 1959), pp. 59, 64.)

obeikandl.com

للكذب شكلان؛ الإخفاء والتزوير[6]، حيث يحجب الكاذب في الإخفاء بعض المعلومات عن المتلقِّي دون قول ما هو غير صحيح فعليّاً، أما في التزوير، فتتبع ذلك خطوة أخرى، إذ لا يحجب الكاذب المعلومات الصحيحة فقط، بل يقدم معلومات غير صحيحة على أنّها كذلك. وفي كثير من الأحيان، لابدّ من الجمع بين الإخفاء والتزوير لنجاح الخداع، فقد ينجح الكاذب أحياناً بالإخفاء فقط.

لا يُعدُّ الإخفاء كذباً عند الجميع، في حين ينعت بعض الأشخاص التزوير الجريء بكلمة فعل الكذب[7]، فإذا لم يُبلغ الطبيبُ المريضَ أنّ مرضه مميت، وإذا لم يذكر الزوج لزوجته أنه قضى مدّة الغداء في نُزُلٍ مع أقرب صديقة لزوجته، وإذا لم يذكر الشرطي للمشتبه فيه أنّ هناك جهاز تنصّت يسجّل المحادثة التي تدور بينه وبين محاميه، فهم جميعاً لم ينقلوا معلومات غير صحيحة. ومع ذلك، يشير كلّ مثال سابق إلى التعريف الذي قدمته للكذب، لم يطلب المتلقّون أن يُضلَّلوا، وقد حُجِبَتِ المعلومات بتعمد دون إعطائهم إشعاراً مسبقاً بنيتهم للتضليل. لقد أُخفيت المعلومات قصداً لا عن طريق الخطأ. ولكن هناك استثناءات وأوقات لا يكون فيها الإخفاء كذباً بسبب إعطاء إشعار مسبق، أو لأنه قد تمّ الحصول على الموافقة لحدوث الخداع والتضليل.

فإذا اتفق الزّوجان على أن يمارس كلٌّ منهما علاقات جنسيّة خارج نطاق الزّوجيّة، فلا مانع – حينئذٍ – من وجود علاقات عاطفية خارج هذا النطاق، مع ضرورة إخفاء كلٍّ منهما علاقاته عن الآخر، إلّا إذا طُلب إليه عدم القيام بذلك مباشرة. حينها، لن يكون إخفاء الرذيلة التي حدثت في النُزُل كذبة. وإذا طلب المريض إلى طبيبه ألّا يعلمه بنتيجة فحوصه إذا كانت سيئة، فإنّ إخفاء تلك المعلومات لا يُعدّ كذباً. بالمقابل وبالحقّ القانوني، يحقّ للمشتبه به ومحاميه الحصول على محادثة خاصة. وعليه، يكون إخفاء انتهاك ذلك الحقّ كذباً.

عندما يكون هناك خيار لطريقة الكذب، يفضل الكاذبون دائماً الإخفاء لا التّزوير، ففي الإخفاء فوائد جمّة؛ إنّه أسهل من التزوير؛ فلا حاجة فيه إلى التّلفيق. وليست هناك فرصة للإمساك بالكاذب إلا إذا أُعدّت القصة بكاملها مقدماً. يُذكر عن أبراهام لينكولن قوله أن ذاكرته ليست جيدة بما فيه الكفاية كي يكون كذّاباً. لو قدّم الطبيب تفسيراً غير صحيح

لأعراض المرض حتى يخفي عن المريض مرضَه المميت، فعلى الطبيب تذكّر التفسير غير الصحيح الذي قدمه من قبل كي يكون هو ذاته فيما إذا سُئِل مرة أخرى عنه.

وقد يكون الإخفاء مفضلاً أيضاً؛ لأنه يبدو أكثر قبولاً من التزوير، وذلك أمر سلبيّ لا إيجابيّ، على الرغم من أنّ المتلقِّي قد يتأذى بالقدر نفسه. إنّ شعور الكاذبين بالذنب أخفّ وطأة في حال الإخفاء مقارنة بالتزوير،* فمن الممكن أن يحافظ الكاذب على الفكرة المطمئنة أنّ المتلقِّي يعلم فعلاً الحقيقة ولا يرغب في مواجهتها. يفكر مثل هذا الكاذب تفكير الزّوجة اللعوبة الآتي: على زوجي أن يعرف عن عبثي لأنه لا يسألني أين أقضي أمسياتي، وهذه الحرية في التصرف لطف مني، فأنا بالتأكيد لا أكذب عليه بشأن ما أفعل، بل سأختار عدم إهانته، بعدم إجباره على الاعتراف بعلمه عن علاقاتي.

يعدّ تغطية إخفاء الأكاذيب أكثر سهولة لاحقاً إذا ما اكتُشفت، فالكاذب لا يتمادى في زلات اللسان. وهناك الكثير من الأعذار المتاحة، كالجهل مثلاً، ونيّة البوح بالحقيقة لاحقاً، والنسيان، وما إلى ذلك. فالشخص الذي يشهد وهو تحت القسم قائلاً: على ما أذكر، يؤمّن مخرجاً إذا واجهه لاحقاً شيء ما كان قد أخفاه من قبل. وبادعاء الكاذب نسيان ما يتذكره، وحجبه المعلومات قصداً، يتبوأ موقعاً وسطاً بين الإخفاء والتزوير، حيث يحدث ذلك عندما لا يعود الكاذب قادراً على قول أيّ شيء آخر، وهذا السؤال مطروح، والتحدي قائم. بحجّة النسيان، يتجنب الكاذب اضطراره لتذكّر إفادة كاذبة، فكلّ ما عليه تذكره هو الادعاء غير الصادق بسبب ضعف ذاكرته، وإذا انكشفت الحقيقة لاحقاً، فإنّ الكاذب يستطيع الادعاء دائماً أنه لم يكذب، وأنّ ما حدث كان نتيجة قصور في ذاكرته ليس إلّا.

تبين فضيحة ووترجيت التي كانت السبب في استقالة الرئيس نيكسون إستراتيجية عدم التذكر، وبازدياد القرائن التي تكشف تورّط مساعدَي الرئاسة هـ.ر. هالدمان، وجون إرلكمان في الاقتحام والتستر، أُرغما على تقديم استقالتيهما، واستُبدل ألكسندر هيج بهالدمان بتزايد الضغوط على نيكسون. «ولم يمضِ شهر على عودة هيج إلى البيت الأبيض

* تقدم إيف سويتر وجهة نظر طريفة تشير إلى أنّ المتلقِّي قد يشعر بغضب أكبر إذا أُعلم بكذبة مخفية مقارنة بالكذبة المزورة: (إذ لا يستطيع الأشخاص التذمر بسبب تعرضهم للكذب، لذا يشعرون كما لو أنّ خصومهم قد انسلّوا من خلال ثغرة قانونية).

فـي تاريخ 1973–6–4، حتى تناقش مع نيكسون في كيفية الرّدّ على المزاعم الخطيرة التي قدمهـا جون و. ديـن المستشار القانوني السابق فـي البيت الأبيض، والتـي نصح فيها هيج نيكســون بالاستقالة، استناداً إلى الشريـط التسجيلي للنقاش الذي دار بينهما، وأصبح فيما بعد علنيّاً في أثناء التحقيق. حينها، طأطأ نيكسون رأسه بشأن هذه المزاعم وقال: لا أتذكّر ما جرى[9]».

لا يكـون النسيان جديـراً بالتصديق إلّا في ظروف محـدودة؛ لا يستطيع الطبيب الذي يُســأل عمّــا إذا كانت الفحوص سلبية الادعــاء بعدم قدرته على التذكـر. كذلك، لا يستطيع الشرطـي ادّعاء النسيان إذا سأله المشتبه به عمّــا إذا كان في الغرفة جهاز تنصُّت مخفيّ. يمكـن ادّعاء النسيان في الأمــور البسيطة فقط، أو في أمور حصلــت منذ زمن طويل مضى وانقضــى. حتى إنّ التّقــادم لا يسوّغ نسيان الأحداث غير العادية التـي يتوقع أن يتذكرها كلّ شخص بصرف النظر عن وقت حدوثها.

يفقــد الكاذب قدرته على الإخفــاء أو التزوير إذا تحداه المتلقّي، فــإذا سألتِ الزوجة زوجهــا عن مكان وجوده وقــت الغداء، فعليه اللجوء إلى التزويــر للحفاظ على سرّيّة علاقته الغرامية. ويمكن القول أنّ سؤال مائدة الطعام المعتاد: كيف كان يومك؟ هو طلب للمعلومات، ولكن يمكن التهرب منه، ويستطيع الزوج ذكر أمور أخرى بهدف إخفاء اللقاء الغراميّ، ما لم يجبره سؤال مباشر على الاختيار بين التزوير أو قول الحقيقة.

تتطلــب بعضـ الأكاذيب تزويراً من البدايــة، إذ لا يكفي الإخفاء وحــده، فلم يكن على المريضــة النفسيــة ماري إخفــاء اكتئابها وخططهــا للانتحار فقط، بل كان عليهــا أن تزوّر مشاعرهــا بطريقة أفضل، وتبدي رغبتها في قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع عائلتها. لا يمكن الكــذب بشأن خبرة قديمة الحصول علــى وظيفة من خلال الإخفاء فقط، فليس إخفاء عدم الخبــرة ضروريّاً فقط، بــل يجب أن تكون السّيــرة الوظيفيّة ملفّقة بصــورة متقنة. ويتطلب التّهرّب من حفلة مملّة دون الإساءة للمضيف تزوير عذر مقبول، كالارتباط بموعد محدّد في صبــاح اليوم التالي الباكر، أو مواجهة مشــكلات مع جليسة الأطفال أو ما شابه ذلك لإخفاء تفضيل مشاهدة التلفاز في المنزل.

obeikandl.com

يحـدث التزوير أيضاً، حتى لو كانت الكذبـة لا تتطلب ذلك مباشرة؛ لمساعدة الكاذب على تغطية أدلة ما سيُخفى. إنّ استخدام التزوير لإخفاء ما هو مخفيّ ضروريٌّ عند الحاجة إلـى إخفـاء العاطفة، فمـن السهل إخفاء عاطفـة صادقة، ولكـن الأصعب إخفـاء العاطفة الصّادقـة في لحظـة الإحساس بهـا، خصوصاً إذا كانـت هذه العاطفة قويـة، حيث إن من الصعـب إخفاء الرّهبة مقارنة بالقلق، مثلما يصعب إخفاء الغضب مقارنة بالانزعاج، فكلما كانـت العاطفـة أقوى، كان تسـرّب إحدى علاماتهـا أكثر احتمالاً علـى الرّغم من محاولات يائسـة من الـكاذب لإخفائها دون جـدوى، إنّ الادعاء بوجود عاطفة أخـرى غير صادقة قد يساعـد علـى تمويه العاطفة الصّادقة التي تُحجب، إضافة إلى أنّ تزوير عاطفة ما قد يغطي على تسرب العاطفة المخفية.

يوضـح حدث فـي رواية جون أبدايـك (تزوجيني) هذه النقطة ونِقاطـاً أخرى وصفتها سابقـاً جيري؛ زوج روث. سمع مكالمتها الهاتفية مـع عشيقها ديك. في هذه المرحلة، كانت روث قـادرة على إخفاء علاقتها مع عشيقها دون حاجة إلـى التزوير. ولكن الآن، وبعد سؤال زوجهـا لها مباشرة عليهـا أن تلجأ إلى التزوير، في حين كان غرضهـا بالكذب إبقاء زوجها جاهلاً بشأن علاقتها، تبيّن هذه الحادثة أيضاً مدى سهولة تورط العاطفة في الكذب، وكيف يحدث ذلك. وعند تورطها، يصعب إخفاء ما يجب إخفاؤه.

لقـد أخـاف جيري زوجته من خـلال سماعه صوت إغلاق السماعـة بانتهاء محادثتها مـع ديك، لقـد كانت تعتقد أنّ زوجها يعمل فـي حديقة المنزل الخلفيـة. وعندما هَمَّ جيري بالخـروج من المطبـخ سألها: من كان على الهاتف؟ ذُعـرت روث: آه، أحدهم، امرأة ما من مدرسة الأحد تسأل ما إذا كنا سنسجّل جوانا وتشارلي في المدرسة[10].

لا يُعـدّ الذعـر بحدّ ذاته دليلاً على الكذب، ولكنه سيوقع جيري في براثن الشّكّ إذا ما لاحظـه؛ لأنه سيظـنّ أنّ روث لم تكن لتخف لو لم يكن لديها ما تخفيه. قد يخاف الأشخاص عنـد استجوابهم في حين أنهـم بريئون تماماً، أمّا المحققون فـلا يهتمون لذلك عادة، لكنّ الوضـع الـذي وقعت به روث بالغ الصعوبـة؛ لأنّ عدم توقع الحاجة إلـى التزوير يجعلها غير مستعـدة لاستجابتها التالية، وبسبب المأزِق الـذي تورطت به، ينتابها الذّعر لفكرة افتضاح أمرهـا، ولمـا كان إخفاء الذعر صعبـاً جدّاً، فإنّ ذلك يزيد من فرصـة إثبات شكوك جيري

obeikandi.com

لهـا بالخيانة. يمكنها تجريب حيلة محاولة الصدق حيال مشاعرها؛ فالمرجّح أنها لن تكون قـادرة علـى إخفاء ذلك، والكـذب بدلاً من ذلك بشـأن ما تسبب بتلـك المشاعر. وتستطيع الاعتـراف بالذعـر والادعاء أنها شعرت به لأنها تخـاف ألّا يُصدّقها، لا لأنّ هناك ما تخفيه عنه.

لا يحتمـل أن تنجـح روث إلا إذا كان هناك تاريخٌ سابقٌ طويـلٌ لأحداث لم يُصدِّق فيها جيـري زوجته، وثبت لاحقاً براءتها فيها، وبذكرها اتهامات جيـري غير المعقولة لها سابقاً في هذه الحالة، ربما يمكنها صرفه عن ملاحقتها بالأسئلة.

ربمـا لـن تنجح روث إذا حاولت أن تبدو هادئة، ووجهها جامد غير متأثر بتاتاً، فعندما تبدأ يدها بالارتعاش يكون من الأسهل شغلها بشيء ما، كأن تشكّل قبضة بها، أو تطويها بدلاً مـن تركها متدلية وساكنة. وعندما تضيق الشفـاه وتتوسع، وترتفع الجفون والحواجب العليا بسبـب الخوف، يصبح مـن الصعب الحفاظ على وجـه ساكن، ويمكن إخفـاء هذه التعابير إخفـاءً أفضـل من خـلال إضافة حركات عضـلات أخرى لهـا، مثل صرّ الأسنـان، وضغط الشفاه، وخفض الحاجب، والحملقة.

إنّ الطريقـة المثلى لإخفاء العواطـف القوية إلباسُها قناعـاً، إذ لا يمكن تغطية الوجه أو جـزء منـه باليـد، أو إشاحة الوجه عـن الشخص الذي تتحدث معـه دون وجود كذبة ما، والقنـاع الأفضل في مثل هذه الحالة هـو العاطفة الزائفة؛ فهي لا تضلّل فقط، بل تُعدّ أفضل تمويـه. حيث من الصعب المحافظة على الوجه جامدا، أو الأيدي ساكنة عندما تكون إحدى العواطـف صادقة بقوة، ويصعب كذلـك المحافظة على مظاهر الجمود والهدوء أو الاعتدال عندمـا تكون العاطفـة صادقة، ويكون من الأسهـل التوقف، أو مواجهـة مجموعة أخرى من حركات تعابير العاطفة الصّادقة.

وبعـد لحظات في قصة أبدايك، يخبر جيري زوجته أنـه لا يصدقها، يفترض أن يزيد ذلـك في ذعرها، ويجعل إخفـاءه أصعب. يمكنها اللجـوء إلى الغضـب أو المفاجأة بإلباس خوفهـا قناعاً؛ يمكنها تحدي جيري بغضب لعدم تصديقه إياها، والتّلصّص عليها، ويمكنها كذلك أن تبدو مندهشة لعدم تصديقه، وأنه كان يصغي خلسة إلى محادثتها.

لا تسمح الحالات جميعها للكاذب بتغطية الشعور الذي يحسّ فيه، وتتطلب بعض الأكاذيب مهمة إخفاء المشاعر الأكثر صعوبة دون تزوير. وقد وصف عزرا وايزمان – وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق – صعوبة مثل هذا الوضع.

عُقدت محادثات عسكرية بين إسرائيل والمصريين لإطلاق المفاوضات بعد زيارة أنور السادات المفاجئة للقدس. وخلال إحدى جلسات المفاوضات، قال محمد الجَمَسي رئيس الوفد المصري المفاوض لوايزمان: إنه قد علم توّاً أنّ الإسرائيليين يقيمون مستوطنة أخرى في سيناء، يعلم وايزمان أنّ مثل هذا العمل قد يعرّض المفاوضات للخطر؛ حيث إنّ موضوع احتفاظ إسرائيل بأيّ من المستوطنات الحالية ما يزال موضع خلاف.

يقول وايزمان: لقد كنت غاضباً جدّاً، على الرغم من عدم إمكانيتي في التنفيس عنه أمام الآخرين، فقد كنّا نناقش الترتيبات الأمنية، محاولين دفع عربة السلام دفعة قصيرة إلى الأمام، وبدل أن يدرك زملائي في القدس أخطار بناء المستوطنات الزائفة، كانوا يشيدون واحدة في الساعة التي دارت فيها المفاوضات[11]».

لم يكن وايزمان يسمح لغضبه على زملائه في القدس بالظهور، فأتاح له إخفاء هذا الغضب أيضاً إخفاء أن زملاءه في القدس لم يشاوروه، وكان عليه إخفاء مشاعر قوية دون تمكنه من استخدام أيّ مشاعر أخرى قناعاً لها، ولن يفيد التظاهر بالسعادة، أو الخوف، أو الأسى، أو المفاجأة، أو الاشمئزاز؛ وكان عليه الظهور بمظهر اليقظة والفتور، وألّا يقدّم ما يدلّ على أنّ معلومات الجمسي كانت مهمة؛ ولكن كتابه لا يفيد أنه قد نجح في ذلك.

تعد لعبة ورق الشّدّة (البوكر) حالة أخرى، لا يمكن استخدام الأقنعة فيها لإخفاء عواطف اللاعبين؛ فعندما يصبح لاعب ما حماسيّاً تجاه احتمال الفوز بمبلغٍ ماليٍّ كبير بسبب الأوراق التي سحبها، فإنّ عليه إخفاء أيّ علامة على سعادته حتى لا يحجم اللاعبون الآخرون عن اللعب، وستكون التغطية بأيّ عاطفة أخرى خطيرة. وإذا حاول إخفاء سعادته، كأن يبدو خائب الأمل أو منزعجاً، فسوف يظن الآخرون أنه قد سحب ورقة غير رابحة، ويتوقعون منه الانسحاب وليس البقاء في اللعبة. وعلى وجهه أن يبدو خالياً من العاطفة.

وإذا قرّر إخفاء خيبة أمله أو انزعاجه من الأوراق غير الرابحة التي سحبها، من خلال الخداع ومحاولة إجبار الآخرين على الانسحاب، فلربما استطاع لبس قناع لذلك. وبتزوير السعادة والإثارة، يستطيع إخفاء خيبة أمله، وإضافة انطباع أنّ لديه أوراقاً رابحة جيدة. ولكنّ اللاعبين الآخرين لن تنطلي عليهم هذه الحيلة إلا إذا عدّوه لاعباً مبتدئاً. يفترض أن يتقن لاعب البوكر الخبير موهبة إظهار العاطفه تجاه أوراقه المسحوبة.* (إنّ عدم الصدق في لعبة البوكر والإخفاء والخداع لا يتناسب مع تعريف الكذب الذي قدمته، فلا أحد يتوقع أن يكشف لاعبو البوكر الأوراق التي يسحبونها، إذ إنّ اللعبة نفسها تقدم إشعارات مسبقة تفيد بمحاولة تضليل اللاعبين بعضهم بعضاً).

يمكن تزوير أيّ عاطفة تساعد على إخفاء عاطفة أخرى، وتعد الابتسامة القناع الأكثر استخداماً، فهي نقيض للعواطف السلبية جميعها؛ كالخوف، والغضب، والأسى، والاشمئزاز، وما إلى ذلك. ويتم اختيارها عادة؛ لأنّ بعض أنواع السعادة هي الرسالة المطلوبة لجعل أكثر الخدع تنطلي على الآخرين، وعلى الموظف الذي يشعر بخيبة أمل الابتسام إذا كان يريد التّمويه على مديره أنه غير مبالٍ، أو أنه ليس غاضباً حيال تخطيه في الترقية. وباللجوء إلى مبادرة حُسن نية في أثناء انتقاداتها الجارحة، على الصديقة القاسية التوقف والاستعاضة بابتسامة المهتم.

والسبب الآخر لاستخدام الابتسام بكثرة في الإخفاء يعود إلى أنّه جزء من التحية المتعارف عليها، وهو مطلوب بكثرة في معظم التعاملات التي تتسم بالكياسة، فإذا شعر شخص ما بشعور سيّئ، فليس عليه عادة إظهاره أو التصريح به عند الرّدّ على تحية الآخرين. وبدلاً من ذلك، يفترض به إخفاء مشاعره السيئة بابتسامة مهذّبة لترافق عبارة: أنا بخير، شكراً، ردّاً على سؤال: كيف حالك اليوم؟

* في دراسة لاعبي البوكر، يصف ديفيد هايانو نمطاً آخر يُستخدم من قبل المحترفين؛ حيث يعمد هؤلاء إلى الدردشة المتحركة باستمرار طوال اللعب لجعل خصومهم يشعرون بالقلق والتوتر .... وقول الحقائق على أنها أكاذيب وقول الأكاذيب على أنها حقائق. إضافة إلى حركات الأداء اللفظي، والثرثرة، واللفتات المصطنعة المبالغ فيها... وكما وصفت أحد اللاعبين من هذا الطراز بالقول: يقوم بحركات أكثر مما تقوم بها راقصة شرقية. («بوكر أكاذيب وحكايات» سلوك الإنسان، مارس 1979، ص 20).

ويرجـح ألّا تنكشف العاطفة الحقيقية، ليس لأنّ الابتسامة قناعٌ جيّد، ولكن لأنّ اهتمام الأشخاص في التعاملات التي تتسم بالكياسة نادراً ما تهتمّ بشعور الشخص الآخر، وكلّ ما هـو متوقع التظاهر بالمحبة واللطـف؛ لأنّ الآخرين قليلاً ما يعيرون هذه الابتسامات أهمية، وهـم معتادون صرف الطرف عـن الأكاذيب في سياق التعاملات المهذبة، فقد يرى بعضهم أنّ من الخطأ تسميتها بالأكاذيب؛ لأنّ القواعد الضمنية لمثل هذه المواقف الاجتماعية التي تتسم بالكياسة تشير إلى أنّ العاطفة الحقيقية لن تُقدَّم على حقيقتها من قبل الآخرين.

وهنـاك سبب آخر في أنّ الابتسام قنـاع شائع الاستخدام هو سهولة التّحكّم في تعابير الوجه إراديّاً، يبتسم الأطفال عن قصد قبل أن يكملوا السنة من عمرهم. تعدّ الابتسامة من السلـوكات المبكرة التي يلجـأ إليها الأطفال عن قصد لإرضـاء الآخرين. تقدم الابتسامات الاجتماعيـة غير الصادقة العاطفـة المطلوبة أو التي يعدّ إظهارها مفيداً، وليس ما يشعر به المبتسـم حقيقة. ويمكن ارتكاب الأخطاء في توقيت الابتسامات التي لا يشعر بها الشخص؛ فقـد تكون سريعة جدّاً أو بطيئـة جدّاً، وقد تكون الأخطاء واضحة أيضاً في مكان الابتسامة. فقـد تحدث باكـراً قبل قول الكلمة أو العبارة التي يجـب أن ترافقها أو بعدها، ولكن حركات الابتسامة بحد ذاتها سهلة، بعكس تعابير العواطف الأخرى.

مـن الصعب تزويـر العواطف السلبية لـدى معظم الأشخاص، فقـد وجدت من خلال البحـث الذي أجريته، والـوارد في الفصل الخامس، أنّ معظـم الأشخاص غير قادرين على تحريك العضـلات المطلوبة لتزوير الخوف والأسى بصورة حقيقية إراديّاً، علاوة على ذلك يُعـدّ إظهار مشاعـر الغضب والاشمئزاز أكثـر سهولة عندما لا يشعـر الشخص فيها، ولكن الأخطاء تقترف في ذلك، وإذا تطلب الكذب تزوير عاطفة سلبية بدلاً من الابتسام، فقد يجد المخـادع في ذلك صعوبة، ولكن هنـاك استثنـاءات لذلك. لقد كان هتلر ممثلاً قديراً وقادراً على تزوير العاطفة السلبية بإقناع وبسهولة.

فقد بدا هتلر في اجتماعه مع السفير البريطاني غاضباً وغير قادر على مناقشة الأمور أكثـر من ذلك، وقد أفاد مسـؤول ألماني كان موجودا في المكان قائـلاً: حال خروج السفير مـن المكان ربّت هتلر على فخـذه وضحك قائلاً: لن يكون تشامبرلين قادراً على متابعة هذه الحادثة، وسوف تسقط وزارته هذا المساء[12]».

هنــاك طرق أخــرى للكذب إضافــة إلى الإخفــاء والتزوير، وقد اقترحــت واحدة منها بالفعل، تمثلت في التفكير بما يمكن أن تقوم فيه روث للمحافظة على خداعها على الرغم من ذعرها بسبب المحادثة الهاتفية التي سمعها زوجها فيها في رواية جون أبدايك (**تزوجيني**). فبــدلاً مــن محاولة إخفاء الذعــر الذي يعدّ أمــراً صعباً، يمكنها الاعتــراف بالذعر والكذب بسببه، وبتزوير تحديد سبب وجود تلك العاطفة، يمكنها الادعاء بالبراءة التامة، وعزو سبب ذعرها إلى خشيتها من عدم تصديق جيري لها. لو سأل المحلل النفسي المريضة ماري عن سبب توتّرها، يمكنها مثــلاً التسليم بشعورها بالذّعر، ولكنها تستطيع تزوير تحديد مسببه، بقولهــا: أنا متوتــرة لأنني أرغب بشدة في قضــاء الوقت مع عائلتي ثانيــة. إنّ الصدق حيال الشعور الذي نحسّ به يضلّل الكذب بشأن سبب وجوده.

أمــا التقنية الأخرى ذات الصلة، فهي قول الحقيقة مــع قليل من التحريف، كي تنطلي علــى المتلقّي؛ الحقيقــة المزوّرة. فعندما سأل جيري روث عــن الشخص الذي هاتفها، كان بإمكانها الردّ بما يأتي: آه، لقد كنت أتحدث مع حبيبي، فهو يتصل كلّ ساعة. ولمّا كنّا نلتقي ثلاث مرات في اليوم، فلا بدّ لنا من التواصل باستمرار لترتيب اللقاء، قد تجعل المبالغة في الحقيقة تساؤل جيري يبدو سخيفاً، مما يجعل متابعته لشكوكه أمراً صعباً، ويمكن للأسلوب التهكمــي إحداث التأثير نفسه. وقد وُصف المثال الآخر على قول الحقيقة المزورة في كتاب روبــرت دالي، والفيلم الذي اقتبــس منه «**أمير المدينة: القصــة الحقيقية للشرطي الذي عرف الكثير**»، وكما يدعي العنوان الفرعي، هذا واقع حقيقي وليس خيالاً.

روبــرت لوسي؛ شرطيّ أصبح مخبــراً سريّاً فيما بعد، ويعمــل لمصلحة المدعي العام للحصــول علــى قرائن وجود فساد إجرامي بين رجال الشرطــة، والمحامين، ووكلاء إطلاق السراح المشــروط، ومروجي المخدرات، وأعضاء المافيا. وقــد حصل على معظم القرائن مسجلــة علــى شريط مخفي في ملابسه. في لحظة ما، تمّ الشّــكّ بلوسي على أنّه مخبر. فلو أُمسك به وهو موصول بجهاز التنصت فستكون حياته في خطر. يتحدث لوسي مع ديستيفانو أحد المجرمين الذي كان يحاول الحصول على قرائن تدينه: دعنا نجلس بعيداً عن الحاكي (الفونوغراف) الليلة لأني لا أستطيع الحصول على صوت واضح.

ديستيفانو: هذا ليس مضحكاً.

يبدأ لوسي بالتّظاهر أنه يعمل مع الحكومة، وكذلك النادلة في نهاية الغرفة، والتي تضع جهاز إرسالها في.....

ضحك الجميع، ولكن ضحكة ديستيفانو كانت باهتة[13]».

هزأ لوسي من ديستيفانو، وأخبره بوقاحة بالحقيقة؛ إنّه لا يستطيع الحصول على تسجيل واضح بجانب الفونوغواف، وأنه يعمل لدى الحكومة. من خلال الاعتراف بذلك بصراحة تامة، ومن خلال المزاح حيال وضع النادلة لجهاز تسجيل أيضاً في صدريتّها، جعل لوسي متابعة ديستيفانو لشكوكه أمراً صعباً دون أن يبدو غبيّاً.

إنّ نصف الإخفاء هو قول الحقيقة مزورة. فقد قيلت الحقيقة جزئيّاً، فالتصريح المقتضب، أو عدم ذكر العبارة الأهم، يتيح للكاذب المحافظة على الخداع دون قول ما هو غير صادق. وبعد الحالة التي اقتبستها من كتاب (**تزوجيني**)، يعانق جيري زوجته في المساء، ويسألها عن اسم عشيقها. تجيب: أحبك أنت، وكذلك جميع الحمام على الشجرة، وكلاب البلدة جميعها ما عدا التي تعبث بحاوية النّفايات خاصتنا، والقطط جميعها باستثناء القطّ الذي يجعل قطتي حبلى. أحب أيضاً رجال الإنقاذ عند الشاطئ، وشرطة وسط المدينة ما عدا الذي صاح بوجهي عندما استدرت في الشارع، وأحب كذلك بعض أصدقائنا الفظيعين وخصوصاً عندما أثمل....

وما مدى محبتك لـ ديك ماثياس؟

لا بأس به[14].

والتقنية الأخرى التي تتيح للكاذب تجنب قولّ أيّ شيء غير صحيح هي تقنية خدعة الاستدلال الزّائف؛ قدم أحد كتاب الأعمدة في إحدى الصحف تفسيراً مضحكاً لكيفية استخدام هذه الخدعة لحلّ مشكلة مألوفة، بما يجب أن يقال عندما لا يعجبك عمل زميل لك. لنفترض حضورك افتتاح معرض فني لأحد زملائك – على افتراض أن اسمه جيري – وترى أنّ رسومه قبيحة، ولكن قبل أن تسلك طريقك إلى الخارج، يندفع زميلك مستفسراً عن رأيك بلوحاته.

obeikandl.com

فتقــول: جيــري، وتحملق بعمق بعينيه كمــا لو غلبتك العاطفة، جيــري، جيري، جيري، وتسكــت. وتشــدّ على يده، وتحافـظ على تواصل عينيــك بعينيه. حينهــا، أراهنك أن جيري سيفلت يده من يدك، ويتمتم بعبارة أو اثنتين ويتحرك مبتعداً..... هناك احتمال لفهم أكثر مــن شيء بهذا السلوك؛ فهناك نغمة الناقد الفنــي المرتفعة بضمير الغائب ذات الخطوتين مثــل: جيري، جيــر – ري. ماذا يمكــن أن أقــول؟ أو النغمة المنخفضــة المخادعة: جيري، أنــا عاجــز عن الوصــف. أو الصيغة الأكثر سخريــة: جيري، كلّ شخص يتكلــم عن عملك، كلّ شخــص[15]. تكمن أهميّة هــذه المناورة، مثل نصف الإخفاء والحقيقــة المزوّرة، في أن الكاذب غير مجبر على قول أيّ شيء غير صادق، ولكنني أراها أكاذيب على الرغم من ذلك؛ لأنّ هناك محاولة متعمدة لتضليل الضحية دون إشعارها مسبقاً بذلك.

يمكــن فضــح أيّ من هذه الأكاذيب مــن خلال بعض جوانب سلــوك المخادع؛ فللخداع نوعان من القرائن، قد يكشف الخطأ الحقيقة أو قد يشير إلى أنّ ما قيل أو ظهر غير صحيح دون كشــف الحقيقــة. فعندما يكشف الــكاذب بطريق الخطــأ الحقيقة، أدعو ذلــك تسرّباً. وعندما يشير سلوك الكاذب إلى كذبه دون كشف الحقيقة، أدعو ذلك دليل خداع.

فلــو لاحظ طبيب مــاري أنها تفــرك يديها عندما كانــت تخبره بتحسّــن حالها، لكان لديــه دليــل على خداعهــا وسبب للريبة في كذبهــا، ولكنه لن يعرف حقيقــة شعورها، فربما كانــت مستاءة من المستشفــى، أو من نفسها، أو خائفة بشأن مستقبلهــا، إلا إذا علم بوجود تســرّب مــا، مثل تعبير وجه، أو نبرة صوت، أو زلة لسان، أو إيماءة معينة قد تشي بمشاعرها الحقيقية.

يجيــب دليل الخداع عن ســؤال ما إذا كان الشخص كاذبــاً أم لا، على الرغم من عدم كشفــه لما هو مخفــيّ. والتسرب فقط هو القــادر على كشف ما خفي. ولكــن ذلك غير مهم فــي كثير من الأحيان. وعندما يكون الســؤال عمّا إذا كان الشخص كاذباً أم صادقاً بدلاً من عمّــا هــو مخفي، يكون دليل الخداع جيــداً وليست هناك حاجة إلى التســرّب. ويمكن معرفة المعلومات التي جرى إخفاؤها، أو المعلومات غير المرتبطة، إذا أحسّ ربّ العمل بوجود دليل خــداع يفيد أنّ مقدم الطلب يكذب، فقد يكون ذلك كافياً، ولن تكون هناك حاجة إلى تسرّب ما يجري إخفاؤه لاتخاذ قرار بعدم تعيين مقدم الطلب الذي يكذب.

ولكـن ذلـك ليس كافياً دائماً، وربمـا تكون معرفة المخفي بالتحديـد مهمة، فقد يكون اكتشـاف الموظـف الموثوق بـه هو المختلس غيـر كافٍ، فربمـا يشير دليل الخـداع إلى أنّ الموظـف قد كذب؛ وربما يؤدي ذلك إلى مواجهته واعترافه. وحتى بعد تسوية الأمر وصرف الموظـف وانتهـاء المحاكمـة، قد يكـون ربّ العمـل ما زال يبحث عـن تسـرّب، وربما يكون ساعيـاً لمعرفـة كيف قام هذا الموظف بفعلته، وماذا فعل بالنقـود التي اختلسها، لو اكتشف تشامبرلين قرائن الخداع لدى هتلر لعرف أنه يكذب، وربما يكون ذلك في تلك الحالة مفيداً في الحصول على تسرّب بشأن خططه في الغزو، وإلى أيّ مدى كان ينوي الذهاب في خططه الحربيـة. يقدم التسرّب أحياناً جزءاً من المعلومة التي يريد المتلقّي معرفتها، ويفضح أكثر من دليل الخداع، ولكنه لا يكشف كلّ ما خفي، تذكّر ما حدث لروث عندما ذُعرت غير متأكدة من القدر الذي سمعه زوجها من حديثها الهاتفي مع عشيقها.

لربمـا كانـت قادرة علـى القيام بشـيء يفضح ذُعرهـا، وارتجاف شفتيهـا أو جفنيها العلوييـن عندما سألها جيري عن المكالمة التي استقبلتها. وبالنظر إلى السياق، ربما يشير تلميح الذعر إلى كذب روث، وإلى قلقها حيال هذا السؤال، ولكن هذه القرينة لن تنفع جيري فـي معرفة ما كانت روث تكذب بشأنـه، أو مع من كانت تتحدث، لقد حصل جيري على جزء من تلك المعلومة من التسرب الذي تمثّل بصوت روث:

.... لقد كانت نبرة صوتك، (يفسر جيري لروث لماذا لا يصدق تفسيرها حيال من كان معها على الهاتف).

فتجيب: حقّاً، وكيف ذلك؟ وأرادت أن تقهقه.

حـدّق جيـري في الفضاء كما لـو كان يشاهد منظراً جميلاً، وبدا ما يحـدّق فيه شابّاً، نحيلاً، قصيرَ الشّعر. (لقد كان مختلفاً) أكمل جيري: .. أكثر دفئاً، كان صوت امرأة.

روث: أنا امرأة.

جيـري: عندمـا تتحدثين معي، يبدو صوتـك صبيانيّاً تماماً[16]. ثم قـال بعد تفكير: لا يتناسـب الصـوت الذي تحدثت به في الهاتـف مع معلمة مدرسة الأحد، بـل يصلح للتحدث مـع عشيق، يتسرب لجيـري أنّ خداعها ربما يشـي بوجود علاقة غراميّة، ولكـن التّسرّب لا يشـي بالحقيقة كاملة. لا يعرف جيـري ما إذا كانت العلاقة توشك أن تبدأ أو أنها بدأت منذ

obeikandi.com

مدة، ولا يعرف أيضاً من هو العشيق، ولكنه يعرف أكثر مما يمكن أن يعرفه من مجرد قرينة خـداع تشير إلى أنها تكذب. لقد عرّفت الكذب بوصفه خياراً مقصوداً لتضليل المتلقِّي، دون إعطـاء إشعار مسبق للقيـام بذلك، وأنّ للكذب شكلين رئيسين: الإخفاء والتزوير، ففي حين يعنـي الإخفاء حجب معلومـات صحيحة، فإنّ التزوير يشير إلى تقديـم معلومات زائفة على أنّهـا حقيقية، وتشتمل طـرق الكذب الأخرى على: سوء التوجيـه، أو الإقرار بالمشاعر ولكن إخفـاء مـا يسببها، وقول الحقيقـة مزورة، أو الإقـرار بالحقيقة المبالغ فيهـا، أو نكتة تبقي المتلقِّـي مضلَّلاً أو غيـر عالم، أو نصف الإخفـاء، أو الاعتراف بجزء مـن الصدق لصرف اهتمـام المتلقِّي عمـا بقي مخفياً، وخدعة الاستـدلال غير الصحيح، أو قـول الصدق ولكن بطريقـة تنطوي علـى عكس ما قيل، وذكرنا أيضـاً نوعين من قرائن الخـداع، هما التسرّب ودلائل الخداع؛ فالتسرّب يعني قول الحقيقة عن طريق خطأ من الكاذب. في حين يشير دليل الخداع إلى معرفة كذب الكاذب عن طريق سلوكه دون كشف الحقيقة.

يُعد التسرب ودلائل الخداع أخطاء، وهي لا تحدث دائماً، إذ لا تنكشف الأكاذيب كلّها. ويفسر الفصل التالي سبب انكشاف بعضها.

openkandil.com

الفصل الثالث

لماذا لا تنطلي الأكاذيب؟

لا تنطلي الأكاذيب على الآخرين لأسباب عدّة؛ فقد تكتشف ضحية الخداع بالمصادفة دليلاً على الكذب، كوثائق مخبأة، أو آثار أحمر شفاه على منديل الزوج، أو قد يفضح المخادعَ زميلٌ حسود، أو زوج تمّ التخلي عنه، أو مخبر مُستأجَر، وهذه جميعها مصادر رئيسة للكشف عن الخداع. ولكن ما يهمنا هو الأخطاء المقترفة في أثناء عملية الكذب، الأخطاء التي يرتكبها الكاذب على الرغم منه؛ فسلوكه قد يوقعه، وقد تظهر عليه دلائل خداع، أو تسرب. مثال ذلك، تغيــر في تعابير الوجه، أو حركة الجسم، أو نبرة الصوت، أو تورّم في الحلق، أو تنفس عميق أو سطحي، أو وقفات طويلة في أثناء الحديث، أو زلات لسان، أو تعبير دقيق جدّاً في الوجه، أو إيماءة منسلّة. والسؤال هو: لِمَ لا يستطيع الكاذبون منع هذه الزّلّات السلوكية من الظهور؟ قــد يفعلون ذلك أحياناً، فبعض الأكاذيب تُؤدّى بإتقان، فلا يفضــح الكذبة شيء مما يقوله الكاذب أو يفعله، ولكن ذلك ليس ديدن الأكاذيب جميعها. لذلك سببان هما: التفكير والشعور.

عبارات سيئة

لا يتوقــع الكاذبــون الوقت الذي يحتاجــون فيه إلى الكذب. وفي العــادة، لا يكون هناك وقت لتحضير العبارة المراد قولها والتدرّب عليها وحفظها. روث مثلاً، لم تتوقع في الحادثة التــي استشهــدت بها في روايــة أبدايك (**تزوجينــي**) أن يسمعها زوجها تتحــدث بالهاتف مع عشيقها.

فتفضحها قصة التحايل التي تخترعها، وما تقوله: إن الاتصال من معلمة في مدرسة الأحد تسأل بشأن تسجيل ولديها فيها في الحال؛ لأنها لا تتناسب مع ما سمعه زوجها من حديث بينها وبين عشيقها.

ربما لا يكون الكاذب ذكيّاً بتوقع الأسئلة التي يمكن أن تُطرح عليه جميعها، فيفكر في إجابات، ويلفّق عبارات كاذبة بعناية، حتى بوجود إشعار مسبق. وحتى الذكاء قد لا يكون كافياً؛ لأنّ التغييرات غير الملحوظة في ظروف معينة قد تكون كاشفة لكذبه، ففي أثناء التحقيق في قضية ووترجيت، وصف القاضي الاتحاديّ (الفيدرالي) جون ج. سيريكا مثل هذه المشكلة في تفسيره لردود فعله على شهادة فريد بزهارت المستشار الخاص للرئيس نيكسون: أول مشكلة واجهها فريد بزهارت في محاولته تفسير سبب غياب الأشرطة هو جعل إفادته متّسقة. في يوم افتتاح الجلسة، ذكر بزهارت عدم وجود أشرطة اجتماع الرئيس الذي جرى في 15 من إبريل مع دين؛ لأنّ المؤقت فشل في التسجيل، ولكنه راجع تفسيره قبل فوات الأوان (فقد علم أنّ بعض القرائن التي قد تنكشف يمكنها بيان أنّ المؤقتات كانت في الواقع على ما يُرام) فقال: إنه لم يُسجَّل لقاء الرئيس مع دين في 15/4؛ بسبب امتلاء الشريطين المتوافرين بعد مضي نهار حافل من الاجتماعات المسجلة[1]، وحتى عندما لا يجبر الكاذب على تغيير عباراته على وفق الظروف، فقد يفشل بعض الكاذبين في تذكّر العبارات التي ألزموا أنفسهم بها سابقاً؛ بحيث يكون هناك تناقض بين الإفادتين؛ السابقة والحالية على الأسئلة نفسها.

ينتجُ – من أيّ إخفاق في توقع وقت الحاجة إلى الكذب، وعدم القدرة على تلفيق عبارة مناسبة لتغير الظروف، وعدم القدرة على تذكر الإفادة التي تبنّاها الشخص من قبل– قرائنُ خداعٍ يمكن اكتشافها بسهولة، إنّ ما يقوله الكاذب قد لا يوافق بعضه بعضاً، أو قد يتناقض مع الحقائق الرّاهنة، أو التي تُكْتَشَفُ لاحقاً.

لا تكون القرائن الواضحة على الخداع دائماً موثوقة ومباشرة كما تبدو، وربما دلت العبارة السلسة جدّاً على وجود رجل مخادع متدرب جدّاً، ولجعل الأمور أكثر سوءاً، قد يرتكب بعض الرجال المخادعين أخطاءً صغيرة عن قصد حتى لا تبدو الكذبة سلسة جدّاً.

وصف المحقق الصحفي جيمس فيلان حادثة مذهلة لهذه الحيلة في تفسيره لخدعة السيرة الذّاتية الخاصة بهاورد هيوز.

لـم يَرَ أحد هيوز منذ سنوات، فأضاف ذلك المزيد من انبهار الجمهور بهذا المليونير الـذي أنتج أفلاماً، وامتلك شركة طيران وأكبر بيـت للقمار في لاس فيغاس أيضاً، لم يظهر هيـوز منـذ مدة طويلة، ما جعل بعضهـم يتساءل عمّا إذا كان الرجل حيّـاً أم ميتاً، وكان من المذهـل أن يوكل شخص منعزل لهذه الدرجة لكتابـة سيرته الذّاتية، ومع ذلك، فإنّ هذا ما ادعـى كليفورد إيرفنج إنتاجه، لقد دفع ماكجرو هيل لإيرفنـج سبع مئة وخمسين ألف دولار لنشـر السيرة، في حيـن دفعت مجلة **الحيـاة** مئتين وخمسين ألـف دولار لنشر ثلاثة أجزاء منهـا، وتبين فيما بعـد أنها مزيفة! لقد كان كليفورد إيرفنـج «.... شخصاً مخادعاً عظيماً، بـل أكثرهم دهـاء. وإليكم مثالاً على ذلك: عندما استجوبنا الرجـل محاولين الحصول منه على اعتراف بالتّزييف، لم يسرد قصته بالطريقة نفسها في كلّ مرة. بل كان فيها اختلافات يسيـرة، وعندما نقع على خطأ ما يعترف بـه بصراحة. يُعِدّ الرجلُ المخادعُ متوسطُ الحنكة قصتَـه بدقّـة كي يستطيع سردهـا أكثر من مرّة كما رواها من قَبْـل. يرتكب الرجل الصادق القليـل من الأخطاء وخصوصـاً فيما يتعلق بقصة طويلة ومعقدة مثـل قصة كليف، لقد كان كليـف ذكيّـاً، فقد عرف ذلك وقـدم انتحالاً رائعاً لرجـل صادق، وعندما كنـا نمسك بشيء يبـدو مُديناً له، كان يقول بصراحة: غريـب، إنّ ذلك يسيء لي، أليس كذلك؟ ولكن هذه هي الطريقـة التي سلكها. لقد نقل لنا صورة كونه صريحاً حتى لو ضرّه ذلك، في حين كان يلفّق كذبـة تلو أخرى[2]». لا توجد هنـاك وسيلة ضد مثل هذا الذكاء؛ فمعظم الرجال المخادعين المهرة ينجحون بخدعهم، إضافة إلى أن معظم الكاذبين ليسوا مراوغين.

قد ينجم عن عدم الاستعداد أو الإخفاق في تذكر عبارة تبناها الكاذب سابقاً، قرائنُ خداع لكيفية سرد العبارة حتى لو انعدم الاتساق فيما يُقال، وقد تكون الحاجةُ إلى التفكير في كلّ كلمة قبل نطقها، ووزن الاحتمالات، أو البحث عن كلمة أو فكرة، واضحةً في الوقفات عند الحديث، أو بدقة أكبر في شدّ الجفن السفلي أو الحاجب، وبعض تغييرات الإيماء، (كل ذلك موضح بالتفصيل في الفصلين الرابع والخامس)، ولكن لا يُعدّ التفكير بكلّ كلمة بعناية قبل نطقها علامة على الخداع دائماً، ولكنها كذلك في بعض الظروف، فعندما سأل

جيري زوجته روث عن الشخص الذي كانت تتحدث معه على الهاتف، فقد تشير أيّ علامة لاختيارها الكلمات بعناية إلى أنها كانت تكذب.

الكذب بشأن العواطف

إنّ الإخفاق في التفكير مقدماً، والتخطيط الكامل، والتدرب على العبارة المزيفة من أحد الأسباب التي ترتكب فيها الأخطاء التي تقدم قرائن الخداع عند الكذب، وترتكب الأخطاء أيضاً بسبب صعوبة إخفاء تصوير العواطف أو تزويرها، فلا تنطوي الأكاذيب جميعها على العواطف، ولكن التي تنطوي منها على العواطف تتسبب في مشكلات خاصة للكاذب، فمن الممكن محاولة إخفاء العواطف عند الإحساس بها بالكلمات، باستثناء زلات اللسان التي لا يمكن تجنبها وتزويرها. وما لم تكن هناك رغبة في الاعتراف بالشعور، فعلى الكاذب عدم صياغة العاطفة المخفية بالكلمات. وبذلك تكون خياراته أقلّ في إخفاء تعبير الوجه، أو التنفس السريع، أو التشديد في الصوت.

عندما تُستثار العاطفة، تحدث التغيرات تلقائيّاً دون اختيار أو تعمد، وتبدأ هذه التغيرات بجزء من الثانية فقط؛ ففي قصة (**تزوجيني**)، عندما يتهم جيري روث بالكذب، لا تجد روث مشكلة في إيقاف ردّها: نعم، ذلك صحيح، من الانطلاق من بين شفتيها، ولكن الخوف يتملّكها بسبب ذعرها بشأن فضح علاقتها، وهذا يؤدي إلى ظهور علامات مرئية ومسموعة، فهي لم تختر الشعور بالذعر، ولا تستطيع اختيار إيقاف الشعور بالكذب، فذلك خارج عن نطاق سيطرتها. وأعتقد، أنّ ذلك أساسي في طبيعة التجربة العاطفية.

لا يختار الأشخاص وقت شعورهم بالعاطفة. وفي العادة، يختبرون بدلاً من ذلك وقعها السلبي عند حدوثها معهم، وفي حالة العواطف السلبية، كعاطفة الخوف أو الغضب، فقد تحدث على الرغم منهم، لا يقتصر الأمر على قلة الخيارات بوقت الشعور بالعاطفة، ولكنّ الأشخاص يشعرون عادة بعدم وجود خيارات كافية عمّا إذا كانت العلامات التعبيرية للعاطفة ظاهرة للآخرين أم لا، فلم تستطع روث ببساطة أن تتخلص من أيّ من علامات ذعرها، إذ لا يوجد زرّ استرخاء يمكنها الضغط عليه لإخفاء تفاعلاتها العاطفية، وقد لا يكون ممكناً أيضاً السيطرة على أفعال الشخص إذا كانت العاطفة الصّادقة قوية جدّاً، فالعاطفة القوية

تفسر الأفعال غير اللائقة حتى لو كانت لا تقدم عذراً مقبولاً، مثل: لم أقصد الصراخ (أو ضرب الطاولة، أو إهانتك، أو ضربك) ولكني فقدت أعصابي، وفقدت السيطرة على نفسي.

عندما تبدأ العواطف بالحدوث تدريجيّاً بدلاً من حدوثها فجأة، حتى لو بدأت عند مستوى منخفض، كالشعور بالانزعاج بدل الغضب، تكون التغيّرات التي تحدث في السلوك طفيفة صغيرة، وسهلة الإخفاء نسبيّاً إذا كان الشخص مدركاً لما يشعر به، ولكن لا تكون الحال كذلك مع الناس جميعهم؛ فعندما تبدأ العاطفة بالتدريج وتبقى طفيفة، فقد تكون ملحوظة أكثر للآخرين منها للذات، فلا تسجل في الوعي ما لم تصبح أكثر حدّة، وعندما تصبح العاطفة قوية، فستكون السيطرة عليها أصعب بكثير، ويتطلب إخفاء تغييرات الوجه والجسم والصوت معاناة، فحتى عندما ينجح الإخفاء في عدم إظهار العواطف، تكون المجاهدة بذاتها أحياناً ملحوظةً بوصفها دليلاً على الخداع. إنّ إخفاء العاطفة ليس أمراً سهلاً، وكذلك تزوير مظهر العاطفة غير الصّادقة، حتى عند عدم وجود أيّ عاطفة أخرى لا بدَّ من إخفائها.

ويتطلب الأمر أكثر من قول: أنا غاضب. أو: أنا خائف. وعلى المخادع أن يبدو أنه غاضب أو خائف إذا كان يريد أن يصدق الآخرون ادعاءه. ليس من السهل تجميع الحركات المناسبة، ونبرات الصوت المطلوبة لتزوير العواطف، هناك حركات معينة للوجه لا يستطيع تأديتها إراديّاً إلا عدد قليل فقط . (سيرد الحديث عنها في الفصل الخامس)، وتعد الحركات صعبة الأداء حيوية للتزوير الناجح لمشاعر اليأس، والخوف، والغضب.

يصبح التزوير أكثر صعوبة عندما تكون الحاجة إليه ماسّة جدّاً، وذلك للمساعدة على إخفاء عاطفة أخرى، إنّ محاولة الظهور بمظهر الغاضب ليس سهلاً، ولكن إذا كان هناك شعور بالخوف عند محاولة الظهور بالغضب، فسوف يحيّر ذلك الشخص الآخر. تنطلق مجموعة من الاندفاعات الناجمة عن الخوف باتجاه ما، في حين تتجه المحاولات المتعمدة للظهور بمظهر الغضب في اتجاه آخر؛ فالحواجب تنجذب إلى الأعلى في حالة الخوف، ولكن لتزوير الغضب تتجه نحو الأسفل. عادة، تفضح علامات الصراع الداخلي بين العواطف الصّادقة والزائفة الخداع.

ولكـن ماذا عن الأكاذيب التـي لا تشتمل على العواطف، أكاذيـب الأفعال، أو الخطط، أو الأفكار، أو النّيّات، أو الحقائق، أو الخيالات؟ وهل يفضح سلوك الكاذب هذه الأكاذيب؟

عاطفة الكذب

لا تنطـوي الخدع جميعها على إخفـاء العواطف أو تزويرهـا، فالسارقة تخفي سرقتها الأمـوال، ويخفي صاحب السرقة الأدبية حقيقة انتحاله عمل غيره، والادعاء أنّه من إبداعه، ويخفـي الرجل متوسط العمر – عبثاً – عمره الحقيقي عندما يصبغ شعره الأبيض، مدّعياً أنّـه أصغـر من عمره الحقيقي بسبع سنوات، ولكن عندما تكون الكذبة متعلقة بأمر آخر غير العواطف، ربما تصبح العواطف حينها معنية بالأمر؛ فقد يشعر الرجل متوسط العمر بالحرج بسبب تصابيه، ولكي ينجح في الخداع، عليه إخفاء حرجه إضافة إلى إخفاء عمره الحقيقيّ.

وقـد يشعـر منتحل إبداع غيره بـالازدراء تجاه من يضللهم. لـذا، لا يتعين عليه إخفاء مصـدر عمله، وتظاهره أنّ العمل خاصّ به فقط، ولكن عليـه إخفاء ازدرائه لهم أيضاً، وقد تشعر السارقة بالمفاجأة عندما يُتّهم بريء بجريمتها، ويتحتم عليها إخفاء مفاجأتها أو على الأقل سبب تفاجئها.

وعليـه، تصبح العواطـف مشتركة بالأكاذيب التـي لم تتخذ لغرض إخفـاء العواطف. وبمجـرد اشتراكها، لا بـدّ من إخفاء العواطف إذا كان الهدف عـدم فضح الكذبة. قد تكون أيّ عاطفـة هـي المتهمة، ولكن غالباً ما تتشابك ثلاث عواطـف مع الخداع كي تقدم تفسيراً منفصـلاً، هي: الخوف مـن الانكشاف، والشعور بالذنب من جـرّاء الكذب، والبهجة بخداع المتلقّي.

الخوف من الانكشاف

إنّ الخـوف من الانكشـاف بصورته الأكثر اعتدالاً غير مزعـج للكاذب، ولكنه بدلاً من ذلك قد يساعده على تجنب الأخطاء من خلال جعله متيقظاً. قد ينتج مستوى الخوف المعتدل **علامـات سلوكية** تصدر عن الكاذب الماهـر، وعندما يكون هذا الخوف من الانكشاف قويّاً

فإنــه سينتج ما يخشــاه الكاذب تماماً. فإذا كان الكاذب قــادراً على تقدير مدى الخوف من الانكشــاف الذي سيشعر به لدى شروعه في الكذب، فإنّه يستطيع تقدير ما إذا كانت الكذبة تستحــق المخاطرة أم لا. وحتــى لو كان فعلاً منهمكاً في قول الكــذب، فربما يساعده تقدير مــدى خوفه مــن الانكشاف على التخطيط لتدابيــر مضادة للحدّ من خوفــه أو إخفائه. هذه المعلومة تساعد كاشف الكذب أيضاً؛ إذ يمكنه أن ينتبه للبحث عن علامات الخوف إذا كان يتوقع أن يكون المشتبه به خائفاً جدّاً من انكشاف أمره.

تؤثــر كثير مــن العوامل في مقدار الخوف من الانكشاف الــذي يشعر به الكاذب، حيث يشيــر العامل الأول إلى مدى رأي الكاذب بقــدرة المتلقّي على اكتشاف كذبه، فإذا عُرف أنّ المتلقّــي خصــم ضعيف، أو شخص بسيط، فلــن يبالي الكاذب كثيــراً بالخوف من افتضاح كذبــه. في المقابل، إذا عُرف أنّ المتلقّي خبير فــي اكتشاف الكذب، ولا ينطلي عليه الخداع بسهولة، فسيعتري الكاذب الخوف من افتضاح أمره.

غالباً ما يقنع الأهل أولادهم أنهم بارعون في اكتشاف الخداع، قائلين: من خلال النظر إلى عينيك أستطيع معرفة ما إذا كنتَ كاذباً أم لا. عندها، يصبح الطفل غير الصادق خائفاً جدّاً من اكتشاف كذبته، فإمّا أن تُفتضح كذبته، أو يُضطرّ إلى الاعتراف؛ لاعتقاده أنّ فرصة انطلاء كذبته ضعيفة.

فــي مسرحية تيرينســ راتيغان (**صبي ونسلو**)، والفيلــم المُقْتَبَس عنها، استخدم آرثر (الوالــد) هــذه الحيلة بحــذر شديد. فبعــد أن سُرِّحَ ابنــه الكبير روني مــن مدرسة التدريب البحرية، واتهامه بسرقة حوالة نقدية، دار بينهما الحديث الآتي:

— آرثــر: تفيــد هذه الرسالة أنك سرقت حوالة. (يفتح روني فمه للحديث، فيوقفه آرثر) لا أريد سماع أيّ كلمــة منــك حتى تسمع ما أريد قوله. روني، إذا سرقتَ فاعترفْ لي، ولن أغضب منك شريطة أن تقول الحقيقة، ولكــن إنْ كذبــت علــيّ، فسأعرف ذلك؛ لأنــك لا تستطيع إخفاء الكذب عنــي، وسأعرف أنك كذبــت يا روني، لا محالة. لذا، تذكر ذلك قبل أن تتفوّه بأيّ كلمة. (يتوقف هنيهة ويعيد السؤال): هل سرقت تلك الحوالة؟

روني (بتردد): لا، يا والدي، لم أفعل.

يتقدم آرثر خطوة نحو روني محدّقاً في عينيه: هل سرقت هذه الحوالة؟

لا، يا والدي، لم أفعل.

يستمر آرثر بالتحديق في عيني روني لحظة، ثمّ يأخذ نفساً عميقاً من الارتياح[3].

يصدق آرثر روني، وتسرد المسرحية التضحيات العظيمة التي يقدمها الأب وباقي أفراد الأسرة للدفاع عن روني.

لا يستطيع الوالدان استخدام إستراتيجية آرثر دائماً للحصول على الحقيقة؛ فالابن الذي كذب مرات عدّة في الماضي، ونجح في خداع والديه، لن يكون لديه سبب للتفكير في أنه لن ينجح ثانية. وقد لا يكون الوالد راغباً في منح الابن العفو عند اعترافه بفعلته، أو قد لا يكون العرض مصدَّقاً بسبب وجود أحداث ماضية تتناقض معه.

على الابن أن يثق بوالده، والتّيقّن من قدرة الوالد على الثقة به أيضاً، إنّ الوالد كثير الشّكّ، وغير الواثق، والذي لم يصدق ابنه أخيراً عندما كان صادقاً، يستثير خوف الابن البريء، ومن شأن ذلك أن يسبب مشكلة حاسمة في الكشف عن الخداع؛ إذ من المستحيل تقريباً تمييز خوف الابن البريء من عدم تصديقه، وخوف الابن المذنب من الانكشاف، حيث تكون علامات الخوف هي نفسها تقريباً.

هذه المشكلات ليست خاصة بالكشف عن الخداع بين الوالدين والأبناء. بل هي مشكلة تكمن في صعوبة التمييز بين خوف البريء من عدم تصديقه من جهة وخوف الشخص المذنب من الانكشاف من جهة أخرى. تتضاعف الصعوبة عندما يتصف الشخص كاشف الكذب بتاريخه أنه متشكك ولم يقبل الصدق قبلاً، وفي كلّ مرة سيكون من الصعب على كاشف الكذب تمييز الخوف من عدم التصديق من خوف الانكشاف. يتعين تقليل ممارسة الخداع والنجاح في الإفلات من خوف الانكشاف، فلن يقلق الزوج الذي يخون زوجته للمرة الرابعة عشرة من الانكشاف كثيراً؛ فهو متمرس بالخداع، ويعلم ما يتوقعه وكيفية تملّصه من الموقف. والأهم من ذلك أنّه يعلم قدرته على الإفلات بالخداع، إنّ الثقة بالنفس تحدّ من خوف الانكشاف، فإذا استمرت هذه الثقة مدّة طويلة، فقد يرتكب الكاذب أخطاءً، وربما يكون بعض الخوف من الانكشاف مفيداً للكاذب أحياناً.

يعمـل جهاز مِكشـاف الكذب بالمبـادئ نفسها لاكتشـاف القرائن السلوكيـة للخداع، وهـو عُرْضـة للمشكلات نفسها؛ لأن اختبـار جهاز الكذب لا يكتشـف الأكاذيب، بل علامات العاطفة التي تختفي وراءها، حيث توصل أسلاك الجهاز بالمشبوه لقياس التغيرات في كمية التّعرّق، ونسبة التنفس، وضغط الدم، ولكنّ الزيادة في ضغط الدم وكمية التعرق بحد ذاتها ليسـت علامات على الخداع، إذ تتعرق اليدان أكثر، وينبض القلب بسرعة أكبر عند استثارة العاطفة.

لذا، يحاول معظم مشغلي الجهاز إقناع المشتبه به قبل إخضاعه للاختبار أنّ الجهاز لا يخطـئ أبداً في كشف الكاذب، مقدمين بذلك اختباراً يُعرف بالمحفّز. تتمثل التقنية الأكثر شيوعـاً في توضيح أنّ الآلة قادرة على معرفة الورقة التي سحبها المشتبه به في لعبة الورق، وبعـد أن يختـار المشتبه به الورقة ويعيدهـا، يطلب إليه الإجابة بِلا فـي كلّ مرة يسأله فيها مشغل الجهاز ما إذا كانت الورقة هي كذا. لا يرتكب بعض مستخدمي هذه التقنية الأخطاء؛ ليس لأنّ الجهـاز سيكشف الكـذب لا محالة، بل لأنهـم يستخدمون مجموعـة أوراق معلّمة، ويبـررون خداعهم للمشتبه به علـى أساسين: إذا كان المشتبه به بريئاً فمن المهم أن يعتقد أنّ الجهـاز لن يرتكب خطأ، وإلا فإنـه قد يُظهر الخوف من عدم التصديق. وإذا كان مذنباً، فمن المهم جعله يشعر بالخوف من الانكشاف، وإلا فإنّ الجهاز غير فاعل. لا يستعمل معظم مشغلي الجهاز هذه الخدعة، ويعتمدون على الجهاز لاكتشاف البطاقة التي تم سحبها(4).

هـذا ما ورد في (**صبي ونسلو**) تماماً، إذ يجب على المشتبه به تصديق قدرة مكتشف الأكاذيـب، وعادة ما تكون علامـات الخوف غامضة ما لم تكن الأمـور مرتبة لجعل الكاذب فقط هو الذي يخاف، دون إخافة الصادق. وتخفق اختبارات الكشف عن الكذب، لا لأنّ بعض الأشخاص البريئين يخافون من اتهامهم ظلماً، أو لأنهم لأسباب أخرى ينزعجون عندما يتم اختبارهم، بل بسبب عدم تصديق بعض المجرمين قدرة هذا الجهاز أيضاً، هم يعلمون أنهم يستطيعون الإفلات بكذبهم، وإذا عرفوا ذلك، فمن المرجح أنهم يستطيعون الإفلات فعلاً.*

* يعتقد بعض خبراء الكشف عن الكذب أنّ معتقدات المشتبه به بشأن دقة الجهاز غير مهمة. ستناقش هذه الموضوعات وغيرها بشأن اختبار الكشف عن الكذب وكيفية مقارنته مع القرائن السلوكية في كشف الكذب في الفصل السابع.

obeikandl.com

يتمثل التشابه الآخر مع قصة (صبي ونسلو) في محاولة مشغّل جهاز الكشف عن الكذب الحصـول على اعتـراف، مثل ادعاء الوالد امتلاكه قوى خاصة لكشف الكذب لكي يحثّ ابنه على الاعتراف إذا كان مذنباً.

لـذا، يحاول بعض مشغلي الجهاز استخلاص اعتراف من خـلال إقناع المشتبه به أنه لا يستطيـع التغلب على الجهاز. فإذا لم يعترف المشتبه به، يقوم بعض مشغلي جهاز الكذب بتخويفه؛ بإخباره أنّ الجهاز قد اكتشف عدم صدقه، وبزيادة الخوف من الانكشاف، يُؤمل أن يعتـرف المشتبه به. يعاني البريء الاتهامات الباطلة، ولكن يُفترض أن يُبرَّأ، ولسوء الطالع، يؤدي هذا الضغط إلى الحصول على اعتراف البريء كي يرتاح.

لا يمتلـك مشغلـو جهاز الكشف عـن الكذب خيـار الوالدين في الحثّ علـى الاعتراف مـن خلال الصّفح عـن الجرم المقترف إذا ما تمّ الاعتراف به، وهـذا ما يفعله المحققون، تقريبـاً مـع المجرمين؛ بعرضهم جعل العقاب أقلّ شدّة في حـال اعتراف المشتبه به، وعلى الرّغم من عدم قدرة المحققين على تقديم العفو الكامل، فقد يقدمون عفواً نفسيّاً على أمل انتـزاع اعتراف من خلال الإشارة إلى عدم حاجـة المشتبه به إلى الشعور بالخزي لاقترافه الجريمـة، أو حتـى إنـه غير مسـؤول عنها، قـد يفسّر المحقـق بتعاطف أنه يجـد للجرم ما يسوّغـه، وأنه سيقوم به شخصيّاً فيما لـو تعرّض للوضع نفسه الذي تعرّض إليه المُستَجْوَب، ويتمثـل الاختلاف الآخر في تقديم تفسير يحفظ مـاء وجه المشتبه به بشأن دافع الجريمة، والمثـال الآتي مقتطف من تحقيق مسجّل مـع مشتبه به بالقتل، والذي كان بالمناسبة بريئاً. يتحـدث المحقّق مع المشتبه به قائلاً: في بعض الأوقات، وبسبب الظروف، والمرض، وكثير مـن الأسباب الأخرى، لا يسلك الأشخاص الطريق المستقيم والصعب. وأحياناً، لا نستطيع التّحكّـم فيمـا نفعل. وفـي أحيان أخرى، نقـوم ببعض الأفعـال في لحظة انفعـال، أو لحظة غضـب، أو ربما بسبب عدم التفكير في بعض الأمور بالطريقة الصحيحة، ويريد الأشخاص الطبيعيون تصويب السلوكات التي نعلم أننا أخطأنا فيها[5]».

ناقشنا حتى الآن كيفية تأثير سمعة كاشفي الأكاذيب في عدم التمييز بين خوف الكذاب من انكشاف أمره، وخوف البريء من عدم تصديقه. ويتمثل العامل الآخر المؤثر في الخوف من الانكشاف في شخصية الكاذب، حيث يجد بعض الأشخاص صعوبة في الكذب، في حين

obeikandi.com

يستطيع آخرون القيام بذلك بسهولة. لذا، هناك كثير مما نعرفه عن الأشخاص الذين يستطيعون الكذب بسهولة مقارنة مع أولئك الذين لا يستطيعون، وقد وجدت القليل عن هؤلاء الأشخاص في بحث إخفاء العواطف السلبية.

عام 1970م، بدأتُ سلسلة من التجارب للتحقق من قرائن الخداع التي اكتشفتُها عندما حلّلت فيلم المريضة ماري التي ورد وصف كذبها في الفصل الأول. تَذكّر أنّ ماري أخفت معاناتها ويأسها كي يمنحها الطبيب إذن خروج في نهاية الأسبوع، وعند عدم وجود رقابة عليها، كانت ستقدم على الانتحار. كان عليّ البحث عن أكاذيب مشابهة قام بها أشخاص آخرون؛ كي أعرف ما إذا كانت قرائن الخداع التي وجدتها في فيلم ماري يمكن أن تظهر لدى الآخرين. وكان أملي في العثور على عدد كافٍ من الأمثلة السريرية ضعيفاً. وعلى الرغم من الشّكّ أنّ المريض قد كذب، فإنّ التأكّد من ذلك صعبٌ جداً، إلاّ إذا اعترف المريض كما فعلت ماري. وكان خياري يتمثل في ابتداع حالة تجريبية على غرار كذبة ماري، أستطيع من خلالها دراسة الأخطاء التي يرتكبها الآخرون عندما يكذبون.

حتى تكون هذه التجربة ذات علاقة بتجربة ماري، يجب على الأشخاص الخاضعين للتجربة أن يشعروا بعواطف سلبية قوية، وأن يُحفّزوا كثيراً لإخفاء هذه العواطف. للوصول إلى هذه العواطف السلبية القوية، عرضتُ أفلاماً تحوي مشاهد جراحية طبية مليئة بالدّماء، وطلبت إلى الأشخاص الذين شاهدوها إخفاء أيّ علامات مرتبطة بعواطفهم في أثناء المشاهدة، فشلت التجربة في البداية. ولم يحاول أيّ منهم بجدّ لضمان نجاحها، ولم أكن أتوقع مدى صعوبة حثّ الأشخاص على الكذب في المختبر، ما أحرجهم كذلك هو علمهم أنّ مجموعة من العلماء تراقبهم وهم يسيئون التصرف. في العادة، لا يوضع الكثير على المحكّ عندما يكذب الأشخاص في مثل هذه المواقف التجريبية. لذا، لم يحاول أفراد العينة الكذب بالقوة نفسها مقارنة بالحياة الفعلية عندما يكون الأمر مهمّاً. وعليه، اخترت طالبات تمريض للعينة؛ لأنّ هناك أهمية كبيرة بالنسبة إليهن للنجاح بمثل هذه الكذبة، وعليهن القدرة على إخفاء عواطفهن السلبية التي يشعرن بها عند رؤية المشاهد الجراحية أو غيرها. بتجربتي هذه، قدمت لطالبات التمريض فرصة التدرب على المهارات المرتبطة بمهنة التمريض. والسبب الآخر لاختيار طالبات تمريض كان تجنب المشكلات الأدبية الناجمة عن تعريض

أيّ شخص للمشاهد الدموية، فطالبات التمريض اخترن بأنفسهن مواجهة المشاهد لأنّها من ضمن عملهنّ. وقد زودتهنّ بالإرشادات الآتية:

- إذا كنتِ تعملين في غرفة طوارئ، وهرعت أمّ تحمل بين يديها طفلاً مشوّهاً تماماً، فلا تُظْهِرْنَ حزناً حتى لو علمتُنَّ أنه متألمٌ جداً، ولديه فرصة ضئيلة للنجاة، بل عليكنّ الاحتفاظ بما تشعرْن لأنفسِكنَّ، وتُهدئْنَ الأمّ لحين مجيء الطبيب.
- تخيّلْنَ ما عليكنَ فعله عند اضطراركنَّ إلى تنظيف براز مريض لا يستطيع التحكم في حركة أمعائه، يشعر ذلك المريض بمنتهى الحرج أو الخجل من وصوله هذه المرحلة الطفولية، وقد تشعرن بالاشمئزاز، ولكن عليكن إخفاء ذلك الشعور.

هذه التجربة، تهيئ لَكُنّ الفرصة لاختبار وممارسة القدرة على التحكم في تعابير عواطفكنّ. أولاً، ستشاهدْنَ فيلماً سارّاً، يعرض عليكنّ مشاهد لألوان المحيط الزاهية، وفي أثناء المشاهدة، عليكن وصف ما تشعرن به صراحة للشخص الذي يجري المقابلة، ولا يستطيع معرفة الفيلم المعروض. بعدئذٍ، ستشاهدْنَ أكثر المشاهد دموية التي قد تعترضكنّ يوماً، وفي أثناء المشاهدة، عليكن إخفاء الشعور الحقيقي الذي تشعرن به حتى يعتقد الشخص الذي يجري المقابلة أنكنّ تشاهدنَ فيلماً سارّاً آخر؛ ويمكنكن الادعاء أنه يعرض مشاهد الأزهار الجميلة من متنزه البوابة الذهبية في سان فرانسسكو.

لقد اخترنا أسوأ الأفلام التي استطعنا إيجادها، وجدنا في الدراسة الأولية أنّ بعض الأشخاص كانوا منزعجين جداً عند مشاهدة فيلم عن أشخاص محروقين بشدة، لعلمهم أنه لا يمكن إزالة شدة ألم مريض الحرق بالدواء.

وكان آخرون منزعجين أكثر بمشاهدة شريط مصوّر لعملية بتر جزئيّ من خلال رؤية كثير من الدم المتدفق. ومن خلال فكرة كيفية شعور ذلك الشخص عند استيقاظه وإدراكه ببتْر ذلك العضو. جمعنا الشّريطين معاً، بحيث ظهر أنّ الشخص الذي تعرض للحرق هو نفسه من تعرض لعملية البتْر، ووجدنا من خلال استخدام هذه الأفلام إلى أيّ مدى تستطيع الطالبات إخفاء العاطفة القوية جداً عندما يردْن ذلك أو يُفْرضُ عليهنّ ذلك.

ولأنّ منافسة الدخول إلى مدرسة التمريض في الجامعة قوية، كانت نتائجهن من أعلى النتائج في اختبارات الإنجاز المتنوعة، وحصلنَ على علامات مرتفعة، وتوصيات شخصية ممتازة. وعلى الرغم من أنّ المجموعة مختارة، فإنهنّ اختلفن بصورة ملحوظة في قدرتهن على إخفاء مشاعرهن. استطاع بعضهن الإخفاء بطريقة لافتة، في حين لم تستطع أخريات الإخفاء على الإطلاق. وجدت خلال المقابلة لاحقاً أنّ عدم القدرة على الكذب في أثناء مشاهدة الأفلام المروعة لم تكن خاصة بتجربتي، فقد كان لدى بعضهن دائماً مشكلة في الكذب بشأن العاطفة. وكان بعضهن عرضة للخوف من الانكشاف، وكان لديهن خوف عظيم من اكتشاف كذبهن، وكُنّ على يقين أنّ كلّ من ينظر إليهنّ يستطيع معرفة ما إذا كنَّ يكذبْن أم لا، وهذا ما حصل. أخضعت الطالبات لكثير من اختبارات الشخصية الموضوعية، وقد دُهشت عندما وجدت أنّ اللواتي لديهن مشكلة كبيرة في الكذب لم تختلف نتائجهن في الاختبارات عن باقي المجموعة، وفضلاً على هذه المفارقة، فهنّ لا يختلفنَ عن الأخريات، إضافة إلى أنّ عائلاتهن وأصدقاءهن يعرفون وجود هذه السمة لديهن ويغفرون لهنّ صدقهن.

حاولت كذلك معرفة المزيد عن أقرانهن، اللواتي يكذبن ببساطة وبنجاح كبير، بالفطرة يعرف الكاذبون مقدرتهم على الكذب. يعرف ذلك من يعرفهم جيداً. فهم يفلتون من اكتشاف كذبهم؛ بخداع ذويهم، ومدرسيهم، وأصدقائهم، عندما يرغبون في ذلك، فهم لا يشعرون بالخوف من انكشاف أمرهم.

بل على العكس من ذلك، إنّهم واثقون بقدرتهم على الخداع، حيث تعدّ هذه الثقة بعدم الشعور بالخوف من الانكشاف في أثناء الكذب، إحدى السمات المميزة للشخصية المضطربة، ولكنها الخاصية الوحيدة التي يتشارك فيها الكاذبون بالفطرة مع المرضى النفسيين، وعلى عكس المرضى النفسيين، لم يبدِ الكاذبون بالفطرة أحكاماً غير صائبة؛ ولم يخفقوا في التعلم من تجاربهم، علاوة على أنهم لم يمتلكوا خصائص المرضى النفسيين الأخرى: الدّماثة المصطنعة، وانعدام الندم والخجل، والسلوك العدوانيّ دون وجود ندم واضح، والأنانية المرضية، والعجز عن الحب[6]». (سأشرح بالتفصيل كيف يفضح الندم والخجل الخداع لاحقاً عند دراسة ذنب الخداع).

لـم يختلف الكاذبون بالفطرة في تجربتـي عن الآخرين في نتائج اختبارات الشخصية الموضوعية المتنوعة، فلم تظهر نتائجهم أثراً لوجود الشخصية المضطربة، ولم يكن هناك سلوك عدوانيّ للمجتمع في تكوينهم، وعلى عكس المرضى النفسيين، لم يستخدم الكاذبون بالفطرة قدرتهم لإيذاء الآخرين.* وعلى الكاذبين بالفطرة، والمهرة في الخداع ممن لديهم ضميـر حيّ، إدراك قدرتهم على الاستفادة من مواهبهم في بعض المهن كالتمثيل، أو البيع، أو المحاماة، أو التفاوض، أو التجسس، أو الدبلوماسية.

يهتم طـلاب الخدع العسكريـة بصفات الأشخاص الذين يستطيعـون الكذب بمهارة ويقولـون عنهـم: يجب أن يكـون ذهنهم مرنـاً توافقيّاً، يعمل مـن خلال تفكيـك الأفكار، أو المفاهيم، أو الكلمات إلى مكوناتها الأساسية، ثم يعيدون تجميعها بطرق عدة. (يمكن العثور علـى مثال لهذا النوع من التفكير في لعبة السكرابـل). لا يستطيع أعظم مستخدمي الخداع السابقيـن، مـن ذوي القدرة الفرديـة العالية والمنافسـة، التوافق مع المنظمـات الكبيرة، ويميلـون إلى العمـل بمفردهم، وهم مقتنعون بتفـوق آرائهم الخاصـة، ويتوافقون في بعض الطرق مع الشخصية المفترضة للفنان الانعزاليّ غريب الأطوار البوهيمي، ولكن الفن الذي يمارسونـه مختلـف تماماً، وهذا هو القاسـم المشترك الوحيد لكبـار ممارسي الخداع مثل: تشرشل، وهتلر، وديان، وت.ل. لورنس على ما يبدو[7]».

قد يحتاج هؤلاء «المخادعون الكبـار» إلى مهارتين مختلفتين تماماً؛ المهارة المطلوبة للتخطيط لإستراتيجية مخادعة، والمهارة المطلوبة لتضليل الخصم عند لقائه وجهاً لوجه، على ما يبدو، امتلك هتلر المهارتين معاً، ولكن من المفترض أن يتفوق الشخص في إحداهما

---

* يقوم المجرمون من المرضى النفسيين بخداع الخبراء، يقول روبرت ريسلسر، المشرف على وحدة العلوم العسكرية في مكتب التحقيقات الاتحادي، والذي قابل ستة وثلاثين قاتلاً متعدد الجرائم: يبدو معظمهم طبيعيين في مظهرهم وحديثهم. واستنتجت آن رول؛ ضابطة شرطة سابقة، وطالبة بعلم النفس، ومؤلفة لخمسة كتب في القتل المتعدد، وجود إشارات طفيفة غير دائمة في دماغ القاتل المتعدد، عندما وجدت نفسها في موقف مروع وهي تعمل مع تيد بندي المتهم بجرائم قتل عدّة، ارتكب بعضها في أثناء عمله مع رول، لقد أصبح الإثنان صديقيْن على الفور. قالت رول: لقد كان تيد مخادعاً، ولم أكن أعلم ما إذا كان يستغفلني أم لا. تبدو الشخصية المعادية للمجتمع صادقة دائماً ومواجهتها مثالية تماماً، لقد اعتقدت أنني أعرف ما الذي أبحث عنه، ولكن بعد أن عملت مع تيد لم تكن هناك أي علامة أو اكتشاف»
(Edward Iwata, «The Baffling Normalcy of Serial Murders,» San Francisco Chronicle, May 5, 1984)

أكثر من الأخرى. مع الأسف، هناك قليل من دراسات خصائص المخادعين الناجحين؛ ولا توجد دراسات تبحث فيما إذا كانت تعتمد الخصائص الشخصية لأولئك الذين يكذبون بنجاح على المكان الذي يمارسون فيه الخداع أم لا، إنّ تخميني للجواب على ذلك هو النفي، وأنّ أولئك الذين يكذبون في المجال العسكريّ قد يجيدون الكذب في الأعمال الكبيرة بصورة جيدة.

من المغري شتم أيّ عدو سياسيّ يُعرف عنه الكذب على أنه شخصية معادية اجتماعيّاً ومضطربة عقليّاً، وفي حين لا أمتلك الدليل لمناقشة ذلك، فإنني أشك بمثل هذا الحكم. إنّ تصنيف نيكسون بطلاً أو شرِّيراً يعتمد على سياسات الشخص، وكذلك القادة الأجانب الذين يمكن أن يظهروا على أنهم مرضى نفسيين أو دهاة، اعتماداً على ما إذا كانت أكاذيبهم تقارب قيم الذين يحكمون عليهم واتجاهاتهم، لا أتوقع أن يستطيع المرضى النفسيون العيش في المجتمعات البيروقراطية لمدة كافية للوصول إلى القيادة.

ذكرت حتى الآن مُحَدِّدَيْن للخوف من الانكشاف؛ شخصية الكاذب، وقبل ذلك، مسموعية كاشف الكذب. وتعدّ الأخطار التي تكون على المحك بالأهمية نفسها أيضاً. هناك قاعدة بسيطة؛ كلما زادت الأخطار، زاد الخوف من انكشاف الكذب، قد يكون تطبيق هذه القاعدة البسيطة معقداً، إذ ليس من السهل دائماً معرفة ما هي هذه الأخطار، وقد تكون سهلةً أحياناً.

ولمّا كانت طالبات التمريض مدفوعات بقوة إلى النجاح في المهنة، وخصوصاً عند البدء بالتدريب، فإنّ الأخطار في تجربتنا عالية. لذا، كان يجب أن يكون لدى الممرضات مقدار كبير من الخوف من الانكشاف الذي قد يتسرب أو قد يفضح كذبهن، وربما يكون الخوف من الانكشاف أضعف لو كانت مهنه التمريض غير معنية بالتجربة، وقد يكون اهتمام معظم الممرضات أقلّ حيال الانكشاف لو طلب إليهن إخفاء مشاعرهن بشأن أخلاقية سرقة المتاجر، ولربما تزداد الأخطار لو تمّ إقناعهنّ أنّ اللواتي يفشلن في التجربة سوف يُحرمن من دخول كلية التمريض.*

* أثبت البحث أنّ اللواتي أجدن الكذب وإخفاء العاطفة الحقيقية كن أكثر قدرة في السيطرة على مشاعرهن، وكن الأفضل في سنوات التدريب الثلاث التالية.

على البائع الذي يضلل زبائنه أن يهتم أكثر بالصفقة ذات العمولة الكبيرة لا الصغيرة، كلما كانت العمولة أكبر كان الخوف من انكشاف الكذب أعظم؛ فهناك مزيد من المخاطرة. وأحياناً لا تكون المكافأة الواضحة هي المهمة للشخص المخادع، فقد يسعى البائع لكسب إعجاب زملائه الآخرين من الباعة، وقد ينطوي خداع زبون صعب المراس على مكافأة إعجابهم العالية حتى لو كانت العمولة المتحصلة ضئيلة، وقد تكون الأخطار عالية جدّاً في لعبة بوكر إذا أراد أحد اللاعبين إلحاق الهزيمة بالمنافس تودداً لصديقته، إنّ الفوز هو كلّ شيء بالنسبة إلى بعض الأشخاص، ولا يهم ما إذا كانت المكتسبات بنسات أم دولارات؛ فالأخطار عند هؤلاء عالية في أي منافسة.

قد تكون المخاطرة خاصة بالشخص، لا يعرفها أيّ مراقب خارجي بسهولة، قد يستمتع زير النساء في خداع زوجته، بوطْئِها مراراً لإخفاء علاقاته عنها، وليس لمجرد إشباع رغبته الجنسية.

ينبغي أن يكون الخوف من انكشاف الكذب أكبر إذا انطوت الأخطار على تجنب عقاب، وليس فقط كسب مكافأة، عندما يُتّخذ قرار أولي بالخداع، تشمل الأخطار الحصول على المكافآت، فالكاذب يفكر أكثر شيء بما يمكنه الحصول عليه، فقد يفكر المختلس في النبيذ والنساء والأغاني عند بداية خداعه، ومتى ما تقدمت الخدعة قليلاً بعد بعض الوقت، قد لا تبقى المكافآت متاحة، فقد تصبح الشركة مدركة لخسارتها، وتشكّ في أنّ المختلس لن يستطيع أن يسرق المزيد، فيحاول المختلس الآن المحافظة على خدعته كي يتجنب افتضاح أمره؛ لأنّ العقاب يصبح هو المخاطرة، وقد يكون تجنب العقاب هو المخاطرة منذ البداية، إذا كان المتلقّي متشككاً، أو أنّ ثقة المخادع بنفسه قليلة.

هنالك نوعان من العقاب للخداع، هما: العقاب غير الظاهر إذا فشلت الكذبة، وعقوبة القيام بعملية الخداع بحدّ ذاته، يكون الخوف من انكشاف الكذب أكبر إذا كان نوعا العقاب على المحك. وأحياناً، يكون العقاب للإمساك بالشخص المخادع أسوأ بكثير مما صممت الكذبة لتجنبه، لقد أوضح والد «**صبي ونسلو**» أنّ هذه هي الحالة، فلو أوضح مكتشف الكذب قبل استجواب المشتبه به أنّ العقاب على الكذب قد يكون أسوأ من العقاب على الجريمة، تكون هناك فرصة أفضل لتثبيط المشتبه به قبل الشروع بالكذب.

علـى الوالدين معرفة أنّ شدة عقوبتهم تُعدّ أحد العوامل المؤثرة في اعتراف أطفالهم أو كذبهـم بشـأن تجاوزاتهم، ويأتي الوصف التقليدي من تفسيـر ميسون لوك ويمز الخيالي إلى حدّ ما «**حياة جورج واشنطن وأعماله البارزة.**»

يتكلـم الوالد مع جـورج الصغير: «كثير مـن الآباء يجبرون أولادهم علـى القيام بهذه الممارسة الحقيرة (الكذب) من خلال ضربهم بوحشية عن كلّ خطأ؛ صغيرٍ أو كبيرٍ. وعليه، يبتكر هذا المخلوق الصغير الخائف الكذبة عند قيامه بفعلته المقبلة، هروباً من العصا، أما أنـت يا جورج، فأنت تعلم أنني أقـول لك دائماً، وأقول لك الآن، إنك في كلّ مرة تقترف فيها خطـأ بطريـق المصادفة، وهذه هي الحالة دائماً؛ لأنك لا تزال صغيراً دون **خبرة** أو **معرفة**، عليـك ألّا تزور الخطـأ أو تخفيه، بل عليك التقدم بجرأة، يا ولدي، مثل رجل صغير وإبلاغي بالأمـر. وبـدلاً من ضربك يا جورج، سوف أُكـنّ لك احتراماً ومحبة أكثر يـا عزيزي. وتبيّن قصة «شجرة الكرز» أنّ جورج وثق بما يدعيه والده.

لا يخسـر الأطفـال حال القيام بفعـل الكذب فقـط مقارنة بما سيخسـرون من خلال الصـدق، قـد يخبر الزوج زوجته اللعوب إنه على الرغم من جـرح مشاعره لربما التمس لها عـذراً لعلاقتها لـو أنها لم تكذب بشأنها، وسوف يدّعي هذا الزوج أنّ فقدان الثقة أعظم من فقـدان الاعتقاد بإخلاصها، ربما لا تعلم زوجته بهذا، وقد لا يكون ذلك صحيحاً أيضاً، ربما يُفسَّر الاعتراف بإقامة علاقة على أنّه قسوة، وقد يدّعي الزّوج المهان أنّ زوجته التي تراعي مشاعره بحقّ ستخفي طيشها عنه، قد لا يتفق الزوجان، وقد تتغير العاطفة على مدى سنوات الـزواج، وقد تتغير المواقف جذريّـاً إذا كانت هناك علاقة غرامية خارج نطاق الزواج، فقد يختلفان عمّا كانا عليه عندما كان الأمر غير واقع.

حتـى لـو عرف الشخـص المتسبب في الضـرر أنّ الضرر الذي يقـع إذا انكشف كذبه سيكون أكبر من الخسارة التي تأتي من الاعتراف بالتجاوز، فستبقى الكذبة مغرية؛ لأنّ قول الصـدق يجلب خسارات مباشرة وأكيدة، فـي حين يَعد الكذب احتمال تجنب الخسارة، وقد يكـون احتمال التخلص من العقوبة المباشرة مغرياً جدّاً لدرجة أن تصبح الرغبة في اتخاذ هذا المسار يتسبب في التقليل من احتمالية الانكشاف وما يلحقه من عواقب وخيمة.

يأتـي التسليم بأن الاعتراف هو السلوك الأفضل متأخـراً، بعد أن تمّت المحافظة على الخدعة مدة طويلة، والتّمادي بذلك بحيث لا يؤدي الاعتراف لعقاب أقلّ حدّة.

هناك قليل من الغموض بشأن تكلفة الاعتراف النسبية أحياناً مقابل الإخفاء المستمر، هنــاك أفعال سيئة بحـدّ ذاتها، بحيث لا يعقـب الاعتراف بها إلا قليل مـن القبول، ويضيف إخفاؤهـا القليل من العقاب للمتهم، تلك هي الحال إذا تضمّنت الكذبة إخفاء إساءة لطفل، أو جريمـة، أو خيانـة، أو مُسافِـح محارم، أو إرهـاب، وعلى عكس المكافـآت المحتملة لزير النسـاء التائب، فإنّ توقع العفو عن المعترفين بذلك غير وارد (على الرغم من أنّ الاعتراف مخفـف للعقـاب). إلى جانب عدم وجود غضب أخلاقي عـارم لإخفائهم أفعالهم متى ما تم اكتشافهـم، لا يقع الأشخاص السيئون أو القساة فقط في هـذه المواقف؛ فاليهودي في بلد الاحتـلال النـازي الذي كان يخفي هويتـه بصفته جاسوساً في أثناء الحـرب، يكسب القليل بالاعتـراف، فـي حين لا يخسر شيئاً إنْ حافظ على خداعـه، وعندما لا تتوافر فرصة لكسب عقاب أخـفّ، فربما يعترف الكاذب للتخفيف من عـبء المحافظة على الخدعة، وللتخلص مـن المعاناة من جـرّاء مستوى التخوف المرتفع مـن الكشف عن الخـداع، أو للتخلص من الذنب.

يكمـن العامل الآخـر المهم بشأن تأثيـر الأخطار في الخوف مـن انكشاف الكذب بما يكسبه المتلقّي أو يخسره، وليس المخادع فقط. وعادة ما تكون مكاسب المخادع على حساب مكاسـب المتلقّي، فالمختلس يكسب عادة ما يخسـره ربّ العمل، ولا يتساوى ذلك دائماً. قد تكـون عمولة البائع المكتسبة مـن جراء الإخفاق في تمثيل منتج ما أقـل بكثير من الخسارة التي يتعرض لها العميل الساذج. لذا، فالأخطار لكلّ من الكاذب وضحيته تختلف نوعاً وكمّاً.

فقد يكون كسب زير النساء هو المغامرة، في حين يخسر الزوج الدّيّوث احترامه لذاته، وعندمـا تختلف الأخطـار لكلّ من الكاذب وضحيتـه، فقد تكون الأخطـار بذاتها هي محدّد تخوّف الكاذب من انكشاف كذبه، وهذا يعتمد على ما إذا كان الكاذب مدركاً للفرق أم لا.

لا يُعـدّ الكاذبون المصدر الأكثر مصداقية لتقدير ما هو على المحك لأهدافهم، إذ إن لديهم مصلحة مكتسبة في تصديق ما يخدم غاياتهم، يجد المخادعون الراحة عند التفكير

obeikandl.com

أن ضحاياهم يستفيدون من خداعهم بقدر استفادة الكاذبين أو أكثر وقد يحدث ذلك، فقد لا تضر الأكاذيب جميعها المتلقِّي. فهناك أكاذيب مرغوبة مُجازة:

«فـي اليوم السابق، سُحب ولد مصاب، شاحـب اللون، نحيل، عمره إحدى عشرة سنة، ولكنـه ما يـزال حيّاً، مـن بين حطام طائـرة سقطت يوم الأحـد في جبال متنـزه يوسيمان الوطنـي، لقد بقي الولـد أياماً على قيد الحياة على الرغم مـن العواصف الثلجية الشديدة، وليالـي انخفضت فيها درجة الحـرارة إلى ما دون الصفر على ارتفـاع أحد عشر ألف قدم، حيـث موقع تحطـم الطائرة، وكان قد لـفّ نفسه بكيس نوم في المقعـد الخلفي في الحطام المدفون تحت الثلج. لقد كان الناجي الوحيد.

كيف حال أمي وأبي؟ سأل الولد وهو في حالة ذهول: هل هما بخير؟ لم يخبر المنقذون الولد إن والدته وزوجها كانا ميتيّن، وما يزالان عالقيّن بمقعديهما في قمرة القيادة المحطمة على بعد إنشات من مكان وجوده[8]».

قـد ينكـر بعضهم أن هـذه كذبـة مرغوبة وتفيـد الهدف (الولـد)، ولا تقـدم مكاسب للمنقذين، إن حقيقة استفادة الهدف لا تعني إمكانية وجود مستوى خوف مرتفع من انكشاف الكذبة. فإذا كانت الأخطار عالية، فسيكون هناك خوف مرتفع من الانكشاف بصرف النظر عـن المستفيـد، يجب علـى المنقذين الاهتمـام بنجاح إخفائهـم لقلقهم بشأن مـا إذا كان الصبي قادراً على تحمل الصدمة أم لا.

في الخلاصة، يكون الخوف من الانكشاف في أعلى درجاته عندما:

- يُعرف عن المتلقي أنه يصعب خداعه.
- يبدأ المتلقي بالشّكّ.
- يكون الكاذب قليل الممارسة، ولا يوجد لديه سجل نجاح في الأكاذيب.
- يكون الكاذب عرضة للخوف من افتضاح كذبه.
- تكون الأخطار كبيرة.

- تكـون المكافآت والعقوبات على قدر من الأهمية بالنسبة إلى الكاذب، أو إذا اقتصر الأمر على العقوبات فقط.
- يكون عقاب الشخص الكاذب عظيماً، أو أنّ العقاب عمّا تدور حوله الكذبة عظيم ولا يوجد حافز للاعتراف.
- لا يستفيد المتلقي بأيّ حال من الأحوال من الكذب.

ذنب الخداع

يشير ذنب الخداع إلى شعور عن الكذب، وليس الموضوع القانوني فيما إذا كان الشخص مذنبـاً أو بريئـاً، ويجـب تمييز ذنب الخداع عن الشعـور حول مضمون الكذبـة، لنفترض أنّ «**صبـي ونسلـو**» قد سرق حقيقـة الحوالة الماليـة البريدية، ولربما قـد راوده شعور بالذنب حيال السرقة بحدّ ذاتها، وحكم على نفسه أنه شخص بغيض لفعلته، فلو أخفى روني سرقته عـن والده فلربما كان سيشعـر أيضاً بالذنب لقوله الكذب؛ وهذا هـو ذنب الخداع، ليس من الضـروري الشعـور بالذنب حيال مضمون الكذبة للشعور بالذنـب حولها، ولنفترض أنّ روني سـرق من صبي قام بالغش ليهزمه في مسابقة المدرسة، قد لا يشعـر روني عندها بالذنب حـول السرقة من زميـل دراسة بمثل هذه السمعـة؛ وقد يبدو الأمر أنه انتقـام مشروع. ومع ذلـك، قد يشعر بذنـب الخداع بسبب إخفـاء سرقته عن مدير المدرسـة أو والده، لم تشعر المريضـة النفسيـة ماري بالذنـب بشأن خطتها فـي الانتحار، ولكنها شعـرت بالذنب بشأن الكذب على طبيبها.

قـد يختلف ذنب الخداع في قوتـه تماماً مثل الخوف من الانكشـاف، فقد يكون طفيفاً جـدّاً، أو قويّـاً جدّاً بحيـث تفشل الكذبة؛ لأنّ ذنـب الخداع ينتج قرائـنَ أو تسرباً على وجود الخـداع، وعندما يصبح ذنب الخداع شديداً، تكـون تجربته مؤلمة، وقد تقوّض أشد مشاعر معانـاة الشخـص الأساسية لاحترام الذات، قد يدفع الارتياح مـن ذنب الخداع الشديد إلى الاعتـراف علـى الرغم من احتمال العقاب على الجرم المُعتـرَف به، وربما يكون العقاب في الحقيقـة هو المطلوب تمامـاً، ويعود سبب اعتـراف الشخص للتخفيف مـن الشعور بعذاب الذنب؛ (تأنيب الضمير).

عندمـا يُتَّخـذُ القرار بالكذب أول مـرة، لا يتوقع الأشخاص دائمـاً بدقة قدر معاناتهم ذنـب الخداع لاحقاً، وقد لا يدرك الكاذبـون تأثير شكر ضحاياهم لهم لمساعدتهم البادية، أو كيـف سيشعرون عندما يـرون شخصاً آخر ملوماً على سوء أفعالهم، وفي حين تسثير هذه المشاهد عادة الشعور بالذنب، فإنها بالنسبة إلى آخرين كالهال للقهوة؛ أي ما يجعل الكذب مرغوبـاً، سنناقـش ردّة الفعل هـذه بوصفها **مزحة الخداع** لاحقاً، والسبـب الآخر في تقليل الكاذبيـن مـن شأن ذنب الخداع الذي سيشعرون به هو أنّ الكاذب قد يتعلم بمرور الوقت أنّ الكذبة الواحدة غير كافية، وأنه يجب إعادة الكذبة مراراً وتكراراً وتقديم افتراءات عدّة من أجل حماية الخداع الأساسيّ.

يرتبط الخزي بالذنب ارتباطاً وثيقاً، باستثناء أنّ هناك فرقاً نوعيّاً رئيساً. ليس هناك حاجـة إلـى آخرين للشعـور بالذنب، وليس بالضـرورة أن يعرف عن شعور الذنـب أحد؛ لأنّ المذنـب قاضـي نفسه. أمّا الخزي فليس كذلـك. تتطلب مذلة الخزي رفض الآخرين له أو سخريّتهـم منه، وإذا لم يعرف أحد عن العمل السيئ، فلن يكون هناك خزي، ولكن قد يكون هناك شعور بالذنب، وبالطبع قد يكون هناك شعور بالإثنين معاً. إنّ الفرق بين العار والذنب مهـم جدّاً، إذ تتجاذب هاتان العاطفتـان الشخص باتجاهين متعاكسين. فقد تُحفّز الرغبة في التخفيف من الذنب الاعتراف، ولكن قد تمنع الرغبة في تجنب الخزي هذا الاعتراف.

فـي «**صبـي ونسلـو**»، لنفترض أنّ رونـي قد سرق النقـود فعلاً، وأنه شعـر بذنب كبير لقيامـه بذلك، وكذلك شعر بذنب الخداع بشأن إخفائه فعلته المشينة. ربما يرغب روني في الإقـدام على الاعتراف ليحصل على الراحة من عـذاب ضميره بالذنب، ولكن شعوره بالعار حيـن تصـوره كيفية ردّة فعل والده يحجمه عن ذلك، ولتشجيـع روني على الاعتراف، عرض والـده العفو عنـه بحيث لا يكون هناك عقاب في حال اعترافه، يجـب أن يحدّ تناقص خوف رونـي من العقاب من خوفه من الانكشاف. ولكن مايـزال الوالد في حاجة إلى التخفيف من الخزي إذا وجب على روني الاعتراف. لذا، يحاول الوالد القيام بذلك من خلال وعده لروني أنـه سـوف يغفر له زلّته، ولكنه ربما يكون بذلك قد زاد من تخفيف الخزي، وزاد من احتمال اعتـراف روني لو أنه أضاف شيئاً من الحيلـة التي يستخدمها المحقق، والتي استشهدت بها قبل بضع صفحات، عندما كان يستجوب أحد المشتبه بهم بالقتل، ربما أمكن الوالد أن يقول

لروني: يمكنني فهم دافع السرقة، وربما كنت سأقوم بالعمل نفسه لو كنتُ بوضعكَ وتعرضتُ للإغـراء نفسه الذي تعرضتَ إليـه. لا أحد منّا معصوم عن الخطأ، وقد نرتكب أفعالاً ندرك فيما بعد أنها منحرفة عن جادة الصّواب، وأحياناً لا يمكنك منع نفسك من القيام بما قمت به. بالطبع، قد لا يكون الوالد الإنجليزي قادراً على قول ذلك صراحة. وعلى عكس مستجوبي المجرمين، قد لا يكون راغباً بالكذب للحصول على الاعتراف.

يكون بعض الأشخاص عرضة للشعور بالخزي بشأن الكذب وذنب الخداع، ويشمل ذلك أولئك الذين نشؤوا في بيئة صارمة ترى الكذب خطيئة كبرى. وكذلك الذين نشؤوا في بيئة لا تدين الكذب على وجه الخصوص، ولكنها تغرس مشاعر الذنب القوية، يبدو هؤلاء المذنبون ساعين للتجارب التي يزيدون من خلالها الشعور بالذنب والوقوع في براثن الخزي والعار.

لسـوء الحظ، هناك عددٌ قليلٌ جداً من البحوث عن الأشخاص الذين يشعرون بالذنب، والذين لا يشعرون به أيضاً.

قدّم جاك أندرسون؛ كاتب عمود في إحدى الصحف، تفسيراً لكذاب لم يشعر بالخزي ولا بالذنب، ويهاجم مصداقية ميل واينبرغ الشاهد الرئيس في وكالة التحقيقات الفيدرالية للملاحقـات القضائيـة؛ أبسكام. وصف أندرسـون ردّة فعل واينبرغ عندمـا اكتشفت زوجته أنـه يخفـي عنها علاقة خارج نطاق الزوجية للسنوات الأربعـة عشرة الماضية، وعندما جاء ميـل أخيراً إلى البيت، تجاهل طلب ماري تفسير فعلته، وقال: إذن، تمّ الإمساك بي، لطالما أخبرتـك أنني أكبـر كاذب في العالم، ثم جلس على أريكته المفضلـة، وطلب طعاماً صينيّاً، وطلب إلى ماري دَرْمَ أظفاره[9].

إنّ عـدم الشعور بالذنـب أو الخزي بشأن الأفعال المعيبة علامة على مرض نفسيّ، إذا كان يشمل جميع أو معظم مناحي حياة الشخص. (من الواضح أنه لا يمكن لأحد تقديم هذا التشخيـص مـن تفسير تقدمه صحيفة يومية)، يختلف الخبراء حـول ما إذا كان عدم وجود شعور بالذنـب أو الخزي يعزى إلى التنشئة الاجتماعية، أو إلى بعض المحدّدات البيولوجية. إذ إنّ هنـاك إتفاقـاً أنّه لا الشعور بذنب الكذب ولا الخـوف من كشف الكذب تجعل المريض النفسيّ يقع في الأخطاء عند قوله الكذب.

obeikandl.com

فـإذا كان المخادع لا يتشارك مع المتلقّي في القيم الاجتماعية ذاتها، فلن يكون هناك ذنب خداع لديه، يشعر الأشخاص بالذنب بصورة أقل بشأن الكذب عن أولئك الذين يعتقدون أنهـم مخطئون، فقد لا يشعر زير النساء الذي تكـون زوجته باردة جنسيّاً بالذنب في الكذب بشأن علاقته مع امرأة أخرى. ونادراً ما يشعر الثوري أو الإرهابي بالذنب بشأن خداع محققي الدولـة، ولن يشعر الجاسوس بالذنـب حيال تضليله ضحيته، يصـوغ عميل مخابرات سابق هـذا بإيجاز بقوله: نَحِّ هُراء التّجسّس جانباً، فيكون عمل الجاسوس خيانة الثقة[10]». عندما نصحـت مسؤولي الأمن الذيـن أرادوا القبض على أشخاص بمحاولة اغتيال مسؤول حكومي رفيـع المستوى، لم أستطع الاعتماد على ذنب الخداع فـي الحصول على علامات دالّة. فقد يكـون القتلة خائفين من اكتشافهم إن لم يكونوا محترفين، ولكن لا يرجح أن يكونوا مذنبين بشأن ما خططوا له. والمجرم المحترف لا يشعر بالذنب حيال خداع الآخرين، والمبدأ نفسه فـي العمل يفسـر عدم شعور الدبلوماسي أو الجاسوس بالذنـب حيال تضليل الطرف الآخر. فالقيم غير مشتركة، والكاذب يعمل جيداً لمصلحته.

الكـذب مشروع في معظـم هذه الأمثلة فكلّ واحـد من هؤلاء الأشخـاص ينشد قاعدة اجتماعيـة واضحـة المعالم تسمح بخداع الخصـم، إضافة إلى أنّ هنـاك قليلاً من الشعور بالذنـب حيال هذا الخداع المسوّغ عندما تكون القيم مختلفة بين الكاذب وضحيته، حتى إنّ الكذب قد يكون مسوّغاً حتى لو اشترك الإثنان في القيم نفسها؛ فقد لا يشعر الأطباء بالذنب عنـد خـداع مرضاهم إذا كانوا يعتقدون أنّ ذلك لمصلحتهـم، ويعدّ إعطاء المريض علاجاً وهميّاً كحبة سكر توصف على أنها علاج مفيد خدعة طبية قديمة أثبت نجاحها الزمن. فإذا شعر المريض بالتحسن، أو على الأقل توقف عن مضايقة الطبيب لإعطائه دواء غير ضروري قـد يكـون ضاراً، يعتقد كثير من الأطباء أنّ هذه الكذبة لهـا ما يسوّغها، وفي هذه الحالة، لا يكون لِقَسَمِ أبقراط للصدق مع المريض شأن، فالطبيب عليه أن يقوم بما يساعد المريض.* وليس علـى الكاهن الذي يخفـي اعتراف أحدهم له بجـرم قد فعله عند سـؤال الشرطة له

---

* في حين إنّ 30%-40% من المرضى يحصلون على الراحة من جراء تناول العقار الوهمي، فإنّ بعض العاملين في المجالين الطبي والفلسفي يعتقدون أنّ استخدام العقارات الوهمية يعرّض الثقة المطلوبة في العلاقة الطبية للخطر، ويمهد الطريق لمزيد من الخداع الخطر. انظر مقالة ليندسي جروسون «مناقشة استخدام العقارات الوهمية بناءً على أسس أخلاقية» نيويورك تايمز، 13، شباط، صفحة 19 للرجوع إلى هذا الموضوع والاطلاع على نقاش لطرفي الموضوع.

عمـا إذا كان يعرف أي شيء عمّـن قام بالجرم، الشعور بذنب الخداع. إذ تسمح وجهة نظره لـه بالخداع، فهـو لا يستفيد من الخداع، بل المجرم هو الـذي يستفيد، والذي يبقى مجهول الهويّة، لم تشعر طالبات التمريض في تجربتي بأيّ ذنب خداع حيال إخفاء مشاعرهن.

فقـد سمحت الأمثلة التي فسرت متى يجب على الممرضـة الإخفاء عند القيام بعملها في تخفيف معاناة المريض.

قـد لا يدرك الكاذبون أو يعترفون أنهم عادة يستفيدون من الخداع الذي يقدّم على أنه كـذب مُسـوّغ يأخذ في حسبانه مشاعر الآخرين أو فائدتهـم، وقد فسر نائب الرئيس لشركة تأميـن وطنيـة أنّ الإخبار بالحقيقة قد يكون سيئاً عندما يكون الشخص الآخر معنيّاً بالأمر؛ إذ من الصعب أحياناً القول لشخص ما: لن تكون رئيساً للشركة أبداً[11]؛ لأنك تراعي شعوره، وتراعـي شعـور نائب الرئيس أيضاً، وقد يكون من الصعب التعامل مع خيبة أمل هذا الرجل، ناهيـك عن إمكانية احتجاجه، وخصوصـاً إذا كان الشخص يُحمّل نائـب الرئيس مسؤولية الحكـم السلبـي عليه. بهذه الكذبة، تراعـي مشاعر الإثنين معاً. قد يـرى أحدهم أنّ الرجل سيتعرّضـ للأذى بالكذب عليه وحرمانه من المعلومـات التي على الرغم من أنها غير سارة قد تجعله يحسن أدائه، أو تحثّه على البحث عن وظيفة في مكان آخر، وبالمثل، قد يقول آخر إنّ الطبيب الذي يعطي المريض عقاراً وهميّاً على الرغم من أنّه كذبة لها ما يسوّغها يكسب أيضاً منها، فليس عليه التعامل مع إحباط المريض، أو خيبة أمله بعدم وجود علاج لمرضه، أو التعامـل مـع غضب المريض إذا علم أنّ الطبيب قد أعطاه العقـار المزيف لأنه يعتقد أنه مصـاب بوسواس المرض. مرة أخرى، المهم هو تقييم الكذبة ما إذا كانت تفيد المريض أو تؤذيه.

ومع ذلك، هناك أكاذيب لها ما يسوّغها تماماً، فالكاهن الذي يخفي اعتراف المجرم، والمنقـذ الـذي يخفي خبر وفاة والـدي طفل الأحد عشـر عاماً في حـادث تحطم طائرة لا يحصـلان من إخفـاء الحقيقة على أيّ فائدة، وإذا اعتقد الـكاذب أنه لا يكسب من الكذب، فربما لا يشعر بذنب الخداع.

حتى الخدع الأنانية قد لا تنتج شعوراً بذنب الخداع عندما تكون الكذبة مشروعة؛ فلاعبو البوكر لا يشعرون بذنب الخداع حيال خداعهم اللاعبين الآخرين، وينطبق الأمر ذاته على المساومة سواء كان ذلك في سوق في منطقة الشرق الأوسط، أو في الوول ستريت، أو في مكتب وكيل عقارات محليّ.

ذكرت مقالة عن الأكاذيب في مجال الأعمال ما يأتي: ربما كانت الكذبة الأكثر شهرة على الإطلاق هي: هذا عرضي الأخير. فمثل هذه الكذبة مقبولة في عالم الأعمال، ومتوقعة خلال المساومات الجماعية، حيث لا يتوقع أنّ يُظهر شخص ما أوراقه كلّها على الطاولة منذ البداية[12]، فصاحب المنزل الذي يطلب سعراً أعلى لبيع بيته ثم يبيعه لن يشعر بالذنب إذا حصل على السعر المطلوب، فكذبته لها ما يسوّغها؛ لأنّ المشاركين يتوقعون المعلومات الخطأ وليست الصحيحة، لا ينطبق تعريف الكذب الذي قدمته على المساومة ولعبة البوكر. حيث توفر هذه الحالات بطبيعتها إشعارات مسبقة في أنّ لا أحد سيكون صادقاً. لذا، من الغباء إظهار كلّ ما لديك من أوراق في لعبة البوكر، وكذلك من الغباء أن يطلب بائع منزله أقلّ الأسعار فيه.

يحتمل أن يشعر الشخص بذنب الخداع بشعور أكبر عندما لا يُسمح بالكذب. يجب أن يكون ذنب الخداع أشدّ عندما تربط الثقة بين الكاذب وضحيّته، بافتراض عدم وجود تضليل بينهما، في مثل هذه **الخدع الانتهازية**، يكون الذنب بشأن الكذب أكبر إذا كانت معاناة المتلقّي تعادل ما يكسبه الكاذب على الأقل. حتى في هذه الحالة، لا يكون هناك قدر كبير من الشعور بذنب الخداع إن كان موجوداً أصلاً. إلا إذا كانت هناك قيم مشتركة على الأقل بينهما. قد لا تشعر المراهقة التي تخفي تدخينها الحشيش عن والديها بأيّ ذنب خداع إذا كانت تعتقد أنّ والديها أحمقان لدرجة القول أنّ المخدر ضارّ، ولو اعتقدت أنها تعرف بالخبرة أنّ أحكامهما غير صحيحة، ولو اعتقدت أنهما منافقان، يشربان الخمر ولا يسمحان لها باستخدام مخدر ترفيهي بخيارهما، فستكون فرصة شعورها بذنب الخداع أقلّ، حتى لو كانت تختلف مع والديها بشأن الحشيش وكذلك الأمور الأخرى، أما إذا كانت لا تزال متعلقة بهما، وتهتم لأمرهما، فقد تشعر بالخزي لو اكتشفا كذبتها. يتطلب الخزي بعض الاحترام لأولئك الذين يختلفون معك، وإلا جلب الاختلاف الغضب أو الازدراء وليس الخزي.

obeikandi.com

يشعـر الكاذبون بذنب أقـلّ عندما تكون ضحاياهـم غير شخصيـة أو مجهولة تماماً. فالشعـورُ بالذنـب لزبونة تخفي عن موظف صنـدوق الدفع أنه قد تقاضـى منها ثمناً زهيداً لسلعة غالية أقلُّ إذا كانت لا تعرف هذا الموظف، أما إذا كان الموظف هو المالك أو فرداً من عائلتهـا، أي أنّ المتجـر ملك للعائلة فستشعر الزبونة الكاذبة بذنب أكبر مقارنة مع شعورها عندما يكون المتجر تابعاً لسلسة متاجر، من السهل الانغماس في التخفيف من الذنب بقولنا إن المتلقّـي لـم يتـأذَّ فعليّاً، أو أنّه غير مـدرك للكذبة، أو أنـه يستحقّ التضليـل، أو إذا كان المتلقّي مجهولاً للكاذب(13).

وغالبـاً ما تكـون هناك علاقة عكسية بين ذنب الخداع وشعـور الخوف من الانكشاف. فمـا يخفـف الذنب حيال الكـذب يزيد الخوف مـن أن يتم اكتشاف بالـكاذب، عندما يؤذن بالخـداع يكون هناك شعور أقل بالذنب. ومع ذلك، يزيد منـح الإذن من الأخطار. لذا، فإنّه يجعـل الخوف من الانكشـاف مرتفعاً. لهذا السبب، أولت طالبـات التمريض جلّ اهتمامهنّ خوفـاً من الفشل في التجربة التي شاركن فيها؛ لأنّ الإخفـاء مرتبط بحياتهنّ المهنية، كان لديهنّ خوف من الانكشاف بدرجة مرتفعة وشعور أقل بذنب الخداع، فربُّ العمل الذي يكذب على موظفيه عندما يشتبه بالاختلاس، ويخفي شكوكه للإمساك بالسارق بالجرم المشهود، يرجح أن يشعر بالخوف من الانكشاف، ولكن شعوره بالذنب يكون منخفضاً.

قـد تقلل العوامل التي تزيد من ذنب الخداع الخوف من الانكشاف، وقد يشعر الكاذب بالذنب لتضليله شخصاً تجمع بينهما ثقة متبادلة، ولكنه يكون أقلّ خوفاً إذا أمسك به شخص لا يتوقـع أن يتم استغلاله. في الخلاصة، قد يشعر الشخص بذنب كبير حيال الكذب وخوف شديد من كشف كذبته معاً، أو أنه قد يشعر بالقليل منهما، وذلك اعتماداً على تفاصيل حالة الـكاذب ومكتشف الكذب. يُسرُّ بعض الأشخاص بذنب الخـداع. وقد يكون جزء من دافعهم للكذب هو الحصول على فرصة الشعور بالذنب حيال ما فعلوه.

ومـع ذلك، يجـد معظـم الأشخاص تجربـة الشعور بالذنـب سيئة جـدّاً، لدرجة أنهم يبحثون عن طرق تحدُّ من ذلك الشعور. هناك كثير من الطرق لتبرير الخداع. ويمكن النظر إليهـا على أنّهـا ردّ على ظلـم؛ فالمتلقّي السّيئ واللئيـم يستحق الكذب عليـه، فهذا المدير بخيـل جدّاً، ولم يكافئني علـى العمل الذي قمت به، لذا أخذت مكافأة بنفسي، أو أنّ المتلقّي

يتّسم بالسذاجة، بحيث يرى الكاذب أنّ تصديقه له خطؤهم لا خطؤه؛ فالباب المفتوح على مصراعيه يدعو اللصوص للدخول إلى المنزل وسرقته.

ذُكر مُسوّغان من مُسوّغات الكذب التي تخفف من الشعور بذنب الخداع في وقت سابق؛ الهدف النبيل أو متطلبات العمل واحد منهما، تذكر فشل نيكسون بتسمية أكاذيبه بالأكاذيب لأنه رآها ضرورية للفوز بمنصبه والاحتفاظ به، والمُسوّغ الآخر هو حماية الشخص الذي سيُكذب عليه. قد يصل الكاذب أحياناً إلى حدّ الادعاء أنّ المتلقّي كان راغباً في ذلك، وإذا تعاون الشخص المتلقّي في الادعاء وعرف الحقيقة طوال الوقت، وادعى عدم معرفته، حينها، ليست هناك كذبة، ويعدّ الكاذب خالياً من أيّ مسؤولية. يساعد الشخص المستعد للخداع المخادعَ للمحافظة على الخدعة من خلال تجاهل الكذبة السلوكية. وسيحاول المتلقّي غير المستعد للمشاركة في الخداع إذا كان متشككاً بشأن الخداع.

والمثال المثير للاهتمام بشأن متى يكون المتلقّي مستعداً يرد في ما تم اكتشافه أخيراً عن روبرت لوسي؛ الشرطي الذي تحول إلى مخبر سرّيّ، والذي استشهدت بقصته في نهاية الفصل الثاني. لقد أُثني كثيراً على لوسي في كتاب روبرت «**أمير المدينة**»، وكذلك في الفيلم المقتبس من تلك القصة، والذي يدعي كون القصة حقيقية، وكيف ساعد لوسي النيابة الاتحادية (الفيدرالية) على الحصول على قرائن الفساد بين رجال الشرطة والمحامين. وعندما أراد لوسي العمل مع النيابة الفيدرالية سألوه عن الجرائم التي اقترفها بنفسه. اعترف لوسي بثلاث جرائم، ادعى أحد الأشخاص الذين فضحهم لوسي لاحقاً أنه ارتكب جرائم أكثر مما اعترف به، وبسبب كذبه بشأن جرائمه الشخصية، أشارت النيابة إلى أنّ شهادته ضدهم فقدت مصداقيتها. لم تثبت هذه الادعاءات مطلقاً، وأدين كثيرٌ بناءً على شهادة لوسي، وذكر آلان ديرشوفيتز المحامي الذي دافع عن أحد المدانين بشهادة لوسي محادثةً بعد المحاكمة اعترف فيها لوسي أنه ارتكب فعلاً عدداً أكبر من الجرائم.

قال آلان ديرشوفيتز: لقد أبلغته (لوسي) أنّ من الصعب علي تصديق أنّ شو (مدعي النيابة الفيدرالية) لم يعرف بشأن الجرائم الأخرى التي سبقت محاكمة روسنر [الرجل الذي دافع عنه ديرشوفيتز]، حينها قال إنّه مقتنع أنّ شو يعرف أنني ارتكبت جرائم أكثر؛ لأن مايك شو ليس مغفّلاً.

obeikandl.com

فسألته: إذن، كيف يمكنه الجلوس هناك ومشاهدتك تكذب على منصة الشهود؟

تابع لوسي: لم يعرف على وجه اليقين أنني كنت أكذب، لا بد أنه شك بذلك، وربما قد صدقه، ولكني طلبت إليه عدم الضغط عليّ، وقد فعل. قلت: ثلاث جرائم! عندئذٍ، رفع لوسي ثلاث أصابع بإشارة إلى العدد، وابتسم ابتسامة عريضة، فكان لزاماً عليه قبول ذلك. يُحرض المدّعون يوميّاً على الادلاء بالشهادات الكاذبة يا آلان، وأنت تعرف ذلك[14]».

علم ديرشوفيتز فيما بعد، أنّ اعتراف لوسي بالكذب كان كذبة أيضاً، لقد أبلغ مسؤول إنفاذ القانون الذي كان موجوداً عندما التقى لوسي أول مرة مع مدعي النيابة ديرشوفيتز، أنه ومنذ البداية اعترف صراحة بارتكابه أكثر من الجرائم الثلاث التي اعترف بها. لقد ساعد المدعون الفيدراليون لوسي على إخفاء الحقيقة كاملة لأعماله الإجرامية من أجل المحافظة على مصداقيته بوصفه شاهداً؛ فقد تصدق هيئة المحلفين رجال الشرطة الذين ارتكبوا ثلاث جرائم فقط، ولكنهم لا يصدقون رجل الشرطة الذي ارتكب مجموعة أكبر من الجرائم، بعد جلسات المحاكمة، وعندما أصبح معروفاً على نطاق واسع أنّ لوسي ارتكب جرائم أخرى، كذب لوسي على ديرشوفيتز بادعائه أنّ مدعيي النيابة كانوا ضحايا مستعدين، ولم يعترف أنهم تواطؤوا صراحة لإخفاء سجله الجنائي كي يحافظ على جانبه من الاتفاق، وحمايتهم طالما أمنوا له الحماية، وقد ورد أنّ لوسي سجّل شريطاً لاعترافه أمام النيابة لعدم ثقته بوجود شرف بين اللصوص. وبهذه الطريقة، لا يمكن للمدّعين الادعاء ببراءتهم. ولأنّ لوسي يستطيع فضح شهادتهم الزور بشأن شهادته، فإنّه على يقين أنّهم سيظلون دائما أوفياء تجاهه، ويحمونه من المحاكمة الجنائية.

ومهما كانت الحقيقة عن لوسي، فإنّ محادثته مع ديرشوفيتز تُعدُّ مثالاً مناسباً بشأن أن الشخص المتلقّي المستعد، والذي يستفيد من كذبته مسهل لانطلاء عملية الخداع التي يقوم بها الكاذب، قد يتعاون الأشخاص عند تضليلهم لأسباب أقلّ حدّة. ففي سلوك الكياسة، يكون هدف الخداع مُباحاً عادة، فيقبل المضيف عذر رحيل الضيف مبكرا دون أن يدقق فيه بعناية شديدة. فالشيء المهم في هذه الحالة هو الالتزام بالكياسة وتقديم ادعاء يجنب التسبب للمضيف بالضيق أو الحرج، ولمّا كان المكذوب عليه ليس مستعداً فقط، ولكنه أعطى الموافقة على تضليله أيضاً، فإنّ آداب الكياسة المهذّبة لا تعدّ كذباً.

الرومانسية حالة أخرى على الخداع المُباح، والذي يتعاون فيه الطرفان في المحافظة على كذبهما. كتب شكسبير يقول:

عندما تقسم حبيبتي أنها مطبوعة على الإخلاص
فإني أصدقها بالتأكيد، على الرغم من علمي أنها تكذب
حتى تظن أنني لست سوى فتى عديم الخبرة
غافل عن ألاعيب الزيف في الحياة.
هكذا يصبح تفكيرها عبثاً، حين تعتقد أنني صغير
على الرغم من علمها أنني تجاوزت سن الرشد،
إلا أنني أتظاهر بالسذاجة في تصديق كلامها
بذلك تختفي الحقيقة البديهية في كلا الجانبين.
لكن لماذا لا تقول بنفسها إنها غير مخلصة؟
ولماذا لا أقول أنا لها إنني كبير السن راشد؟
آه، إنّ أفضل ثوب للحب هو الثقة الجليّة
والعمر الذي نقضيه في الحب، لا يجب لسنواته أن تحصى
كذلك أكذب معها، وهي تكذب معي
يتملق كلّ منا الآخر بالكذب الذي نخفي به أخطاءنا.

بالطبع، ليست الخدع الرومانسية كلها حميدة جدّاً، ولا الضحايا كلّهم مستعدون دائماً للتضليل. ولا يمكن الوثوق بالمخادعين لإبداء الرأي الصادق عما إذا كانت ضحاياهم مستعدة لتضليلهم أم لا. فهم متحيّزون نحو الاستعداد؛ لأنّ ذلك يشعرهم بالذنب بدرجة أقلّ، فإذا استطاعوا جعل ضحاياهم يعترفون أنهم يشكون في الأمر، فهم غير ملومين على الأقل جزئيّاً.

قد تصبح الضحايا غير المستعدة بعد حين مستعدة لتجنب تكلفة اكتشاف الخداع، تصور محنة مسؤول حكومي يبدأ بالشكّ أنّ العشيقة التي كان يتحدث معها عن معلومات عمله

جاسوسـة. بالمثل، قـد يصبح متعهدُ وظائفَ ضحيةً مستعـدة لطالب عمل محتال تم تعيينه عن طريقه، بدلاً من الاعتراف بحكمه الخائب. لقد وصفت روبرتا وولستتر حالات كثيرة كان فيهـا القادة الدوليون ضحايا مستعدون لخصومهم، فلم تكن حالة تشامبرلين فريدة. «ففي هـذه الحـالات جميعها من الإصرار على الخطأ على مدى زمن طويل، وعلى الرغم من وجود قرائـن متزايدة وأحياناً قرائن عكسيـة واضحة بدلاً من ذلك، فإنّ المعتقدات والافتراضات المريحة بشأن الاعتقاد الجيد للخصم المحتمل والمصالح التي من المفترض أنها مشتركة مـع ذلك الخصم تقوم بدور بالغ الأهمية، وقد يحتاج الخصـم إلى مساعدة المتلقِّي لبعض الوقت فقط؛ ويميل الأخير لتفسير ما قد يبدو خطوة تهديدية إلى حد ما[16]».

باختصار، يتعاظم ذنب الخداع عندما:

- يكون المتلقِّي غير مستعد للخداع.
- تكـون الخدعـة أنانية بالكامل، ولا يحصل المكذوب عليه علـى أي فائدة من تضليله ويخسر بقدر كسب الكاذب.
- لا يكون الكذب مشروعاً، ويعوّل على الصّدق فقط.
- لا يمارس الكاذب الخداع منذ مدة طويلة.
- يتشارك الكاذب والمتلقِّي قيماً اجتماعية.
- يعرف الكاذبُ المكذوبَ عليه شخصيّاً.
- لا يمكن إلقاء اللوم على المكذوب عليه بوصفه وسيلة أو ساذجاً.
- يكون هناك سبب يدعو المكذوب عليه توقع التضليل، وعكس ذلك تماماً يتصرف الكاذب لكسب الثقة في مصداقيته.

لذّة الخداع

ناقشـت حتى الآن، العاطفة السلبيـة التي قد تُستثار عند كـذب أحدهم: كالخوف من الانكشاف والذنب حيال تضليل المتلقِّي، ولكن قد ينتج الكذب مشاعر إيجابيّة أيضاً، ويمكن النظـر إلى الكذبة علـى أنها إنجاز يُشعر الشخصـ بالارتياح، وقد يشعر الـكاذب بالإثارة،

سواء عند توقعه التحدي أو خلال لحظة الكذب، عندما لا يكون النجاح مؤكداً بعد، وقد تأتي لاحقـاً اللـذة التي تتأتى من الارتيـاح أو الفخر بالإنجاز، أو مشاعر الاحتقـار نحو الضّحية. تشيـر لذة الخداع إلى هذه العواطف جميعها أو بعضها، والتي يمكن أن تفضح الخداع إن لم يتـم إخفاؤها، هناك مثال بـريء على لذة الخداع؛ عندما يتخذ المزاح صورة تضليل صديق سـاذج، حيـث يجب على المـازح أن يخفي لذة خداعه على الرغم مـن توجيه جزء كبير من أدائه نحو الآخرين، الذين يقدرون مدى انخداع الشخص الساذج.

قـد تتنوع شدة لذة الخـداع، فقد تكون غائبة تماماً، بدرجـة لا تذكر مقارنة مع مقدار الخـوف من الانكشـاف الذي يشعر به الكاذب، أو قد تكون عظيمـة جدّاً لدرجة تشي علامة سلوكية عليها.

قد يعترف بعضهم بخدعهم ليتشاركوا لذة نجاحهم بخداع الآخرين، إنّ المعروف عن المجرمين قيامهم بكشف جرائمهـم لأصدقائهم والغرباء، وحتى لرجال الشرطة كي ينالوا الشهرة والتقدير على ذكائهم الفريد لجعل خدعة ما تنطلي على الآخرين.

قد تكون الأكاذيب ممتعة، مثل تسلق الجبال أو الشطرنج، فقط إن كانت هناك مخاطرة أو خسـارة. في بدايـات الخمسينيات، عندما كنـت طالباً في جامعة شيكاغـو، كانت إحدى الممارسـات الطلابية سرقة كتب من محل بيع الكتـب التابع للجامعة، وكان ذلك يُعدُّ طقساً من طقوس قبول الطالب المستجد، وكانت السرقة مقتصرة على بعض الكتب، ويتم التّباهي بالسرقـة والإقـرار بها على نطـاق واسع. كان مستوى ذنـب الخداع متدنِّيـاً، وكان الاعتقاد السائـد لدى الطـلاب أنّ تشغيل محلّ بيع كتب الجامعة يجـب أن يتم من قبل جمعية طلاب تعاونيـة، ولمّا كان تشغيله الربح بدلاً من ذلك، فقد استحق السرقة. لذا، لم تمسّ محالّ بيع الكتـب الخاصة المجاورة للجامعة، وكان الخوف مـن الانكشاف منخفضاً أيضاً بسبب عدم وجـود إجراءات أمنيّة في المكان، وقـد قُبض على شخص واحد فقط طوال مدة وجودي في الجامعة بعد أن فضحته لذة الخداع؛ لم يكن بيرنارد راضياً بتحدي السرقات المعتادة، وكان عليـه زيادة الأخطار لكي يفخـر بنفسه أكثر، ويظهر احتقاره للمحـل، وينال الإعجاب الذي سعـى إليـه بين زملائه، فسرق الكتـب الفنية الكبيرة التي صَعُـب إخفاؤها، وبعد مرور وقت قصيـر، رفع الرهان من خلال سرقة ثلاثـة أو أربعة كتب في الوقت ذاته، لكنه ما زال يشعر

أنّ ذلــك سهل، فبدأ بمضايقة موظفي المحل، ولـم يحاول تخبئة الكتب المسروقة، فوضعها تحت إبطـه، وأخذ يحوم حول موظف الصندوق في تحدّ للموظف لسؤاله عنها، وحفزته لذة الخدعة أكثر لتجربة القدر، فقدمت العلامات السلوكية للذة الخداع جزءاً من الوشاية، وتم الإمساك به. عُثر عنده آنذاك قرابة خمس مئة كتاب مسروق في غرفة سكنه. أصبح بيرنارد مليونيراً فيما بعد يعمل في تجارة محترمة تماماً.

هنــاك طرق أخـرى لتعزيز لذة الخداع، فإذا كان الشخـص المخدوع يصعب خداعه، فقــد يضيف ذلك بعض التشويــق، ويسهل الشعور بلذة الخداع، إضافــة إلى أنّ معرفة وجود آخريــن يعرفون ما يجري يزيد مــن احتمالية الشعور بلذة الخداع. لــذا، يجب ألّا يكون أحد موجــوداً إلّا إذا كان متنبهاً لوجود كذب مــا، وإنْ وُجد آخرون يستمتعون بأداء المخادع، فقد ينتــج لدى الــكاذب أقصى لذة خــداع، وأصعب وقت في كبح علاماتــه، فعندما يكذب صبي على آخر بحضور آخرين من رفاقه، يستمتع الكاذب بمراقبة تسليته رفاقه بحيث تندفع لذته أكثــر فأكثــر، وبذلك يكون قد أنجز مهمّته كلّها على أكمل وجه، يستطيع لاعب البوكر الماهر السيطــرة على علامات لــذة الخداع، وإذا كانت أوراقه رابحة، فينبغــي لتصرفاته أن تضلل الآخرين ليعتقدوا أنّ أوراقه ليست جيدة، كي يرفعوا رهاناتهم ويستمروا باللعب، حتى عندما يعــرف المتطفلون من منافسيه على الطاولة ما يقوم بــه من خداع، فإنّ عليه كبح دلائل لذة الخداع لديه، وقد يكون هذا أسهل، عن طريق تجنب التقاء عينيه بعيون منافسيه.

قــد يكــون بعض الأشخاص أكثر عرضة للذة الخــداع من غيرهم، ولكــن لم تتم حتى الآن دراســة مثل هؤلاء الأشخاص، أو حتى التحقــق من وجودهم. ومع ذلك، يتّضح أنّ بعض الأشخاص يتبجّحون أكثر من الآخرين، ويكونون أكثر عرضة لهذا النّوع من اللذّة.

قد يشعر الشخص في أثناء الكذب بلذة الخداع، وذنب الخداع، والخوف من الانكشاف، جميعها مرة واحدة أو على التوالي، لنأخذ لعبة البوكر مثالاً مرة أخرى، يظهر الخداع عندما تكون أوراق اللاعب غير جيدة، ولكنه يتظاهر بعكس ذلك حتى يضاعف الآخرون رهاناتهم، وقــد يعتريــه خوف من انكشاف أمــره إذا كان الرهان مرتفعاً، وفي أثنــاء مشاهدة المخادع للاعبيــن يذعنون مكتفين بما قدمــوه، قد يشعر أيضاً بلذة الخداع؛ ولأنّ المعلومات المضلِّلة مشروعة هنا، فلا وجود لذنب الخداع طالما لم يغشّ لاعب البوكر المخادع.

obeikandi.com

قـد تشعر المختلسة بالعواطف الثـلاث؛ اللذة في طريقة خداعها لزملائها الموظفين وربّ عملهـا، والخـوف من أيّ لحظة تفكر فيها أنّ هناك من يشـكّ فيها، وربما الذنب حيال خرق القانون وخيانة الثقة التي تتضح من تعاملات الشركة معها.

بإيجاز، تكون لذة الخداع في أعلى مستوياتها عندما:

- يكون المتلقِّي تحديّاً يصعب خداعه.
- تكون الكذبة تحديّاً بسبب ما يجب إخفاؤه، أو بسبب طبيعة ما يجب تلفيقه.
- يراقب آخرون الكاذب، أو يعرفون عن الكذبة ويقدرون مهارته في الأداء.

يمكـن أن يظهر كلّ من الذنب، والخوف، واللذة فـي تعابير الوجه، والصوت، وحركات الجسـد مهمـا حاول الكاذب إخفاءها، قد تنتج المقاومة لمنعهـا من التسرب حتى عندما لا يكـون هناك تسرب لفظي قرينة على وجود الخـداع، يفسّر الفصلان التاليان كيفية الكشف عن الخداع من الكلمات، والصوت، والجسم، والوجه.

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

كشف الخداع من خلال الكلمات، أو الصوت، أو حركات الجسم

«كيف يمكنك معرفة أنني ربما كذبت؟».

«ولـدي العزيـز، يمكن كشـف الأكاذيب بسهولة، وعلـى الفور؛ فهي علـى نوعيـن: الأول، أكاذيب حبالها قصيرة، وأخرى حبالها طويلة يصعب كشفها. وكذبتك، أنت يا بنوكيو، من النوع الثاني» بنوكيو، 1892م.

يندر كذب الأشخاص إذا اعتقدوا أنّ هناك علامة على كذبهم، ولكن لا توجد مثل تلك العلامــة. لــذا، لا توجد علامة على الخداع نفســه، ولا إيماءة، ولا تعبير علــى الوجه، أو شدّ عضلــيّ يعني أنّ الشخص يكذب، هناك قرائــن فقط على أنّ الشخص ليس مستعداً بصورة جيــدة، وقرائن علــى العواطف التي لا تناسبــه، وهذا يقدم قرائن على التســرب أو الخداع، ويجب على مكتشف الأكاذيــب تعلم كيفية تسجيل العاطفة في الحديث، والصوت، والجسد، والوجــه، ودلائل أخــرى، على الرغم من محاولات الكاذب إخفــاء عواطفه، وما يعطي صوراً عاطفيــة غير صحيحــة، حيث يتطلب الكشف عن الخداع فهمــاً لكيفية كشف هذه السلوكات حال شروع الكاذب في كذبته.

إنّ اكتشــاف الكــذب ليســ أمراً سهلاً، حيث تتمثــل إحدى المشكلات بكـمّ المعلومات الهائــل، فهناك الكثير للتفكير بــه في آن واحد، وكثير من المصــادر؛ الكلمات، والحبسات، ونبرة الصوت، والتعابير، وحــركات الرأس، والإيماءات، والوقفات، وشدة التنفس، والتّورّد،

والشّحـوب، والتّعرّق، وما إلى ذلك، وقد تنقل هذه المصادر جميعها المعلومات في آن واحد أو في أوقات متداخلة، وتتنافس على جلب انتباه مكتشف الأكاذيب، ولحسن الطالع، لا يحتاج مكتشـف الأكاذيـب إلى التدقيق فـي كلّ ما يسمعه أو يراه بالقدر نفسـه من الاهتمام، فليس كلّ مصـدر من هذه المصادر موثوقاً فيه خلال المحادثة، فبعضها يتسرب بصورة أكبر من غيـره، ومن الغريب أن يركز معظم الأشخاص انتباههم على المصادر الأقل مصداقيّة فيما يكمن خلفها، وهي الكلمات وتعابير الوجه التي يمكنها أن تكون مضللة بسهولة.

عادة، لا يراقب الكذابون أو يتحكمون في سلوكهم جميعه أو يخفونه، وقد لا يستطيعون القيـام بذلك حتى لـو أرادوا ذلك. وليس من المرجح أيضـاً أن يستطيع أيّ شخص التحكم الناجـح في كلّ شـيء يفعله للخداع من أخمص قدميه إلى قمـة رأسه، بدلاً من ذلك، يخفي الكذابون ويزورون ما يعتقدون أنّ الآخرين يبحثون عنه أكثر، ويميل الكاذبون إلى الحذر حيال اختيـار الكلمات. في أثناء عملية النمو، يتعلم كلّ إنسان أنّ معظم الأشخاص يستمعون جيداً لمـا يُقال. لذا، تلقـى الكلمات اهتماماً كثيراً من هذا القبيل؛ لأنها الأكثر غنى، وأكثر طريقة مميزة للتواصل. وعليه، يمكن نقل كثير من الرسائل، وبسرعة أكبر، من خلال الكلمات أكثر مـن تعابير الوجه، ونبرات الصـوت، وحركات الجسم. يعي الكاذبـون كلّ كلمة مما يقولون، ويخفـون الرسائل التي لا يريـدون إيصالها بحذر، لا لأنهم يعلمـون أنّ الجميع ينتبهون لهذا المصـدر أو ذاك، بـل لأنهم يعلمون أنهم محاسبون على كلماتهـم أكثر من نبرة صوتهم، أو قسمات وجوههم، أو معظم حركات أجسامهم، يمكنهم إنكار أيّ تعبير غاضب، أو نبرة حادة في الصوت. ويمكن أن يقف المتهم موقفاً دفاعيّاً فيقول: أنت سمعت ذلك بالطريقة تلك. لم تكـن هناك نبرة غضب في صوتي، ولكن من الصعـب إنكار قول كلمة غاضبة، فهي موجودة ويمكن إعادتها بسهولة، ويصعب التنصّل منها نهائيّاً.

والسبـب الآخر لمراقبة الكلمات بدقة هو أنّها العنصر الرئيس للتمويه، علاوة على أنه يسهـل تزويرها حيث تذكـر أشياء غير حقيقية من خلال الكلمـات، بالإضافة إلى أنه يمكن كتابة ما يجب أن يقال تماماً وإعادة صياغته في وقت مبكر، ولا يتمكّن إلا الممثل الذي تلقى تدريبـاً مرتفع المستوى من التخطيط بالتحديد لكلّ تعبير في الوجه، وإيماءة، ونبرة صوت، ومـن السهـل التدرب على الكلمـات مرة تلو أخـرى، ولتلقي المتحدث ملاحظـات مستمرة،

بسماعــه لما يقول، لذا فهو قادر على التّحكّم في أقوالــه، أما تعابير الوجه وحركات الجسم ونبرة الصوت فهي أقلّ دقّة.

يحظـى الوجه بعـد الكلمات بأكبر قدر مـن اهتمام الآخرين. ويتلقـى الأشخاص ردود فعـل عما تبدو عليه وجوههم، مثل: امسح تلك النظرة عن وجهك، ابتسم عندما تقول ذلك، لا تنظـر إلــي بوقاحة. ويتلقـى الوجه انتباهاً جزئيـاً؛ لأنه علامة ورمز للـذات. إنه الطريقة الرئيســة التـي تجعلنا نميّز شخصاً مـن آخر، فالوجوه أيقونات، يُحتفـى بها على هيئة صور معلقة على الجدران، أو موضوعة على المكاتب، أو محمولة في المحافظ (الجزادين)[1]. وقد وجدت البحوث الحديثة أنّ جزءاً من الدماغ مخصّص للتعرف إلى الوجوه[2].

هنــاك عدد من الأسبـاب الأخرى التي تفسّـر حرص الأشخاص علـى الانتباه للوجوه، فالوجــه مرآة العواطـف. وإلى جانب الصوت، فقد يساعد الوجـه السامع على معرفة كيفية شعور المتحدث عمّا يقال، ولكن لا يُشترط أن يكون ذلك دقيقاً دائماً؛ إذ إنّ الوجوه قد تكذب العاطفة، وإذا كانت هناك صعوبة في السمع فقد تساعد مراقبةُ شفاه المتكلم المستمعَ على معرفــة الكلمات المنطوقة، قد يوفر الانتباه للوجــه إشارة مهمة ضرورية للتحدث والمتابعة، حيث يرغب المتكلمون معرفة ما إذا كان مستمعوهم ينصتون لهم أم لا، فضلاً على أنّ النظر إلى وجه المتحدث يشير إلى ذلك، ولكنه لا يعدّ الإشارة الأكثر مصداقية.

قــد يراقب المستمعون المؤدبــون الذين يشعرون بالملل وجــه المتحدث في حين تكون أذهانهـم شاردة في مكان آخر. ويعـزّز المستمعون المتحدث بإيمــاءات الرأس، والتمتمات ولكن هذه الإشارات أيضاً يمكن تزييفها.*

وبالمقارنة مع الاهتمام الشديد بالكلمات والوجه، لا يتلقى الجسم والصوت القدر نفسه من الاهتمام. ولكن الخسارة ليست كبيرة؛ لأنّ الجسم يقدم قدراً أقلّ من المعلومات مقارنة مـع ما يقدمه الوجه. كذلك، تعدّ المعلومات التي يقدمها الصوت قليلة مقارنة بالكلمات، قد تشــي حــركات اليدين بكثير من الرسائـل، كما تفعل في لغة الصّمّ، لكنهــا ليست شائعة في

* يعتمد معظم الأشخاص عندما يتحدثون على استجابات المستمع، وإذا حرموا منها يسألون بسرعة:هل تسمعون؟ هناك عدد قليل من الأشخاص الذين يمكن النظر إليهم على أنّهم نظم مغلقة؛ لا يبالون بمستمعيهم ولا باستجاباتهم التشجيعية عندما يتحدثون.

obeikandi.com

المحادثات بين شعوب شمال أوروبا والأمريكان من الخلفية نفسها، إلا إذا حُظر التخاطب.* مثـل الوجـه، يمكن للصوت إظهار مـا إذا كان الشخص عاطفيّـاً أم لا، ولكن لم يعرف حتى الآن مـا إذا كان الصـوت يقدم كميـة المعلومات التي يقدمها الوجه حيـال أيّ المشاعر هي الصّادقة بدقّة.

يراقب الكاذبـون كلماتهم ووجوههم، ويحاولون السيطـرة عليهما، أي على ما يعرفون أنّ الآخريـن يركزون عليه، أكثر من نبـرات أصواتهم وإيماءات أجسامهم، وسينجحون أكثر بكلماتهـم مقارنـة بالوجوه. فالتزوير بالكلمـات أسهل مقارنة بتزوير تعابيـر الوجه؛ لأنّ من الممكـن التدرب على الكلمات– كمـا ذكرنا سابقاً– أكثر من تعابيـر الوجه، علاوة على أنّ الإخفـاء أيضاً أسهل. يستطيع الأشخاص بسهولة مراقبـة كلماتهم أكثر من وجوههم، ومنع كلّ مـا يمكنه أن يشي بهم. من السهل معرفة ما يقوله الشخص، ولكن الصعب هو معرفة ما يظهـره وجهه. والأمر الوحيـد الموازي لوضوح التعليقات التي تنجم عـن سماع الكلمات في أثناء التحدث، هو وجود مرآة موضوعة في مكان ثابت تظهر كلّ تعبير.

فـي حين أنّ هناك أحاسيس فـي الوجه قد توفر المعلومات من خـلال توتر العضلات وحركاتهـا، لقد اثبت بحثـي أنّ معظم الأشخـاص لا يستفيدون من هـذه المعلومات. وعدد الذين يدركون التعابير التي تظهر على وجوههم قليل حتى تصبح التعابير بيّنة الوضوح.**

هناك سبب آخر مهم لوجود قرائن خداع في الوجه أكثر مقارنة بالكلمات، حيث يرتبط الوجـه مباشرة بمناطق الدمـاغ المعنية بالعاطفة، أما الكلمات فليسـت كذلك. لذا، عندما تُستثـار العواطف، تبـدأ عضلات الوجه بالتّحرّك لا إراديّاً، فقد يتعلم الأشخاص التحكّم في حركاتهـا عـن طريق العادة، أو اختيـار التعابير التي يريدونها، ويحاولـون بدرجات متفاوتة

---

* مثلاً، يستخدم عمال المناشير الذين عليهم التّواصل فيما بينهم، ولكنهم لا يستطيعون القيام بذلك من خلال الكلمات بسبب الضجة– نظاماً معقداً جدّاً من حركات الأيدي. وللسبب نفسه، يستخدم الطيارون وطواقم هبوط الطائرات نظاماً معقداً من الحركات أيضاً.

** لم يتأكد علماء الأعصاب من الدوائر التي تقدم لنا معلومات تغيرات التعابير الشخصية، أو ما إذا كانت التغيرات في العضلات أو في الجلد الموصول بها، ويختلف علماء النفس بمدى معرفة الأشخاص تعابير وجوههم الشخصية عند ظهورها، وتشير دراساتي إلى أننا لا نشعر بالتعابير التي نقوم بها جيداً، وبأننا لا ننتبه لأحاسيس وجوهنا معظم الوقت.

obeikandi.com

النجـاح بإخفائها. لا يتم اختيار تعابير الوجه الأولية التي تبدأ عند استثارة العاطفة، إلا إذا كانت غير صادقة، وتعدّ تعابير الوجه مزدوجة النظام؛ إرادية ولا إرادية، كاذبة وصادقة في الوقـت نفسه. وهذا هو سبب أنهـا معقدة ومحيرة ومدهشة. سأناقـش في الفصل اللاحق، الأساس العصبي للتمييز بين التعابير الإرادية واللا إرادية.

يجـب أن ينتبه الأشخاص المتشككون لنبـرات الصوت وحركات الجسـم أكثر، حيث يرتبـط الصوت كما الوجه بمناطـق الدماغ المعنية بالعاطفة، ومـن الصعب إخفاء تغيرات الصـوت التي تحدث عندمـا تستثار العواطف. إنّ ردّة الفعل المعنيـة بما يبدو عليه الصوت ضروريـة للكاذب لمراقبـة نبرة صوته، والتي لـن تكون بجودة سماع الصـوت عند إخراجه الكلمـات. في المـرة الأولى، يتفاجـأ الأشخاص وهم يسمعـون فيها أنفسهـم على الشريط المسجل؛ لأنّ المراقبة الذّاتية للصوت تأتي جزئياً من خلال توصيل العظام وتبدو مختلفة.

يُعـدّ الجسـم مصدراً جيداً للتسرب وقرائن الخداع. وعلـى عكس الوجه أو الصوت، لا ترتبـط معظم حركات الجسـم بمناطق الدماغ المعنية بالعاطفة. لـذا، فإنّ مراقبة حركات الجسـم ليسـت صعبة. فالشخص يشعر ويرى ما يقوم به جسمه غالباً، يمكن أن يكون إخفاء حـركات الجسـم أسهل بكثير من إخفاء تعابير الوجه أو تغيـرات الصوت في العاطفة. ولكن معظم الأشخاص لا يكترثون بذلك، فقد كبروا وتعلموا أنّ القيام بذلك غير ضروري، ونادراً مـا يتحمل الأشخاص مسؤولية ما يكتشفونه من حـركات أجسامهم، وتتسرب حركة الجسم بسبب تجاهلها؛ فالجميع مشغولون بمراقبة ملامح الوجه وتقييم الكلمات المنطوقة فقط.

في حين يعلم جميعنا أنّ الكلمات قد تكذب؛ أشارت دراساتي إلى أنّ الأشخاص يصدقون الآخرين وغالباً ما يتم تضليلهم، ولا أقترح هنا تجاهل الكلمات تماماً؛ إذ يقترف الأشخاص أخطاء لفظية تقدّم قرائنَ خداع وتسرّباً، وحتى لو لم تكن هناك أخطاء في الكلمات، فإنّ ما يفضح الكذبة هو التناقض بين الكذبة المنطوقة وما يكشفه كلّ من الصوت والجسم والوجه. ولكـن معظم قرائن الخـداع الموجودة في الوجـه والجسم والصوت يتم تجاهلهـا أو إساءة تفسيرهـا، وقد وجدت ذلك فـي عدد من الدراسات التي طلبت فيهـا إلى الأشخاص الحكم على أشخاص آخرين من خلال عرض أشرطة تسجيلية(فيديو) عنهم.

لقـد رأى بعضهم قسمات الوجه فقط، في حين رأى آخـرون حركات الجسم، وآخرون سمعـوا الحديـث الذي يمر عبر مصفاة جعلت الكلمات غيـر مفهومة، ولكنها تركت الصوت سليمـاً، أما بقيتهم فقد سمعـوا الكلمات أو قرؤوها، رأى الجميع الأشخاص نفسهم، طالبات التمريض في الفصل السابق اللواتي صدقن أو كذبن عن شعورهن في أثناء مشاهدة الأفلام، تذكر أنهن في المقابلات الصادقة شاهدن فيلماً ممتعاً عن المحيط وتلقيْن تعليمات لوصف مشاعرهن بصدق.

وفي المقابلات غير الصادقة، شاهدْن فيلماً جراحيّاً طبيّاً يحتوي على مشاهد دمويّة، وتلقيْن تعليمات لإقناع الشخص الذي يُجري المقابلة أنهنّ يشاهدن فيلماً ممتعاً عن الأزهار، لـم يستطـع الشخص الذي يجري المقابلـة معرفة الفيلم الذي شاهدنـه، حاولت الطالبات جاهـدات تضليـل الشخص الذي يُجـري المقابلـة؛ لأنّ الأخطار كانت عاليـة. واعتقدْن أنّ التجربـة اختبرت مدى قدرتهنّ على التّحكّم فـي ردود أفعالهن العاطفية في غرفة الطوارئ أو العمليات.

وفـي دراستنا لقـدرة الأشخاص على اكتشـاف متى كانت الطالبـات كاذبات، لم نكن مهتميـن بمعرفـة المصـدر الأفضل فقط (الوجـه، أم الجسـم، أم الصـوت، أم الكلمات)، ولكـن فيما إذا كان أداء الأشخاص المتشككين أفضـل مقارنة بالذين توقعوا التضليل، قُسِّمَ الأشخـاص الذيـن كان عليهـم رؤية أشرطـة الفيديو أو سماعهـا إلى مجموعتيـن؛ الأولى، متشككـة بسبب ما قلناه عن نوعية الطالبات في الأشرطـة. والأخرى أبقيناها دون أن يراود أفرادها شكّ من أجل جعلهم يدلون بأحكام عن الطالبات، المجموعة المتشككة لم تُبلّغ بأيّ شـيء عن التجربة، ولم يُذكر لهم أيّ شيء عن الخداع أو الكذب المحتمل وقوعه، وأبلغناهم فقط أنّهم سيشاهدون أو يسمعون الطالبات يتحدثْن عن فيلم كنّ يشاهدنّه، وحتى لا يستثار الشكّ لديهم، وضعنا الحكم المتعلق بالصدق ضمن قائمة طويلة من الأحكام الواجب عليهم الادلاء بها، مثل الصداقة، والانبساط، والهيمنة، والغرابة، والهدوء وغيرها.

وعلـى الرغم من وجـود بعض الطالبـات ممن لم يبرعْـن بالكذب، واللواتـي اكتُشفْن بسهولـة، فـإنّ معظمهنّ ضلّلنَ الحـكّام غير المتشككيـن، وكانت أسوأ الأحـكام للذين رأوا الوجه، أو سمعوا الكلمات فقط؛ فقد قيّموا طالبات التمريض أنهنّ أكثر صدقاً، في حين كنّ

فــي الحقيقة أكثر كذباً، ولم يكـن أداء المجموعة المتشككة أفضل، فقـد تمّ إخبار أفرادها بالتعليمات التي أُعطيت لطالبــات التمريض، وأُعلمت المجموعة أنها ستحكم على أشخاص إمــا كاذبيــن أو صادقين– أي الصــدق أو الخداع. في النتيجة، حصل عـدد قليل على نسبة تفوق المصادفة في تحديد الطالبات المخادعات من الصادقات.

وكان الذيــن شاهدوا حــركات الجسم هم الأفضــل في إصدار الأحــكام، وحتى هؤلاء كانــت أحكامهم صحيحة بما نسبته 65%، في حين أنّ نسبة الطالع والمصادفة في الأحكام الصحيحــة كانــت 50%[3]. ونجح بعضهم بتحديد 85% من الكاذبيــن. كانت بعض الأحكام الدقيقــة صادرة عن معالجين نفسيين ذوي خبرة وسمعــة كونهم أطباء متمرسين، في حين كان بعضهم الآخر أشخاصاً فائقي الحساسية في مهن أخرى.*

ليســ من الضروري أن يكون التضليل قويّاً، أجاد الأشخاص الذين قيل لهم ما يدور في هــذا الفصل، والفصل الذي يليه، الحكم على الطالبات الكاذبات، تماماً كإجادة المعالجين النفسيين من ذوي الخبرة، فمن الممكن تعلم قرائن الخداع، ويحصل مكتشف الأكاذيب على فرصــة أفضل إذا اشتمــل الخداع على العواطف، ولم يكن الكاذب مختــلاً عقليّاً، أو حاذقاً، أو كاذبــاً بالفطرة. في هذا الشأن، هناك ثلاثة أهداف، هي: كشف الأكثر كذباً، والخطأ في الحكم على الأكثر صدقاً، والأهم، معرفة الوقت الذي يكون فيه من غير الممكن القيام بأحد الهدفين السابقين.

الكلمات

مــن المُستغــرب أن يُفضح كثير مــن الكاذبين من خلال كلماتهــم وبسبب إهمالهم، لا لأنهــم لا يستطيعون إخفاء مــا يقولون، أو أنهم حاولوا ذلك وفشلوا، بل ببساطة لأنهم أهملوا التلفيــق بعناية، لقــد ذكر رئيس تنفيذي لشركــة بحوث أنّ زميلاً تقــدم لوظيفة في الشركة

* لقد حاول كثير من علماء النفس تحديد السبب الذي يجعل الشخص حكماً جيداً أو سيئاً على الآخرين، ولكن لم يتم إحراز تقدم في ذلك. للاطلاع على البحوث المقدمة في ذلك انظر: Measuring the Ability to Recognize Facial Expressions of Emotion,» in Emotion in the Human Face, ed. Paul Ekman (New York: Cambridge University Press, 1982).

باسميـن مختلفين في السنـة نفسها، ولدى سؤاله بأيّ الاسمين يرغـب أن يُنادى به، استمر الرجـل الذي دعا نفسه أولاً ليزلي دانتير، وتحول لاحقاً لاسم ليستر دينتر في المراوغة دون أن يخطـئ قيـد أنملة، فسّر تغييره لاسمـه الأول لأنّ هذا الاسم بدا أنثويّـاً جدّاً، وغير اسمه الأخيـر لجعـل نطقه أسهل، ولكن رسائـل التوصية هي التي فضحته، لقـد قدم ثلاث رسائل توصية، وقد أخطأ أصحاب العمل فيها بالخطأ الإملائي نفسه(4).

حتـى الـكاذب الحذر قد يفضحـه ما عرفه سيغمونـد فرويد بزلة اللسـان، ففي كتابه (**علم النفس في الحياة اليومية**)، بيّن فرويد كيف أنّ الأخطاء في الحياة اليومية مثل زلات اللسـان، ونسيان الأسماء المألوفة، والأخطـاء في القراءة والكتابة لم تكن مصادفة، بل هي أحداث ذات معنى، وتكشف عن عقد نفسية داخلية. فالزّلّات معبرة، وقال عنها: هي شيء لم يرغـب الشخص بقوله: وتصبح الزّلّات نمط خيانة ذاتيّة(5)». لم يكن فرويد مهتماً بالخداع، ولكنّ أحد الأمثلة التي استخدمها بيّن زلة لسان فضحت كذبة، ويصف المثال تجربة الدكتور بريل، وهو أحد أتباع فرويد الأوائل والمعروفين:

(فـي إحـدى الليالي، خرجت بنزهة مـع الدكتور فرينـك، ناقشنا فيهـا أعمال جمعية التحليـل النفسي في نيويـورك. وعلى سبيل المصادفة، قابلنا زميلنـا الدكتور والي الذي لم أرَه منـذ سنوات عدّة، ولم أكن أعرف عن حياته الخاصة شيئاً، كنا مسرورين للقاء مجدّداً، فدعوته لمرافقتنا إلى المقهى حيث جلسنا نتحدث لساعتين، وبدا أنه يعرف بعض التفاصيل عني؛ إذ سألني بعد تبادل التحية المعتادة عن طفلي الصغير، وأعلمني أنه يسمع عني الأخبار بين حين وآخر من صديق مشترك، وكان مهتماً بعملي بعد أن قرأ عنه في المجلة الطبية، أمّا سؤالي إياه عما إذا كان متزوجاً فقد أجاب بالنفي وأضاف: لِمَ ينبغي لرجل مثلي أن يتزوج؟

وحيـن مغادرتنا المقهـى، التفت نحوي قائلاً: أحب أن أعرف ما الذي ستفعله في حالة كالحالة التي سأقصها عليك. قال: كنت أعرف ممرضة مدّعى عليها ثانية في دعوى طلاق، وقد ارتكبت الزنا في أثناء مدة رفع الدعوى.

قاضت الزوجة الزوج، واتهمت أنها مزواجة، فحصلَ على الطلاق. فقاطعته قائلاً: هل تعنـي أنها حصلتْ على الطلاق. فصحّح كلامه على الفـور قائلاً: نعم، بالطبع حصلتْ على

الطلاق، وتابع الحديث عن كيف أنّ الممرضة تأثرت جدّاً بإجراءات الطلاق والفضيحة مما جعلها تشرب الخمر، وأصبحت عصبية جدّاً، وما إلى ذلك من سلوكات، وطلب إليّ نصحه في كيفية التعامل معها.

وفور تصحيحي لخطئه، طلبت إليه تفسيراً لذلك، ولكني حصلت على الجواب المفاجئ المعتاد: أليس من حقّ الشخص أن يزلّ لسانه؟ لقد كانت مجرّد مصادفة ليس إلّا، فأجبته بوجوب وجود سبب لكلّ خطأ في الكلام، ولأنّه لم يخبرني سابقاً أنه متزوج، فإنني أميل إلى افتراض أنه هو بطل القصة؛ لأنه في تلك الحالة يمكن تفسير زلة اللسان برغبته في أنه هو من حصلَ على الطلاق بدلاً من زوجته، كي لا يضطّر إلى دفع نفقه لها تنفيذاً لقوانين الزواج الخاصة بالبلد، وكي يستطيع الزواج ثانية في ولاية نيويورك. لقد نفى بقوة حدسي، ولكن ردّة الفعل العاطفية المبالغ بها التي رافقت ذلك، والتي أظهر فيها علامات الامتعاض المتبوعة بضحكة قد زادت من ارتيابي، رجوته إخباري الصدق لمصلحة العلم، أجاب: إذا كنت تريدني أن أكذب فعليك أن تصدق أني لم أكن يوماً متزوجاً. وعليه، يكون تفسيرك النفسي التحليلي غير صحيح، وأضاف: إنّ الذي ينتبه لكلّ صغيرة خطر بصورة إيجابية، ثم تذكّر فجأة أنّ لديه موعداً آخر وتركنا.

كنتُ والدكتور فرينك مقتنعين أنّ تفسير زلة لسانه كانت صحيحة، فقررت إثباتها أو دحضها من خلال إجراء مزيد من البحث. بعد بضعة أيام، زرت جاري، وهو صديق قديم للدكتور الذي استطاع إثبات تفسيري بكلّ دقة، لقد تمت إجراءات الطلاق قبل بضعة أسابيع، واتهمت الممرضة أنها اقترفت الفاحشة وهي ما تزال على ذمة زوجها[6].

قال فرويد «**إنّ كبت نيّة المتحدث في قول شيء ما شرط لا غنى عنه لحدوث زلة اللسان**[7]». قد يكون الكبت متعمداً إذا كان المتحدث كاذباً، ولكن فرويد كان أكثر اهتماماً بالحالات التي لا يدرك المتحدث فيها ما قد كبته، أو حتى عندها قد لا يدرك المتحدث ذلك.

على مكتشف الكذب أن يكون حذراً، وعدم افتراض أنّ أيَّ زلة لسان دليلٌ على الكذب. يساعد السياق الذي تحدث فيه زلة اللسان على معرفة ما إذا كانت الزّلّة تشي بكذبة أم لا، على مكتشف الكذب أيضاً أن يتجنب خطأ الحكم على شخص ما أنّه صادق بسبب عدم وقوعه بزلات لسان فقط؛ إذ لا تحتوي كثير من الأكاذيب عليها، لم يفسّر فرويد لماذا تفضح

الأكاذيب بعض الزلات في حين لا يفعل كثير منها ذلك، من المثير التفكير أنّ الزلات تحدث عندما يريد الكاذب أن يُكتشف، وعندما يعاني ذنب الكذب، بالتأكيد شعر الدكتور بذنب الخداع بشأن الكذب على زميله الموقّر، ولكن الدراسات التي تفسّر فضح زلات اللسان لبعض الأكاذيب فقط أو حتى التخمين بذلك لم تُجرَ بعد.

التّهجّم طريقة ثالثة يفضح الكاذبون أنفسهم بها بالكلمات. يختلف التّهجّم عن زلة اللسان. حيث يكون لغو الحديث أكثر من كلمة أو اثنتين. إذ لا تزل المعلومات بل تتدفق. ويندفع الكاذب بعواطفه، ولا يدرك ما حدث إلا بعد ظهور عواقب ما كشفه. ولو بقي الكاذب هادئاً، لما كشف عن معلومات تؤكد كذبه، وما يسبب إعطاء الكاذب للمعلومات هو ضغط العاطفة المربك كالغضب، أو الرغبة، أو اليأس، أو الإحباط. قدّم توم بروكاو المضيف في برنامج «عرض اليوم» في قناة (**NBC**) التّلفازيّة وصفاً لمصدر رابع من قرائن الخداع، بقوله: إنّ معظمَ القرائن التي حصلت عليها من الأشخاص لفظيةٌ وليست بدنية.

فأنا لا أنظر إلى وجه الشخص باحثاً عن علامات تدلّ على كذبه، وما أسعى إليه هو الإجابات الملتوية أو المراوغات المتطورة[8]». يدعم قليل من الدراسات حدس بروكاو الذي وجد أنّ بعض الأشخاص يسهبون في حديثهم، ويدلون بإجابات غير مباشرة، ويقدّمون معلومات أكثر مما طُلب إليهم، بالمقابل، أثبتت دراسات بحثية أخرى عكس ذلك تماماً؛ حيث إنّ معظم الأشخاص أذكياء جدّاً، ومراغون، وغير مباشري الإجابة.* ولربما غفل توم بروكاو عن هذا الصنف من الكاذبين. وتكمن المخاطرة الأسوأ في إساءة الحكم على

* من الصعب فهم ما يمكن استنتاجه من تناقضات بحوث الخداع السابقة، إذ إنّ التجارب نفسها ليست ذات مصداقية، فقد درست جميعها تقريباً طلاباً كذبوا بأمور تافهة بوجود مخاطرة بسيطة. أظهرت معظم التجارب في الكذب القليل من الأفكار عن نوع الكذبة التي تتم دراستها، وتكون الكذبة المدروسة مختارة لأنّ من السهل إعدادها في المختبر، لقد طُلب إلى الطلاب مثلاً النقاش المقنع عن عقوبة الإعدام أو الإجهاض مما يتعارض مع ما يعتقدون به، أو طُلب إليهم إبداء رأيهم في شخص تُعرض عليهم صورته، ثم طُلب إليهم الادعاء أنّ لديهم موقفاً معاكساً، لقد فشلت هذه التجارب عادة في افتراض علاقة الكاذب بالهدف، وفي كيفية تأثيرها بمدى صعوبة محاولة الكاذب للنجاح. في العادة، لا يتعارف الكاذب والمكذوب عليه، ولا يوجد هناك سبب يدعو للتفكير أن يلاقي أحدهم الآخر ثانية، وأحياناً لا يكون هناك مكذوب عليه فعلي. ولكن بدلاً من ذلك، قد يتحدث الكاذب بطريقة مضللة مع آلة. لمراجعة حديثة غير حاسمة بما فيه الكفاية لهذه التجارب (انظر: Miron Zuckerman, Bella M. DePaulo, and Robert Rosenthal, «Verbal and Nonverbal Communication of Deception,» in Advances in Experimental Social Psychology, vol. 14 (New York: Academic Press, (1981

الشخص الصادق الذي يصدف أن يكون معقداً أو مراوغاً في حديثه، إذ يتحدث عدد قليل من الأشخاص بهذه الطريقة. وهذه بالنسبة إليهم ليست علامة على الكذب؛ بل الطريقة التي يتحدثون بها ليس إلاّ. إنّ السّلوك الذي يعدّ دليلاً على الخداع قد يكون سلوكاً طبيعيّاً عند آخرين. سأسمي احتمالية إساءة الحكم على مثل هؤلاء الأشخاص مخاطرةَ بروكاو، يكون مكتشف الكذب عرضة لمخاطرة بروكاو، وعندما لا يعرف المشتبه به الذي يكون كاذباً. وسأناقش سبل تجنب مخاطرة بروكاو في الفصل السادس.

لم يتم الكشف عن أيّ مصادر تسرب أخرى وقرائن خداع في الكلمات حتى الآن من خلال البحث العلمي. وأشك في إيجاد كثير منها لاحقاً.

كما ذكرت سابقاً، من السهل على المخادع إخفاء الكلمات وتزويرها، على الرغم من وقوع الأخطاء، مثل أخطاء الإهمال، والزلات، والتّهجّم، والإسهاب، أو الكلام غير المباشر.

الصوت

يشير الصّوت إلى كلّ ما هو معني بالكلام ما عدا الكلمات، وتُعدّ أكثر قرائن الخداع الصوتية شيوعاً الوقفات، التي قد تكون طويلة جدّاً ومتكررة، وقد يثير التردد في بداية منعطف الكلام الشكوك، خصوصاً إذا حدث التردد في أثناء الإجابة عن سؤال. وكذلك تفعل الوقفات القصيرة في أثناء سياق الحديث إذا ما حدثت بكثرة. قد تكون أخطاء الكلام أيضاً دليلاً على الخداع. وتشتمل الأخطاء على الكلمات مثل: آه، آه، أه»، والتكرارات مثل: أنا، أنا، أنا، أعني، أنا حقاً. والكلمات الجزئية مثل: لقد أحببتها حق. قا.

تحدث قرائن الصوت اللفظية على الخداع ، مثل أخطاء الكلام والوقفات لسببين مترابطين. قد لا تكون الكاذبة قد تدربت على كذبتها مسبقاً، وإذا لم تتوقع الكذب، أو كانت جاهزة لتكذب ولكنها لم تتوقع سؤالاً ما، فقد تتردد أو تقترف الأخطاء الكلامية، ولكن قد تحدث أخطاء الكلام أيضاً حتى عندما تكون الكذبة معدّة تماماً. وقد يتسبب الخوف الشديد من الانكشاف بتعثّر الكاذبة أو نسيانها الكذبة، قد يفاقم الخوف من انكشاف الأخطاء التي

يرتكبها الكاذب غير المستعد، وقد يجعل سماع الكاذبة لكذبتها ومدى سوئها أكثر خوفاً من الانكشاف، الأمر الذي يزيد وقفاتها وأخطاءها في الحديث.

يمكن الكشف عن الخداع من خلال نبرة الصوت أيضاً، ففي حين يعتقد معظمنا أنّ الصوت يشير إلى العاطفة التي يشعر بها الشخص، فإنّ العلماء الذين يدرسون الصوت غير متأكدين من ذلك، لقد اكتشفوا عدداً من الطرق لتمييز الأصوات السارة من غير السارة، ولكنهم لا يعرفون حتى الآن ما إذا كانت نبرة الصوت مختلفة بالنسبة إلى المشاعر التالية غير السارة: الغضب، أو الخوف، أو اليأس، أو الاشمئزاز، أو الازدراء. أعتقد أنّ هذه الفروق ستوجد بمرور الوقت. ولكن في الوقت الراهن، سأشرح ما هو معروف، وما يبدو واعداً في قادمِ الأيّام.

إنّ أفضل ما تم توثيقه على علامة العاطفة الصوتية هي النّبرة. إذ تصبح النّبرة مرتفعة لدى قرابة 70% من الأشخاص الذين خضعوا للدراسة عندما شعروا بالضّيق، ربما يكون هذا صحيحاً عندما يكون الضّيق بسبب شعور غضب أو خوف. وهناك دليل على أنّ النبرة تنخفض بشعور الحزن أو الأسف، ولكن ذلك ليس أكيداً تماماً، لم يصل العلماء إلى نتيجة تفيد بتغيير النبرة عند الإثارة أو الضيق أو الاشمئزاز أو الاحتقار. إنّ علامات العاطفة الأخرى (ليست مثبتة ولكنها واعدة) كمشاعر الغضب والخوف يستدرجان صوتاً سريعاً ومرتفعاً، في حين تستدرج مشاعر الحزن اللفظَ اللين البطيء، قد تحدث إنجازات في قياس الجوانب الأخرى؛ كجودة الصوت، وتردده، وطيف الطاقة في نطاقات تردد مختلفة، وتغيرات مرتبطة بالتنفس[9].

إنّ تغيرات الصوت التي تنتجها العواطف ليست سهلة الإخفاء؛ إذا كان الكذب مرتبطاً أساساً بالعواطف المحسوسة لحظة الكذب، فعندها تكون فرصة التسرب جيدة، وإذا كان هدف الكذبة إخفاء الخوف أو الغضب، فيجب أن يكون الصوت أعلى وأقوى، ومعدل الكلام أسرع، إنّ النمط المقابل لتغيرات الصوت هو القادر فقط على تسريب مشاعر الحزن الذي يحاول المخادع إخفاءها.

يمكـن لتـردد الصوت أن يفضـح الأكاذيب التي لم تبـذل جهوداً لإخفـاء العاطفة إذا أصبحـت هذه العاطفة معنية للفرد، وينتج الخوف من الانكشاف صوتاً يشبه صوت الخوف. وقـد يبـدو أن ذنب الخداع ينتج التغيرات نفسها في تردد الصوت كالحزن، ولكن هذا مجرد تخميـن، لم يتضح ما إذا أمكن فصل لذة الخداع وقياسها في الصوت، أعتقد أنّ الإثارة من أيّ نوع لها توقيع صوتي معين، ولكن هذا لم يثبت بعد.

لقد كانت تجربة طالبات التمريض أول ما وثّق تغير النبرة في الخداع (10) فقد وجدنا أنّ النبـرة ترتفع في أثناء الخـداع، ونعتقد حدوث ذلك؛ لأنّ الطالبات شعرْن بالخوف، وكان هنـاك سببان لشعورهن بهذه العاطفة؛ الأول: أننا فعلنا ما في وسعنا لجعل المخاطرة عالية لكـي يشعرْن بالخوف الشديد من الانكشاف. أما الآخر، فقد ولدت رؤية المشاهد الجراحية الدمويـة شعـور الخوف لـدى بعضهنّ، وما كنا لنجد هـذه النتائج إذا تمّ الحـدّ من مصادر الخوف، وذلك في حالة كان أفراد عيّنة الدراسة غير مبالين ولا معنيين في أن يكذبوا للفوز أو القبول بمهنة معينة، ولكن التجربة عند الطالبات كانت تعني لهنّ الكثير لقبولهنّ في مهنة التمريض. إذن، بوجود قليل من الأخطار، ربما ليس هناك خوف كافٍ ليحدث تغيير في نبرة الصوت. كذلك، لنفترض أننا عرضنا على الطلاب فيلماً عن طفل يحتضر، المرجّح في هذه الحالـة هو الشعور بالحزن لا الخوف، وفي حيـن أدّى الخوف من الانكشاف إلى رفع النبرة، فإنّ إخفاء ردة الفعل بالعاطفة الحزينة تخفضها.

لا تُعـدّ النبرة المرتفعـة علامة على الخداع، بل قد تكون علامـة على خوف أو غضب، وربمـا إثـارة أيضاً، وقد فضحت علامة هذه العاطفة إدعاء الطالبـة أنّها كانت قانعة بشعور السعـادة كإجابة للفيلم الـذي يعرض الزهور، هناك خطر في تفسير أيّ علامة من علامات العاطفـة الصوتية على أنها دليل خداع، فالممرضة الصادقة التي تخشى عدم تصديقها قد تنتـج النبـرة المرتفعة نفسها التي تظهرهـا الكاذبة من جرّاء خوفها مـن انكشاف كذبتها، وتكمـن المشكلة التي تواجه مكتشف الكذب في أنّ الأشخاص البريئين أيضاً تتم استثارتهم عاطفيّـاً أحيانـاً وليس الكاذبين فقط، وفي مناقشتي لهـذه المشكلة لتفسير مكتشف الكذب القرائن الممكنة الأخرى على الخداع سأدعوها (**خطأ أوثلّو**)، وسنناقش في الفصل السادس هـذا الخطأ بالتفصيل، وتفسير كيف يمكـن لمكتشف الكذب التأكد من عدم الوقوع في هذا

الخطـأ، وهو مع الأسف أمر ليس من السهل تجنّبه. إنّ تغيرات الصوت التي يمكن أن تفضح الخـداع عرضـة أيضاً لمخاطـرة بروكاو(الفروق الفرديـة في السلوك العاطفـي) المذكورة سابقاً فيما يتعلق بالتوقفات وأخطاء الكلام.

مثلمـا أنّ العلامة الصوتية لعاطفة مـا، مثل النبرة، قد لا تشير إلى وجود كذبة، كذلك غيـاب أيّ علامـة صوتية للعاطفة قـد لا يثبت بالضرورة الصدق، تتوقـف مصداقية شهادة جـون دين في أثناء عرض جلسات مجلس الشيوخ عن ووترغيت في التّلفاز الوطني جزئيّاً – على كيفية تفسير غياب العاطفة في صوته، النغمة المنبسطة في الصوت. وقد اعترف جون ديـن، مستشار الرئيس نيكسون، بعد اثنـي عشر شهراً من اختراق مقر اللجنة الديمقراطية الوطنيـة ووترغيت. وعندمـا شهد نيكسون أخيراً أنه قبل شهر حـاول أحد مساعديه التستر على فضيحة ووترغيت، فإنّ نيكسون أنكر معرفته بذلك.

وبكلمـات القاضي الفيدرالي جون سيريكا: لقد حُشـر الشخص التافه في التستر على الفضيحـة بشهادة أحدهم ضد الآخر على الأغلـب، وما بقي لتحديده هو الذنب الحقيقي أو براءة الأشخاص في الإدارة. وكانت شهادة دين في صميم ذلك السؤال.... في شهادته أمام مجلـس الشيوخ، زعم دين أنه أبلغ نيكسون ثانية أنّ إسكات المتهمين بالسطو على ووترغيت يحتـاج إلى مليون دولار، وأجاب نيكسون ثانيـة أن تحصيل النقود ممكن، دون إبداء صدمة، ولا غضب، ولا ممانعة، لقد كان هذا اتهام دين الأكثر إثارة، فقد كان يقول إن نيكسون نفسه أثبت عملية الدفع للمهتمين[11].

دحضـ البيت الأبيض فـي اليوم اللاحق، ادعـاءات دين، وفي مذكـرات نيكسون التي نشرهـا بعد خمس سنـوات قال: لقد تابعت شهادات جون دين فـي فضيحة ووترغيت ورأيت أنها خليط من الصدق والكذب، وخليط بارع من الحقيقة والكذب، ومن سوء الفهم الصادق الممكـن واختـلالات الإدراك الواضحة، في محاولة للتخفيف مـن دوره الشخصي، لقد نقل معرفتـه الكليـة الخاصة للتستر وقلقـه الشخصي على أفعـال الآخرين وأقوالهـم[12]». وفي الوقـت الذي كان الهجوم فيه على دين أشدّ ما يكون، تسربت قصص من البيت الأبيض، مع الاحتـرام، للصحافة تدعي أن دين كان يكذب ويهاجم الرئيس؛ لأنه كان خائفاً من التحرش الجنسي إذا ما ذهب إلى السجن.

لقد كانت كلمة دين ضد كلمة نيكسون، وعرف عدد قليل من الأشخاص بالتأكيد أيهما كان يقول الحقيقة، وقال القاضي سيريكا واصفاً شكوكه: لا بدّ من القول أني كنت متشككاً بمزاعم دين، فقد اتضح أنه كان شخصية رئيسة في عملية التستر... وكان لديه الكثير ليخسره... وبدا لي في ذلك الوقت أنّ دين قد يكون مهتماً أكثر بحماية نفسه من خلال توريط الرئيس بدلاً من قول الصدق[13]».

يستمر سيريكا في وصف إعجابه بصوت دين: بعد أيام من إدلاء دين بإفادته، أمطرته اللجنة بوابل من الأسئلة العدائية، ولكنه تمسك بإفادته، ولم يبدِ استياءً بأيّ حال من الأحوال، وجعلت نبرة صوته السلسة غير العاطفية مصدقةً[14]». يرى بعضهم أنّ المتحدث بنبرة صوت بسيطة، وأنّه متمكن من نفسه، يشير إلى وجود ما هو مخفي، وستتطلب إساءة تفسير نبرة صوت دين البسيطة معرفة ما إذا كانت هذه النبرة في صوته سمة من سماته وليست دليلا على شيء آخر. إنّ الإخفاق في إظهار علامة على العاطفة في الصوت ليست بالضرورة دليل على الصدق. إذ لا يبدي بعض الأشخاص مشاعرهم أبدا، أو على الأقل ليس بأصواتهم. وحتى أولئك العاطفيين، قد لا تكون عاطفتهم بسبب كذبة ما. لقد كان القاضي سيريكا عرضة لخطر بروكاو، تذكر أنّ المذيع توم بروكاو ذكر أنه يفسّر الإسهاب في الحديث على أنّه علامة على الكذب، وتذكّر اعتراضي على مصداقية هذا التفسير في أنّ الإسهاب سمة خاصة عند بعض الأفراد. والآن، يمكن أن يقوم القاضي سيريكا بالخطأ العكسي، وهو الحكم على شخص أنّه صادق لأنه لم يُظهر دليلاً على الخداع، دون أن يلاحظ أنّ بعض الأشخاص قد لا يفعلون ذلك.

ينشأ كلّ من الخطآن بسبب حقيقة تباين الأشخاص في تعابيرهم العاطفية. ويكون مكتشف الكذب معرضاً للخطأ إلا إذا كان يعرف ماهية سلوك المشتبه به العاطفي. ولن تكون هناك مخاطرة بروكاو إذا لم يكن هناك قرائن سلوكية ذات مصداقية على الخداع.

عندها لن يكون لدى مكتشف الكذب شيء يتبعه، ولن تكون هناك مخاطرة بروكاو إذا كانت القرائن السلوكية ذات مصداقية تامة للجميع بدلاً من بعضهم. ليس هناك دليل خداع ذو مصداقية للأشخاص جميعهم، ولكنها منفردة ومجتمعة قد تساعد مكتشف الكذب على الحكم على معظم الأشخاص، وسيعرف كلّ من زوجة دين وأصدقائه وزملائه في العمل فيما

إذا كان ديـن مثل باقي الأشخاص في إظهار العاطفة فـي صوته، أم أنه قادر في العادة على التحكـم في صوته، لقد كان القاضي سيريكا عرضة لمخاطرة بروكاو لعدم معرفته السابقة بدين.

تقـدم شهـادة دين التي كانت على وتيـرة واحدة من نبرة الصوت درسـاً آخر، إذ على مكتشف الكذب التفكير في إمكانية أن يكون المشتبه به موهوباً في الأداء بصورة غير عادية، ومتمكنــاً من إخفاء سلوكه. يصبـح حينها من غير الممكن معرفة ما إذا كان ذلك الشخص كاذبــاً أم لا. استنــاداً إلى تفسيـره، كان جون دين موهوباً في الأداء، وبـدا أنه يعرف مسبقاً كيـف يفسر القاضـي سيريكا والآخـرون سلوكه. وأفاد بالأفـكار التالية فـي أثناء تخطيطه كيفيـة تصرفه عنـد الإدلاء بالشهادة، سيكون مـن السهل إضفاء لمســة عاطفية أو الظهور بمظهـر المنقلب عـن الشهادة؛ قررتُ أن أكـون متوازناً غير مرتبـك، ودون عاطفة، وهادئاً قـدر الإمكان، وأجيب عـن الأسئلة بالطريقة نفسها؛ حيث يميـل الأشخاص إلى الاعتقاد أنّ الصـادق هادئ[15]». وبعد الانتهاء من الشهـادة، وبداية الاستجواب، قال دين: لقد أصبحت عاطفيّــاً جدّاً، إنني أختنق، وأشعـر بالوحدة، وعاجز بوجه سلطة الرئيـس، فتنفست عميقاً لجعـل ذلك يبدو كما لو أنني أفكر، وقـد كنت أناضل للسيطرة.... وصممت على عدم إظهار عواطفي هذه؛ لأنّ الصحافة ستفسر ذلك على أنّه دليل ضعف إنساني عندي[16]».

ولكـن حقيقة أنّ أداء دين متفق عليه، وأنـه كان موهوباً جدّاً في السيطرة على سلوكه، لا يعنـي بالضرورة أنه كان كاذباً، وكان ينبغـي أن يكون الآخرون حذرين بتفسير سلوكه. في الواقـع، تشير القرائن اللاحقة أنّ شهادة دين كانت صادقة بنسبة كبيرة، وأن نيكسون الذي كان على عكس دين ليس موهوباً في الأداء، وكان كاذباً.

قبـل الانتهاء من مناقشة موضوع الصوت، وآخر موضـوع سنناقشه هو الادعاء بوجود آلات تستطيـع كشف الأكاذيب آليّاً وبدقة من خـلال الصوت، هذه الأجهزة هي: جهاز مقيم الضغوط النفسية (PSE)، وجهاز محلل الصوت مارك الثاني، وجهاز محلل التوتر الصوتي، وجهـاز محلل الضغـوط النفسيـة (PSA)، وجهاز الهاغـوث، وجهاز مراقبـة توتر الصوت. ويدّعـي مصنعو هذه الأجهزة أنها تستطيع اكتشاف الكذب من الصوت، وحتى عبر الهاتف. وكما تشير أسماؤها، فهي تكتشف التوتر لا الكذب. لا توجد هناك علامة صوتية على الكذب

بحدّ ذاته، والعلامة فقط هي للعواطف السلبية. لم يكن مصنعو هذه الأدوات غالية الثمن صريحين جدّاً في تحذير المستخدم بشأن الكاذبين الذين يشعرون بالضيق. لقد وجد العلماء المتخصصون في دراسة الصوت وأولئك المتخصصون في استخدام التقنيات الأخرى لكشف الكذب أنّ هذه الآلات لا تقوم بما يفوق المصادفة في الكشف عن الكذب، وهي ليست جيدة بالمهمة الأكثر سهولة في الكشف في ما إذا كان الشخص متضايقاً أم لا[17]. لكن يبدو أنّ هذا لم يؤثر سلباً في تسويق هذه الأجهزة وبيعها. إنّ إمكانية الطريقة المصممة على النجاح غير المزعجة في كشف الأكاذيب مثيرة جدّاً للاهتمام.

الجسم

قبل أكثر من خمس وعشرين سنة، وفي تجربة جرت في أثناء دراستي، عرفت عن طريقة سرّبت فيها حركاتُ الجسم العاطفةَ المخفيةَ، لم يكن هناك دليل علمي كافٍ عندها عمّا إذا كانت حركات الجسم تعكس العاطفة أو الشخصية بدقة، أمّا الأطباء النفسيون فقد اعتقد بعضهم بذلك، لكن مزاعمهم رُفضت بوصفها حكايات لا أساس لها عن طريق السلوكيين الذين سيطروا على علم النفس الأكاديمي في ذلك الوقت، من عام 1914م إلى 1954م، فشلت كثير من الدراسات في إيجاد دعم لافتراض أنّ السلوك غير اللفظي يقدم معلومات دقيقة عن العاطفة والشخصية.

يفخر علم النفس الأكاديميّ بكيفية رفض التجارب العلمية اعتقاد الشخص العادي معرفة العاطفة أو الشخصية من الوجه أو الجسم، وعدّ ذلك نوعاً من الخرافة. ويرى أنّ بعضَ علماء الاجتماع أو المعالجين الذين تابعوا الكتابة عن حركات الجسم مثل الذين اهتموا بالإدراك ما فوق الحسي وفن الخط – ساذجون، أو ناقصو عقل، أو مشعوذون.

لم أصدق أنّ الأمر كذلك، وبمشاهدة حركات الجسم في أثناء جلسات العلاج الجماعي اقتنعت أنّ بإمكاني معرفة الشخص المتضايق وسبب ضيقه، وبكامل تفاؤل طالب الجامعة في السنة الأولى، أخذت على عاتقي مهمة إقناع علماء النفس الأكاديميين تغيير وجهة نظرهم تجاه السلوك غير اللفظي، فأعددت تجربة لإثبات تغيّر حركات الجسم عندما يكون الشخص متوتراً، كان مصدر التوتر أستاذي في السنة الأولى، وقد وافق على أن يتبع خطة وضعتُها لاستجواب

زملائـي الطلبة بتخصص علم النفس بشأن الأمـور التي أعرف أننا جميعاً عرضة لها، وسجلت بآلـة تصويـر مخفية سلوك زملائـي عندما سألهم الأستـاذ عما يخططون له بعـد الانتهاء من التدريـب، بعد السؤال، هاجم الأستاذ الطلاب الذين ذكروا توجههم إلى البحث العلمي، ونعتهم بالاختباء في المختبر، والتهرب من مسؤولية مساعدة الذين يعانون مرضاً عقليّاً. انتقد الطلاب أيضـاً الذين أوضحوا نيتهم مساعدة المرضى النفسيين بممارسة العلاج النفسي، متهماً إياهم فـي أنّهم يسعون وراء تحصيل المـال فقط، والتهرب من المسؤولية في القيام بالبحث المطلوب لإيجـاد علاجـات المرض العقلـي. بعدئذٍ، سأل الأستـاذ الطلاب عمّا إذا أصيبـوا في الماضي بمرضٍ تطلب علاجاً نفسيّاً، فسأل الطلاب الذين أجابوا بنعـم: كيف ستساعدون الآخرين إذا كنتـم أنتم مرضى؟ وهاجم الطلاب الذين أجابوا بالنفي أنهـم يحاولون مساعدة الآخرين دون معرفتهـم لأنفسهم أولاً، لم يكـن هناك رابح منهم في أيّ حال. ولجعل الأمـور أسوأ، طلبت إلى الأستاذ أن يقاطعهم، ولا يدع أحدهم يكمل إجابته على الانتقادات اللاذعة الموجهة له.

تطوع الطـلاب لهذه التجربة البائسـة لمساعدتي، وقد علمـوا أنّ المقابلة بحثيّة، وأنّ التجربة ستنطوي على التّوتّر. ولكن ذلك لم يجعلها أسهل بالنسبة إليهم عندما بدأت.

كان الأستـاذ الذي يتصرف تصرّفاً غير معقول خارج نطاق التجربة يتمتع بسلطة هائلة على الطلاب، وقد كانت تقييماته حاسمة لتخرجهم، إضافة إلى أنّ توصياته ستحدّد نوع العمل الـذي قـد يحصلون عليه لاحقاً، في غضـون بضع دقائق، ارتبك الطـلاب، ولعدم تمكنهم من المغادرة أو الدفاع عن أنفسهم تأججوا بغضب مكبوت، ومالوا إلى الصمت، أو التمتمة بآهات تشي بغضبهم. وقبل أن تنقضي خمس دقائق طلبت إلى الأستاذ إنهاء بؤس هؤلاء الطلاب، من خلال شرح ما كان يفعله، ولماذا قام بذلك، مادحاً الطلاب لتحمّلهم الضغط جيداً.

من خلال مرآة صورت بآلة تصوير، راقبت حركات الجسم بصورة مستمرة، فلم أصدق مـا رأته عيناي في المقابلة الأولى؛ بعد الهجـوم الثالث، كانت طالبة تومئ بالأصبع الأوسط للأستـاذ، وقـد استمرت بتلك الحركة دقيقة كاملة، ومع ذلك لم يبدُ عليها الغضب. تصرف الأستـاذ كمـا أنه لم يرها، فهرعتُ إلى مكان المقابلة بعد انتهائها، ولكن كلاهما ادعى أنني ألفّـق ذلك. لقد اعترفت الطالبة بغضبها، ولكنها أنكـرت التعبير عنه، واتفق الأستاذ معها، وأنني قد تخيلت ذلك؛ لأنه كما ذكر لا يغفل عن أيّ إيماءة بمثل هذا الفحش، وعندما حُمِّض

الفيلم كان الدليل موجوداً، ولم تكن إيماءة الأصبع التي ظهرت تعبّر عن مشاعر غير واعية، فقد عرفت الطالبة أنها قامت بها، ولكن التعبير عن هذه العاطفة لم يكن واعياً، فلم تعرف الطالبة أنها أماءت بفحش للأستاذ. لقد تسربت العاطفة التي كانت تتعمد إخفاءها.

بعد مضيّ خمسين سنة، شاهدت نوع التسرب غير اللفظي نفسه؛ إيماءة متسربة أخرى، في التجربة التي حاولت طالبات التمريض فيها إخفاء ردود أفعالهن تجاه المشاهد الجراحية الدموية. ولم تكن إيماءة الأصبع هي المتسربة هذه المرة، بل رفع الكتفين إلى الأعلى. وقامت الطالبات بالكذب الواحدة تلو الأخرى، فقد رفعن أكتافهن إلى الأعلى لدى طرح الشخص الذي يقوم بالمقابلة سؤال: هل ترغبن برؤية مزيد من مقاطع الفيلم؟ أو: هل يمكنك عرض هذا الفيلم على طفل صغير؟

إن رفع الكتفين إلى الأعلى، ورفع الأصبع بفحش، مثالان على حركات تسمى رموزاً لتمييزها عن باقي الإيماءات التي يظهرها الأشخاص. إنّ للرموز معنى دقيقاً جدّاً معروفاً لأيّ كان في المجموعة الثقافية الواحدة؛ فالجميع يعرف معنى رفع الأصبع لأحدهم بفحش، وأنّ هزة الكتفين إلى الأعلى تعني: لا أعرف. أو: أنا عاجز. أو: ما الأهمية؟ ولا تمتلك معظم الإيماءات الأخرى مثل هذا التعريف الدقيق، فضلاً عن أنّ معناها مبهم.

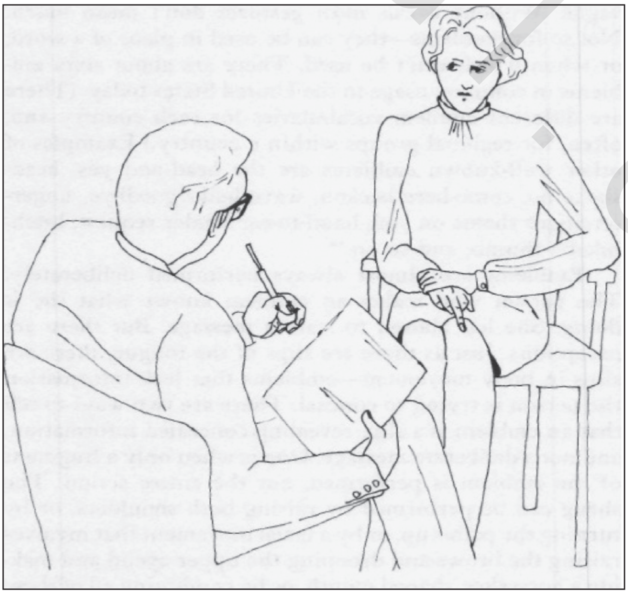

الشكل 1

obeikandl.com

دون كلمـات، لا تعني معظم الإيمـاءات شيئاً، والأمر ليس كذلـك بالنسبة إلى الرموز؛ إذ يمكـن استخدامها مقام الكلمة، أو عندما لا يمكن استخدام الكلمات. هناك قرابة ستين رمـزاً للاستخدام العام في الولايات المتحدة اليوم، وهنـاك مفردات رموز مختلفة لكلّ بلد وللجماعـات الأقليميـة في أغلب الأحيان داخـل البلد الواحد، والأمثلة علـى الرموز الأخرى المعروفة هي إيماءة الرأس بنعم، وتحريك الرأس من اليمين إلى اليسار للدلالة على الإنكار، أو مـن أعلى إلى أسفل إشارة إلى تعال إلى هنا، والتلويح بأهلاً ومع السلامة، وفرك السبابة اليمنـى باليسرى للإشارة إلى فعل مشين، واليد على الأذن طلبا لرفع الصوت، ورفع الإبهام لإيقاف سيارة... إلخ[18].

تـؤدَّى الرموز دائمـاً عن قصد، ويعـرف المستقبِل مـا تُشير إليه هذه الرمـوز تماماً، والرسالـة التي تريد إيصالها. ولكن هناك استثناءات. ومثلمـا أنّ هناك زلات لسان، هناك زلات في حركات الجسم أيضاً، وهي الرموز التي تسرب معلومات يحاول الشخص إخفاءها. توجد طريقتان لمعرفة أنّ الرمز زلة تشي بمعلومة مخفية وليست رسالة عن قصد: إحداهما فـي أداء جزء من الرمز وليس حركة الرمز كاملة؛ يمكـن أداء هزة الكتف برفع الكتفين، أو مـن خلال رفع راحتي اليد إلى الأعلى، أو رفع الحاجبيـن، أو إرخاء الجفن العلوي، أو تدوير الفـم ليصبح على صورة حـذوة حصان، أو من خلال دمج هذه الحـركات جميعها، وأحياناً إمالـة الرأس نحو الجانب قليلاً، عندما يكون الرمز تسريباً يظهر عنصر واحد فقط، وحتى أنـه يكـون غير مكتمل؛ فقد ترفع كتـف واحدة فقط، وليس لارتفاع عـال، أو قد ترتفع الشفة السفليـة قليلاً فقط، أو قد تدور راحتا اليد بعضـ الشيء: لا ينطوي رمز الأصبع على ترتيب معين بين الأصابع الخمسة، ولكن بدفع اليد إلى الأمام والأعلى بتكرار، ولما كان رمز الأصبع غير مقصود، إلّا أنّه كان دلالة على غضب الطالبة الحانق.

والطريقة الأخرى لكون الرموز زلّة لا حركة مقصودة تكمن في أدائها على خلاف وضع التقديم، تؤدّى معظم الرموز أمام الشخص تماماً بين منطقتي الخصر والرقبة، ولا يمكن أن يـؤدى في موقف العرض. في مقابلة التوتر، عندما رفعت الطالبة أصبعها للمدِّرس، لم ترفع الطالبـة أصبعها في الفضاء، ولكنها كانت تضع يدها بارتياح على ركبتها، وهذا تماماً خارج منطقـة العرض، وفي تجربة طالبـات التمريض، كانت هزة الكتف التـي سرّبت مشاعرهن

المعنيــة بالعجز، وعدم القــدرة على إخفاء المشاعر حركات متناوبــة بسيطة بوضع اليدين بعضهما على بعض، مع استمرار بقائهما في الحضن. لو كانت العلامة الخاصة غير مجزأة، وظهــرت في موقــف العرض، فسيدرك الكاذب ما يحدث وسيشعــر بحدوثها. بالطبع، تجعل هــذه الخصائص التي تميز العلامة الخاصة المتسربــة، أجزاء العلامة الخاصة واندفاعها فــي موقف العرض، أمر تمييزها صعباً للآخرين. فقد يظهر الكاذب تسريباً لهذه العلامات الخاصة مرة بعد مرة، وفي العادة لا يلاحظها الكاذب ولا المتلقِّي.

ليســ شرطــاً أن يقــوم كلّ كاذب بزلة علامة خاصــة. فلا توجد علامــات مؤكدة على الخــداع. هناك عدد قليل من البحــوث التي تقدر عدد مرات حدوث زلات العلامات الخاصة عندمــا يكــذب الأشخاصــ. لقد أظهر اثنــان من أصل خمســة من الطلاب الذيــن تعرضوا للأستــاذ الفظّ زلة بعلامــة خاصة، وأظهرت أكثر من نصف طالبــات التمريض زلة بعلامة خاصــة عندما كنّ يكذبّــن. لا أعرف سبب قيام بعض الأشخاص بهــذا التسريب ولا يقوم به الجميع.*

فــي حين لا يبدي كلّ كاذب زلة علامة خاصة، فإنّها عند حدوثها تكون ذات مصداقية تماماً، إنّ زلّة العلامة الخاصة علامة أصلية لرسالة لا يرغب الشخص بكشفها.

بالإضافة إلى أنّ تفسيرها أقل عرضة للهجوم من باقي علامات الخداع، سواء مخاطرة بروكاو كانت أو خطأ أوثلّو؛ فقد يتحدث بعض الأشخاص دائماً بإسهاب، ولكن بعضهم فقط يقــع في زلات العلامــات الخاصة بانتظــام، وقد تدل أخطــاء الكلام على الضغــط بأنواعه المتعــددة، وليســ بالضرورة مشيراً إلى الكــذب. ولأنّ العلامة الخاصة لهــا رسالة محددة، مثل الكلمات، فإنّ زلات العلامات الخاصة لا تكون غامضة جدّاً، فإذا أراد الشخص تسريب رسالــة «تباً لــك» أو «أنا مجنون» أو «لا أقصد ذلك» أو «هنــاك» والتي يمكن إظهارها بعلامة خاصة، فلن تكون هناك مشكلة في تفسير المقصود.

* لسوء الطالع، لم يقم أيّ من الباحثين الآخرين الذين درسوا الخداع بالبحث لمعرفة مدى إمكانية تكرار ما وجدناه بشأن زلات العلامات الخاصة، ولكني متفائل أنهم سيفعلون ذلك؛ لأنهم وجدوا خلال خمس وعشرين سنة تسربات لزلات العلامات الخاصة مرتين.

يعتمد شكل زلة العلامة الخاصة في أثناء الكذبة، وماهية الرسالة المتسربة، على ما يتم إخفاؤه، ففي تجربة الأستاذ الفظّ، كان الطلاب يخفون الغضب والحنق، لذا كانت زلات العلامات الخاصة بالأصبع وقبضة اليد هي الموجودة، وفي تجربة الفيلم الجراحي التدريبي، لم تشعر طالبات التمريض بالغضب، بل شعر كثير منهنّ بعدم قدرتهن على إخفاء مشاعرهن بالصورة المناسبة، وكانت هزة الكتف، التي تعني العجز، هي زلة العلامة الخاصة، يجب عدم تعليم أيّ من صور العلامات الخاصة؛ فكلّ فرد يتعلم صور العلامات الخاصة في ثقافته، ولكن ما يهم تعليمه هو أنّ هذه العلامات الخاصة قد تحدث على صورة زلات. وما لم يكن مكتشف الكذب منتبهاً لهذه الاحتمالية فقد لا يكتشف زلة العلامة الخاصة، ولا ينتبه لها؛ لأنها مجزوءة، وغير مرئية.

تُعدّ التوضيحات نمطاً آخر من حركات الجسم التي يمكنها توفير أدلة خداع، وكثيراً ما يُخلط بين التوضيحات والعلامات الخاصة، ولكن لا بد من التمييز بينهما؛ لأنّ هذين النوعين من حركات الجسم قد تغير بطرق معاكسة عندما يكذب أحدهم. ففي الوقت الذي تزداد فيه زلات العلامات الخاصة تتناقص التوضيحات. تسمى التوضيحات بهذا الاسم لأنها توضح الحديث كما لو أنّ الشخص يتحدث بها، وهناك طرق عدّة للقيام بذلك:

يمكن التركيز على كلمة أو عبارة، مثل تغيّر اللهجة، أو وضع خطّ أسفلها، فضلاً على أنه يمكن تتبع تأثير تدفق الكلام كما لو كان المتحدث يتحكّم في حديثه: وتستطيع اليدان رسم صورة في الفضاء، أو إبداء حركة تكرر، أو أن تضخم ما يقال. واليدان هما ما يوضح الحديث. وعلى الرغم من تأكيد حركات الحواجب والجفن العلوي للتوضيحات، فإنّ الجسم بأكمله أو الجذع العلوي يستطيع فعل ذلك أيضاً.

تفاوتت المواقف الاجتماعية تجاه ملكية التوضيحات عبر القرون القليلة الماضية؛ فقد كانت متداولة في الطبقة الراقية من المجتمع في وقت ما، في حين كان هناك أوقات عُدّت علامات غير لائقة أدبيّاً. وقد صورت كتب الخطابة التوضيحات المطلوبة للخطابة العامة الناجحة.

لم تُجرَ الدراسة العلمية الرائدة في التوضيحات للكشف عن قرائن الخداع، ولكن للطعن في ادعاءات علماء الاجتماع النازيين. تساعد نتائج تلك الدراسة مكتشف الكذب على تجنب الأخطاء التي سببها عدم معرفة الفروق الوطنية في التوضيحات، ظهر في الثلاثينيات كثير من المقالات تدعي أنّ التوضيحات وراثية، وأنّ الأجناس الأدنى مثل اليهود أو الغجر، قاموا بكثير من التوضيحات الكبيرة الشاملة، مقارنة بالأجناس المتفوقة من الآريين الأقل استعمالاً للإيماء، ولم يرد ذكر للتوضيحات الكبيرة التي أظهرها حليف ألمانيا الإيطالي. ديفيد إيفرون[19]؛ يهودي أرجنتيني، درس في جامعة كولومبيا، مع الأنثروبولوجي فرانز بواس توضيحات الأشخاص الذين يعيشون في الجانب الشرقي السفلي من مدينة نيويورك، وقد وجدا أنّ المهاجرين من صقلية استخدموا توضيحات رسمت صورة أو أظهروا حركة، في حين استخدم اليهود المهاجرون من لتوانيا توضيحات تؤكد أو تتبع تدفق الأفكار، لم يختلف أبناؤهم المولودون في الولايات المتحدة، وارتادوا مدارس بها طلاب من الخلفيات الثقافية جميعها – بعضهم عن بعض في استخدام التوضيحات.

استعمل أطفال الوالدين الذين قدم ذووهم من صقلية توضيحات مشابهة لتلك المستخدمة لدى أطفال أبناء يهود لتوانيا. أثبت إيفرون أنّ نمط التوضيحات مكتسب وليس موروثا، يستعمل الأشخاص من الثقافات المختلفة أنواعاً مختلفة من التوضيحات، ولكن بعضهم يستعمل التوضيحات بصورة قليلة، في حين يستعملها آخرون بكثرة، وحتى في الثقافة الواحدة، يختلف الأشخاص في عدد التوضيحات التي يبدونها عادة.* إذن، ليس عدد التوضيحات أو نوعها هو ما يفضح الكذبة، وإنما تأتي قرينة الخداع من ملاحظة تناقص عدد التوضيحات الظاهرة عندما يستخدم الشخص توضيحات أقل من المعتاد، إذ نحتاج إلى المزيد من الشرح لتوضيح متى يستعمل الأشخاص التوضيحات لتجنب إساءة تفسير إظهار الشخص تناقصاً في إظهارها.

---

* تدرب العائلات المهاجرة من مختلف الثقافات التي تستخدم التوضيحات في العادة أبناءها على عدم الحديث بأيديهم، ويُحذّر الأطفال من أنهم إن فعلوا ذلك، فسوف يبدون أنهم جاؤوا من بلد قديم، ويجعلهم عدم التوضيح يشبهون قاطني أوروبا الشمالية، وهي سلالة أمريكية قديمة.

لنفكـر أولاً في سبب استعمـال الأشخاص التوضيحات، حيث تُستعمـل لتفسير الأفكار التـي يصعب التعبير عنها بالكلمـات، وقد وجدنا أنّ الأشخاص كانـوا أكثر عرضة للتوضيح عندمـا طلب إليهم تعريف التعرج مقارنـة بالكرسي، علاوة على أنّ هنالك إمكانية استعمال التوضيح عند شرح كيفية الوصول إلى مكتب البريد مقارنة بشرح خياراتهم المهنية، تستخدم التوضيحـات أيضاً عندما لا يستطيع شخص إيجاد كلمة ما، حيث يبدو أن فرقعة الأصابع أو التطلـع إلـى الفضاء يساعدانه على إيجاد الكلمة كما لـو أنها تطوف فوقه، في حين تلتقطها الحركـة التوضيحيـة. على الأقل، تعرّف مثل هذه التوضيحـات الباحثة عن الكلمة الشخصَ الآخـر أنّ البحـثَ جارٍ، وأنّ المتكلّم لـم ينهِ حديثه بعد. قد يكـون للتوضيحات وظيفة تلقين ذاتـي، فهي تساعد الأشخاص على وضع الكلمات معاً في حديـث متماسك إلى حدّ معقول، إضافة إلى أنّ هذه التوضيحات تزيد من الاندماج مع ما يقال، ونلاحظ أنّ الأشخاص يميلون إلى التوضيح أكثر من المعتاد عندما يكونون غاضبين، أو خائفين، أو مهتاجين، أو مكتئبين، أو متحمسين بإثارة.

فكّـر الآن فـي سبب إبـداء الأشخاص مستـوى توضيحـات أقلّ من المعتـاد؛ لأنّ ذلك سيوضـح متـى يكون التناقـص دليلاً على الخـداع، فالسبـب الأول هو عدم وجـود استثمار عاطفـي فيما يقال؛ فالأشخاص يستخدمون التوضيحات بدرجة أقلّ عندما لا يعنيهم الأمر، أو أنهم يشعرون بالملل، أو غير مهتمين، أو أنهم شديدو الحزن. قد يفضح الفشل في مرافقة التوضيحات المتزايدة للحديث الذين يزيفون الاهتمام أو الحماسة.

تتناقـص التوضيحات أيضاً إذا واجهت الشخص مشكلة في تحديد المراد قوله بدقة. فـإذا كان الشخـص يفكر في كلّ كلمة بدقة، وفيما يقال قبل نطقه، فلن يكون هنـاك كثير من التوضيـح. وعند إلقاء خطاب لمرة أولى، أو ثانية، وسواء أمحاضرة كانت أم كلاماً ترويجيّاً لمنـدوب مبيعـات، فإنّ مستوى التوضيحـات سيكون أقلّ مقارنة بوقـت لاحق عندما لا يكون بـذل الجهد مطلوبـاً لانتقاء الكلمات اللازمـة، علاوة على ذلك تتناقـص التوضيحات كلما كان هنـاك تحذيـر بشأن الكلام، وقد لا يكون للتوضيحات ارتباط بالخداع، وقد يكون هنـاك حذرٌ لأنّ المخاطرة عالية: كالانطباع الأول عن المدير، والجواب عن سؤال قد تعقبه مكافأة مـا، والكلمات الأولى لشخـص يعجبك لحد الوله عن بعد. إضافة إلـى ذلك يجعل التناقض

الشخص حذراً لما سيقوله، وقد يغري الشخص الجبان الميل نحو عرض عمل مربح ولكنه يخاف الأخطار المرتبطة في وضع العمل الجديد، وبسبب الصراع بين ما إذا كان عليه قبول العرض أو لا، يُفجع بثقل مشكلة ما سيقوله وطريقة قوله.

وإذا لم ترتب الكاذبة كذبتها مسبقاً، فإنّ عليها الحذر أولاً، والتفكير بدقة بكلّ كلمة قبل نطقها. إنّ المخادعين الذين لم يتدربوا، والذين مارسوا الخداع في كذبة ما، والذين فشلوا في توقع الأسئلة أو وقتها، يظهرون انخفاضاً في مستوى التوضيحات، وحتى لو تدربت الكاذبة على كذبتها، فقد تنخفض توضيحاتها بسبب تدخل عاطفتها؛ إذ تتدخل بعض العواطف، كالخوف، بتماسك الحديث.

يصرف عبء إدارة العواطف القوية الانتباه عن العمليات المعنية بترابط الكلمات، فإذا كان المطلوب إخفاء العواطف، وليس فقط إدارتها، وإذا كانت العاطفة قوية، فمن المرجح عندها أن يجد الكاذب الذي أعدَّ كذبته جيداً مشكلة في نطقها، فتنخفض التوضيحات.

لقد استخدمت طالبات التمريض في تجربتنا مستوى توضيحات أقلّ، عندما كنّ يحاولْن إخفاء ردود أفعالهنّ تجاه فيلم البتر للشخص المحروق، مقارنة بوصف مشاعرهن بصدق حيال فيلم الزهور، لقد حدثت هذه التوضيحات لسببين على الأقل: لم تتدرب الطالبات على الإعداد للكذبة المطلوبة، ولم يتح لهن الوقت الكافي للتحضير للكذبة، فتم استثارة العواطف القوية والخوف من الانكشاف استجابة للفيلم الدموي المعروض، فقد وجد كثير من الباحثين أيضاً أنّ التوضيحات تكون أقلّ وضوحاً عندما يكذب أحدهم مقارنة بصدقه، حيث اشتملت هذه الدراسات على قليل من العواطف، ولكنّ الكاذبين كانوا متدنيي الجاهزية والاستعداد.

في تقديمي للتوضيحات، ذكرت أهمية التمييز بينها وبين العلامات الخاصة، إذ قد تحدث تغيرات عكسية في كلّ منها عندما يكذب أحدهم: تزداد زلات العلامات الخاصة وتنخفض التوضيحات، وتكمن الاختلافات الحاسمة بين العلامات الخاصة والتوضيحات في دقة الحركة والرسالة، ففي العلامات الخاصة، تظهر دقة الحركة والرسالة على درجة عالية من الوضوح؛ حيث لا تفي أيّ حركة بالغرض، والحركة المحددة بدقة تنقل الرسالة

الدقيقة تماماً، أمّا التوضيحات فعلى النقيض من ذلك؛ فقد تنطوي على مجموعة كبيرة من الحركات، وقد تنقل رسالة مبهمة بدلاً من أخرى دقيقة، إنّ رمز ربط الإبهام والشاهد هو للدلالة على أنّ: هذا حسن، إذن هناك طريقة واحدة للقيام بالرمز، فإذا ربط الإبهام بالوسطى أو الخنصر، فلن تكون الرسالة واضحة، والمعنى المحدّد جدّاً هنا هو: هذا أمر جيد، أو: حسناً،* وعليه، لا تحمل التوضيحات معاني منفصلة عن الكلمات.

إنّ مشاهدة أحدهم يستخدم التوضيحات دون سماع كلماته لا يكشف كثيراً عما يتحدث به، ولكن الأمر ليس كذلك إذا قام الشخص بحركة خاصة. والفرق الآخر بين حركات العلامات الخاصة والتوضيحات أنه، وعلى الرغم من ظهورهما في أثناء التحدث، فإنّه يمكن استعمال حركات العلامات الخاصة مكان الكلمة عندما لا يستطيع الأشخاص التحدث أو أنهم لا يريدون ذلك، في حين تحدث التوضيحات بحكم التعريف في أثناء الحديث فقط، وليس لاستبداله، أو عندما لا يكون الأشخاص غير قادرين على الكلام.

يتعيّن أن يكون مكتشف الكذب حذراً في تفسير التوضيحات مقارنة مع زلات العلامات الخاصة، وكما وُضِّحَ سابقاً، يؤثّر خطأ أوثلّو ومخاطرة بروكاو في التوضيحات، ولكنهما لا يؤثران في زلات العلامات الخاصة، فإذا لاحظ مكتشف الكذب انخفاضاً في التوضيح، فعليه استبعاد الأسباب الأخرى جميعها (ما عدا الكذب) لدى الشخص الذي يريد بحذر اختيار كلّ كلمة، ولكن زلات العلامات الخاصة أقل غموضاً، والرسالة التي تنقلها مميزة لجعل تفسيرها أسهل على مكتشف الكذب، لا يحتاج مكتشف الكذب إلى معرفة المشتبه به مسبقاً لتفسير زلة العلامة الخاصة، إنّ مثل هذا العمل ذو معنى بحدّ ذاته لتباين الأشخاص تبايناً كبيراً في معدل استخدام التوضيحات الطبيعي، ولا يمكن إصدار الأحكام عليهم ما لم يكن مكتشف الكذب لديه بعض الأسس للمقارنة، مثل باقي قرائن الخداع، حيث يتطلب تفسير التوضيحات معرفه سابقة؛ لأنّ اكتشاف الخداع صعب جدّاً في اللقاء الأول، وتقدم زلات العلامات الخاصة أحد احتمالات كشف الخداع.

* وهذه العلامة الخاصة تحمل معنى مختلفاً بذيئاً في بعض بلدان جنوب أوروبا. لا تُعدّ العلامات الخاصة عالمية إذ تتفاوت معانيها باختلاف الثقافات.

إنّ سبب شرح النوع التالي من حركات الجسم المموّهة هو لتحذير مكتشف الكذب من خطورة تفسيرها على أنّها قرائن على الخداع، وقد وجدنا مكتشفي الكذب يحكمون خطأ على الشخص الصادق أنه كاذب بسبب إظهاره الكثير من الحركات المموّهة في العادة. وقد تكون الحركات المموّهة علامة على اضطراب أحدهم، لكنها ليست كذلك دائماً. فضلاً على أنّ ازدياد نشاط الحركات المموّهة ليس علامة موثوقة على الخداع، ولكن الأشخاص يعتقدون بذلك.

تشمل الحركات المموّهة الحركات جميعها التي فيها يقوم أحد أجزاء الجسم بتدليك جزء آخر، أو فركه، أو مسكه، أو قرصه، أو خدشه، أو التلاعب به، قد تكون مدة الحركة المموّهة قصيرة جدّاً، أو قد تستمر مدة دقائق، ويبدو أنّ غرض الحركات القصيرة منها لها أن يُعاد ترتيب الشعر، أوتنظيف الأذن، أوحكّ جزء من الجسم، ويبدو أنّ الحركات المموّهة الأخرى، وخصوصاً الطويلة منها، لا طائل فيها؛ كبرم الشعر، وفرك الأصابع، والنقر بالقدم. تكون اليد في العادة، هي التي تقوم بهذه الحركات، وقد تكون أيضاً المستقبلة مثلها مثل أيّ جزء آخر من الجسم. والمستقبلات الأكثر شيوعاً هي الشعر، والأذن، والأنف، ومقاطعة الرجلين، ومن الممكن تأدية الحركة المموّهة في الوجه (كتحريك اللسان على الخدود، وعض الشفاه بالأسنان قليلاً)، أو بوضع رجل على أخرى، وقد تصبح الأدوات جزءاً من فعل المتلاعب؛ كعود الثقاب، أو القلم، أو مشبك الورق، أو السيجارة.

في حين تمت تنشئة معظم الأشخاص على عدم أداء السلوكات التي تكون في دورة المياه أمام العامة، إلا أنهم لم يتوقفوا عن أدائها، بل توقفوا عن ملاحظة أنهم يقومون بها. ولا يعني الأمر أنّ الأشخاص غير مدركين تماماً للحركات المموّهة لديهم، فإذا أدركنا أنّ أحدهم يراقب إحدى حركاتنا المموّهة، فسوف نتوقف عن القيام بها بسرعة أو نقلل من استعمالها، أو نموّه استخدامها، حيث تغطي الإيماءة الأكبر بصدق الحركة العابرة، وحتى هذه الإستراتيجية المتقنة لإخفاء الحركة المموّهة لا تؤدّى بوعي، إنّ الحركات المموّهة موجودة على حافة الوعي، ولا يستطيع معظم الأشخاص التوقف عن القيام بمثل هذه الحركات مدة طويلة حتى لو حاولوا القيام بذلك عن قصد، فهم معتادون على استخدامها.

يناسب الأشخاص أن يكونوا مراقبين لا مؤدّين. عادة ما يُعطى للشخص الذي يقوم بحركة ما الخصوصية لاستكمالها حتى لو بدأت الحركة بغمرة المحادثة تماماً؛ فيشيح المتلقّي بنظره عند قيام آخر بحركة عابرة، ويعيد النظر فقط بعد الانتهاء منها، وإذا كانت الحركة من الأنشطة التي لا طائل فيها، مثل برم الشعر الذي يستمر طويلاً، عندها لا يستطيع الآخرون إشاحة نظرهم مدة طويلة، ولكنهم لا ينظرون مباشرة مطولاً لهذه الحركة.

إنّ عدم الانتباه المهذب لهؤلاء الأشخاص الذين يقومون بهذه الحركات عادة يمكن تعلمها أكثر والقيام بها دون تفكير، حيث إنّ مراقبة حركات مثل هذا الشخص تعدّ خارج نطاق اللياقة والتّهذيب، مثل توم مختلس النظرات، أمّا من يؤدي الحركة العابرة فلا غبار عليه، فعندما تتوقف سيارتان عند إشارة مرور، فإنّ الشخص الذي يرتكب الإساءة هو الذي يختلس النظر إلى آخر ينظف أذنه في السيارة المجاورة، وليس الذي ينظف أذنه.

تساءلت مع آخرين يدرسون مثل هذه الحركات عن سبب ممارسة الأشخاص حركة معينة دون غيرها، وهل يعني الأمر شيئاً إذا كانت حركة فرك بدلاً من حركة ضغط، أو نكشة بدلاً من حكّة؟ وهل هناك رسالة وراء حكّ اليد أو الأذن أو الأنف؟ يعود جزء من الإجابة إلى خصوصية الشخص، فلكلّ شخص سمة مميزة في حركاته المفضلة، والنمط المعين من الحركات الدقيقة، فقد تكون حركة أحدهم برم الخاتم، ولآخر نبش البشرة الميتة المحيطة بالظفر، ولآخر فتل الشارب، لم يحاول أحد اكتشاف لماذا لا يوجد لدى الأشخاص حركة مفضلة على الحركات الأخرى، ولماذا لا يوجد لدى بعضهم حركة خاصة بهم. هناك بعض القرائن التي تشير إلى كشف بعض الحركات أكثر من عدم الارتياح، فقد وجدنا حركات نبش جلد لدى المرضى النفسيين الذين لا يعبرون عن الغضب، في حين كانت تغطية العيون شائعة بين المرضى الذين يشعرون بفعل معيب، ولكن هذه الأدلة مؤقتة مقارنة بالنتائج العامة التي تشير إلى أنّ هذه الحركات تزداد عند عدم الراحة[20].

أثبت العلماء بدرجة معقولة اعتقاد الأشخاص العاديين أنهم يقلقون ويؤدون حركات قلقة عندما يكونون مرضى أو عصبيين على الأقل. تزداد حركات حكّ الجسم والضغط، والخلع، وتنظيف زاويتي الفم، وترتيب الهندام عند عدم الرتياح. وأعتقد أنّ الأشخاص

يُبـدون أيضـاً كثيراً مـن الحركات الدقيقـة عند ارتياحهـم وبسهولة، فيسمحـون لشعرهم بالانسدال. وعندما يكونون مع رفقائهم لا يهتمون بهندامهم.

يكون بعضـ الأشخاص أكثر عرضة للتجشؤ، والتلاعـب، والانغماس في سلوكات تكون فـي معظـم الحالات قابلة للسيطرة ولـو بصورة جزئية على الأقـل، وإذا كان ذلك صحيحاً، عندهـا تكون الحركات المموّهة علامات على الانزعاج في الحالات الأكثر اتساقاً مع الطابع الرسمي فقط، ومع الأشخاص الذين لا يعلمون عن ذلك.

لا يعـوّل علـى مثل هذه الحركات علـى أنّها علامات علـى الخداع؛ لأنها قـد تشير إلى حالات أخرى كالانزعاج أو الراحة. ويعرف الكاذبون كذلك وجوب محاولتهم كبت حركاتهم العابـرة، وينجح معظمهم لبعضـ الوقت، ولا يمتلك الكذابون أيّ معرفة خاصة بذلك؛ فجزء مما هو شائع يشير إلى أنّ هذه الحركات علامات على الانزعاج وعدم الراحة، أو أنّها سلوك عصبي، ولكنّ الكاذبين لا يعرفون ذلك، ويعتقد كثيرون أنّ الكاذبين يقلقون، وأنّ ذلك القلق دليل على وجود خداع، عندما سألنا بعض الأشخاص كيف يعرفون ما إذا كان أحدهم كاذباً، كانـت الإجابة أنّ العيون الخجلـة والمراوغة هي التي تشي بالكاذب، **لن تكون القرائن التي يعرفهـا الجميـع، وتنطـوي على سلـوك يمكن تثبيطـه بسهولـه، ذات مصداقيـة إذا كانت الأخطار قوية، ولا يريد الكاذب أن يتم اكتشافه.**

لم يبدُ على طالبات التمريض حركات مموّهة عند الكذب أكثر مما فعلْن عند صدقهنّ، وقد وجدتْ بعض الدراسات ازدياداً في هذه الحركات في أثناء الخداع، وأعتقد أنّ اختلافات الأخطـار هـي ما يفسر هذا التناقض في النتائج، فعندما تكـون الأخطار مرتفعة، فقد تكون الحركات متقطعة على عكس قوتها في أثناء القيام بها. فضلاً على أنّ الأخطار العالية تجعل الـكاذب يراقب القرائن المعروفة القابلة للوصول، والسيطرة عليها مثل الحركات المموّهة. وقـد تجعل الأخطـار المرتفعة الشخص خائفاً من أن يتمّ اكتشافه؛ لذا، ينبغي أن يزيد عدم الارتيـاح من هذا السلوك. قد تزداد الحركات المموّهـة، ويمكن مراقبتها وقد تختفي بعض الوقـت، ثـمّ تظهر بعد مدّة وجيـزة، ثمّ بعد مدّة تتـمّ ملاحظتها وقمعها. ولمّـا كان مستوى الأخطـار مرتفعـاً، عملت طالبـات التمريض بجـدّ للسيطرة على حركاتهـنّ. لم يكن هنـاك كثيـر مـن الأخطار في الدراسات التي وجـدت أنّ حركات التلاعب المموهـة هذه تزداد في

أثنـاء الكـذب؛ لـذا، كان الوضع غريباً بعض الشـيء، لهذا، ربّما يكون هنـاك قدر من عدم الارتيـاح لزيادة حركات التلاعب. لا توجد هنـاك مكاسب مهمة، أو خسارات نجاح، أو فشل فـي الخداع، ولا يوجد مسوّغ للكاذب لبذل الجهد فـي مراقبة حركات التلاعب وكبتها. حتى لـو كان تفسيري للحصول على نتائج متناقضة غير صحيح (تبقى تفسيرات ما بعد التقصّي غيـر مؤكّدة حتى تُثبـت بمزيد من الدراسات)، فإنّ النتائج المتناقضة نفسها سبب كافٍ كي يكون مكتشف الكذب حذراً حيال تفسير حركات التلاعب التي يقوم بها.

فـي دراستنا لكيفيّـة اكتشاف الكذب، وجدنـا أنّ الأشخاص أدلوا بأحـكام على أولئك الذيـن أظهروا حركات دقيقة كثيرة أنّهـم كاذبون. ولم يكن مهمّاً ما إذا كان الشخص الذي يقوم بهذه الحركات يقول الصدق أو يكذب. فقد وصفهم من رآهم أنهم غير صادقين عندما كانـت حركات التلاعب التي أبدوها كثيـرة. من المهمّ إدراك احتمـال ارتكاب هذا الخطأ. ودعونـي أستعرض الأسبـاب المتعدّدة؛ لكون حـركات التلاعب المُموِّهـة علامات لا يمكن الاعتماد عليها في الاستدلال على الخداع.

يختلـف الأشخاص كثيراً في عدد حركات التلاعب التـي يظهرونها ونوعها. ويمكن التصـدي لمشكلة الفروق الفرديّـة (مخاطرة بروكاو) إذا كان مكتشـف الكذب لديه معرفة سابقة بالكاذب، ويستطيع إجراء مقارنات سلوكيّة.

يتداخل خطأ أوثلّو مع تفسير حركات التلاعب بوصفها قرائن خداع؛ تزداد حركات التلاعب عندما يكون الأشخاص منزعجين، وهذه المشكلة تتكرّر مع باقي علامات الخداع الأخرى أيضاً، ولكنّها أكثر حدّة مع حركات التلاعب؛ لأنّها ليست فقط علامات عدم ارتياح، بل هي علامات ارتياح تظهر بوجود الأصدقاء أيضاً.

يعتقـد الجميع أنّ إظهار حـركات تلاعب كثيرة تفضح الخداع؛ لـذا، سيحاول الكاذب كبتها. وعلى عكس تعابير الوجه التي يحاول الأشخاص السيطرة عليها، فإنّ حركات التلاعب سهلـة التثبيـط إلى حدّ مـا، وينجح الكذابون فـي تثبيط حركات التلاعب لجـزء من الوقت تقريباً عندما تكون الأخطار مرتفعة.

درس عدد من الباحثين جانباً آخر من الجسم؛ هيئة الوقوف. ولكن، لم يُعثر على تسرّب أو قرائن على الخداع فيها. يعرف الأشخاص كيف يفترض بهم أن يجلسوا ويقفوا؛ فالوقوف المناسب لإجراء مقابلة رسميّة ليس هو نفسه المفترض عند الحديث مع صديق. يبدو أنّ هيئة الوقوف تحت السيطرة تماماً، وإدارتها ناجحة عندما يقوم أحدهم بالخداع. لم أجد مع زملائي فروقاً في هذه الهيئة عندما كذب الأشخاص أو صدقوا.* بالطبع، ربّما لم نقس ذلك الجانب من الوقوف الذي يتغيّر، والاحتمال هو الميل إلى التقدّم نحو الأمام عند الاهتمام أو الغضب، والتراجع إلى الخلف عند الخوف أو الاشمئزاز. على كلّ حال، يجب على الكاذب المدفوع أن يكون قادراً على تثبيط جميع العلامات وأكثرها خفيّة لقرائن الوقوف على تلك العاطفة.

قرائن الجهاز العصبي اللاإراديّة

حتى الآن، ناقشت الحركات الجسميّة التي تقوم بها العضلات الهيكليّة. ولكن، ينتج الجهاز العصبي اللاإرادي أيضاً تغيّرات ملحوظة في الجسم نتيجة الاستثارة العاطفيّة: على صورة نمط معيّن من التنفّس، ووتيرة البلع، وكميّة التعرّق. (ستتمّ مناقشة تغيّرات الجهاز العصبي اللاإراديّة في الوجه، مثل التورّد، والشّحوب، واتساع حدقتي العينين، في الفصل القادم). تحدث هذه التغيّرات لا إراديّاً عند استثارة العواطف، وهي صعبة التثبيط؛ ولهذا السّبب، يمكن أن تكون قرائن خداع موثوقة يُعتدّ بها.

يقيس جهاز كشف الكذب تغيّرات الجهاز العصبي اللاإراديّة التي يكون كثير منها واضحاً دون استخدام جهاز خاص، فإذا شعر الكاذب بالخوف، أو الغضب، أو الحماس، أو الأسى، أو الذنب، أو العار، فقد يزداد معدّل تنفّسه، ويثقل صدره، ويزيد من وتيرة البلع، أو يبدو عليه التّعرّق.

---

* وجدت دراسة في الخداع أنّ هناك اعتقاداً يرى أنّ الذين يغيّرون وقفتهم كثيراً كاذبون، على الرغم من إثبات عدم ارتباط هيئة الوقوف بالصدق في الواقع. انظر: The Deception Judgments of Custom Inspectors and Laymen,» Journal of Personality and Social Psychology 39 (1980): 784–98.

اختلف علماء النفس على مدار عقود حيال ما إذا كانت كلّ عاطفة ترتبط بمجموعة محدّدة من تغيّرات الجهاز العصبي اللاإراديّة، ويعتقد معظمهم عدم وجود مثل هذه المجموعات المحدّدة، ويعتقدون أيضاً أنّ الشخص يتنفّس بسرعة أكبر، ويتعرّق، ويزيد من وتيرة البلع عند استثارة أيّ عاطفة. وتشير تغيّرات الجهاز العصبي اللاإراديّة إلى مدى قوة العاطفة، وليس إلى نوعها. ولكن هذا الرأي يتراجع مع ما يعرفه معظم الأشخاص؛ إذ يشعر الأشخاص بمختلف الأحاسيس عندما يخافون مثلاً مقارنة مع غضبهم. وهذا، كما يقول كثير من علماء النفس، بسبب تفسير الأشخاص للأحاسيس الجسدية نفسها بصورة مختلفة عما إذا كانوا خائفين مقارنة مع ما يكونون عليه في حالة الغضب، لم يثبت أنّ نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي بنفسه يختلف في الخوف مقابل الغضب[21].

تتحدى أحدث دراساتي، التي بدأت عندما انتهيت من كتابة هذا الكتاب، وجهة النظر هذه. فإذا كنت مصيباً، ولم تكن تغيّرات الجهاز العصبي اللاإراديّة نفسها لكلّ عاطفة، ولكنّها بدلاً من ذلك محدّدة، فقد يكون ذلك مهمّاً في الكشف عن الأكاذيب. وقد يعني ذلك تمكين مكتشف الكذب من اكتشاف ما إذا كان المشتبه به مستثاراً عاطفيّاً أم لا، وما نوع العاطفة المحسوسة أيضاً، إما بجهاز كشف الكذب، أو بمجرّد المراقبة والاستماع (هل هو خائف أم غاضب؟ مشمئز أم حزين؟) في حين، تتوافر هذه المعلومات من الوجه كذلك، حيث يستطيع الأشخاص تثبيط كثير من علامات الوجه، كما سنبين في الفصل التالي. زِدْ على هذا أنّ من الصعب مراقبة نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي.

لقد نُشرت دراسة واحدة من هذا النوع حتى الآن (انظر الصفحة 117). يجادل بعض علماء النفس البارزين في ما توصّلت إليه، ويعارضونه تماماً. وتعدّ نتائج بحثي مثيرة للجدل، وغير مثبتة، لكنّ الدليل عليها قوي. وبمرور الزمن، سيكون ما توصلت إليه مقبولاً من قِبَل المجتمع العلمي.

على ما أعتقد، هناك مشكلتان تقفان في طريق قبول اكتشاف دليل مقنع يفيد أنّ العاطفة تمتلك نشاطاً مختلفاً في الجهاز العصبي اللاإرادي، وأعتقد أنني أملك حلولهما. حيث تكمن إحدى المشكلتين في كيفيّة الحصول على عينات عاطفيّة صادقة.

openkanal.com

ولمقارنـة تغيّـرات الجهاز العصبي الـلاإرادي في الخوف مع الغضـب، لا بدّ أن يكون العالـم متأكّداً من موضوع بحث قد درس كلّ عاطفة وحدها. ولمّا كان قياس تغيّرات الجهاز العصبـي اللاإرادي تتطلّب معدات معقدة، فعلـى الشخص المشارك تقديم عينات العاطفة فـي المختبر، إلّا أنّ المشكلة تكمن في كيفيّة استخلاص العواطف في وسط عقيم خالٍ من المثيـرات، وغير طبيعـي؛ إذ كيف ستجعـل الأشخاص خائفين وغاضبيـن، لا عاطفيين في الوقت نفسه؟ إنّ هذا السؤال على قدر كبير من الأهميّة؛ أي عدم جعل الأشخاص المشاركين خائفيـن وغاضبين في الوقت ذاته، فيما أدعوه وآخرين مـن العلماء بالخليط العاطفي. وما لم يُحتفظ بالعواطف منفصلة، وما لم تكن العينات صادقة، فلن تكون هناك طريقة لتحديد مـا إذا كان نشـاط الجهاز العصبي اللاإرادي مختلفاً لكلّ عاطفة. وحتى لو كانت كذلك، ولو اشتملت عينات الغضب دائماً على بعض الخوف، وعينة الخوف على بعض الغضب، فستكون النتيجة أن تظهر تغيّرات الجهاز العصبي اللاإرادي متشابهة. ليس من السهل تجنّب الخلط، لا في المختبر ولا في الحياة الحقيقيّة، فالخلط أكثر شيوعاً من العواطف الصادقة.

كانـت التقنيّـة الأكثـر شيوعـاً لأخذ عينـات العاطفة هي عـن طريق سـؤال الشخص المشارك عن تذكّر شيء مخيف أو تصوّره. ولنفترض أنّه تذكّر تعرّضه لهجوم سارق، عندئذٍ يجـب على العالِـم أن يكون متأكّـداً أنّه إضافة إلـى الخوف من السـارق لا يصبح الشخص غاضبـاً ولو بدرجـة قليلة من السارق، أو من نفسه؛ لأنه خائـف، أو لأنّه غبي لدرجة تعريض نفســه للخطـر تحدث أخطار الخلط نفسهـا بدلاً من حدوث العواطـف الصادقة مع تقنيات إثـارة العواطف الأخرى. لنفترض أنّ العلماء يعرضون فيلماً يثير مشاعر الخوف، وربما كان مشهـداً من فيلـم (ألفريد هيتشكـوك)، المريض النفسي، (Psycho)، حيـث يهاجم (توني بيركنـز جانيت) لي فجأة، حاملاً سكّيناً في أثناء استحمامهـا. قد يصبح الشخص غاضباً من العالِم لجعله خائفاً، وغاضباً من نفسه؛ بسبب خوفه، وغاضباً من (توني بيركنز)؛ بسبب مهاجمتـه (جانيت لي)، ومشمئزّاً من منظر الدم، ومكتئباً؛ لمعاناة جانيت لي، ومتفاجئاً من الفعل، وهلُمَّ جرّاً.

ليس من السهل التفكير بطريقة للحصول على عينات عواطف صادقة. حسب اعتقادي، لقـد افترض معظم العلماء الذين درسـوا الجهاز العصبي اللاإرادي ببساطة خطأ أنّ أفراد

العينـــة فعلوا ما يريدونه عندما طُلِبَ إليهم ذلك، فانتخبوا بسهولة عينات العاطفة الصادقة المطلوبــة، وفشلوا في اتخاذ أيّ خطوات؛ لضمان أو تأكيد كون عينات العاطفة الخاصة بهم صادقة بالفعل.

والمشكلــة الثانيــة هي نتاج الحاجة إلى أخذ عينات العواطـف في المختبر، ومن نتائج تأثيــر تقنية البحــث. أنّ معظم أفراد العينة مدركون لذواتهــم بشأن ما سيحدث لهم عندما يخضعــون للتجربــة، ثم يُضخّم ذلك. ولقيــاس نشاط الجهاز العصبي الــلاإرادي، يجب أن تكــون الأســلاك موصولة بأجــزاء مختلفة مــن جسم المشــارك، وتتطلّب مراقبــة التنفّس، ومعدّل ضربات القلب، ودرجة حرارة الجلد، والتّعرّق– توصيل كثير من الأسلاك. إنّ مجرّد الجلوس هناك موصولاً بالأسلاك، وبوجود العلماء يفحصون ما يجري داخل الجسم، وغالباً مــا ينصبــون آلات لتصوير؛ أيّ تغيّــرات مرئيّة، يُحرج معظم الأشخاص من العينة. الحرج بحــدّ ذاته عاطفة، وإذا كانت تنتج نشاطاً فــي الجهاز العصبي اللاإرادي فستُشوّه العواطف عبــر كلّ عينة يحاول العلماء الحصول عليها. قــد يُعتقد أنّ المشارك يتذكّر حدثاً مخيفاً في كلّ لحظــة، وموقفــاً يثير الغضب في مرحلــة أخرى، ولكن ما قد يحدث هــو الحرج في أثناء تذكّــر الغضب والخوف. لم يتخذ العلماء أيّ إجــراء للحدّ من الحرج، ولم يبحث أحد للتأكّد أنّ الحرج لم يتداخل مع عينات العاطفة الصادقة.

استبعــدت وزملائــي الحرج عــن طريــق اختيار ممثّليــن محترفيــن أفراداً فــي عينة الدراســة[22]. فالممثّلون معتادون أن يُختبــروا، ولا ينزعجون عندما يشاهد الناس حركاتهم اليوميّــة. وبــدل أن يشعروا بالحــرج، فإنّهم يحبون فكــرة توصيلهم بالأســلاك، ومراقبة ما يحدث داخل أجسامهم. ساعدت هذه الدراسة أيضاً على حلّ المشكلة الأولى وهي الحصول على عينات عاطفة صادقة.

يمكننــا الاستفــادة من سنوات تدريــب الممثّلين فــي تقنيّة (ستانسلافسكــي) للتمثيل التــي تجعلهــم مهرة في التذكّر وإعادة اختبــار العواطف. يمارس الممثّلــون هذه التقنيّة كي يستخدمــوا ذكريــات – الحــس في تصويــر دور ما. في تجربتنــا، طلبنا إلــى الممثلين، في حيــن كانوا موصولين بالأســلاك والأجهزة، وبوجود كاميرات فيديــو موجّهة نحو وجوههم، أن يتذكــروا ويشهدوا بــكلّ قوتهم موقفاً شعروا فيــه أنهم غاضبون غضبــاً لا مثيل له سابقاً

فـي حياتهم. ومن ثَمَّ موقفاً شعروا فيه بأكبر خوف، وحـزن، ومفاجأة، وسعادة، واشمئزاز. لقـد استخدم هذه التقنية علماء آخرون سابقاً، لكنّنـا اعتقدنا أنّ فرصتنا في النجاح أكبر؛ لأنّنـا استخدمنا ممثلين محترفين مدرَّبين على هذه التقنية، ولن يشعروا بحرج. إضافة الى ذلك، لم نسلّم أنّ المشاركين في التجربة فعلوا ما طلبناه، وتحقّقنا من حصولنا على عينات نقية صادقة لا خليط من العواطف. بعد كلّ استرجاع للذاكرة، طلبنا إليهم تقييم القوة التي شعـروا بها بالعاطفة المطلوبة، وما إذا شعروا بوجود عاطفة أخرى. لم يُحتفظ بالمحاولات التي أفاد بها المشاركون شهادتهم لعاطفة أخرى بالقوة نفسها للعاطفة المطلوبة.

سهلـت دراسة الممثلين علينا تجربة تقنية أخرى لجمع عينات عواطف نقية صادقة لم تُستعمل من قبل، واكتشفنا هذه التقنية الجديدة؛ لإثارة العواطف بالمصادفة قبل سنوات في أثنـاء قيامنا بتجربة أخرى، ولمعرفة آليات تعابير الوجه، والعضلات التي تنتج ذلك التعبير المعيـن، أنتجت وزملائـي بمنهجيّة آلافاً من تعابير الوجه، بتصويـر كيفية تغيير كلّ تركيبة من حركات العضلات للشكل وتحليلها، ولدهشتنا عندما انتجنا حركات العضلات المرتبطة بالعواطـف، شعرنا فجأة بتغيّرات في أجسامنا نتيجة نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي. ولم يكـن لدينا أيّ سبـب لتوقّع أنّ تحريك عضلات الوجه بتعمّد قد ينتـج تغيّرات غير مقصودة فـي الجهـاز العصبي اللاإرادي، ولكن ذلك حـدث مراراً وتكراراً. وما زلنـا لا نعرف ما إذا كان نشـاط الجهاز العصبي الـلاإرادي يختلف في كلّ مجموعة من حركات عضلات الوجه. لقـد أعلمنا الممثلين، بالتّحديد، عن العضلة المطلوب تحريكها في الوجه، وكان هناك ستة إرشـادات مختلفة؛ واحد لكلّ عاطفة من العواطف؛ ولأنّ الممثلين غير مُحرجين لعمل تعبير الوجـه حسب الطلـب، أو الشعور بالحـرج؛ لأنّ العلمـاء يشاهدونهم عند قيامهـم بالتعبير، ولأنّهـم بارعون في تقمّص التعابيـر – استطاعوا الوفاء بمعظم طلباتنا بسهولة. لم نثق بهم فقـط لإنتاج عينات عاطفية نقية صادقة، بل صوّرنـا أداء وجوههم، واستخدمنا محاولاتهم فقط؛ كانت الأشرطة التسجيليّة تظهر أنّهم انتجوا كلّ مجموعة من حركات الوجه المطلوبة.

وجدت تجربتنا أدّلة قويّة على أنّ نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي ليس ذاته للعواطف جميعهـا، ولـم تكن تغيرات معدل نبضـات القلب، ودرجة حرارة الجسـم، والتّعرّق (ما قمنا بقياسـه) نفسها لمختلـف العواطف، مثلاً: عندمـا قام الممثلون بحركـة عضلة الغضب في

وجوههم، وعضلة الخوف، (لم يُطلب إليهم إظهار العاطفة، بل القيام بحركة العضلة فقط)، أصبح معدّل نبضات القلب أسرع، ولكنّ أمراً مختلفاً حصل في درجة حرارة جلدهم؛ فقد ارتفعت درجة حرارة الجلد مع الغضب وانخفضت مع الخوف. أعدنا التجربة على عينة أخرى وحصلنا على النتيجة نفسها.

إذا حصل علماء آخرون على هذه النتائج عند محاولة تكرار التجربة في مختبراتهم، فقد يستطيعون معرفة ما الذي يحاول مكتشف الكذب تعلّمه من جهاز كشف الكذب. وبدلاً من مجرّد محاولة معرفة ما إذا كان المشتبه به يشعر بأيّ عاطفة، قد يستطيع الشخص الذي يعمل على جهاز كشف الكذب من خلال قياس عدد من أنشطة الجهاز العصبي اللاإرادي معرفة نوع العاطفة، وحتى دون وجود آلة الكشف عن الكذب، وبمجرّد النظر، قد يكون كاشف الكذب قادراً على ملاحظة التغيّرات في نمط التنفّس، أو التّعرّق، التي يمكنها أن تسهم في التقاط حدوث عاطفة معينة. يمكن الحدّ من الأخطاء في كشف الكذب المتمثّلة بعدم تصديق الصادق وتصديق الكاذب، إذا كان نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي، والذي يعدّ تثبيطه أمراً صعباً للغاية، يكشف العاطفة التي يشعر بها المشتبه به.

حتى الآن، لم نكن نعرف ما إذا أمكننا تمييز العاطفة من خلال علامات نشاط الجهاز العصبي اللاإرادية المرئيّة والمسموعة، ولكن هناك سبب الآن لمعرفة ذلك. كيف تسهم علامات العواطف المعنية، سواء في الوجه كانت، أم في الجسم، أم في الصوت أم في الكلمات، أو من الجهاز العصبي اللاإرادي، في تحديد ما إذا كان الشخص صادقاً أم كاذباً. وما الأخطار بوقوع الخطأ، والاحتياطات لتجنّبها، هي موضوع الفصل السادس.

أوضح الفصل الثاني وجود طريقتين رئيستين للكذب هما؛ الإخفاء والتزوير. حتى الآن، بحثنا في هذا الفصل إمكانيّة فضح محاولات إخفاء العاطفة بالكلمات، أو الصوت، أو الجسم. يلجأ الكاذب إلى التزوير إذا لم يشعر بالعاطفة، ولكنّها مطلوبة، أو للمساعدة في التغطية على مشاعر مخفيّة. على سبيل المثال، قد يزوّر شخص ما نظرة الحزن عندما يعلم أنّ تجارة شقيق زوجته غير رابحة. فإذا لم يكن متأثّراً، يظهر التعبير المزوّر ببساطة المظهر المناسب، ولكن إذا كان مسروراً في سريرته بسوء طالع شقيق زوجته، فستُخفي نظرة الحزن الزائفة هذه مشاعره الحقيقيّة. هل يمكن للكلمات، أو الصوت، أو الجسم،

أن تفضح مثل هذه التعابير الزائفة، وتكشف أنّ الأداء العاطفي غير صادق؟ لا توجد إجابة عن ذلك. لقد بُحِثَ في عيوب الأداء المزوّر للعاطفة بصورة أقل شمولاً من تسرّب العواطف المخفيّة، وأستطيع تقديم ملاحظاتي ووجهة نظري وحدسي وحَسْب.

على الرّغم من إمكانية ابتداع الكلمات للتلفيق، فليس من السهل لأيّ كان، صادقاً أم كاذباً، وصف العواطف بالكلمات. الشعراء فقط هم من يستطيعون وصف الفروق الدقيقة التي تكشفها العواطف، وقد يكون ادعاء العاطفة غير الصادقة بالكلمات أكثر صعوبة مقارنة بالعاطفة الصادقة، ولن يكون الادعاء فصيحاً، أو مفصّلاً، أو مقنعاً، في العادة. إنّ الصوت، والجسم، وتعابير الوجه، هي ما يعطي معنى التفسير اللفظي للعاطفة، وأظنّ أنّ معظم الأشخاص يستطيعون تمثيل صوت الغضب، أو الخوف، أو الضيق، أو السعادة، أو الاشمئزاز، أو المفاجأة تمثيلاً متقناً لخداع الآخرين. في حين، يصعب إخفاء التغيّرات في نبرة الصوت التي تحدث مع هذه العواطف، لكن تزويرها غير صعب، وربما ينخدع معظم الأشخاص بالصوت.

من السهل تزوير بعض التغيّرات التي ينتجها الجهاز العصبي اللاإرادي، وفي حين يصعب إخفاء علامات العاطفة في التنفّس والبلع، فإنّ تزويرها لا يتطلّب مهارة خاصة. أمّا التعرّق فموضوع مختلف يصعب إخفاؤه وتزويره. في حين يمكن أن يستخدم الكاذب التنفّس والبلع للتزوير بإعطاء الانطباع بوجود عواطف سلبيّة، فإنني أرى أنّ القليل يفعل ذلك.

في حين يستطيع المخادع زيادة الحركات المموّهة؛ ليظهر بمظهر غير المرتاح، فإنّ معظم الأشخاص لا يتذكّرون القيام بذلك على الأرجح، وقد يكون الفشل في تضمين هذه الحركات، والتي يمكن تأديتها بسهولة، أن يفضح غيابها الادعاء على العكس من ذلك بشعور الخوف أو الضيق المقنع.

يمكن تمثيل الحركات التوضيحيّة، ولكنّ نجاح ذلك غير كبير؛ لإعطاء انطباع المشاركة والحماس لما يقال عندما لا يكون صادقاً. ذكرت تفسيرات الصحف أنّ الرئيسين السابقين؛ (نيكسون وفورد)، نُصحا بزيادة الحركات التوضيحيّة. وبمشاهدتهما في التلفاز، اعتقدت أنّ هذه النصيحة جعلتهما يبدوان زائفين؛ إذ من الصعب وضع حركة توضيحيّة عن قصد

في المكان الذي يجب أن توجد فيه بالارتباط مع الكلمات، فهي تميل إلى الظهور مبكّراً، أو تكون متأخّرة، أو تستمرّ مدّة طويلة. يشبه هذا إلى حدّ كبير محاولة الانزلاق من خلال التفكير بكلّ حركة في أثناء القيام بها؛ فالتنسيق صعب.

لقد وصفت القرائن السّلوكيّة التي قد تسرّب معلومات مخفيّة، وتدلّ على أنّ الشخص لم يتقن كذبته جيّداً، أو تفضح عاطفة لا تتناسب مع الكذبة المتبنّاة. يمكن أن تفضح زلات اللسان، وزلات العلامات الخاصة، والمشاحنات ، أنواع المعلومات جميعها؛ كالعاطفة، والأفعال الماضية، والخطط، والنّيّات، والخيالات، والأفكار، وما إلى ذلك.

وقد يشير الحديث غير المباشر أيضاً وهيئة الوقوف، وخطأ الحديث، وزيادة الحركات التوضيحيّة، إلى أنّ المتحدّث حذر جدّاً لما يقال، ولم يمهّد لكذبه، وهي علامات على العاطفة السلبيّة، ويحدث انخفاض في الحركات التوضيحيّة عند الملل.

تحدث نبرة الصوت المستثارة والمرتفعة، والحديث السريع، بوجود الخوف والغضب، وربما الإثارة أيضاً، ويتغيّر الصوت في الاتجاه المعاكس بوجود الحزن، وربما الشعور بالذنب كذلك. وقد تُعدّ التغيّرات في التنفّس، أو التّعرّق، أو زيادة البلع، والفم الجاف جدّاً علامات على العواطف القوية، وربّما يكون من الممكن تحديد أيّ العواطف من هذه الأنماط سيتغيّر في المستقبل.

الفصل الخامس

قرائن الوجه في الخداع

قـد يكون الوجه مصـدراً قيّماً لمكتشف الكذب؛ لأنّ الوجـه يستطيع أن يكذب ويَصدُق ويفعلهمـا معـاً عادة. يحتـوي الوجه على رسالتين، همـا: ما يريد الكاذب إظهـاره وما يريد إخفاءه. كما تخدم بعض التعابير الكذب، فتقدّم معلومات غير صحيحة. ولكن غيرها يكشفه؛ لأنهـا تبدو مزيفة. كما قد تتسرّب أحياناً المشاعر على الرغم من المحاولات لإخفائها، وقد تحـدث التعابير المزيّفة المقنّعة في لحظة ما، ثمّ تتسرّب التعابير المخفيّة في اللحظة التي تليهـا. كما يمكـن أن تظهر التعابير الصّادقـة والمزيّفة في مختلف أجـزاء الوجه في تعبير واحد مختلط، وأعتقد أنّ سبب إخفاق معظم الأشخاص في كشف الأكاذيب من الوجه تتمثّل بعدم معرفتهم كيفيّة تمييز التعابير الصادقة من المزيّفة.

تبـدو تعابير العاطفة الصادقـة ظاهرة للعِيان؛ لأنّ حركات الوجـه تستجيب لا إراديّاً، مـن غير تفكيـر أو قصد. أمّا المزيّفة فتكون بسبب وجود سيطـرة إراديّة على الوجه، فتتيح للآخرين التدخل بالصّادقة وافتراض المزيّفة. يُعدّ الوجه جهازاً ثنائيّاً يشتمل على التعابير المختـارة إراديّاً ولاإراديّاً، حتى من غير وعي الشخـص أحياناً بما يظهر على وجهه. هناك أساس بين الإرادة واللاإرادة المشغولة بالتعابير التي تعلمها الشخص مرة وأصبحت فاعلة آليّاً من غير اختيار، أو حتى على الرغم من وجود الاختيار ومن غير وعي في العادة.

obeikandi.com

تُعد تقاسيم الوجه المصطنعة، والعادات المزيّفة، التي تملي على الشخص إدارة بعض التعابير، مثل عدم القدرة على إظهار الغضب تجاه رموز السلطة أمثلة على ذلك. لكني سأولي جلّ اهتمامي في هذا المجال لكلّ من التعابير الإرادية، والمتعمّدة، والمزيّفة، التي صُنِّفت على أنّها جزء من التضليل من جهة، والتعابير اللاإراديّة، والعفويّة، والصّادقة، والتي قد تسرّب المشاعر على الرغم من محاولة الكاذب إخفاءها من جهة أخرى.

تُظهر الدراسات التي أجريت على المرضى الذين يعانون أنواعاً مختلفة من تلف الدماغ كثيراً أنّ التعابير الإراديّة واللاإراديّة تعود إلى أجزاء مختلفة من الدماغ؛ فالمرضى الذين لديهم تلف في أحد أجزاء الدماغ، وبالتحديد في الجزء الذي يُسمى الأنظمة الهرمية العصبيّة، لا يستطيعون التّبسّم إذا طُلب إليهم ذلك، ولكنهم يبتسمون عند سماعهم طرفة، أو عند استمتاعهم بشيء ما. بالمقابل، يستطيع الأشخاص الذين يعانون تلفاً بجزء آخر من الدماغ؛ أي الأنظمة غير الهرميّة، التّبسّم إراديّاً، ولكنهم جامدو الوجه عندما يستمتعون بشيء ما. ينبغي لمرضى تلف الأنظمة الهرميّة الذين لا يستطيعون القيام بالتعابير إراديّاً أن يكونوا قادرين على الكذب بوجوههم؛ لأنّ عليهم عدم تثبيط الوجه أو تقمّص التعابير المزيّفة. بالمقابل، ينبغي لمرضى تلف الأنظمة غير الهرميّة، الذين لا يبدون تعابير عند شعورهم بالعاطفة، أن يجيدوا الكذب بتقاسيم وجوههم؛ لأنهم غير مضطرين إلى تثبيط التعابير العاطفيّة الصّادقة[1].

إنّ تعابير الوجه اللاإراديّة للعاطفة هي نتاج النشوء. فضلاً على أنّ كثيراً من التعابير البشرية هي التعابير نفسها التي يمكن مشاهدتها على وجوه الرئيسيّات، إضافة إلى أنّ بعضَ تعابير الوجه للعاطفة، أو على الأقل تلك التي تشير إلى السعادة، والخوف، والغضب، والاشمئزاز، والحزن، والكرب، وربما غيرها من العواطف – عالميّةٌ. وينطبق الشيء نفسه على العمر، أو الجنس، أو العرق، أو الثقافة[2]. وتُعدّ تعابير الوجه هذه المصدر الأغنى للمعلومات عن العواطف، وأنّها تكشف الفروق الدقيقة في المشاعر الآنيّة.

يستطيع الوجه كشف دقائق الخبرة العاطفيّة التي يستطيع الشاعر فقط التقاطها بالكلمات. ويبيّن الوجه كلاً مما يأتي:

- نـوع العاطفـة الصّادقـة؛ كالغضـب، والخـوف، والحـزن، والاشمئـزاز، والكـرب، والسعـادة، والقناعـة، والبهجـة، والمفاجـأة، والاحتقار، والتي يمكـن التعبير عنها بعلامات مميّزة.
- تداخل عاطفتين معاً؛ ففي العادة تكون العاطفتان صادقتين، ويسجّل الوجه عناصر كلّ منهما.
- قـوة العاطفـة الصّادقة؛ قد تتنوّع قوّة شدّة العاطفة؛ مـن الانزعاج إلى الغيظ، ومن الخشية إلى الرّعب.

ولكـن وكما ذكرت، فـإنّ الوجه ليس مجرّد نظـام إشارات عاطفـيّ لا إرادي؛ إذ يتعلم الأطفـال فـي السنـوات الأولى مـن عمرهم التّحكّم فـي بعض التعابير، وإخفـاء المشاعر الحقيقيّة، وتزييف تعابير العواطف غير الصّادقة. ويُعلّم الأهل أبناءهم التّحكّم في تعابيرهم بالقدوة، وبصورة مباشرة أكثر باستخدام عبارات، مثل: لا تبدِ لي تلك النظرة الغاضبة. كن سعيـداً عندما تعطيك عمتـك هدية. لا تكن ملولاً. وعندما يكبـرون يتعلمون **قواعد العرض** جيّـداً، بحيث تصبح عادات متأصلـة، وبعد مضي بعض الوقت، تصبـح قواعد عرض إدارة التعابيـر العاطفية فاعلة تلقائيّـاً، وتتغيّر التعابير من غير خيار أو حتى إدراك، وحتى عندما يدرك الأشخاص قواعد العرض لديهم، لن يكون ممكناً دائماً، وليس سهلاً بالتأكيد، التوقّف عـن القيام بهـا؛ فحال رسوخ أيّ عـادة، بحيث تعمـل تلقائيّاً، من غير حاجـة إلى الإدراك، يصبـح من الصعـب التراجع عنها، وأعتقـد أنّ التّراجعَ عن هذه العـادات التي تُعنى بإدارة قواعد عرض العاطفة صعبٌ جدّاً.

تختلـف قواعـد العرض من ثقافة إلى أخـرى. وهي المسؤولة عن انطبـاع المسافر أن تعابيـر الوجه ليسـت عالميّة. عند مشاهـدة اليابانيين للأفلام المثيـرة للعاطفة، اكتشفت أنّ تعابيرهـم لـم تختلـف عن التعابير التـي يبديها الأمريـكان، بشرط أن يكـون اليابانيون **وحدهـم**. وعند وجـود شخص آخر بموقع المسؤولية معهم في أثنـاء مشاهدة الأفلام، اتبع اليابانيون قواعد عرض مكّنتهم من إلباس تعابير العواطف السلبية ابتسامه مهذّبة أكثر من الأمريكان[3].

وإضافة إلى عناصر التّحكّم المعتادة التي تعمل إرادياً للتّحكّم في تعابير الوجه، يستطيع الأفراد اختبار الإحساس بتعبير عواطفهم الحقيقيّة، فيفعلون ذلك بإدراك تام، أو يزيّفون تعبير عاطفة غير صادقة. وينجح معظم الأشخاص أيضاً في خداع الوجه، ويستطيع الجميع تقريباً تذكّر حادثة ما ضُلّلوا فيها تماماً بتعابير صادرة عن شخص آخر. ومع ذلك يمتلك الجميع تقريباً الخبرة المقابلة، ويدركون أنّ كلمات أحدهم غير صحيحة من خلال النظرة التي لاحت على وجهه. في حين لا يستطيع الأزواج تذكّر حادثة رأى فيها أحدهم عاطفة في وجه الآخر، وهي في العادة الخوف أو الغضب، وأنّ الآخر لم يدرك أنها ظاهرة، وحتى أنه أنكر الإحساس بها. يعتقد معظم الأشخاص أنّ لديهم القدرة على اكتشاف التعابير الزائفة، لكنّ بحوثنا أثبتت عدم مقدرة معظم الأشخاص على ذلك.

في الفصل السابق، وصفتُ التجربة التي وجدنا فيها أنّ الأشخاص غير قادرين على معرفة متى كذبت طالبات التمريض ومتى كنّ صادقات. وجاء تقييم الذين اعتمدوا تعابير وجوه الطالبات فقط الأسوأ. فقيّموهن أنهنّ الأكثر صدقاً، في حين كنّ في الواقع كاذبات. لقد خدعتهم التعابير الزائفة، وتجاهلوا التعابير التي سرّبت العواطف الحقيقيّة. وعندما يكذب الأشخاص، تكون التعابير الأكثر وضوحاً، والتي يسهل مشاهدتها، وينتبه لها الآخرون أكثر، هي التعابير المزيّفة عادة. ولكننا لا ننتبه غالباً إلى الإشارات التي تدلّ على أنّ هذه التعابير ليست حقيقيّة، وكذلك الإشارات الخاطفة الدّالة على المشاعر الخفيّة.

لم يدرس معظم الباحثين قياس تعابير وجه الكاذب، وركزوا بدلاً من ذلك على السلوكات سهلة القياس، مثل حركات الجسم التوضيحيّة، أو أخطاء الحديث، والقلّة منهم الذين قاسوا تعابير الوجه درسوا الابتسامة فقط، وقاسوها ببساطة بالغة. وجد هؤلاء أنّ الأشخاص يبتسمون عادة عندما يكذبون أو يقولون الصدق. ولكنهم لم يحدّدوا نوع الابتسامة؛ إذ لا تعدّ الابتسامات جميعها واحدة. إنّ تقنيّتنا لقياس تعابير الوجه تستطيع تمييز أكثر من خمسين ابتسامة مختلفة؛ فعند كذب طالبات التمريض، وجدنا أنهنّ ابتسمن بطريقة مختلفة عن ابتساماتهن عند قولهن الصدق. وسأصف هذه النتائج في نهاية هذا الفصل.

وبسبب وجود كثير من التعابير المختلفة، تجنّب المهتمون بالتواصل غير اللفظي والكذب قياس تعابير الوجه. ولعهد قريب، لم تكن هناك طريقة شاملة وموضوعيّة لقياس تعابير الوجه جميعها، وانطلقنا لتطوير تلك الطريقة؛ لأننا عرفنا بعد مراجعة الأشرطة التصويريّة لطالبات التمريض اللواتي كذبن، أنّ كشف علامات الخداع في الوجه تتطلب مقاييس دقيقة، وقضينا عشر سنوات تقريباً في تطوير تقنية لقياس تعابير الوجه بدقة(4).

هناك آلاف من تعابير الوجه التي يختلف كلّ منها عن الآخر. ولا شأن لكثير منها بالعاطفة، ويشكّل كثير منها ما نطلق عليه اسم **إشارات التخاطب**، وهي مثل حركات الجسم التوضيحيّة، تؤكد الحديثَ أو تقدّم جملة (مثل علامات استفهام الوجه أو علامات التعجب). وهناك أيضاً عدد من الحركات الرمزية مثل: غمزة العين، والحاجبين المرتفعين، وإرخاء الجفن العلوي، وتدوير الفم على صورة حذوة الحصان، ورفع أحد الحاجبين تشكّكاً. علاوة على أنّ هناك حركات الوجه المموّهة، مثل عضّ الشفتين، ومصّ الشفتين، ونفخ الوجنتين، وبعد ذلك هناك تعابير الوجه العاطفيّة الصادقة والمزيّفة.

ليس هناك تعبير محدّد لكلّ عاطفة، بل العشرات منها، ولبعض العواطف هناك مئات التعابير. لكلّ عاطفة مجموعة من التعابير، يختلف كلّ واحد منها عن الآخر بوضوح. هذا ليس غريباً. فليس هناك شعور أو تجربة لكلّ عاطفة، بل مجموعة من الخبرات. لنأخذ مثلاً مجموعة خبرات الغضب، يختلف الغضب في:

- الشِّدّة من الانزعاج إلى الغضب.
- مدى السيطرة عليه؛ من الصاخب إلى الشديد جدّاً.
- كم يستغرق من الوقت حتى يبدأ (زمن البدء)؛ من التوتّر الشديد إلى الاستكانة.
- كم يستغرق من الوقت حتى ينتهي (زمن الغياب)؛ من السريع إلى البطيء.
- حرارته؛ من الساخن إلى البارد.
- أصالته؛ من الغضب الحقيقي إلى المزيّف؛ كالوالد المستمتع الذي يبدو كطفل مزعج.

إذا تداخل الغضب مع عواطف أخرى– مثل الغضب الذي يستمتع به صاحبه، والغضب بسبب الذنب، وغضب الذي يدّعي الاستقامة، وغضب الازدراء، فسيكون هناك أعضاء أكثر في مجموعة الغضب.

لا أحد يعرف حتى الآن ما إذا كانت هناك تعابير وجه مختلفة لتعابير الغضب المختلفة. شخصيّاً، وأعتقد أنّ هناك مزيداً منها؛ إذ، لدينا حتى الآن أدلة على وجود تعابير وجه أكثر مـن وجـود مفردات عن أيّ عاطفـة، وهي إشارات الوجـه الدقيقة والفـروق الدقيقة التي لا تبيّنهـا اللغة فـي المفردات وحدها. منذ عـام 1978 فقط، جرى العمل علـى بيان تصانيف تعابير الوجه، وتحديد عدد التعابير المرتبطة بكلّ عاطفة، والتي تكون عادة مترادفة، وتشير إلـى حالات داخليّة مختلفة، ومترابطة في الوقت نفسه. يعتمد بعض ما سأصفه من علامات الوجه على الخداع على دراسات منهجية باستخدام تقنية قياس الوجه، أو يعتمد بعضها على آلاف من الساعات التي قضيناها في مراقبة تعابير الوجه واختبارها. ما سأقدم في تقريري هذا هو نتائج مبدئية غير نهائية؛ لأنه لم يقم حتى الآن علماء آخرون بمحاولة تكرار التجربة لمعرفة الفرق بين التعابير الإراديّة واللاإراديّة.

لنبـدأ مع المصدر الأكثر إثارة لتسريبات الوجـه؛ التعابير الدقيقة. توفر هذه التعابير صـورة كاملـة للعاطفة المخفيّة، ولكن ذلك يكون بسرعة بحيـث يُغفل عنها. تومض التعابير الدقيقـة في الوجـه وتختفي في أقل من ربع ثانية. لقد اكتشفـتُ التعابير الدقيقة في دراسة قرائـن الخداع قبـل عشرين سنة تقريبـاً. آنذاك، كنـت أراجع مقابلة مصـورة مع مريضة مضطربـة نفسياً، وهي ماري التـي ورد ذكرها في الفصـل الأول، والتي كانت تخفي خطتها للانتحـار. فـي الفيلم الـذي صُوِّر بعد بضعـة أسابيع مـن دخولها المستشفـى، تخبر ماري طبيبهـا أنّهـا لم تعد مكتئبـة، وتستأذنه لقضاء بعض الوقت في بيتها ومـع عائلتها، ولاحقاً اعترفـت ماري أنّها كانت تكذب؛ لتتمكّـن من الانتحار عند تحرّرها من إشراف المستشفى، وتقول: إنها لا تزال تشعر باستياء شديد.

أظهـرت ماري عدداً من هزّات الكتف الجزئيّة، وزلات حـركات رمزيّة، وانخفاضاً في الحـركات التوضيحيّـة، وبالإعـادة البطيئة لعرض الشريط، لاحظنا تعبيـراً دقيقاً بمنتهى الحـزن علـى وجهها، ولكنه كان موجـوداً للحظة فقـط، وتبعه بسرعة مظهـر تبسُّم. تُعرف

التعابيــر الدقيقــة أنها تعابير الوجــه العاطفيّة الكاملــة الخاطفة، وتستمر بجــزء من وقتها المعتــاد بسرعة كبيرة لدرجة عدم ملاحظتها، والشكل رقم 2 (انظر الصفحة التالية) يبيّن التعبيــر الحزين، وهو سهل التفسير؛ لأنّ الصفحة متوقّفــة عليه. وإن تعيّن عليك رؤيته مدّة 1/25 مــن الثانيــة وتمّ اخفاؤه حالاً بتعبير آخر كما لو أنــه تعبير دقيق، فيمكن أن تغفل عنه. بعــد اكتشافنا التعابير الدقيقــة، نشر باحثون آخرون اكتشافاتهــم للتعابير الدقيقة قائلين: إنهــا نتيجة الكبت، وتكشف عن عاطفة غير مُدركــة[5]. بالتأكيد، لم تكن العاطفة عند ماري غير مُدركة؛ فقد كانت مدركة إدراكاً مؤلماً؛ بالحزن الظاهر في تعابيرها الدقيقة.

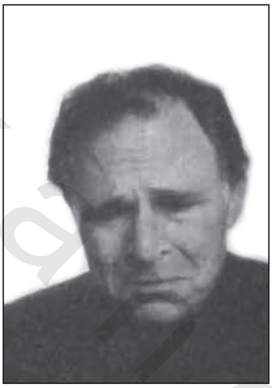

الشكل 2

عرضنــا مقتطفات تحتوي تعابير دقيقة من مقابلة ماري على بعض الأشخاص، وطلبنا إليهــم الحكم على كيفية شعورها. فشل الأشخاص غيــر المُدرَّبين؛ بسبب إغفالهم الرسائل الموجــودة فــي التعابير الدقيقــة، واعتقدوا أنّ شعور مــاري على ما يُرام. لــم يستطع هؤلاء التقاط الرسالة الحزينة إلّا بعد مشاهدة الشريط بالعرض البطيء فقط. لكنّ الأطباء ذوي الخبرة لم يحتاجوا إلى العرض البطيء، فقد التقطوا الرسالة الحزينة من التعابير الدقيقة عندما شاهدوا الفيلم بزمن العرض الفعليّ.

استطــاع معظــم الأشخاص الذين تدرّبوا مــدة ساعة تقريبــاً أن يتعلموا ملاحظة هذه التعابيــر الدقيقة؛ وضعنا غطاءً على عدســة جهاز العرض كي نستطيع عرض الشريحة مدّة قصيــرة جــدّاً. في البداية، عندما يومض التعبير مدة 1/50 من الثانيــة، ادعى الأشخاص أنهــم لــم ولن يستطيعوا رؤيتــه، ولكنهم سرعان ما تعلموا القيام بذلــك، وأصبح ذلك سهلاً

Obeikandl.com

جـدّاً لدرجـة أنّهم ظنّوا أنّنا أبطأنا فـي وضع الغطاء أحياناً، وبعـد مشاهدة بضع مئات من الوجـوه، استطاع الجميع معرفـة العاطفة على الرّغم من زمن العرضـ الفعليّ. يستطيع أيٌّ كان تعلُّم هـذه المهارة، من غير وجود خاصية التغطية، من خـلال عرض صورة فيها تعبير الوجه بسرعـه فائقة أمام أعينهم مباشرة. وعليهم محاولة تخمين العاطفة التي ظهرت في الصـورة، ثـمّ النظر بتمعّن في الصـورة للتحقّق من التعبير الموجود. ومـن ثَمَّ الانتقال إلى صورة أخرى، وعليهم ممارسة هذا التدريب على بضع مئات من الصور[6].

التعابيـر الدقيقـة مثيـرة؛ لأنهـا علـى الرغم مـن ثرائها وتوفيرهـا تسريبـاً للعاطفة المخفيّـة، فإنّها لا تحدث فـي كثير من الأحيان. لقد وجدنا القليل مـن التعابير الدقيقة في التجربـة التـي كذبت فيها طالبات التمريض، والأكثر شيوعاً هو عدم إظهـار هذه التعابير؛ فحـال ظهور تعبيـر ما، يظهر أنّ الشخص مدرك لما بدأ بالظهور، فيعمل على عدم إظهاره، ويحـاول تغطيته أحياناً بتعبير آخـر. إنّ الابتسامة هي الغطاء أو القناع الأكثر شيوعاً، ويكون التثبيـط أحيانـاً سريعاً جدّاً، حيث يصعـب التقاط رسالة العاطفة، التـي ربما يكون التعبير الذي قوطع، قد نقلها، وحتى إذا لم تتسرّب الرسالة، فقد يكون التثبيط قرينة ملحوظة تظهر أنّ الشخـص يخفي مشاعره، ويستمر تعبير التثبيط في الغالب مدة أطول، ولكنه ليس كاملاً كالتعبيـر الدقيق. إنّ التعبير الدقيق الخاطف، ولكن العرضـ الكامل موجود، ولكنه أقصر، وتتمّ مقاطعة تعبير التثبيط، ولا يصل التعبير دائماً إلى العرض الكامل، ولكنه يدوم أكثر من دوام التعبير الدقيق، وقد تكون المقاطعة نفسها ملحوظة.

التعبيـران: الدقيق والمُثبَّط، عرضـة للمشكلتين اللتين قد تسبّبـان صعوبة في تفسير معظـم قرائن الخـداع؛ الأولى مخاطرة بـروكاو المذكورة في الفصل السابـق، والتي يفشل فيهـا مكتشف الكذب في تفسير الفـروق الفردية في التعابير العاطفيّـة؛ (تصديق الكاذب) ليسـ بالضرورة أن يظهر كلّ شخصـ يخفي عاطفة ما تعبيراً دقيقاً أو مثبطاً، وكذلك لا يعدّ غيابهـا دليل صدق. هناك فروق فردية في التمكّن مـن السيطرة على التعبير، وهنـاك بعض الأشخاصـ الذين أدعوهم الكاذبين بالفطرة، يقومون بذلـك بكلّ براعة. والمشكلة الثانية، والتي أسميها خطأ أوثلّو، يسببها الفشل في معرفة انفعال بعض الأشخاص الصادقين عندما يشكّ أنّهم يكذبون؛ (تكذيب الصّادق). يتطلب تجنب خطأ أوثلّو أن يفهم مكتشف الكذب أنه

حتـى عندما يبدي أحدهم تعبيراً دقيقاً، أو مثبطاً، فإنّ ذلك غير كافٍ للحكم عليه بالكذب. ويمكن (شعور البريء الذي يحاول إخفاء شعوره بهذه التّعابير) الإحساس بأيّ عاطفة مسربة تقريبـاً من هذه التعابير؛ فقد يشعر الشخص البـريء بالخوف من عدم التصديق، والذنب حيـال شيء آخر، وبالغضب والازدراء بالاتهام غير العادل، وبالسرور لإتاحة الفرصة لإثبات كـون المُتَّهِم مخطئاً، ومتفاجئاً بالتهمة...، وما إلى ذلك من مشاعر أخرى. إذا أراد البريء إخفاء إحساسه بهذه المشاعر، فقد يحدث تعبيراً دقيقاً أو مثبطاً. سنناقش طرق التعامل مع هذه المشكلات في مقاطعة التعابير الدقيقة والمثبطة في الفصل القادم.

لا يمكـن التّحكّم في العضلات جميعهـا التي تنتج تعابير الوجه بالسهولة نفسها؛ إذ إنّ بعـض العضلات أكثر مصداقية من غيرها، ولا تتوافر هذه العضلات الصّادقة لاستخدامها فـي التعابيـر الزائفة؛ إذ لا يستطيع الكاذب السيطرة عليهـا، ويواجه الكاذب وقتاً صعباً في إخفاء حركاتها عند محاولة إخفاء العاطفة الصادقة؛ لأنها ليست متأصّلة مسبقاً أو مثبطة.

لقـد عرفنـا العضلات التي لا يمكن السيطرة عليها من خـلال الطّلب إلى أشخاص أن يحركـوا بقصـد كلّ واحدة من عضلات الوجـه، وكذلك عرض العواطف علـى وجوههم(7). هنـاك بعض حركات العضلات التـي يستطيع قلّة من الأشخاص القيـام بها بقصد؛ فهناك مثلا 10% من الأشخاص الذين تم اختبارهم يستطيعون بقصد شدّ زاويتي الفم إلى الأسفل من غير تحريك عضلة الذّقن.

ولكننا لاحظنا أنّ هذه العضلات، التي يصعب السيطرة عليها، تتحرك فعلاً لدى شعور الشخـص بالعاطفة التي تستدعي هـذه الحركة، مثلاً: قد يبدي الأشخاص أنفسهم الذين لا يستطيعون شدّ زاويتي الفم إلى الأسفل هذه الحركة عند شعورهم بالحزن، أو النّدم، أو الغمّ. لقـد تمكنا من تعليم الأشخاص كيفية تحريك هـذه العضلات صعبة التّحكّم فيها عمداً، مع أنّ ذلك تطلّب مئات الساعات حتى أمكن تعليمهم. تُعدّ هذه العضلات موثوقاً بها؛ لأنّ الفرد لا يعـرف كيفية نقـل الرسالة إلى العضلة لتوظيفهـا في التعبير الزّائف. وعليـه، أستنتج أنّ الشخص إذا لم يستطع نقل الرسالة إلى العضلة لاستخدامها في التعابير الزّائفة فقد يواجه وقتاً صعباً في جعل رسالة (توقّف)، أو الإحباط من التدخل بحركة العضلة تلك عند الإحساس بالعاطفـة التي تستدعي العضلـة للتحرك، وإذا لم تستطع تحريـك عضلة ما بقصد تزييف تعبير ما فلن تكون قادراً على تثبيط العضلة من التحرك؛ لإخفاء جزء من التعبير العاطفي.

هناك طرائق أخرى لإخفاء التعبير الصّادق من غير الحاجة إلى تثبيطه. ويمكن أيضاً إلباس التعبير قناعاً، بابتسامة في العادة، لكنّ ذلك لن يخفي علامات العاطفة الصّادقة في الجبهة والجفنين العلويين. وبدلاً من ذلك، يمكن شدّ العضلات غير المعنيّة للاحتفاظ بالتعبير الحقيقي مكبوتاً، ويمكن التخفيف من ابتسامة المتعة عن طريق ضغط الشفتين معاً، ودفع عضلة الذقن إلى الأعلى. ومع ذلك، قد يجعل استخدام العضلات غير المعنيّة، مع العضلات المعنية بتعبير العاطفة الصّادقة الوجهَ غير طبيعيّ، وجامداً، وغير مُسيطَر عليه. إنّ الطريقة المثلى لإخفاء العاطفة الصّادقة هي تثبيط حركات العضلات المعنية بالتعبير تماماً، وقد يكون ذلك صعباً إذا احتاجت العاطفة إلى عضلات الوجه الموثوق بها.

تُعدّ الجبهة الموضع الرئيس لحركات العضلات الصّادقة، ويبين الشكل (3A) حركات العضلات الصّادقة التي تحدث عند الحزن، أو الضيق، أو الكرب، وربما مع الذنب أيضاً. إنّه التعبير الموضّح في الشكل (2) نفسه، ولكن من السهل التركيز على الجبهة فقط في الشكل (3A) حيث يكون باقي الوجه جامداً وخالياً من أيّ تعبير. لاحظ أنّ الزوايا الداخلية للحاجبين مشدودة إلى الأعلى، وعادة ما ينتج من ذلك جعل الجفن العلوي على صورة مثلث، إضافة إلى بعض التجاعيد في منتصف الجبهة. استطاع أقل من (15%) من العينة المفحوصة إنتاج هذه الحركة عمداً، ويجب ألّا تكون موجودة في العرض الزائف لهذه العواطف، ويجب أن تظهر عندما يشعر الشخص بالحزن أو الكرب (أو ربما مع الذنب أيضاً). وعلى الرّغم من محاولات إخفاء هذه المشاعر، فإنّ هذه الحركات ورسوم تعابير الوجه الأخرى تبين نسخة متطرّفة من العرض؛ لجعل صورة التعبير واضحة على الرغم من عدم القدرة على إظهار الحركة بادية على الوجه. إذا كان الشعور بالحزن ضعيفاً، فإنّ مظهر الجبهة يكون نفسه الموجود في الشكل (3A) ولكن بدرجه أقل، وبمجرد معرفة نمط التعبير تصبح النسخ البسيطة منه مكتشفة، ولكن كما يتضح في الحياة الواقعية، فإن الحركة هي الملحوظة وليس التمثيل الثابت.

يبين الشكل (3B) حركات العضلات الصّادقة الموثوق بها التي تحدث عند الخوف، أو القلق أو الخشية، أو الرعب. لاحظ أنّ الحاجبين مرتفعان ومشدودان معاً، ولكن يصعب القيام بهذه التركيبة من الحركات عمداً؛ فلم يستطع أكثر من (10%) من العينة المفحوصة

إنتاجها قَصْداً، وتبيّن الصور أيضاً أنّ الجفن العلوي المرتفع والجفن السفلي المشدود يشيران إلى الخوف، ويمكن أيضاً التوقّف عن أداء حركات الجفن عند محاولة أحدهم إخفاء خوفه؛ لأنّ السيطرة على هذه الحركات ليس صعباً، ولكن يُرجّح أن يبقى وضع الحاجب على ما هو عليه.

تبيّن الصورتان (3C) و (3D) حركات الجفون والحواجب التي توضح الغضب والمفاجأة على التوالي، ولا توجد حركات حاجب وجفن مميّزة تصف العواطف الأخرى.

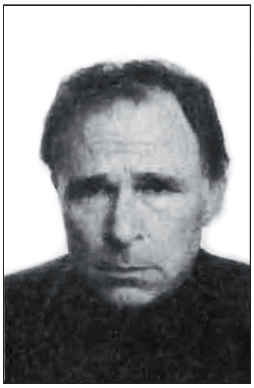

الشكل 3A

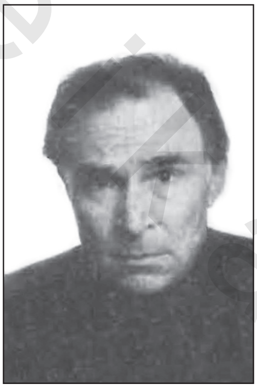

الشكل 3B

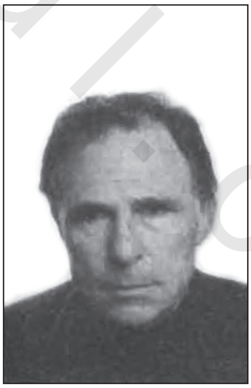

الشكل 3C

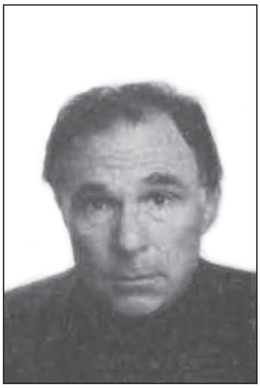

الشكل 3D

إن حركات الحاجب والجفن التي تظهر في الشكلين 3C و3D ليست من الحركات الموثوق بها والصّادقة؛ إذ يستطيع الجميع أداءها؛ لذا، يجب أن تظهر في التعابير المزيّفة،

obeikandi.com

ويمكـن إخفاؤها بسهولـة، وهي مُضمّنة لإكمـال الصورة لكيفية إشـارة الحواجب والجفون للعاطفة، كي يتضح التباين في المظهر بالحركات الموثوقة الواضحة في الشكلين A3 و3B.

تعـدّ حركات الحواجب الواضحة في الشكلين 3C و3D أكثر تعابير الوجه شيوعاً، وهي تستخـدم بوصفهـا إشارات تخاطـب؛ لتأكيد الكلام أو دلالة على اللهجـة. تُوظف حركة رفع الحواجـب بوصفها علامات تعجب، أو إشـارات استفهام، وكذلك بوصفهـا إشارة إلى عدم التصديـق والتشكيـك. دعا داروين العضلـة التي تجذب الحاجبين إلـى الأسفل معاً «عضلة الصعوبة»، وقد كان محقاً بتأكيده على أنّ هذه الحركة تحدث عندما نواجه صعوبة في القيام بعمل فعل ما؛ من رفع حِمّل ثقيل إلى حلّ مشكلة حسابيّة معقدة. إنّ خفض الجفون وجذبهما معاً شائع عندما تنتابنا الحيرة، وشائعة عند التركيز كذلك.

وهناك حركة وجه أخرى موثوقة في منطقة الفم. وأحد أفضل قرائن الغضب هو تضييق الشفتيـن، فتصبح منطقة الشفتين ذات اللون الأحمر أقل وضوحاً، ولكن ليس بالضرورة أن تكون الشفتان مسحوبتين نحو الداخل أو مضغوطتين، ويُعدّ القيام بحركة هذه العضلة صعباً جدّاً لدى معظم الأشخاص، وقد لاحظت أنها تظهر عادة عندما يبدأ أحدهم بالغضب، حتى قبل أن يدرك الشخص الشعور. ومع ذلك فإنها حركة خفية، ويمكن إخفاؤها بابتسامة. تبيّن الصورة (4) كيف تغيّر هذه الحركة شكل الشفتين.

قـد يُعقّد خطأ أوثلّو تفسير عضلات الوجـه الموثوقة؛ أي الإخفاق بمعرفة أنّ الشخص الصادق المشكوك بكذبه قد يبدي علامات عاطفة الكاذب نفسها. قد يبدي المتهم البريء عَرض الخوف الموثوق الذي يظهر في الشـكل 3B؛ لأنه يخاف من الاتهام زوراً، وقد يحاول إخفاء خوفه؛ لقلقه أنّه إنْ بدا خائفاً فسيعتقد الآخرون أنه كاذب، كي تبقى علامات الخوف ظاهرة فقط في الحواجب صعبة التثبيط.

obeikandl.com

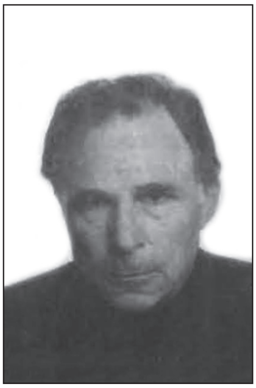

الشكل 4

ويرجّح، أن يظهر الـكاذب الخائف من اكتشافه، ويحاول إخفاء خوفه التعابير نفسها. وعليه، سنناقش طرائق تعامل مكتشف الكذب مع هذه المشكلة في الفصل السادس.

ينبغـي تجنـب مخاطرة بروكاو في تفسيـر علاقات الوجه الموثوقـة لفشلها في تفسير الفـروق الفرديـة التي تجعـل الكاذب يخفـي قرينة الخداع، فـي حين، لا يبديهـا الشخص الصـادق. يمتلك بعض الأشخاص، كالكاذبيـن بالفطرة، ومرضى الاضطراب العقلي، قدرة غيـر عادية على تثبيط علامات الوجه التي تظهر مشاعرهـم الحقيقية. فبالنسبة إليهم، لا تعـدّ عضـلات الوجه جديرة بالثقة. ويُعـدّ بعض القادة الذين لديهم حضـور طاغٍ (كريزما) ممثليـن قديرين. فقد أظهر البابا يوحنـا بولس الثاني مثل هذا الحضور والجاذبية الطاغية في أثناء زيارته إلى بولندا في 1983م.*

فقبل بضع سنوات، لاح الأمل عندما أضرب عمّال حوض السفن في غدانسك لإمكانية سمـاح الحـكام الشيوعيين الموجودين بقدر مـن الحرية السياسية. وخشـي كثيرون أنه إذا دفـع ليخ فاليسـا زعيم نقابة اتحاد عمّـال التضامن بطلب الكثيـر، أو استعجل، فقد تتدخل القـوات السوفييتية كما فعلت قبل سنوات في هنغاريـا، وتشيكوسلوفاكيا، وألمانيا الشرقية. اشتركـت القـوات السوفييتية بالمنـاورات العسكرية بالقرب من الحدود مـع بولندا لأشهر،

* إن استنكار الكذب قوي جدّاً بحيث يبدو استخدامي لمصطلح كاذب لأي شخص محترم غير صحيح، وكما شرحت في الفصل الثاني أنا لا أستخدم مصطلح كاذب بطريقة إسقاطية، وكما سأوضح في الفصل الأخير، اعتقد أن بعض الأكاذيب يمكن الدفاع عنها من الناحية الأخلاقية.

وأخيـراً استقال النظام الذي تحمّل سوء تقدير التضامن، وتسلم الجيش البولندي، بموافقة موسكـو، مقاليد الحكم. علق الجنرال ياروزلسكي أنشطـة اتحاد العمال، وحظر أنشطة ليخ فاليسـا، وفرض الأحـكام العرفية، والآن، وبعد ثمانية عشر شهراً مـن الأحكام العرفية، قد يكـون لزيـارة البابا نتائج مهمة. هل سيدعم البابا فاليسا؟ هـل سيشعل وجوده الإضراب أم يحفّـز على التمرد؟ أم أنـه سيعطي مباركته للجنـرال ياروزلسكي؟ وصـف الصحفي وليام سافيـر اللقـاء المصور بين البابا والجنرال قائلاً: ... أظهر الحَبْـرُ الأعظم والزّعيم الدّمية الابتسامات وتصافحا. يفهم البابا كيف يمكن استخدام تعابير وجهه في أثناء ظهوره العلني في مثل هذه المناسبات، وهنا كانت الابتسامة لا لبس فيها: لقد توصلت الكنيسة والدولة إلى اتفـاق سرّيّ، وتم عرض المباركة السياسية التـي ينشدها الزعيم البولندي باختيار موسكو (لياروزلسكي) في التّلفاز الرسمي مرات عدة[8]».

يستطيـع كلّ زعيم سياسي إدارة تعابير وجهه بمهـارة. كتب الرئيس المصري الراحل أنـور السادات عن محاولاته عندمـا كان مراهقا تعلّم كيفية التحكم في عضلات وجهه: «... لقـد كانت هوايتي السياسية، وقت وجود موسوليني فـي إيطاليا، وقد شاهدت صورة وقرأت كيف كان يستطيع السّيطرة على تعابير وجهه عندما كان يخاطب العامة، متوقفاً لشحذ قوته أو عدائيتـه كي ينظر الآخرون له ويقـرؤون السلطة والقوة في ملامحه الدقيقة. لقد أُعجبت بذلـك جـدّاً، ووقفت أمام المرآة فـي البيت محاولاً تقليد هذا التعبيـر القائد، ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال، وكلّ ما حققته هو أن أصبحت عضلات وجهي متعبة، وشعرت بالألم[9]».

علـى الرغـم من أنّ السـادات لم يتمكن من تزييـف تعابير وجهه فـإنّ نجاحه في سرّ تزييف الهجـوم المفاجئ المشترك السوري المصري علـى إسرائيل في سنة 1973م يظهر أنـه كان ماهـراً في الخـداع، وليس هناك تناقـض في ذلك؛ إذ لا يتطلـب الخداع مهارة في تزييف أو إخفاء تعابير الوجه، أو حركات الجسم، أو الصوت؛ إذ إنّ ذلك ضروري في الخداع المباشـر عندمـا يكون الكاذب والمتلقّي وجهاً لوجه، كما حـدث في الاجتماع الذي ضلّل فيه هتلر باقتدار تشامبرلين. وورد أيضاً أنّ السادات لم يحاول إخفاء مشاعره الحقيقية عندما التقـى مع خصومه مباشرة، وقـال وزير الدفاع الإسرائيلي عـزرا وايزمان الذي تفاوض مع

السادات مباشرة بعد حرب 1973م: إنه رجل لا يحتفظ بمشاعره لذاته، فهي تظهر مباشرة في تعابيره وكذلك في صوته وإيماءاته[10]».

هنـاك طريقة أخرى وأكثر محدودية تتدخل فيها الفـروق الفردية في تفسير عضلات الوجـه الموثوقة، وتنطوي على إشارات لغة الوجه التـي ذكرتها سابقاً، وتشبه بعض إشارات التخاطـب كثيراً حـركات اليد التوضيحية، وهي تركز على بعض الكلمات في أثناء الحديث بهـا. يخفض معظـم الأشخاص حواجبهـم أو يرفعونها (كما يظهر فـي الشكلين 3C و3D). ويستخـدم عدد قليـل حركة الحاجب الحزينة أو الخائفة (كما في الشكلين 3A و3B) للتأكيد علـى الكلام، وتعدّ هـذه الحركات لدى من يقومون بها غير موثوقـة؛ الممثل والمخرج وودي ألن له حركات حاجبين لا يعوّل عليها. فهو يستعمل حركة الحاجب الحزين لتأكيد الحديث، فـي حيـن يرفع معظـم الأشخاص أو يخفضـون حواجبهـم؛ لتأكيد كلمة ما. ولكـن بدلاً من ذلـك، يقـوم وودي ألن عادة بجـذب الزاوية الداخلية لحاجبيه نحـو الأعلى، وهذا جزء مما يميـزه بنظرة الحزن والتعاطف. يستطيع الآخرون الذين يشبهون وودي ألن استخدام حركة الحاجب الحزين كحركة يعوّل عليها بسهولة، ويقومون بهذه الحركات عن قصد.

ينبغـي أن يكـون هـؤلاء الأشخاص قادرين علـى استخدام هذه الحـركات في التعابير المزيفة وإخفائها عند رغبتهم القيام بذلك؛ لأنهم يتمتعون بقدرة الوصول السهل للعضلات التـي لا يستطيـع آخرون الوصـول إليها، ويستطيـع مكتشف الكذب معرفة عـدم قدرته على الاعتمـاد على هذه العضـلات إذا كان المشتبه به يستخدم هذه الحركات استخداماً متكرراً بوصفهـا حـركات مؤكدة. وقد تعقّـد مشكلة ثالثـة تفسير عضلات الوجـه الموثوقة وقرائن الخـداع الأخرى، ويمكن استخـدام تقنية المسرحية لجعل هذه العضـلات تتحرك بالتعبير الزائف، وتعلم تقنية ستانسلافسكي (المعروفة بطريقة التمثيل) الممثل كيف يظهر العاطفة بدقّـة عن طريق تعليمـه كيفية تذكر العاطفة وإعـادة اختبارها. في نهايـة الفصل السابق، ناقشنا استخدامنا لتقنية التمثيل هذه لدراسة الجهاز العصبي اللاإرادي؛ فعندما يستخدم الممثـل هذه التقنية، لا تكـون تعابير وجهه مقصودة، لكنها نتـاج الاندماج في العاطفة مرة أخـرى. وكما تشير الدراسة، فإنّ من الممكـن إيقاظ العاطفة واسترجاعها، وإذا لم يستطع الأشخاص القيام بالحركات الموضحة في الشكليـن 3A و3B، يُطلب إليهم استخدام تقنية

ستانسلافسكـي؛ ليعيشـوا ثانية مشاعر حزينـة أو مخيفة، وبهذا، قد تظهـر حركات الوجه التـي لم يستطيعوا القيام بها عمداً، ويستطيع الـكاذب استعمال تقنية ستانسلافسكي، وإذا كان الأمـر كذلك، يجب ألّا تكون هناك علامات علـى الأداء المزيف؛ لأنه لا يكون كذلك في بعض الحالات، وقد تظهر علامات الوجـه الموثوقة في تعبير الكاذب المزيف بسبب شعوره بالعاطفـة المزيفة، ويصبح الحدّ الفاصل بيـن الزيف والحقيقية غير واضح المعالم عندما تنتـج العاطفـة حسب تقنيـة ستانسلافسكي، والأسـوأ من ذلك هو الـكاذب الذي ينجح في خـداع نفسه، فيصدّق كذبته. ومثل هذا الصّنف من الكاذبين لا يمكن اكتشافه، لكن يحتمل اكتشاف الكاذبين الذين يعرفون أنهم يكذبون.

وصفت حتى الآن ثلاث طرائق قد تتسرّب فيها المشاعر المخفية هي: التعابير الدقيقة، ومـا يمكـن رؤيته قبل التثبيط، ومـا يبقى على الوجه؛ لأنه لم يكن مـن الممكن تثبيط حركة عضلة الوجه الموثوقة.

يعتقـد معظم الأشخاص بوجـود مصدر رابع لكشف المشاعـر المخفية؛ وهو العينان؛ يُعتقـد أنّ العيـون مرآة الـروح، ويُقال: إنّ العيون تكشـف المشاعر الداخليـة الأكثر صدقاً. مارغريـت ميد أستـاذة علم طبائع البشر (الأنثربولوجي) اقتبسـت قول أستاذ روسي اختلف معهـا قبل الثورة، اعتدنا القول: «العينان مرآة الروح»؛ تستطيع العينان الكذب، فكيف يكون ذلك؟ تستطيع التعبير بعينيك عن الانتباه الشديد، والذي لا تشعر به في واقع الأمر. وتستطيع التعبيـر عن السكينة أو المفاجأة[11]». يمكن حلّ الخلاف بشأن مصداقية العينين من خلال التفكيـر بكلّ واحد مـن مصادر المعلومات الخمسـة الموجودة فيهما بصـورة منفصلة؛ إذ تقدم ثلاثة منها تسرّباً أو قرائن خداع.

أولهـا: تغيّـر مظهر العينيـن الذي تنتجـه العضلات المحيطـة بالمقلتيـن؛ تغيّر هذه العضلات شكل الجفنين، ومدى الظاهر من بياض العين والقزحة، والانطباع الكلي المكتسب مـن النظر إلى منطقة العينين. وتظهر بعض التغيرات التـي تنتجها العضلات في الأشكال: 3A، و3B، و3C، و3D. ولكـن، كمـا ذكرنـا سابقاً، لا تقدّم حركات العضـلات قرائن موثوقة على الخداع تقريباً، من السهل تحريك هذه العضلات، أو تثبيط حركاتها عمداً، فلا يتسرّب الكثير ما عدا التعبير الدقيق أو المُثبّط.

أمّـا المصدر الثاني للمعلومات في منطقــة العينين فيتمثل باتجاه النظرة، حيث يحمل كلّ اتجــاه عاطفــة معينة إلــى الأسفل مع الحزن، ونحــو الأسفل بعيداً مع الخــزي أو الذنب، وبعيــداً مع الاشمئــزاز، ولكن قــد لا يتجنب الكاذب المذنــب النظر كثيــراً؛ لأنّ الكاذبين لا يعرفــون أنّ الجميــع يتوقعون القدرة على كشــف الخداع بهذه الطريقة. لقــد لاحظ الأستاذ السوفييتــي الــذي اقتبستُ ميد كلماته مدى سهولة التّحكّم فــي اتجاه نظر المرء، والمدهش بقاء الأشخاص مخدوعين أمام الكاذبين المهرة بالصورة الكافية كي لا يشيحوا أبصارهم.

«أحد الأشيــاء التي جذبت باتريشا جاردنز إلى جيوفانــي فيجليوتو؛ الرجل الذي ربما يكــون قد تزوج مئة امرأة «فضيلة الصدق» بالنظر مباشرة إلى عينيها، وقد شهدت باتريشا في اليوم السابق في محاكمته على جمعه بين زوجتين[12]».

والمصــادر (الثالث والرابع والخامس) للمعلومــات المتحصّلة من منطقة العينين هي مصــادر واعدة أكثــر لقرائن الخداع والتسرب، يمكــن للشخص الغمز إراديّــاً، ولكنه أيضاً استجابــة لا إراديّــة تظهر عنــد انفعال الأشخــاص عاطفيّاً؛ يتمــدد البؤبؤان عنــد الانفعال العاطفــي، ولكن لا يوجد مســار إراديّ يتيح لأيّ شخص خيار القيــام بهذا التغيير باختياره، ويعــاد إنتاج تمــدّد البؤبؤين بالجهاز العصبــي الذاتي، والذي ينتج أيضــاً تغييرات في كمية اللعــاب، والتنفّس، والتّعرّق المذكورة في الفصل الرابع، وبعض تغيّرات الوجه المبينة أدناه. يشيــر تمدّد البؤبؤيــن والغمز إلى الانفعــال العاطفي، ولكنّهما لا يكشفان عــن نوع العاطفة، فقــد تكون علامات الإثارة، أو الغضــب، أو الخوف، وقد يكون الغمز وتمــدّد البؤبؤين تسربّاً قيّمــاً عندمــا تكشف القرينة عن عاطفة أو شخص ما كان يكذب، وأنّ مكتشف الكذب يمكنه استبعاد احتمال أن تكونا علامات على خوف الشخص البريء من أن يتم الحكم عليه ظلماً.

الدمــوع؛ العنصر الخامــس والأخير للمعلومات في العينين، يتــم إنتاجها أيضاً بحركة النظــام العصبــي الذاتي، ولكــن الدموع علامات علــى بعض العواطف فقــط وليس جميعاً، وتُستدعــى الدمــوع بالحــزن، والكرب، والابتهــاج، وبعض صــور الاستمتــاع، والضحك غير المنضبــط، ويمكن أن تُسرّب الدموع الكرب أو الحزن عندما تكون العلامات الأخرى مخفية علــى الرغم مــن توقع إظهار الحاجبيــن للعاطفة أيضاً، وأنّ الشخــص، وبمجرد بدء انهمار الدموع، يعرف بسرعة نوع المشاعر المخفية. يجب ألاّ تتسرب دموع الفرح إذا كانت الضحكة

بحدّ ذاتها مكبوتة، وينتج النظام العصبي اللاإرادي تغيرات أخرى مرئية في الوجه: كالتّورّد والشّحوب والتّعرّق.

كما هو الحال مع تغيرات الوجه والجسم الأخرى التي ينتجها النظام العصبي الذاتي، من الصعب إخفاء التّورّد، أو الشّحوب، أو تعرّق الوجه، ولم يتأكد بعد ما إذا كان من الممكن تفسيـر التّعرّق كتفسيـر الغمز المتكرر وتوسع حدقة العين، على أنّهما علامتان على استثارة عاطفة ما، أو أنهما بدلاً من ذلك محدّدان بعاطفة أو اثنتين، مع العلم أنّه لا يُعرف إلا القليل عن التّورّد والشّحوب.

يفترض أن يكون تـورّد الخدّين علامة على الحرج والخجل أيضاً، وربما الذنب كذلك. ويُقال: إنه أكثر شيوعاً لدى النساء مقارنة بالرجال، على الرغم من عدم معرفة سبب ذلك. قد يسرّب التّورّد شعور الكاذب بالحرج أو الخجل لما يقوم بإخفائه، أو قد يكون الحرج بذاته هـو ما يتم إخفاؤه؛ يتحـوّل لون الوجه للاحمرار أيضاً بالغضب، ولا أحد يعلم كيفية اختلاف الاحمـرار عن التّورّد. من المفترض أن يُظهر كلاهما تمدّد الأوعية الدموية في الجلد. ولكن يختلف احمرار كلّ من الغضب والحرج أو الخزي بالكمية، ومناطق الوجه المتأثرة، والمدّة. أتوقـع أنّ الوجـه يحمـرّ عندما لا يكـون الغضب مسيطـراً عليه، أو عندما يحـاول الشخص السيطـرة على الغضب الذي يشارف على الانفجار، وإذا كان الأمر كذلك، يكون هناك دليل آخر على الغضب بالوجه والصوت، وإنّ مكتشف الكذب لا يعتمد على تلوّن الوجه لكشف هذه العاطفـة. وفي الغضب المُسيطَر عليه أكثر، قد يشحُب الوجـه أو يبيضّ، وكذلك يفعل أيضاً بالخوف؛ فقد يتسرّب التّورّد حتى عندما تكون تعابير الغضب والخوف مخفيّة، ومن المدهش نُـدرة الدراسات عن الدّموع، والتّـورّد، والاحمرار، والشّحوب، وعلاقة كلّ منها مع التعبير أو إخفاء العواطف المحدّدة.

لننتقـل الآن إلى كيفيـة كشف الوجه للعواطـف المخفية لعلامات الوجـه، وأنّ التعبير مزيف، وأنّ تلك العاطفة ليست صادقة حقاً. إنّ أحد الاحتمالات التي سبق ذكرها يتمثل في أنّ العضلات الموثوقة ليست جزءاً من التعبير المزيف طالما ليست هناك مشكلة وودي ألن أو ستانسلافسكي، وهناك ثلاث قرائن أخرى تشير إلى أنّ التعبير زائف، هي: عدم التّماثل، والتوقيت، والمكان في مجرى الحديث.

فــي تعبير الوجه غير المتماثل، تظهر الحركات نفسهــا على كلا جانبي الوجه، ولكنها تكــون أقــوى على أحد الجانبيــن مقارنة بالآخر، وينبغــي عدم الخلط بينهمــا وبين التعابير التــي تظهر على جانب واحد من الوجه. إنّ حــركات الوجه من جانب واحد ليست دلالة على العاطفــة، باستثناء تعابير الازدراء التي ترتفع فيها الشفــة العليا، أو تشدّ زاوية الشفة لأحد الجانبيــن. بدلاً من ذلــك، تُستخدم تعابير الجانب الواحد في الحركات الرمزية، مثل الغمز بالعيــن، أو الرفــع المتشكك لأحد الحاجبيــن. إنّ التعابير غير المتماثلــة أكثر خفية، وأكثر شيوعاً، وأكثر إثارة للاهتمام مقارنة بتعابير أحد الجوانب.

العلماء المهتمون بنتائج أنّ النصف الأيمن من الدماغ متخصص بالتعامل مع العاطفة اعتقــدوا أنّ أحد جانبي الوجه قــد يكون عاطفيّاً أكثر، ولمّا كان نصف الدماغ الأيمن يتحكم فــي كثير من عضلات الجانب الأيسر للوجه، في حيــن، يتحكم النصف الأيسر في عضلات الجانــب الأيمن للوجه– فــإنّ بعض العلماء يشيــرون إلى أنّ العاطفة قد تكــون أكثر قوة في الجانــب الأيسر من الوجــه. وفي أثناء محاولتــي اكتشاف التناقضات فــي إحدى التجارب، اكتشفت عن طريق المصادفة كيف يمكن أن يكون عدم التّماثل دليلاً على الخداع؛ فالتعابيرُ الملتويــة التي تكون فيها الحركات أقوى بقليل في أحــد جانبي الوجه مقارنة بالجانب الآخر دليلٌ على أنّ المشاعر الظاهرة غير صادقة.

حصلت **المصادفة**؛ لأنّ الفريق الأول من العلماء الذين ادعوا أنّهم وجدوا ظهور العاطفة بقــوة على الجانب الأيسر من الوجه لــم يستخدموا أدواتهم الخاصة، ولكنهم استعاروا صور الوجــه مــن عندي. وقد درســتُ نتائج تجاربهم بدقــة أكبر مما كنت أفعل عــادة، واستطعت معرفة أشياء لم يعرفوها؛ بسبب ما أعرفه لأنّني مصوّر للوجوه.

لقد قطع هــارولد ساكيم وزمــلاؤه كلّ صورة من صور الــوجوه التي صوّرناها من المنتصف لتركيب صورة كلا الجانبين فيها يساراً وأخرى كلا جانبيها يميناً، بحيث تكون صورة الوجه الكاملة مؤلفة من صورة مرآة لأحد جانبي الوجه. صنّف الأشخاص العاطفة على أنها أكثر شدّة عندما شاهدوا صورة الوجه الأيسر المزدوج مقارنة بالصور المزدوجة للجانب الأيمن[13]، وقد لاحظت وجود استثناء واحد؛ هو عدم وجود فروق في الأحكام التي أُدْلِيَ بها على الصور السعيدة. لم يستنتج ساكيم كثيراً من التجربة، ولكني فعلت. ولأني

obeikandl.com

المصوّر، عرفت أنّ الصور السعيدة كانت للتعابير العاطفية الحقيقية الوحيدة، وقد التُقِطَتْ باقي الصور بالطلب إلى مجموعة عارضات تحريك عضلات معينة عمداً، وقد التقطت الصور السعيدة خارج جلسات التصوير من غير أن تعلم العارضات بذلك في أثناء مرحهن بوقت الفراغ.

إضافة إلى نتائج دراسات تلف الدماغ وتعبير الوجه التي وصفتها سابقاً في هذا الفصل، تشير هذه النتائج إلى تفسير مختلف تماماً لعدم تماثل الوجه. لقد أظهرت الدراسات أنّ التعابير الإراديّة واللاإراديّة تنطوي على مسارات عصبية مختلفة؛ إذ يمكن أن تنخفض قيمة أحدها في حين لا يتأثّر الآخر، وذلك تبعاً للمنطقة التالفة من الدماغ، ويمكن للتعابير الإراديّة واللاإراديّة أيضاً أن تكون مستقلة بعضها عن بعض؛ فإذا كانت واحدة منها غير متماثلة فقد لا تكون الأخرى كذلك. استند الجزء المنطقي الصغير الأخير على الحقيقة المؤكّدة، والتي تفيد أنّ حركات الوجه في نصفي الدماغ مباشرة وإراديّة، وليست لاإراديّة، وتنشأ الأخيرة في مناطق الدماغ السفلية، وينبغي للفروق بين نصفي الدماغ الأيمن والأيسر التأثير في التعابير الإرادية، وعدم التّأثير في التعابير العاطفية اللاإراديّة.

كما أرى، وجد ساكيم عكس ما أعتقد أنه أُثبت؛ لم يكن ما وجده أنّ جانبي الوجه تختلف في التعابير العاطفية. وبدلاً من ذلك، حدث اللاتماثل عندما كان التعبير وقفة استعراض متعمدة وإراديّة ومعدّة حسب الطلب، وعندما كان التعبير لاإراديّاً، كما في الوجوه السعيدة بصورة عفويّة، كان هناك بعض اللاتماثل، والذي يُعدُّ قرينة تدلّ على أنّ التعبير غير صادق[14].

لقد أجرينا مجموعة من الاختبارات لهذه الأفكار؛ للمقارنة بين تعابير الوجه المتعمدة والعفوية. احتدّ الجدل العلمي بشأن هذه المسألة، وقد برز مؤخراً اتفاق جزئي عن الحركات المعنية في التعابير العاطفية الإيجابية، والآن يتفق معظم الباحثين مع نتائج بحوثنا، وهي عندما لا يكون تعبير الوجه صادقاً، تعمل العضلة الرئيسة المعنية بالابتسام بقوة أكبر في جزء من الوجه، وعندما طلبنا إلى بعض الأشخاص الابتسام عمداً، أو الظهور بمظهر السعادة، وجدنا عدم تماثل، وكما وجدناه عندما درسنا الابتسامات التي بدت على وجوه الناس عند مشاهدتهم أحد الأفلام الدموية. على وجه العموم، كانت الحركة أقوى بقليل على الجانب

الأيسـر من الوجه إذا كان الشخص يستخـدم يده اليمنى، ووجدنا في الابتسامات الحقيقية الصّادقة، قلّة في التّعابير غير المتماثلة التي تكون أقوى في الجانب الأيسر من الوجه[15].

ووجدنـا عدم تماثل في بعض الحركات المعنية بالعواطف السلبية، إذا ما تم تقمّصها عمـداً، ولكن ليس عندما تكون جـزءاً من العرض العفوي للعاطفـة. أحياناً، تكون الحركات أقـوى علـى الجانب الأيسر، وأحياناً أخرى على الجانـب الأيمن، وفي بعض الأحيان، لا يكون هنـاك تبايـن بين الجانبين، إضافـة إلى الابتسام، تعـدّ حركة خفض الحاجـب الأيسر من الوجـه، والتي تكون عادة جـزءاً من مشهد الغضب، أقوى في الجانـب الأيسر من الوجه إذا مـا تمت الحركة عمـداً، وتكون حركة تجعيد الأنف المعنية بالاشمئـزاز، ومطّ الشفتين نحو الخلف باتجاه الأذنين الموجودة في حالة الخوف أقوى في الجانب الأيمن من الوجه إذا قام الشخص بالحركات متعمّداً. نُشرت هذه النتائج حديثاً، وليس من المؤكد ما إذا كانت مقنعة لأمثال ساكيم الذين قدموا اقتراح اللاتماثل في التعابير العاطفية[16].

لا أعتقـد أنّ ذلـك يفيـد مكتشف الكذب كثيـراً؛ لأنّ عدم التّماثل عادة مـا يكون خفيّاً جـدّاً لدرجة أنني أعتقد ألّا أحد يستطيع اكتشافه من غير قياس دقيق، وقد كنت مخطئاً في اعتقادي هذا.

فعندمـا طلبنـا إلى الآخرين الحكم على ما إذا كانت التعابيـر متماثلة أو غير متماثلة، قدمـوا أحكامـاً فاقـت المصادفة، علـى الرّغم مـن اضطرارهم الإدلاء بالأحـكام من غير مشاهدة العرض البطـيء أو المشاهدة المتكررة[17]. لكنهم لم يكونوا مُطالَبين بالقيام بأيّ شـيء آخـر. ولكننا لا نعرف حتـى الآن ما إذا كانـوا قادرين على إصدار مثـل هذه الأحكام الصحيحـة عندما يكـون عليهم التعامل مع مشتتات رؤية حـركات الجسم، وسماع الصوت، وإجابة الشخص الذي يتحدث معهم. لكن من الصعب جدّاً تصميم تجربة لتحديد ذلك.

إذا كان كثيـر من تعابير الوجه غير متماثلة، فمـن المرجح أنها لا تكون صادقة، ولكن عـدم التماثـل ليس دليلاً قاطعـاً على أنّ التعبير غيـر صادق؛ بعض التعابيـر الصّادقة غير متماثلـة، ولكـن في الواقع أنّ معظمهـا ليس كذلك، وبالمثل، لا يثبت غيـاب عدم التماثل أنّ التعبيـر صـادق؛ فربما يكون مكتشف الكذب قد أغفله، وبصرف النظر عن هذه المشكلة، لا

يعدّ كلّ تعبير متعمد، غير صادق وغير متماثل، بل معظمها كذلك. **ينبغي ألاّ يعتمد مكتشف الكذب على قرينة واحدة على الخداع؛ إذ لا بدّ من وجود عدد من القرائن**؛ لذا، يجب أن تؤكد تعابير الوجه قرائن الصوت، أو الكلمات، أو الجسم، وحتى تعابير الوجه، يجب عدم الاستناد إلى قرينة واحدة إلا إذا تكررت، والأفضل من ذلك، وجود قرينة أخرى تؤكدها. لقد وضّحنا سابقاً ثلاثة مصادر للتسرب يكشف فيها الوجه المشاعر المخفية، وهي: عضلات الوجه الموثوقة، والعينان، وتغيرات النظام العصبي اللاإرادي في مظهر الوجه، ويُعدّ عدم التماثل واحداً من مجموعة أخرى من القرائن، وهي ليست تسريباً لما هو مخفي ولكنها قرائن خداع تبين أنّ التعبير الظاهر زائف.

التوقيت؛ المصدر الثاني الذي يشير إلى أنّ التعبير مزيف يشتمل التوقيت على المدّة الإجمالية لتعبير الوجه، علاوة على أنه يدلّ على المدّة التي يستغرقها بدء التعبير للظهور (البدء)، والمدة التي يستغرقها للاختفاء (الغياب)، وتقدم المدد الثلاث قرائن للخداع؛ فمن المرجح أن تكون التعابير طويلة المدة زائفة (عشر ثوانٍ أو أكثر، وفي العادة خمس ثوانٍ).

عادة، لا تستمر معظم التعابير الصّادقة طويلاً، إلا إذا كان الشخص في ذِروة التجربة، أو في ذِروة النشوة، أو في حالة الغضب العارم، أو في أشدّ حالات الكآبة، ولا تستمر تعابير العاطفة الحقيقية على الوجه لأكثر من بضع ثوانٍ. وحتى في تلك الحالات المتطرفة، من النادر أن تستمر التعابير مدّة طويلة جدّاً بدلاً من ذلك، هناك تعابير أقصر مدّة؛ فالتعابير الطويلة هي في العادة حركات رمزية أو تعابير استهزائيّة.

لا توجد قاعدة ثابتة وسريعة بشأن قرائن الخداع في أوقات البدء والغياب إلّا في حالات المفاجأة؛ إذا كانت المفاجأة حقيقية فيجب أن تكون مُدَدُ البدء والغياب وزمن الظهور قصيرة (أقلّ من ثانية)، وإن طالت المدّة فالمفاجأة متكلَّفة غير حقيقية؛ حيث يتظاهر الشخص أنّه متفاجىء، أو أنّه يحاول الظهور أنّه متفاجئ وهو ليس كذلك حقيقة؛ فالمفاجأة دائماً شعور قصير المدة، وتدوم إلى أن يدرك الشخص المتفاجئ الحدث غير المتوقع. في حين يعرف معظم الأشخاص كيفية تزييف المفاجأة، فإنّ القليل فقط يستطيعون القيام بذلك بإقناع من خلال مُدَدُ البدء، والغياب، السريعة التي تتصف بها المفاجأة الطبيعية.

أظهـرت قصة صحفية مدى قيمة تعبير المفاجأة الحقيقـي؛ «تمّ الإفراج عن شخص مدان بغير وجه حقّ في عملية سطو، وبعد أن وجد مدعي عام النيابة، الذي لاحظ ردّة فعل المتّهم تجـاه الحكـم بإدانته، أدلة جديـدة أثبتت براءة وايـن ميلتون. وذكر مساعـد مدعي الولاية المحامي توم سميث أنه علم بوجود خطأ ما بعد رؤيته وجه ميلتون ينحني إلى الأسفل عندما أدانتـه هيئة المحلفين الشهر الماضي بغرامة قدرها 200 دولار لتأخره في سداد شركة غاز بحيرة أبوبكا[18]».

قـد تكون باقي التعابير العاطفية قصيرة جدّاً، وتظهر وتختفي خلال مدّة قصيرة جدّاً من الزمن، أو أنها قد تستمر لبضع ثوان، ويمكن أن يكون البدء والغياب سريعاً، ويعتمد ذلك على السياق الذي يحدث فيه التعبير. لنفترض تكلّف مرؤوس المرح لدى سماعه طرفة مملة للمرة الرابعة من مدير لا يتمتع بحسّ الدعابة، وذي ذاكرة ضعيفة.

يعتمـد الوقـت اللازم لظهور حركة الابتسـام على تزايد العبارات حتـى يصبح التأثير قويّـاً، سواء تدريجيّاً مع بعض عناصـر الدعابة البسيطة كان ذلك أم فجائيّاً، ويعتمد الوقت اللازم لغياب حركة الابتسام على نوع الطرفة، وكم هو مناسب إعادة روايتها أو إعادة تقبّلها. يستطيـع الجميع الابتسام لتزييـف الاستمتاع، ولكن الكاذب أقلّ قدرة على تعديل وقت البدء والغياب لتلك الابتسامة بالشكل الصحيح للتفاصيل المطلوبة من السياق.

إنّ الموقع الدقيق لتعبير ما بالارتباط فيما يتعلق بالحديث، وتغيرات الصوت، وحركات الجسـم، هو المصـدر الثالث لقرائن الخداع التي تشير إلـى أنّ التعبير مزيف. لنفترض أنّ أحدهـم تكلّف الغضب قائـلاً: لقد ضقت ذرعاً بسلوكك. وجاء تعبيـر الغضب بعد الكلمات، فمـن الأرجـح أن يكـون مزيفـاً مقارنة مع حدوثـه في بدايـة الجملة أو قبل ذلـك بلحظات. هنـاك على الأرجح مدى أقل لموقع تعبير الوجه بالارتباط مع حركات الجسم، ولنفترض أنّ الكاذب، وفي أثناء «ضيقه ذرعاً» ضرب الطاولة بقبضة يده، فإذا تبع تعبيرُ الغضب الضربةَ، فمـن المرجّح أن يكون غضبه مزيفـاً، ويُرجّح أيضاً أن تكون تعابير الوجه غير المتزامنة مع حركات الجسم قرائن خداع.

لا يكتمل النقاش بشأن علامات الوجه في الخداع من غير دراسة أحد أكثر تعابير الوجه تكراراً (الابتسامة). إنّها فريدة من نوعها بين تعابير الوجه، ولا تتطلب سوى عضلة واحدة لإظهار الاستمتاع. أمّا معظم العواطف الأخرى فبحاجة إلى حركة ثلاث إلى خمس عضلات. إنّ الابتسامة البسيطة هي التعبير الأسهل للملاحظة، وقد وجدنا أنه يمكن رؤية مثل هذه الابتسامة البسيطة عن بعد (300 قدم)، وبمدة عرض أقصر مقارنة بالتعابير العاطفية الأخرى[19]. من الصعب عدم الردّ على الابتسامة بمثلها؛ حتى إنّ الأفراد يقومون بها حتى لو كانت الابتسامة موجودة في صورة، وتبيّن أنّه يستمتع الأشخاص بمشاهدة معظم الابتسامات، وهذه الحقيقة معروفة لدى القائمين على الإعلانات.

ربما تكون الابتسامات أكثر تعابير الوجه استخفافاً، وهي أكثر تعقيداً مما يظنّ معظم الأشخاص. هناك عشرات الابتسامات، ويختلف بعضها عن بعض في المظهر والرسالة المنقولة، وهناك كثير من العواطف الإيجابية التي تشير إليها الابتسامات؛ كالاستمتاع، والمتعة الجسدية، أو الحسّية، والرضا، واللهو، وهذا غيض من فيض. أيضاً، يبتسم الأشخاص عند شعورهم بالتعاسة، وهذه ليست الابتسامات المزيفة نفسها المستخدمة لإقناع الآخر أنّ المشاعر الإيجابية صادقة عندما لا تكون كذلك، والتي عادة ما تكون لإخفاء تعبير العاطفة السلبية. مُؤخّراً، وجدنا أنّ الأشخاص يُضَلَّلون بهذه الابتسامات المزيفة، ولقد طلبنا إلى مجموعة من الأشخاص مشاهدة ابتسامات طالبات التمريض في تجربتنا، والحكم على ما إذا كانت ابتساماتهن حقيقية (التي بدت في أثناء مشاهدة الممرضات الفيلم السار)، أو مزيفة (التي بدت في أثناء إخفاء العواطف السلبية المستثارة من الفيلم الدموي)، ولم يحقق هؤلاء الأشخاص نتيجة أفضل من المصادفة. أعتقد أنّ المشكلة لم تكن مجرد الإخفاق في معرفة الابتسامة المخادعة، ولكنها تنبع في العموم من عدم فهم كمّ أنواع الابتسامات الموجودة، حيث من الصعب تمييز الابتسامة المزيفة من الصّادقة من غير معرفة وجوه الشبه والاختلاف عن باقي صور الابتسامات الرئيسة. وفيما يأتي شرح ثمانية عشر نوعاً مختلفاً من أنواع الابتسامات التي لا تُعدّ أيّ منها ابتسامة مخادعة.

إنّ العنصر المشترك بين صور الابتسام جميعها هو التّغيّر في المظهر الذي تنتجه عضلة الوجنة الرئيسة، وتصل هذه العضلة من أسفل عظام الخدّ وعبر الوجه، لتربط زاويتي

openkanadi.com

الشفتيـن. وعند تقلّصها، تجذب عضلة الوجنة الرئيسـة زاويتي الشفتين بزاوية نحو عظام الخـدّ، وبحركة قوية، تمطّ هذه العضلة أيضاً الشفتين، وتجذب الخدين نحو الأعلى، وتجعد الجلـد تحت العينيـن، وتنتج تجاعيد تشبه صورة رجل الغراب خـارج زاويتي العينين. (لدى بعض الأشخاص، تجذب هذه العضلة رأس الأنف نحو الأسفل. ولـدى آخرين تكون هناك سحبة خفيفة للجلد الموجود قرب الأذنين).

تندمج عضلات أخرى مع عضلة الوجنة الرئيسة لتشكل أنواعاً أخرى من الابتسامات، وتنتج أيضاً بعض مظاهر الابتسام عضلات أخرى، وليس عضلة الوجنة الرئيسة فقط.

تنتـج الحركة البسيطة لعضلة الوجنة الرئيسة الابتسامـة المبينة للعواطف الحقيقية، والإيجابيـة، وغير المُتَكَلَّفـة. ولا تتدخل عضلات أخرى من الأجـزاء السفلى للوجه في هذه الابتسامـة الصّادقـة. إنّ الحركـة الوحيدة التي قد تظهر على الجـزء العلوي من الوجه هي توتـر العضلـة التي تحيط بالعينين. هـذه العضلة، تنتج معظم التغيـرات على الجزء العلوي مـن الوجه، والتي يمكن إنتاجها أيضاً بحركـة رفع قوية من عضلة الوجنة الرئيسة؛ مثل رفع الخديـن، وتجعيد الجلد تحت العينين، وتجاعيد رجل الغراب. يبين الشكل 5A في الصفحة التاليـة الابتسامـة الصّادقة. تدوم الابتسامـة الصّادقة مدة أطول، وهـي أكثر شدّة عندما تكون المشاعر الإيجابية متطرفـة[20]. أعتقد أنّ الخبرات العاطفية الإيجابية جميعها؛ مثل: الاستمتـاع، والسعادة، والارتياح، ومتعة التحفيز اللمسـي أو السمعي أو البصري، والتسلية، والرضا، تبديها الابتسامة الصّادقة، مع اختلاف في توقيت الحركة وشدتها فقط.

لا علاقـة لابتسامـة الخـوف المبينة في الشـكل 5B فـي الصفحة التاليـة بالعواطف الإيجابية، ولكن يُخلط بينهما بطريق الخطأ أحياناً، وتنتج ابتسامة الخوف العضلة الضَّحِكيَّة التـي تجذب زاويتي الشفتين أفقيّاً نحو الأذنين، بحيث تمتـد الشفتان على صورة مستطيل. وتأتـي كلمة الضَّحِكيَّة من الكلمـة اللاتينية للضحك. وربما يعزى الالتباس إلى ميل الشفتين نحـو الأعلى قليلاً عندمـا تجذبها العضلـة الضَّحِكيَّة أفقيّاً فتشبه بذلك نسخـة الابتسامة العريضة الصّادقة، وفي تعبير الوجه الخائف، يرافق الفم الذي على صورة مستطيل (بوجود ميل في الشفة نحو الأعلى أو عدم وجود ميل) صور الحاجبين والعينين المبينة في الشكل 3B.

Obeikandi.com

تُعـدّ تسمية ابتسامـة الازدراء تسمية غير صحيحة؛ لأنّ هـذا التعبير يرتبط بالعاطفة الإيجابية أيضاً، على الرغم من أنها تُفسَّر كذلك عادة.

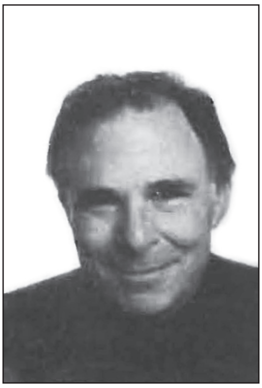

الشكل 5A: الابتسامة الصّادقة

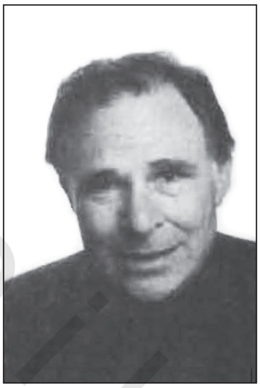

الشكل 5B: ابتسامة الخوف

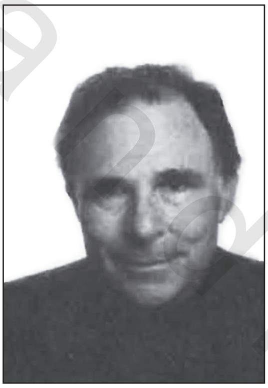

الشكل 5C: ابتسامة الازدراء

تنطـوي نسخـة ابتسامـة الازدراء المبينة فـي الشـكل 5C على تشديد عضلـة زاويتي الشفتيـن، وانتفاخ في عضلـة الزاويتين وحولهما، وعادة ما تكوّن غمـازة(فجوة في الخدّ)، وإمالـة طفيفـة نحو الأعلى لزاويتي الشفتيـن.* مرة أخرى، إنّ ما يسبـب الارتباك هو إمالة زاويتـي الشفتين نحـو الأعلى، والتي تعدّ ميـزة مشتركة مع الابتسامـة الصّادقة، والعنصر المشتـرك الآخر هو الغمازة، والتـي ترافق أحياناً الابتسامة الحقيقيـة الصّادقة. إنّ الفرق

* يمكن أن يظهر الازدراء أيضاً بالنسخ أحادية الجانب لهذا التعبير والذي فيه يتم شد أحد زوايا الشفتين ورفعهما قليلاً.

obeikandi.com

الرئيس بين ابتسامة الازدراء والابتسامة الصادقة هو زاويتا الشفتين المشدودتين، وهما ظاهرتان في الازدراء وغائبتان في الابتسامة الصّادقة.

يشعر الشخص فعلياً في **الابتسامة الفاترة**، بعواطف إيجابية، ولكنه يحاول إظهار أنّ المشاعر أقلّ شدّة مما عليه في الواقع، والهدف هو تخفيف تعبير العواطف الإيجابية، لا كبتها، والاحتفاظ بالتعبير، وربما بالتجربة العاطفية ضمن حدود، وقد تنشأ حركات ضغط الشفتين، وزمّ زاويتي الشفتين، ودفع الشفة السفلية نحو الأعلى، أو أيّ تركيبة أخرى بالابتسامة البسيطة. يبين الشكل 5D (انظر الصفحة التالية) ابتسامة بسيطة بحركاتها الثلاث ظاهرة بحركة الابتسامة الصّادقة.

أمّا **الابتسامة البائسة**، فتصاحب العواطف السلبية، وهي ليست محاولة للإخفاء، ولكنها مرارة في النّفس تبدو على الوجه، وتعني الابتسامة البائسة عادة أنّ الشخص الذي يبديها معترف بتعاسته، على الأقلّ في الوقت الراهن، وسيبتسم ويتجلّد. لقد رأينا هذه الابتسامة البائسة على وجوه الأشخاص عندما كانوا يجلسون وحدهم في المختبر ويشاهدون أحد الأفلام الدموية، من غير أن يعلموا بوجود آلة تصوير خفيّة تقوم بتصويرهم، وقد ظهرت في كثير من الأحيان عندما بدأوا بإدراك مدى دموية الأفلام المعروضة.

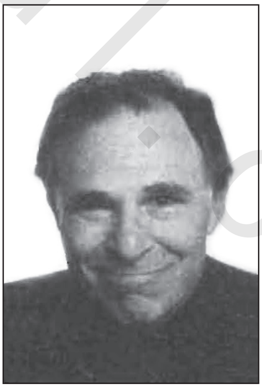

الشكل 5D: الابتسامة البائسة

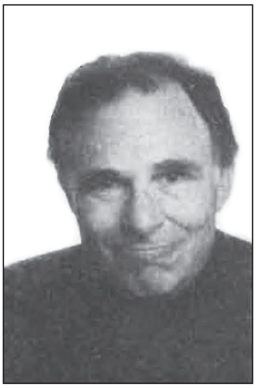

الشكل 5E: الابتسامة الفاترة

لقد رأينا أيضا ابتسامات بائسة على وجوه المرضى المكتئبين علامة على محنهم، وتكون الابتسامات البائسة غالباً غير متماثلة، وغالبا ما يتم فرضها على التعابير العاطفية السلبية الواضحة، لكنها لا تخفيها، بل تضيف إليها، أو قد تتبع بسرعة تعبيراً عاطفيّاً سلبيّاً.

إذا كانت الابتسامة البائسة تحاول السيطرة على تعبير الخوف، أو الغضب، أو الضيق، فقد تظهر الابتسامة البائسة مثل الابتسامة البسيطة، وقد يسهم زمّ الشفتين، ودفع الشفة السفلى إلى الأعلى من خلال عضلة الذقن، وزمّ زاويتي الشفتين أو خفضهما، في السيطرة على انفجار أحد هذه المشاعر السلبية. والفرق الأساسي بين هذه الصورة من الابتسامة البائسة الظاهرة في الشكل 5E، والابتسامة البسيطة هي غياب الدليل على توتّر العضلة حول العينين، وتعدّ حركة تلك العضلة؛ أي جذب الجلد حول العينين وتجعيدات رجل الغراب، جزءاً من الابتسامة البسيطة؛ لأنّ الاستمتاع صادق، ولكنه غائب عن الابتسامة البائسة؛ لأنّ الاستمتاع هنا غير موجود. أيضاً، قد تظهر الابتسامةُ البائسة من خلال الحاجبين والجبهة الاعترافَ بوجود العواطف السلبية المحسوسة.

في مزيج العواطف، يشهد الشخص عاطفتين أو أكثر في الوقت نفسه، وتظهر من خلال تعبير الوجه ذاته أيضاً، فضلاً على أنه يمكن أن تمتزج أيّ عاطفة مع أخرى، ونحن هنا مهتمون بمظهر العواطف التي تمتزج عادة مع العواطف الإيجابية فقط؛ فعندما يستمتع الأشخاص بالغضب، يظهر مزيج **الغضب الممتع** ضيقاً في الشفتين، وأحيانا في رفع الشفة العلوية، إضافة إلى الابتسامة الصّادقة، وكذلك مظهر الجزء العلوي للوجه المبين في الشكل 3C. (ويمكن تسمية تلك الابتسامة بالقاسية أو السّاديّة). تندمج **الابتسامة الصّادقة** في تعبير الازدراء الممتع بزَمٍّ إحدى زاويتي الشفتين أو كلتيهما، ويمكن الاستمتاع أيضاً بالحزن والخوف؛ مثل أولئك الذين يصنعون أفلام الرعب المبكية والكتب أيضاً؛ في **الحزن الممتع**، قد تنجذب زاويتا الشفتين نحو الأسفل إضافة إلى الجذب نحو الأعلى في الابتسامة الصّادقة، أو قد تندمج الابتسامة الصّادقة مع جزء الوجه العلوي كما في الشكل 3A؛ إذ يُظهر الوجه العلوي من الشكل 3B مزيج **الحزن الممتع** مع الابتسامة الحقيقية. أو قد تمتزج الابتسامة الحقيقية بالامتداد الأفقي للشفتين. إنّ بعض الخبرات الممتعة هادئة ومطمئنة، ولكن المتعة تختلط أحياناً بالإثارة في الشعور المبهج. في **الإثارة الممتعة**، يرتفع الجفنان العلويان إضافة إلى الابتسامة الصّادقة. ولطالما أظهر الممثل هاربو ماركس ابتسامة الغضب الممتع؛ الابتسامة المثيرة المبتهجة، وذلك في أثناء المزاح. وفي ابتسامة **المفاجأة الممتعة**، يرتفع الحاجب، ويتدلى الفك، ويرتفع الجفن العلوي، وتظهر الابتسامة الصّادقة.

تنطوي ابتسامتان أُخريان على دمج الابتسامة الصّادقة مع نظرة معينة؛ ففي **الابتسامة الغزلية**، يبدي المغازل ابتسامة صادقة في أثناء مواجهته وجه الشخص محطّ الاهتمام، وإشاحته البصر عنه، مدّة من الزمن، ثم اختلاس نظرة طويلة بما يكفي لتتم ملاحظتها في أثناء إشاحة النظرة بعيداً مرّة أخرى.

يكمن أحد العناصر التي جعلت لوحة الموناليزا فريدة في أنّ ليوناردو رسمها وهي على وشك إظهار ابتسامة غزليّة؛ إذ تشيح بوجهها نحو جهة، ولكنها تختلس نظرة عابرة جانبية على موضوع هو محطّ اهتمامها. في الحياة، تعدّ تلك حركة؛ حيث لا يدوم زمن إزاحة الانتباه سوى لحظات. في **ابتسامة الإحراج**، يُوجّه النظر نحو الأسفل أو إلى الجانب كي لا تلتقي عينا الشخص المُحرَج مع عيني الآخر، وقد يكون هناك جذب لحظيّ نحو الأعلى لعضلة الذقن الرئيسة (الجلد والعضلة بين الشفة السفلى ورأس الذقن) في أثناء الابتسامة الصّادقة. وفي حالة أخرى، يظهر الحرج من خلال الجمع بين الابتسامة البسيطة مع نظرة سفلية أو جانبية.

تعدّ **ابتسامة تشابلين** غير عادية، وتنتجها العضلة التي لا يستطيع معظمنا تحريكها إرادياً. لقد كانت ابتسامة تشابلين هذه، والتي ترتفع زاويتا الشفتين فيها بدرجة أكثر حدّة، مقارنة بارتفاعها في الابتسامة الصّادقة، وهي سمة مميزة له، (انظر الشكل 5F في الصفحة التالية) إنها ابتسامة متكبر؛ تبتسم للابتسام.

فيما يأتي ابتسامات أربع، تشترك في المظهر نفسه، ولكنها تؤدي وظائف اجتماعية مختلفة. وفي كلّ منها تُصطنع الابتسامة عن قصد، وغالبا ما تبدي هذه الابتسامات بعض التماثل.

الأولى؛ **ابتسامة المؤهل** (الاستخفاف)، والتي تبدي الجانب القاسي لرسالة غير سارة أو حرجة، وتجبر عادة الشخص المُستقبِل المحبط الابتعاد عن الانتقاد بابتسامة باهتة(صفراء)، في المقابل. وتُصطنع هذه الابتسامة عمداً بسرعة وبصورة مفاجئة، ويمكن زمّ الشفة، وأحياناً تدفع الشفة السفلى قليلاً إلى الأعلى للحظة، وتتميز ابتسامة الاستخفاف

obeikandl.com

بهـزّة رأسـ في العادة، وميل بسيط للرأسـ نحو الأسفل ولأحد الجوانب كـي ينظر المبتسمُ بدونيّة إلى الشخص المُنتقَد.

الثانيـة: **الابتسامـة المذعنـة**، تشير إلـى أنّ أمراً بغيضـاً يصعب قبولـه سيُقبل على مضض. ولا يعتقد أنّ من يبدي هذه الابتسامة يكون سعيداً، ولكنها تبين أنّ الشخص يتقبّل مصيراً غير مرغوب فيه، وهي تشبه ابتسامة(الاستخفاف) المؤهل من غير وضع الرأس.

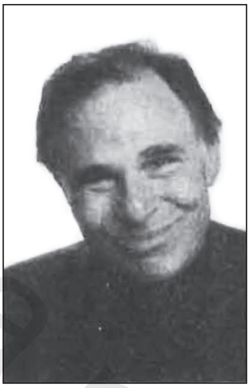

الشكل 5F: ابتسامة تشابلين

وبـدلاً من ذلك، قد يُرفع الحاجبان، فـي ابتسامة تشابلين في الشكل 5F، للحظة، وقد تسمع تنهيدة، أو تظهر رفعة كتف.

الثالثـة: **ابتسامة التنسيق**، تنظم التبادل بين شخصين أو أكثر، وهي ابتسامة مهذبة، وتعاونيـة، تعمـل على إظهـار الاتفاق السلس، والفهـم، ونية التنفيذ، أو الإقـرار بأداء الآخر المناسـب، وتنطوي على ابتسامـة خفيفة غير متماثلة في العادة، مـن غير حركة للعضلتين المحيطتين بالعينين.

الرابعة: **ابتسامة استجابة المستمع**، والتي تعدّ ابتسامة تنسيق خاصة، وتُستخدم عند الاستماع لجعل الشخص المتحدث يعرف أنّ حديثه مفهوم، وأنّ لا حاجة إلى التكرار أو إعادة الصياغة، وهـي مرادفة لـ(mm–hmm)، وهـي أصوات معبرة عن الموافقـة، أو(حسناً)، وغالبـاً ما ترافقها هزّة رأس، ولا يعتقد المتحـدث أنّ المستمع سعيد، ولكنه يفسّر ابتسامته علـى أنهـا تشجعه على متابعة الحديث. يمكن أن تحلّ مـكان أيّ من هذه الابتسامات الأربع؛

obeikandl.com

الاستخفاف، والإذعان، والتنسيق واستجابة المستمع ابتسامةٌ محسوسة حقيقية. أحياناً، قد يبدي الشخص الذي يستمتع بنقل رسالة استخفاف، والذي يتمتع بالإذعان، والمستمع، أو المنسق، ابتسامات صادقة بدلاً من الابتسامات غير الصّادقة التي وصفتها.

دعونا نصف الآن **الابتسامة الزّائفة**؛ إنّها تهدف إلى خداع شخص آخر أنّها عاطفة صادقة، في حين، ليست كذلك، ويستعملها بوصفها قناعاً يخفي وراءه عواطف سلبية. وعلى عكس الابتسامة البائسة التي تظهر مرارة النفس، تحاول الابتسامة المزيفة تضليل الآخر كي يعتقد أنّ المبتسم يمتلك شعوراً إيجابياً، وهذه هي الابتسامة الوحيدة الكاذبة.

هناك عدد من القرائن للتمييز بين الابتسامة المزيفة والصّادقة التي نقوم بها:

الابتسامات المزيّفة غير متماثلة بدرجة أكبر مقارنة بالابتسامات الصّادقة.

لن ترافق الابتسامة المزيّفة حركات العضلات المحيطة بالعينين؛ لذا، لا تظهر الابتسامة المزيفة بدرجة خفيفة، إلى متوسطة، خدّين مرتفعين، وجلداً مشدوداً تحت العينين، وتجعّدات رجل الغراب، أو انخفاضاً بسيطاً في جفني العينين، مما يظهر عند الابتسامة الصّادقة الخفيفة إلى المتوسطة، ومثالها يتضح في الشكل 6؛ مقارنة مع الشكل 5A، إذا كان حجم الابتسامة أكبر، فإنّ حركة الابتسام نفسها (العضلة الوجنية الرئيسة) ترفع الخدّين، وتجمّع الجلد تحت العينين، وتنتج تجعيدات رجل الغراب، ولكنها لن تخفض الحاجبين. فإذا نظرت في المرآة، وتدرّجت بابتسامة أكبر فأكبر ببطء، فسوف تلاحظ أنه بازدياد حجم الابتسامة يرتفع الخدان، وتظهر تجاعيد رجل الغراب، ولكنّ الحاجبين لا ينجذبان نحو الأسفل ما لم تتحرك عضلتا العينين أيضاً. إنّ عدم مشاركة الحاجبين قرينة خفية، ولكنها حاسمة لتميز الابتسامة الصادقة من المزيفة عندما تكون الابتسامة عريضة.

قد يظهر وقت اختفاء الابتسامة المزيّفة غير ملائم على نحو ملحوظ؛ فقد تتلاشى الابتسامة عن الوجه فجأة، أو قد يكون هناك غياب متدرّج تتضاءل فيه الابتسامة، ثم يُحتفظ بها قبل غيابها، أو المرور بتناقص آخر متدرّج في أثناء اختفائها عن الوجه.

obeikandi.com

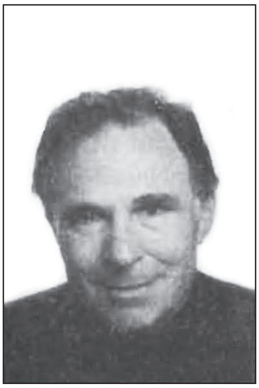

الشكل 6: الابتسامة المزيفة

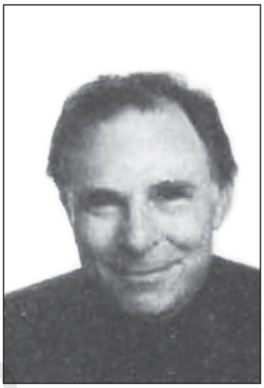

الشكل 5A: الابتسامة الصادقة

عندما تُستخدم الابتسامة المزيفة قناعاً فإنها ستغطي حركات جزء الوجه السفلي والجفنين السفليين فقط، وربما تستمر العضلات الموثوقة التي تظهر على الجبهة للإشارة إلى الخوف أو الكرب بالظهور. وحتى في جزء الوجه السفلي، قد لا تنجح الابتسامة المزيفة في إخفاء علامات العاطفة التي تنوي إخفاءها كليّاً، وبدلاً من ذلك، قد يكون هناك دمج للعناصر كي يستمر بعض الأثر بالظهور كما لو كانت مزيجاً عاطفيّاً.

لقد كان اختبارنا الأول لهذه الأفكار هو قياس تعابير الابتسام التي أظهرتها طالبات التمريض في التجربة السابقة، فإذا كانت أفكاري بشأن الابتسام صحيحة، فينبغي للطالبات إظهار الابتسامة الحقيقية في المقابلة الصادقة؛ أي عندما شاهدن الفيلم السّار، ووصفن مشاعرهنّ بصدق. وكان ينبغي لهنّ إظهار ابتسامات مزيفة في المقابلة الخادعة؛ عندما شاهدن الفيلم غير السّارّ، ولكنهنّ حاولن الظهور كما لو أنهنّ يشاهدن فيلماً سارّاً آخر. لقد قسنا علامتين على تزييف الابتسام؛ غياب وجود عضلات حول العينين، ووجود علامات الاشمئزاز (لتجعيد الأنف)، أو الازدراء بِزَمِّ زاويتي الشفة.

لقد كانت النتائج كما توقعت تماماً، وقوية أيضاً؛ ففي المقابلة الصادقة، كانت الابتسامات الحقيقية أكثر من المزيفة، ولم تسرّب الابتسامات الاشمئزاز أو الازدراء، وأما في المقابلة الخادعة فقد ظهرت ابتسامات التّسرّب، وكانت الابتسامات المزيفة أكثر من الحقيقية. لقد كنت مندهشاً لنجاح هاتين القرينتين، خصوصاً أنني أعلم أنّ الأشخاص لا يلقون لها بالاً لدى حكمهم على الآخرين. لقد عرضنا في دراسات سابقة أشرطة الفيديو

نفسها لتعابير الوجه، وطلبنا إلى بعض الأشخاص الحكم في حال كذبت الممرضات، فلم يحرزوا نتائج تفوق المصادفة. فهل نحن نقيس شيئاً مخفيّاً تماماً لا يُرى، أم أنّ الأشخاص لا يعلمون عمّا يبحثون؟ من خلال تعليم الأشخاص كيفية التعرف إلى وقت ظهور حركة عضلة العينين، وموعد حدوث ابتسامات التسرب، ستكشف الدراسة القادمة ما إذا كانوا أكثر قدرة على اكتشاف الكذب بدقة أكبر.

يحتوي الوجه على قرائن مختلفة على الخداع: التعابير الدقيقة، والتعابير المُثبَّطة، وتسرب عضلات الوجه الموثوقة، والغمز، وتمدّد البؤبؤ، والدّمع، والتّورّد، والشّحوب، وعدم التماثل، وأخطاء التوقيت، وأخطاء الموضع، والابتسامات المزيفة. وتشير بعض هذه القرائن إلى شيء مخفيّ، ولكنها لا تدل على ماهيته. في حين، تصف أخرى أنّ تعبيراً ما مزيفٌ.

تتنوّع علامات الخداع في الوجه، مثلها مثل قرائن الخداع في الكلمات، والصوت، والجسم التي سبق ذكرها في الفصل السابق، من حيث دقة المعلومات التي تنقلها، وتنقل بعض قرائن الخداع العاطفة الحقيقية تماماً، على الرّغم من محاولة الكاذب إخفاء تلك المشاعر، وتكشف قرائن خداع أخرى ما إذا كانت العاطفة إيجابية أم سلبية، ولا تكشف نوع المشاعر السلبية أو الإيجابية التي يحسّ بها الكاذب.

ولكن تظل القرائن الأخرى غير متمايزة. وتكشف شعور الكاذب ببعض العاطفة، ولكنها لا تكشف ما إذا كانت المشاعر المخفية إيجابية أم سلبية. وقد يكون ذلك كافياً. قد تشير معرفة كون بعض العواطف حقيقية أحياناً إلى أنّ الشخص يكذب، وإذا كان هذا هو الحال، باستثناء الكذب، فلا يحتمل أن يشعر الشخص بالعاطفة أبداً. وفي أحيان أخرى، لا يمكن كشف الكذب من غير وجود معلومات دقيقة أكثر عن العاطفة المخفية الحقيقية. ويعتمد ذلك على الكذبة، والعبارات التي ينطقها الشخص المشتبه به في الكذب، والحالة، والتفسيرات البديلة المتوافرة، بصرف النظر عن الكذب لتفسير لماذا يمكن أن تكون العاطفة حقيقية ولكنها مخفية.

obeikandl.com

مـن المهم أن يتذكر مكتشـف الكذب؛ أيّ القرائن تنقل معلومات محـدّدة، وأيّها تنقل معلومـات عامة فقط. يلخص الجـدولان 1 و2 في الملحق قرائن الخـداع المذكورة في هذا الفصل والذي سبقه جميعها. ويعرض الجدول 3 قرائن التزييف.

obeikandl.com

الفصل السادس

الأخطار والاحتياطات

كثيرًا ما يخدع معظم الكاذبين الآخرين معظم الوقت.* حتى الأطفال، وبمجرد بلوغهم سن الثامنة، أو التاسعة، (أو قبل هذا السنّ حسب ما يرى بعض الآباء) يستطيعون خداع ذويهم بنجاح. لا تنطوي الأخطاء في كشف الخداع على تصديق الكاذب فقط، ولكن الأسوأ من ذلك أيضاً عدم تصديق الصادق، وقد يؤثر هذا الحكم الخطأ في الطفل الصادق غير المُصدَّق تأثيراً كبيراً على الرغم من المحاولات اللاحقة لإصلاح الخطأ، وقد تكون العواقب كارثيّة للكبير غير المُصدَّق كذلك؛ فقد يفقد الشخص صداقته، أو عمله، أو حتى حياته. نسمع بين فينة وأخرى خبر خروج شخص بريء مسجون، أُدين خطأ بالكذب، بعد سنوات من السجن من غير وجه حق، وليس من المستغرب تصدُّر مثل هذا الخبر الصفحة الأولى. وفي الوقت الذي لا يمكن تجنب الأخطاء تماماً، فإنّه يمكن اتخاذ الاحتياطات للحدّ من ارتكابها في الكشف عن الخداع.

---

* وجدت أبحاثنا، ومعظم بحوث الآخرين، أن بعض الأشخاص يصيبون بدرجه تفوق الصدفة في الحكم على كذب أو صدق الآخرين، وقد وجدنا أيضاً أن معظم الأشخاص يعتقدون أنهم يقدمون أحكاماً دقيقة على الرغم من عدم قيامهم بذلك. وعدد الذين يستطيعون كشف الخداع بدقة قليل. لست أعلم حتى الآن ما إذا كان هؤلاء موهوبين بالفطرة أم أنهم اكتسبوا هذه القدرة من خلال ظروف خاصة، ولم يركز بحثي على مسألة أفضل الأشخاص في كشف الخداع، ولكن ما تعلمته يوحي أن هذه القدرة لا ينتجها التدريب التقليدي في مهن الصحة العقلية.

obeikandi.com

ينطوي الاحتياط الأول على **جعل عملية تفسير العلامات السلوكية للخداع أكثر وضوحاً**، ولن تمنع المعلومات المقدمة في آخر فصلين، والأحكام عن كذب الشخص من عدمه من لغة الوجه، والجسم، والصوت للخداع، ولكنها قد تجعل هذه الأحكام أكثر وضوحاً وقابلية للتصحيح. بعد الآن، لن يعتمد مكتشفو الكذب على التخمين والبديهيات، وينبغي لهم أن يكونوا أكثر قدرة على التعلم بالخبرة، ونبذ، أو تصحيح، أو إعطاء بعض قرائن الخداع الخاصة أهمية أكبر؛ لأنهم أصبحوا أكثر دراية بأسس أحكامهم، وقد يستفيد الشخص المتهم ظلماً بقدرته أكثر على تحدي الحكم الجائر إذا كانت أسس الحكم محدّدة وموضوعية.

يتمثل الاحتياط الآخر في **فهم طبيعة الأخطاء التي تحدث في الكشف عن الخداع فهماً أفضل**. هناك نوعان من الأخطاء متضادان في السبب والنتيجة؛ ففي عدم تصديق الصادق، يحكم مكتشف الكذب ظلماً على الشخص الصادق بالكذب، وفي **تصديق الكاذب**، يحكم مكتشف الكذب على الكاذب بالصدق.* يتعرض مكتشف الكذب لارتكاب هذين الخطأين، سواء اعتمد على اختبار كشف الكذب أم على تفسيره للقرائن السلوكية للخداع. لنتذكر الفقرة التي نقلتها في الفصل الثاني من رواية أبدايك (**تزوّجيني**)، عندما يسمع جيري، عن طريق المصادفة زوجته روث تتحدّث بالهاتف مع عشيقها، ولملاحظته أنّ صوتها يبدو لطيفاً أكثر مقارنة بحديثها معه. يسألها جيري: مَنِ المتّصل؟ فتصطنع روث قصة التغطية قائلة: معلمة من مدرسة الأحد تسأل ما إذا كنا سنسجّل جوانا وتشارلي في المدرسة، فإنْ كان جيري يصدّق ادّعاء روث فإنّه يرتكب خطأ تصديق الكاذب.

لنفترض أنّ روث زوجة مخلصة، وتتحدث حقّاً مع معلمة من مدرسة الأحد، وأنّ جيري يشكّ في مصداقيتها. في هذه الحالة، إذا اعتقد جيري خطأ أنّ زوجته المخلصة تكذب فإنّه يرتكب خطأ عدم تصديق الحقيقة؛ أي تكذيب الصّادق.

---

* في التفكير في الأخطاء التي قد تحدث في إجراءات الاختبار من أي نوع، يستخدم مصطلح نتائج إيجابية كاذبة للإشارة إلى ما أسميه تصديق الكذبة، ولم أستخدم هذه المصطلحات؛ لأنها قد تكون مربكة عند النظر في الكذبة حيث تبدو الإيجابية غير ملائمة للإشارة للشخص الذي اكتشف بأنه كاذب، و وجدت أيضاً أنه يصعب الانتباه؛ أي أنماط الأخطاء هي التي تشير إليها الإيجابية والسلبية الكاذبة، والشروط الأخرى التي تم اقتراحها هي إنذارات زائفة لخطأ عدم تصديق الصادق وتصديق الكذبة. وللإيجابية الإيجابية والسلبية الكاذبة ميزة الإيجاز ولكنها ليست محددة مثل العبارات التي تبنيتها.

فـي الحرب العالمية الثانية، وقع هتلر في خطأ تصديق الكذب، في حين أخطأ ستالين خطأً كارثيّاً فـي تكذيب الصّدق. خدع الحلفاء الألمان من خلال مختلف الوسائل (كمحاكاة تجميع القـوات، وإطلاق الشائعـات، والتزويد بالخطط العسكرية المزيفـة للعملاء الألمان المورفيين) أنّ غزوهم لأوروبا وفتح الجبهة الثانية سيكون في منطقة كالية وليس على شاطئ النورمانـدي. وبعـد ستة أسابيع من غـزو النورماندي، ظلّ الألمان واقعيـن في الخطأ نفسه والإبقاء على كثير من قواتهم على أُهبة الاستعداد في منطقة كالية، بدلاً من تعزيز جيوشهم المُحاصَـرة في النورماندي، معتقدين أنّ الهبوط علـى شاطئ النورماندي كان تمهيداً لغزو كاليـة. لقد كانت هذه حالة من تصديق الكذب، فقد حكم الألمان على التقارير التي نشرها الحلفـاء لغزو كالية علـى أنها صادقة، في حين، أنّها كانت فـي الحقيقة خدعة حربية معدّة بعناية. بالمقابل، حكم الألمان على الكذبة، وهي خطة غزو كالية أنّها حقيقية.

إنّ عكـس ذلك تماماً هو الحكم على الحقيقة أنها كذبة، وذلك برفض ستالين تصديق التحذيـرات الكثيرة التي تلقاها، وكان بعضها مـن جواسيسه الخصوصيين الموجودين بين القـوات الألمانية، والتـي أفادت أنّ هتلر على وشك أن يبدأ هجومـاً على روسيا، فكانت هذه حالة من عدم تصديق الحقيقة، فقد عَدَّ ستالين التقارير الدقيقة للخطط الألمانية أكاذيب.

مـن المهم التمييز بين تصديـق الكذبة وعدم تصديق الحقيقـة؛ لأنها تجذب الانتباه للخطرين الذين يواجههما مكتشف الكذب؛ إذ ليس هناك طريقة لتجنبهما تماماً؛ فالاختيار يكـون فقـط بأيهما يجدر المخاطـرة أكثر، وينبغي علـى مكتشف الكذب تقييـم متى يفضل المخاطرة بالسماح بالتضليل، ومتى يكون من الأفضل المخاطرة في توجيه الاتهام الباطل.

ويعتمـد مـا يمكن كسبه أو خسارته من جرّاء الشك في البريء أو تصديق الكاذب على كلّ مـن: الكذبـة، والـكاذب، ومكتشف الكذب. وقد تكـون العواقب أسوأ بكثيـر في نوع خطأ معين، أو قد تكون الأخطاء بالخطورة نفسها.

ليســت هناك قاعدة عامة بشأن نوع الخطأ الذي يمكن تجنبه بسهولة؛ قد تكون أحياناً النتائـج هـي نفسها تقريباً، وأحياناً أخـرى قد يكون أحد أنواع الخطـأ مرجّح الحدوث أكثر مـن الآخر، ولكن ذلك يعتمـد على الكذبة، وقائلهـا، ومكتشفها، كما ذكرنا قبـل قليل. وأما

openkandar.com

القضايـا التي يفكر مكتشف الكـذب فيها في تحديد المخاطرة بنوع الخطـأ، فستُناقش في نهاية الفصل السابع، بعد مناقشة جهاز كشف الكذب ومقارنته باستخدام القرائن السلوكية لكشف الخداع. الآن، سأذكر كيف تكون القرائن السلوكية على الخداع عرضة لهذين النوعين من الأخطاء، وكذلك الاحتياطات التي يمكن اتخاذها لتجنب الأخطاء.

[*]الفـروق الفرديـة، وهي ما أسميته في وقت سابق مخاطرة بـروكاو، والتي تنشأ بسبب الفشل في تفسير كيفية اختلاف الأشخاص في سلوكهم التعبيري. هذه الفروق هي المسؤولة عن نوعي الخطأ في الكشف عن الخداع. ولا تعدّ أيّ قرينة على الخداع في الوجه، أو الجسم، أو الصـوت، أو الكلمـات مضمونة، ولا حتـى نشاط الجهاز العصبي الـلاإرادي الذي يقيسه جهـاز كشف الكذب، ويحدث خطأ تصديق الكذبة؛ لأنّ بعض الأشخاص لا يخطئون عندما يكذبـون، وهؤلاء ليسوا مجرد مرضـى نفسيين، إنّهم الكاذبون غريزيّـاً، والأشخاص الذين يستخدمـون تقنية ستانسلافسكي، وأولئك الذين ينجحـون بوسائل أخرى في جعل الآخرين يصدقـون أكاذيبهم؛ لـذا، ينبغي لمكتشف الكذب تذكّر أنّ **غياب وجـود قرينة على الخداع قد لا يكون دليلاً على الصدق.**

إذا كان الخصم ذكيّاً فسرعان ما يلاحظ نمط السعال والخداع، وفي مجموعة الأوراق الرّابحـة. وعندما تكون الأخطار عالية، يسعل المخادع ثانية، ولكنه في هذه المرة لا يخادع. وأخيراً، ينجح في تشويش خصومه، ويربح مبلغاً مجزياً[1].

يمثـل لاعب البوكر إعداد واستغلال خطأ عدم تصديـق الحقيقة، مستفيداً من الحكم عليـه أنه يكذب. ويعاني الشخص الـذي يُحكم عليه خطأ أنه كاذب في أغلب الأحيان عندما يقتـرف مكتشـف الكذبة غلطـة عدم تصديق الحقيقـة، وليس الخداع هو الـذي يحكم على الصادقين أنهم يكذبون، بل المراوغة في سلوكهم، وخاصية أسلوب تعبيرهم، فما يبدو لدى آخرين أنّه قرينة خداع قد لا يكون كذلك لمثل هؤلاء الأشخاص.

* قد يكون وجود علاقة على الخداع مضللاً، ويسبب الخطأ المعاكس، وهو عدم تصديق الحقيقة، والتي فيها يُحكم على الصادق بالكذب. قد يُعِدّ شخص محتال قرينة الخداع عمداً؛ لاستغلال اعتقاد المتلقّي غير الصحيح أنه كشف الرجل المحتال وهو يكذب. يقال إنّ لاعبي البوكر يستخدمون هذه الحيلة، وهي إنشاء ما يُسمى في لعبة البوكر «قرائن الخداع المزيفة»، مثلاً، قد يسعل اللاعب ساعات عدّة عامداً عند خداعه الآخرين.

obeikandi.com

إنّ بعض الأشخاص:

- غير مباشرين، ويسهبون في أحاديثهم بتفاصيل لا ضرورة لها.
- يتوقفون كثيراً في أثناء حديثهم، ووقفاتهم تكون قصيرة أو طويلة.
- يخطئون كثيراً في أثناء الحديث.
- يستخدمون عدداً أقلّ من الحركات التوضيحية.
- يستخدمون الحركات المموّهة أكثر.
- يبدون عادة علامات على الخوف، أو الكرب، أو الغضب في تعابير وجوههم، بصرف النظر عن شعورهم الحقيقي.
- يبدون تعابير وجه غير متماثلة.

هناك فروق هائلة بين الأشخاص في هذه السلوكات جميعها؛ لا تنتج هذه الفروق خطأ تصديق الكذب فقط، بل وعدم تصديق الحقيقة أيضاً. إنّ نعت الشخص الصادق الذي يتحدث حديثاً غير مباشر أنه كاذب يعدّ خطأ عدم تصديق الحقيقة، ونعت الشخص الكاذب المتحدث بسلاسة أنه صادق خطأ تصديق الكذب. حتى لو كان كلام هذا الشخص عند كذبه قد يصبح غير مباشر بصورة أكبر، ويقترف المزيد من الأخطاء، وقد يغفل الآخرون عن ملاحظته؛ لأنه ما يزال أكثر سلاسة في نظر معظمهم.

إنّ الطريقة الوحيدة للحدّ من أخطاء مخاطرة بروكاو تكون بإسناد **الأحكام إلى التغيير في سلوك المشتبه به**، وينبغي لمكتشف الكذب عقد مقارنة بين سلوك المشتبه به المعتاد والسلوك الظاهر عندما يكون المشتبه به مثار شكّ، ويمكن أن يكون الأشخاص عرضة للتضليل في الاجتماعات الأولى؛ بسبب عدم وجود قاعدة للمقارنة، وعدم وجود فرصة لملاحظة التغيير في السلوك. ويُرجّح أن تكون الأحكام المطلقة غير صحيحة مثل: إنها تستعمل كثيراً من الحركات المُموِّهة، لا بدّ من أنّها غير مرتاحة حيال ذكرها لشيء ما. والأحكام النسبية هي الطريقة الوحيدة للتخفيف من خطأ عدم تصديق الحقيقة؛ بسبب الفروق الفردية في الأسلوب التعبيري مثل: إنها تستخدم حركات مموّهة أكثر بكثير مما اعتادت عليه، ولا بدّ من أنها غير مرتاحة. يتبع لاعبو البوكر المهرة هذه الممارسة،

فيحفظون قرائن الخداع لخصومهم المعتادين[2]؛ فإذا كان على مكتشف الكذب الإدلاء بحكم بعد اللقاء الأول، فينبغي أن يكون الاجتماع طويلاً بما فيه الكفاية لمنحه الفرصة لملاحظة سلوك المشتبه به المعتاد. وقد يحاول مكتشف الكذب مثلاً التركيز لمدة على موضوعات لا تسبّب الضيق، ولكن ذلك لا يكون متاحاً أحياناً؛ إذ قد يكون الاجتماع برُمَّته باعثاً لتوتّر المشتبه به الذي يكره أن يكون موضع شكّ ويخاف ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فينبغي لمكتشف الكذب معرفة أنه سيكون عرضة لإصدار حكم غير صحيح لوجود مخاطرة بروكاو، وليس لمعرفته بخصائص سلوك المشتبه به المعتاد.

إنّ اللقاءات الأولى عرضة للأخطاء في الأحكام بوجه خاصّ؛ بسبب الفروق الفردية في كيفية ردّ الفعل في مثل هذه اللقاءات الأولية. في هذا النّوع من اللقاءات، يسلك بعض الأشخاص أفضل سلوك، ويتبعون القواعد التي تعلموها بشأن كيفية التصرف إزاء الآخرين. وعليه، يبدون عينة غير ممثلة لسلوكهم المعتاد. في حين، يجد آخرون اللقاءات الأولى مثيرة للقلق، ومثيرة لسلوكاتهم أيضاً. ولسبب معاكس، يقدمون قواعد ضعيفة للمقارنة، وإذا كان ذلك ممكناً فيجب أن يبني مكتشف الكذب الأحكام على سلسلة من اللقاءات على أمل إقامة خطّ قاعدة مرجعيّ أفضل مع نمو التعارف بينه وبين المشتبه به.

في حين قد يبدو كشف الأكاذيب أسهل عند الارتباط الوثيق، وليس فقط مجرّد التعارف، فإنّ ذلك غير دائم؛ فقد يطوّر العشّاق، وأفراد العائلة، والأصدقاء، أو الزملاء المقربون بقعاً عمياء، أو تصوّرات مسبقة تتدخل بالأحكام الدقيقة لقرائن السلوك على الخداع.

إنّ تفسير مصادر التسرب الأربعة؛ زلات اللسان، والإسهاب غير اللازم في الحديث، وزلات الحركات الرمزية، والتعابير الدقيقة، ليست عرضة لمخاطرة بروكاو. والمقارنة غير لازمة لتقييمها؛ إذ إنّها ذات معنى في حدّ ذاتها من حيث القيمة المطلقة. تذكر المثال الذي نقله فرويد عن دكتور يروي قصة طلاق شخص آخر. ذكر الدكتور أنّه يعرف ممرضة عاشرت رجلاً آخر ولمَّا يحصل على الطلاق بعد، فربح زوجها القضية من غير دفع نفقة لها. هذا يستلزم معرفة قوانين الطلاق في ذلك الوقت (وأنّ الخيانة هي أحد أسس الطلاق، وأنّ الزوج الذي تعرض للخيانة هو القادر على رفع دعوى، وأنّ على الزوج الذي يُدان دفع

نفقة دائمة ومجزية لمطلقته. وللاستدلال من الزلة التي ارتكبها الدكتور، والتي قد تدل على أنـه هو الزوج في القصة الذي تمنى لو أنه هو من ربح القضيّة للحصول على الطلاق، وحتى من غير تلك المعرفة، فالزلة هي قوله «هو» بدلاً من «هي» لها معنى محدّد للغاية: لقد تمنى الدكتـور للـزوج الحصول على الطلاق لا الزوجة. إنّ الزلات ليسـت مثل الوقفات التي يمكن فهمهـا فقط إذا كان عددهـا متغيراً؛ إذ يمكن فهم الزلات من غيـر الإشارة إلى ما إذا كان الشخص يقترف زلات أكثر مما اعتاد عليه.

وبغض النظـر عن مدى تكرار حدوثها، سـواء زلة كانت، أم تعبيرا دقيقـاً، أم تهجّماً، فإنهـا تكشف معلومـات، وتزيل الإبهام. تذكّـر المثال من تجربتي التي رفعـت فيها الطالبة التـي هاجمها الأستاذ، إصبعها ببـذاءة كحركة زلة رمزية. هذا الأمر، لا يشبه قلّة الحركات التوضيحية التي يمكن تقييمها من خلال تكرار حدوثها بالمعدل الطبيعي فقط.

فالتأثيـر بالإصبع بذاءة غير عاديـة، ومعناها معروف تماماً؛ لأنـه زلّة رمزية. ويظهر جـزء الحركـة الرمزية بمعـزل عن وضع التقديـم تفسير رسالـة الإصبع علـى أنّها مشاعر متسربـة حاولـت الطالبـة إخفاءهـا. وعندما أظهـرت مـاري المريضة التي تحـاول إخفاء خططهـا للانتحـار تعبيراً دقيقاً، كانـت الرسالة الحزينة قابلة للتفسير بحـدّ ذاتها، وتشير لحقيقـة ظهـور الحزن بتعبير دقيق غير طبيعيّ، إلا أنّ مـاري كانت تحاول إخفاء حزنها. قد يسهم معرفة السياق التواصلي في تفسير المدى الكامل للكذبة، ولكن الرسائل التي تقدمها الزلات، والشتائم، والتعابير الدقيقة تكشف المعلومات المخفية، وهي بحدّ ذاتها ذات معنى.

تعد مصـادر التسرب الأربعة هذه: زلات اللسان، والشتائـم، وزلات الحركات الرمزية والتعابير الدقيقة مختلفة عن باقي قرائن الخداع في هذا الصدد، ولا يحتاج مكتشف الكذب أساساً إلى المقارنة كي يتجنب الوقوع في خطأ عدم تصديق الحقيقة. ففي اللقاءات الأولى، علـى سبيل المثال، لا داعي لأن يقلق مكتشف الكـذب بشأن تفسير الزلة، أو التعبير الدقيق، أو الشتـم؛ لأنّ الشخص قد يكون مستخدماً لها بكثـرة. والعكس تماماً، فإنّه من حسن طالع مكتشـف الكـذب إذا كان المشتبـه به شخصاً عرضـة للزلات، والشتـم، والتعابير الدقيقة. وفـي حين، يمكن التنازل عن الاحتياطات التـي تتطلب معرفة سابقة للحدّ من عدم تصديق الحقيقـة فـي هذه المصادر الأربعة للتسـرب، فإن احتياط الحدّ من خطـأ تصديق الكذبة،

والتـي سبق ذكره، لا يزال سارياً، ولا يمكن تفسير غياب هذه أو أيّ قرينة أخرى على الخداع على أنّها دليل صدق الشخص؛ إذ، قد لا يزِلّ كلّ كاذب، أو يظهر تعبيراً دقيقاً، أو يشتم. حتى الآن، بحثنـا في مصدر واحد للأخطـاء في كشف الخداع؛ الفشل في تفسير الفروق الفردية في مخاطرة بروكاو.

أمّـا المصدر الآخر للأخطاء، فهو مـا أدعوه خطأ أوثلّو. إنّه لا يقلّ أهمية عن مخاطرة بروكاو، وإنّه يشير إلى خطأ عدم تصديق الحقيقة؛ يحدث هذا الخطأ عندما يفشل مكتشف الكذب في أن يَعُدَّ الشخصَ الصادق الذي يتعرض للضغط والتوتر قد يظهر أنه كاذب (فسّرنا هذا في الفصل الثالث)، مما قد ينتج تسريباً وقرائن خداع قد تكون صادقة لأسباب أخرى، عندمـا يعرف الصادقـون أنهم مشتبه بهم على أنّهم كاذبون. قـد يكون الصادقون خائفين مـن عدم تصديقهم، وقد يختلط خوفهم مع خوف الكاذب من انكشاف أمره. ويمتلك بعض الأشخاص ذنبـاً قويّاً تجاه أمور أخـرى لم يتمكنوا من التعامل معهـا؛ فينفعلون كلما أدركوا أنهم عرضة للرِّيبة في ارتكاب أيّ مخالفة، ويمكن خلط علامات مشاعر الذنب التي يشعرون بها مع ذنب خوف الكاذب من الانكشاف، وقد يشعر الصادقون بالازدراء تجاه من يتهمونهم بالزيـف زوراً، وبالمتعة تجاه التحدي لإثبات خطأ متهميهم، أو السعادة لتوقع البراءة. تشبه علامات هذه المشاعر لذة الخداع لدى الكاذب أيضاً، يمكن أن يشعر الكاذبون والصادقون الذين يعرفون أنهم عرضة للشكّ بالعواطف الأخرى. وعلى الرغم من اختلاف الأسباب، قد يشعر الكاذب أو الصادق بالدهشة، أو الغضب، أو خيبة الأمل، أو الضيق، أو الاشمئزاز حيال الاشتباه به أو استجواب مكتشف الكذب.

أسميـت هـذا الخطـأ خطـأ أوثلّـو؛ لأنّ مشهد الموت فـي مسرحية شكسبيـر يعدّ مثالاً ممتازاً عليه. لقد اتهم أوثلّو ديزديمونة بحبّ كاسيو، وطلب إليها الاعتراف بذلك؛ لأنه قاتلها لخيانتهـا، فتطلـب ديزديمونة استدعاء كاسيو ليشهد أنها بريئـة، فيخبرها أوثلّو إنه قد أمر بقتله. عندئذٍ، تدرك ديديمونة أنّها لن تستطيع إثبات براءتها، وأنّ أوثلّو سيقتلها لا محالة.

ديزدمونة: ويلاه، لقد خانوه وأضاعوني!

أوثلّو: موتي يا فاجرة، أتبكينه على مرأى ومسمع مني!

ديزدمونة: بحياتك يا سيدي، انفني ولا تقتلني.

أوثّلو: إلى الجحيم يا فاجرة![3]

يفسّـر أوثّلو خوف ديزدمونة ويأسها على أنّها ردّة فعل تجاه نبأ وفاة عشيقها المزعوم، مؤكـداً اعتقـاده بخيانتها. عجز أوثّلو عن إدراك ما إذا كانـت ديزدمونة بريئة، فقد أظهرت العواطف نفسها؛ وهي اليأس والحزن؛ لأنّ أوثّلو لا يصدقها، وأنّ أملها الأخير لإثبات براءتها قـد تلاشـى الآن بعد أن أمر أوثّلو بقتـل كاسيو، وكذلك الخوف من أنـه سيقتلها الآن، وبكت ديزدمونـة علـى حياتها، والمـأزق الذي وقعت به؛ لانعـدام ثقة أوثّلو بهـا، وليس بسبب موت حبيبها المزعوم.

يُعدّ خطأ أوثّلو مثالاً على أثر التصورات المسبقة لأحكام مكتشف الكذب. قبل بداية هذا المشهـد، كان أوثّلو على قناعة أكيدة بخيانة محبوبته ديزديمونة، وتجاهل التغيّرات البديلة لسلوكهـا، ولم يـدرك أنّ عواطفها ليست دليلاً على خيانتها. سعى أوثّلو للتأكد وليس لاختبار اعتقـاده أنّ ديدمونـه خائنة. يُعدّ حكم أوثّلو جائراً، ولكن الأحـكام المسبقة تشتت الأحكام عادة وتحرّفها عن الوجهة الصحيحـة؛ فتجعل مكتشف الكذب يتجاهل الأفكار والاحتمالات أو الحقائـق التي لا تناسب ما يعتقـده مسبقاً، ويحدث هذا حتى عندما تسيطر على مكتشف الكـذب اعتقاداته المسبقة. يتعذب أوثّلـو لاعتقاده أنّ ديزديمونة تكذب، ولكن ذلك لا يجعله يميـل نحو الاتجاه المعاكس، فلا يسعـى لإثبات براءتها، بل يفسر سلوكها بطريقة تؤكد ما لا يرغب فيه على الأقل، وبالطريقة الأكثر إيلاماً له.

ويمكن أن تنشأ هذه التصورات المسبقة التي تشتت أحكام مكتشف الكذب، وتؤدي إلى أخطـاء عدم تصديـق الحقيقة من مصادر عدّة. إنّ اعتقاد أوثّلو بخيانة ديزديمونة كان من عمـل مساعـده الشرير ياجو؛ لتحقيق مكاسب خاصة به ستنجم عـن سقوط أوثّلو من خلال غرس شكوك عند أوثيلّو وتغذيتها، ولم يكن ياجو لينجح لو لم تكن الغيرة متأصّلة عند أوثّلو.

قـد لا يحتاج الأشخاص الذين يشعرون بالغيرة الكافية إلـى أمثال ياجو لإشعال نيران غيرتهـم؛ فهم يسعـون لتأكيد أسوأ مخاوفهـم، واكتشاف ما يشكّون فـي أنّ الجميع يكذبون عليهـم. إنّ الأشخاصَ المتشكّكين مكتشفو كـذب فاشلون، وعرضة لأخطـاء عدم تصديق

الحقيقــة. وهناك بالطبــع الأشخاص البلهاء البسطــاء الذين يقومون بالعكــس؛ أي أخطاء تصديق الكذب، ولا يشكّون بالأشخاص الذين يخدعونهم.

عندمــا تكون الأخطار مرتفعة، وعندما تكون التكلفــة لمكتشف الكذب عظيمة إذا كان المشتبــه به يكــذب، فإنّ الأشخــاص غير الغيورين قــد يتسرعون فــي الإدلاء بالأحكام غير الصحيحــة. أيضــاً، عندمــا يغضب مكتشــف الكذب، ويخشــى استغفاله وقد شهــد المهانة التــي تحــدث إذا ثبتت أسوأ مخاوفه، فقد يتجاهل أيّ إشــارة أو معلومة تساعد على طمأنته، وبــدلاً من هذا يبحث عما يجعله أكثر كآبة، ويمكنه قبــول المذلّة قبل إثبات الخيانة بدلاً من المخاطــرة بمهانــة أسوأ في أن يظــلّ مخدوعاً؛ فالمعاناة الآن أفضــل من تحمل عذاب عدم اليقين. إنّه أكثر خوفاً بتصديق الكذب، وأنّه ديّوثٌ مثلاً بدلاً من عدم تصديق الحقيقة بكونه زوجاً يكيل الاتهامــات بطريقة غير معقولة، ولكن هذه الخيارات ليست عقلانية؛ فقد أصبح مكتشف الكذب ضحية ما أسميه **لهيب العاطفة**. قد تخرج العواطف عن السيطرة، وتحصل على غنى خاص بها لا يخمد بمرور الوقت كما تفعل عادة، بل بدلاً من ذلك يتضاعف، وكلّ ما من شأنه تأجيج المشاعر الرهيبة وتضخيمها يتم اكتشافه، وبمثل هذا الجحيم العاطفي، لا يمكن طمأنة الشخص، علاوة على أنّ هذا ليس هو ما يسعى إليه. يتصرف الشخص لتكييف المشاعــر الصّادقــة، ويحيل الخــوف إلى رعب، والغضــب إلى حنق، والاشمئــزاز إلى نفور، والضيــق إلى كرب. يحرق لهيب العاطفة كلّ مــا يقع في طريقه؛ الأشياء، والغرباء، والأحبة، حتــى الذات، ولا أحد يعلم ما الذي يسبب هــذا اللهيب للبدء أو الانتهاء أخيراً. ومن الواضح أنّ بعض الأشخاص أكثر عرضة للهيب العاطفة من غيرهم. ومن الواضح أيضاً أنّ الشخص الذي يعصف به لهيب العاطفة حكَمٌ رهيب على الآخرين، ويعتقد فقط ما يجعل شعوره أسوأ.

لا تتطلــب أخطاء عدم تصديق الحقيقة، ورؤيــة الخداع، بينما هو غير موجود، عاطفةً جياشــة، أو شخصيــةً غيــورة، أو شخصية ياجو الشريــرة . يمكن الاشتبــاه بوجود الخداع؛ لأنــه تفسير قــوي ومفيد لما يكــون خلافاً لذلك عالمــاً محيراً. كتب موظف عمــل في وكالة الاستخبــارات المركزيــة مدة ثمانٍ وعشريــن سنة يقــول: واعتماداً على السبــب والنتيجة، يُعــدّ الخداع من حيــث الجوهر مناسباً تمامــاً؛ لأنه منظم جدّاً وعقلانــي. فعندما لا تتوافر التفسيــرات الأخــرى المقنعة (ربما لأنّ الظواهــر التي نسعى لشرحها تسببــت بها الأخطاء

فعليّاً، والفشل في اتباع الأوامر، وعوامل أخرى غير معروفة لنا)، يقدم الخداع تفسيراً مريحاً وسهلاً. فهو مريح؛ لأنّ ضباط المخابرات حساسين عادة لاحتمالية الخداع، ويؤخذ اكتشافه مؤثراً للتحليل المتطور والمتعمق، وهو سهل؛ لأنّ أيّ دليل يمكن افتراضه مناسب لفرضية الخداع، وقد يجادل الفرد في الحقيقة أنه حال إثارة الخداع كاحتمالية جدية تصبح هذه الفرضية محصنة تماماً للقناعات المغلوطة[4]».

إنّ لهذه الملاحظات تطبيقات أوسع نطاقاً من عمل المخابرات أو الشرطة، حتى عندما تعني قبول خيانة ابن، أو والد، أو صديق، أو حبيب، أحدهم لثقته، فقد يرتكب مكتشف الكذب أخطاء عدم تصديق الكذب، ويشتبه خطأ بوجود خداع ما؛ لأنه يفسر ما لا يمكن تفسيره.

ينبغي أن يسعى مكتشفو الكذب جاهدين لكي يصبحوا واعين لقناعاتهم المغلوطة الخاصة بشأن المشتبه به، وإذا كانت القناعات المغلوطة عن المشتبه به منظمة بوضوح، سواء كان ذلك بسبب شخصية مكتشف الكذب، أو العاطفة الجياشة، أو المعلومات الواردة من الآخرين، أو الخبرة السابقة، أو ضغط العمل، أو الحاجة إلى الحدّ من الشكّ — فسيكون لدى مكتشف الكذب الفرصة للحذر من احتمال تفسير الأمور بطريقة تناسب القناعات المغلوطة فقط.

على الأقل، قد يكون مكتشف الكذب قادراً على تحقيق احتمال أن يكون هو نفسه ضحية أفكاره المسبقة، حتى يستطيع أن يثق بأحكامه بشأن كون المشتبه به يكذب أم لا. يجب على مكتشف الكذب أن يبذل جهداً للأخذ بالحسبان أن يكون احتمال علامة العاطفة ليس قرينة خداع، بل قرينة عن كيفية شعور الشخص الصادق حيال اتهامه بالكذب. هل علامة العاطفة عن الكذب شعور يشي بالكذب، أم شعور عن الاتهام، أم دليل على الحكم الجائر؟ يجب على مكتشف الكذب تقدير المشاعر التي يحتمل أن يشعر المشبوه بها، إذا كان كاذباً. وأيضاً وبالأهمية نفسها، إن كان صادقاً أيضاً، فضلاً على أنّ معظم الكاذبين لا يمتلكون كلّ شعور ممكن نحو الكذب، كذلك لا يمتلك معظم الصادقين المشاعر جميعها حيال كونهم مشتبهاً بهم. لقد أوضح الفصل الثالث كيفية تقدير ما إذا كان يحتمل أن يشعر الكاذب بالخوف من الانكشاف، أو ذنب الخداع، أو لذة الخداع. لنفكر الآن في كيفية تقدير مكتشف الكذب للمشاعر التي قد يشعر بها الشخص الصادق حيال الاشتباه أنه كاذب.

قـد يكون مكتشف الكذب قادراً على القيام بذلـك التقدير بناءً على معرفته بشخصية المشتبـه بـه. في مستهل هذا الفصـل، شرحت حاجة مكتشف الكذب إلـى التعرف المسبق عـن المشتبه به للحد مـن الأخطاء المبنية على الانطباعات الأولـى، والتي لا يمكنها تفسير كيفيـة تباين الأشخاص في بعض السلوكات التي يمكن أن تكون قرائن للخداع. والآن، هناك حاجـة إلى نوع آخر من المعرفة عن المشتبه به ولغرض آخر؛ ينبغي لمكتشف الكذب معرفة خصائص المشتبه به العاطفية لإقصاء علامات العواطف المؤكدة بوصفها قرائن للخداع. لا يحتمـل أن يشعر الجميع بالخـوف والذنب والغضب وغيرها، عندمـا يعرفون أنهم مشتبه باقترافهم الأخطاء أو الكذب، فذلك يعتمد جزئيّاً على شخصية المشتبه به.

قد يشعر الشخص البريء بالغضب إذا علم أنه مشتبه به بالكذب، ولكنه لا يخشى عدم تصديقـه، ولا يمتلك الشعور الزائف بالذنب. قد يخـاف الجبان الذي تنقصه الثقة، ويتوقع عـدم تصديقه، ولكن لا يحتمل أن يشعر بالغضب أو الذنب. لقد ذكرنا سابقاً، أنّ الأشخاص الذيـن يعتريهم الذنب يشعرون به عندما يشتبه بارتكابهم خطأ ما لم يقترفوه أصلاً. وقد لا يكون هؤلاء الأشخاص خائفين على وجه الخصوص، أو غاضبين، أو مندهشين، أو مكروبين، أو مستمتعين. على مكتشف الكذب **إقصاء علامات العاطفة بوصفها دليلاً على الخداع إذا كانـت شخصيـة المشتبه به تجعله أكثر عرضة للتمهيد لهذا الشعور حتى لو كان صادقاً**، وتعتمـد العواطف الواجب إقصاؤها على المشتبه بـه؛ إذ لا تظهر العواطف جميعها بسهولة لدى الأشخاص الصادقين الذين يعرفون أنهم موضع اشتباه.

أي أنّ المشاعـر - إنْ وُجـدت - يمكن أن يشعر بهـا الأشخاص الأبرياء إذا عرفوا أنه يشتبـه بارتكابهـم خطأ، ويعتمد أيضاً على علاقاتهم مع المتلقّـي، وما يشير إليه ماضيه مع ذلـك الشخـص. لقد عرف والد (**صبي ونسلو**) أنّ ابنه روني عـدَّه عادلاً، فهو لم يتهم روني على الإطلاق زوراً، ولم يعاقبه حين كان صادقاً فعلاً، وبسبب علاقاتهما السابقة، لم يضطر الوالـد لإقصاء علامات الخوف التي يرجـح أن تكون علامة على كون روني صادقاً أو كاذباً. لم يكن هناك سبب يُشعر الصبي بالخوف من عدم تصديقه، وكان سبب خوفه الوحيد هو أن يُكتشف إذا كذب. يُنشئ الأشخاصُ الذين يَتهمون الآخرين زوراً، والذين لا يصدقون الصادق بصـورة متكررة، علاقةً تجعل علامات الخوف مبهمة، وكذلـك احتمال أن يكون المشتبه به

صادقاً أو كاذباً؛ فالزوجة التي تُتهّم دائماً بإقامة علاقات غرامية من قِبَلِ زوجها، والتي تكون عرضة للإساءة اللفظية، أو الجسدية، على الرغم من براءتها، لديها سبب للخوف، سواء كاذبة كانت أم صادقة. لقد أضاع زوجها، من بين أمور أخرى، أسس استخدام علامة الخوف دليلاً على الكذب. إذن، ينبغي لمكتشف الكذب تنحية علامات العاطفة بوصفها دليلاً على الخداع، إذا كانت علاقة المشتبه بها مع مكتشف الكذب تجعلها تمهد لوجود مثل هذا الشعور حتى لو كانت صادقة.

في اللقاء الأول، وعلى الرغم من حقيقة عدم وجود علاقة سابقة، قد يشتبه بأحدهم بالكذب. وقد يكون خلال الموعد الأول، الذي يشتبه فيه أحد العشيقين أنّ الآخر يخفي حقيقة كونه متزوجاً، وقد يرتاب مُقدِّم طلب التّوظيف في كذب المُوَظف حيال اضطراره لمقابلة آخرين قبل اتخاذ قرار التعيين؛ وقد يساور المجرم الشّكّ بادعاء المحقق أنّ زميله قد اعترف بجرمه، وحوّل الأدلة ضده، وقد يتساءل المشتري ما إذا كان وكيل العقارات يحاول رفع السعر عندما يقول: إنّ المالك لن يفكر بمثل هذا العرض الزهيد؛ لذا، ومن غير وجود علاقة مسبقة له مع المشتبه به، يُحرَم مكتشف الكذب من مصدرين؛ فلا تشير المعرفة بشخصية المشتبه به، ولا معرفة العلاقة الماضية بينهما، إلى ما إذا كانت هناك حاجة إلى إقصاء عواطف معينة، على أنّها مشاعر شخص صادق حيال الاشتباه به. وحتى آنذاك، فإن معرفة توقعات المشتبه به لمكتشف الكذب قد تقدم أساساً لتقدير المشاعر التي يمكن أن يشعر بها الشخص الصادق حيال الاشتباه أنه كاذب.

لا يمتلك كلّ مشتبه به توقّعاً جيداً عن كلّ مكتشف كذب، وليس كلّ من يفعل سيتشارك التوقعات نفسها. لنفترض أنّ المشتبه بها يمكنها الحصول على معلومات سرية، وقد شوهدت وهي تكوّن صداقات مع أشخاص يعرفهم محققو مكتب التحقيقات الفيدرالية أنهم عملاء متخفين للاستخبارات السوفييتية، ولم يسبق للمشتبه بها التواصل مع عميل أو عملاء في مكتب التحقيقات الفيدرالي، كي يكون لديها توقعات عن المحققين الفيدراليين عليها أخذها بالحسبان. وإذا اعتقدت أنّ المكتب لا يخطئ أبداً، وجدير بالثقة تماماً، فليس من الضروري أن تكون علامات الخوف لديها مستبعدة، ولكن يمكن تفسيرها بالخوف من عدم تصديقها وليس الخوف من الانكشاف، وإذا اعتقدت المشتبه بها أنّ مكتب التحقيقات غير كفؤ، أو

يقوم بالإيقاع بالأشخاص، فيجب استبعاد علامات الخوف؛ إذ، ربما يكون خوفها ناجماً عن عـدم التصديق لا الخوف من الانكشـاف. وعلى مكتشف الكذب، إقصـاء علامات العاطفة بوصفهـا قرينة خـداع إذا كانت توقعات المشتبـه بها من شأنها أن تجعلهـا تشعر بمثل هذا الشعور حتى لو كانت صادقة.

ناقشنـا حتى الآن الارتباك الناجم عن مشاعر الشخص الصادق حيال الاشتباه به أنه كاذب، ولكن يمكن لردود الانفعـال العاطفية لدى الشخص الصادق القيام بعملية التوضيح بدلاً من الإرباك، فهي تساعد على تمييز الشخص الصادق من الكاذب. ينشأ الإرباك عندما يكـون لدى كلّ من الصادق والكاذب الانفعالات العاطفية نفسهـا تجاه الاشتباه بهما، وينشأ التمييز بينهما عند احتمال اختلاف تلك الانفعالات. قد يكون لدى الشخص مشاعر مختلفة تماماً حيال كونه مشتبهاً به إذا كان يقول الحقيقة مقارنة بكونه كاذباً.

مثـال ذلك قصة (**صبي ونسلو**)؛ امتلك الوالد قدراً كبيراً من المعلومات؛ مثل معرفته بشخصيـة ابنه وعلاقتهمـا المسبقة، مما أتاح له القيام بتقدير محـدّد تماماً حيال مشاعر ابنه المحتملة إذا ذكر الحقيقة أو كذب. وقد علم الوالد أنّ ابنه ليس مريضا عقليّاً، ولا كاذباً بالفطـرة، ولا يشعـر بالذنب كثيراً، ويشاركـه القيم الاجتماعية ذاتها؛ لـذا، سيكون الشعور بذنـب الخـداع مرتفعاً لدى رونـي إذا كان يكذب. تذكّر أنّ الكذبة ستكـون إنكار السرقة إذا ارتكبهـا فعـلاً. لقد عرف الوالـد أنّ شخصية ابنه تشعره بالذنب بشـأن الجرم، ناهيك عن اضطـراره للكذب أو الصدق حياله؛ لهـذا، إذا كان روني قد سرق فعلاً، وحاول إخفاء ذلك، فقد يكشفه مصدرا مشاعر قويان بالذنب، هما: ذنب الكذب وذنب الجرم الذي يخفيه، وإذا كان روني يقول الصدق عند إنكاره السرقة فلا يجب أن يشعر بالذنب.

أيضـاً، يعلم الوالد أنّ ابنه يثق به. فقد كانت علاقتهما السابقة تجعل روني يقبل تأكيد والده أنّه سيصدقه إذا كان يقول الصدق. وعليه، ينبغي له عدم خشيته من عدم التصديق. ولزيـادة الخوف من الانكشاف، ادعى الوالد، مثل جهاز مكتشف الكذب بقوله: ... إنّ كذبت فسأعرف ذلك يا روني؛ لأنّ الكذب بينك وبيني لا يمكن إخفاؤه.

وسأعـرف أنك تكذب؛ لذا، تذكـر ذلك قبل أن تتفوّه بأيّ كلمـة، وقد صدقه روني على افتراضـ خبرته السابقة بأبيه. وعليه، ينبغي أن يكـون روني خائفاً إن كذب. وأخيراً، عرض الوالـد العفـو مقابل الاعتراف، قائلاً: إنْ سرقت فأخبرني، ولـن أكون غاضباً منك يا روني، شـرط أن تخبرنـي بالحقيقة. زاد الوالد بهذا القول المخاطـر؛ إذ، سيكون كذب روني سبباً لغضب والده. وربما سيشعر روني بالخجل لو أنه سرق، وقد يمنعه ذلك من الاعتراف بِفِعْلَته. كان ينبغـي لوالده قول شيء عن تفهمه لكيفيـة استسلام الصبي للإغراء، ولكن المهم عدم إخفاء ذلك، والاعتراف بالأعمال المنحرفة.

بعـد تقييم العواطف التي سيشعر بها روني إذا كذب (الخوف والذنب)، وبوجود أساس لتقديـر أنّ العواطـف لا تبدي صدق روني، كانت هناك خطـوة أخرى ضرورية قبل أن يتمكن الوالد من التقليل من الأخطاء في تفسير قرائن الخداع. لا بدّ من التأكد من ذلك، فإذا كان روني يقول الحقيقة فلن يشعر بعاطفة أخرى تشبه علامات الخوف والذنب. وعلى هذا، يربك الحكـم عليـه فيما إذا كان كاذباً. قد يكـون روني غاضباً من مديـر المدرسة للحكم الجائر باتهامـه بالسرقة؛ لذا لا بدّ من إقصاء علامات الغضب، خصوصاً إذا ظهرت عند الحديث عن السلطات المدرسية. وربما سيشعر روني بالضيق حيال ظروفه، وقد تكون مشاعر الضيق هـذه عامة فـي ورطة مثل ورطته، وليست محدّدة بذكر أيّ جانب محدّد لها. عندئذٍ يمكن أن يفسـر والده الخوف والذنب علـى أنّهما دليل على الكذب. ولكن، قد يظهر الغضب أو الضيق إذا كان روني صادقاً أيضاً.

وحتـى عندمـا تكون الأمـور واضحة تمامـاً، وعندما يكـون هنالك أسـاس لمعرفة أيّ العواطـف سيشعـر بها المشتبـه بـه إذا كان يكذب أو يقـول الصدق، وعندمـا لا تكون تلك العواطف هي نفسها، فإنّ تفسير قرائن الخداع السلوكية يصبح خطراً.

يعدّ كثيـر مـن السلوكات علامات علـى أكثر من عاطفة، وتلك التـي يجب إقصاؤها عندمـا يمكـن أن تكون إحدى هذه العواطف صادقـة إذا كان المشتبه به صادقاً، في حين، يحسّ بأخرى عندما يكون المشتبه به كاذباً. يوضح الجدولان 1،2 قرائن الخداع السّلوكيّة وربطها بالمعلومات المخفية.

لنفترض أنّ الوالد لاحظ أنّ روني كان يتعرّق ويبلـع ريقة دائماً. في هذه الحالة، تكون هذه العلامات من غير قيمة تُذكر؛ لأنها علامات لنوع عاطفة ما، إيجابية أو سلبية. فإذا كان رونـي يكذب، فستحدث بسبب شعوره بالضيق والغضب، وإذا أظهر روني كثيراً من الحركات المُموِّهـة، فلا بدّ أيضاً من إقصائها؛ لأنّ الحركات المموّهة تزداد بوجود أيّ عاطفة سلبية. حتـى إنّ علامـات بعض العواطـف السلبية المؤكـدة، مثل خفض شدّة الصـوت لا بدّ من تجاهلهـا. فـإذا أصبحت شدة الصوت أكثـر انخفاضاً؛ بسبب الذنـب، فستكون تلك علامة علـى الكـذب؛ ولكنها قد تصبح أكثـر انخفاضاً؛ بسبب الحزن أو الكـرب، وربما يشعر روني بالكـرب، سـواء صادقاً كان أم كاذباً. ويمكن تفسير السلـوكات التي ترافق الخوف أو الذنب ولا ترافـق الغضب على أنّها قرائن خداع، وقد تُفسَّر السلوكات التي ترافق الغضب أو الكرب ولا ترافـق الخوف أو الذنب على أنّها قرائن علـى الصدق. يبين الجدولان 1و2 أنّ السلوكات التاليـة يمكنهـا أن تبين مـا إذا كان روني يكـذب: زلّات اللسان، أو زلّات إشـارات رمزية، أو تعابير دقيقة، أو حركات عضلات الوجه الموثوقة. تلك هي السلوكات الوحيدة التي يمكن أن تشير إلى المعلومات بدقة كافية لتمييز الخوف أو الذنب من الغضب أو الكرب. وبالمناسبة، إنّ إعطـاء رونـي اختبار كشف الكذب ربما لن ينجح؛ لأنّ الجهاز يقيس الانفعال العاطفي ولا يقيـس المشاعر المحسوسة، وربما سيكون روني عاطفيّاً، أو مذنباً، أو بريئاً. وفي حين تبيّن الدراسـات التي تقيّم دقة جهاز الكشف عـن الكذب أنّ النتائج غير خاضعة للمصادفة، فإنّ بعض هذه الدراسات فيها كثير من أخطاء عدم تصديق الحقيقة. وسأناقش هذه الدراسات وما تعنيه في الفصل القادم.

إنّ تقديـرَ أيّ العواطـف سيشعـر بها المشتبه بـه إذا كان يقول الصـدق وما إذا كانت تختلـف عن العواطـف التي يحسّ بهـا المشتبه بـه إذا كان يكذب – سيكـون معقداً، وذلك مـا أثبتـه تحليلي لصبي وينسلـو. إنّ سبب ذلك هو الحاجة إلى توافـر كثير من المعرفة عن المشتبه به. في العادة، لا توجد معرفة كافية للقيام بهذه التقديرات، وحتى عند وجود القدر الكافـي منهـا، قد لا تسهم التقديرات في كشف الكاذب، وقد تشيـر المعرفة إلى احتمال أن يشعـر المشتبـه به بالعاطفة نفسها، سـواء كاذباً كان أم صادقاً؛ كمـا كان حال ديزديمونة. وحتـى عندما تشير التقديرات إلى وجود عواطف مختلفـة إذا كان المشتبه به يقول الصدق

أو يكـذب، فقد تكـون القرائن السلوكية غيـر واضحة، ولا يمكن عزو إحداهـا إلى العواطف التـي تميـز الصادق من الكاذب. فـي هذه الحالات، لا توجد معرفة كافيـة لتقدير العواطف الصّادقـة لـدى المشتبـه به؛ والتقدير هـو أنّ العواطف نفسهـا سيُحسّ بهـا، أكان المشتبه بـه كاذباً أم صادقـاً؛ أو سيُحسّ بعواطـف مختلفة من قبل الكاذب أو الصـادق، ولكن تبقى القرائـن السلوكية غير واضحـة، ولا يستطيع مكتشف الكذب استخدام القرائن على الخداع التي تنطوي على العواطف.

إنّ مكتشـف الكذب لا يستطيع تجنّب أخطاء عدم تصديـق الحقيقة إلا بإدراك تورطه فـي ذلـك. حينئذٍ يستطيع أن يكون حـذراً بصورة صحيحة تجاه استغـلال الكاذبين لسرعة تأثـره، فيرتكب خطـأ تصديق الكذب. ويساعد – أحياناً – تحليل نـوع العواطف التي يشعر بها الكاذب، والنوع الذي يمكن أن يحسّ به الشخص الصادق، حيال كونه موضع شبهة على كشـف الكاذب. وكما في **صبـي ونسلو**، يحجز هذا التحليل قرائـن العلامات الظاهرة التي تشيـر إلى الصـدق أو الخداع، ويجعل مهمـة مكتشف الكذب أسهل من خـلال تحذيره لنوع السلوكات التي يجب أن يبحث عنها.

لقد تعاملت كثير من تفسيرات الأخطار والاحتياطات في كشف الخداع حتى الآن فقط مـع الحالات التي يعرف المشتبه به فيها أنه يُشتبه بكذبه. ومع ذلك، قد لا يدرك الأشخاص الصادقـون أبداً أنّ كلّ كلمة يقولونها، وكلّ إيمـاءة تصدر عنهم، وكلّ تقطيبة وجه تلوح على محيّاهـم، تُمحَّص في مرحلة مـا من قِبَلِ شخص يشتبه بكذبهـم. ويعتقد بعض الصادقين أنهـم عرضة لمثل هذا التدقيـق في حين أنّهم في الحقيقة ليسوا كذلك. ولا يعرف الكاذبون دائمـاً ما إذا كانت ضحاياهم تشكّ بخداعهم. قد تثير الذريعة المعدّة جيداً تبديد الشكوك فـي ذهن ضحية سابقة واثقة من نفسها. وقد يكـذب المتلقِّي الذي يشكّ أنه قد تمّ خداعه، فيخفـي شكوكه لتهدئة الكاذب كي يقوم بحركـة مزيفة. وهناك أسباب أخرى تدعو المتلقِّي إلـى تهدئة الكاذب: ففي حالة مكافحة التجسس، وعندمـا ينكشف الجاسوس، يمكن إخفاء هـذا الاكتشاف كي يقوم الجاسـوس بتزويد العدو بالمعلومات المزيفـة، وقد تخفي ضحايا أخرى اكتشافها أنّ هناك من يُضلِّلها للاستمتاع بقلب الطاولة على الكاذب ، ومشاهدته وهو يكمل افتراءاته، غير مدرك أنّ المتلقِّي على يقين من كذبه.

هنـاك مكاسب وخسائر لمكتشف الكـذب إذا لم يعرف المشتبه به أنه مشكوك بكذبه. فقـد لا يغطي الكاذب آثاره، ولا يتوقع الأسئلة، فيعدّ ذرائعه، ويتدرّب على عباراته. وبطرائق أخـرى، يصبـح حذراً إنْ لم يصدّق أنّ كلّ حركة تُمحَّص مـن قِبَلِ المتلقِّي المتشكّك. بمرور الوقت، وظهور الكذبة كما لو أنها انطلت تماماً، قد يصبح الكاذب مرتاحاً جدّاً بحيث يرتكب الأخطـاء؛ بسبب الثقة المفرطة بالنفس. ينتهي هذا المكسـب لمكتشف الكذب باحتمال أنّ الـكاذب مفـرط الثقة بنفسـه يصبح مهملاً، ولا يحتمـل أن يشعر بكثير مـن خوف افتضاح كذبـه. تطغى أخطـاء الإهمال على الأخطاء التـي تُعزى إلى الخوف مـن الانكشاف. عندئذٍ لا تتـم التضحيـة بالقرائن السلوكية على الخداع الناجمة عـن الانكشاف، ولكن تضيع أيضاً التأثيـرات المشوشة لمثل هذا الخوف، وما قد تنتجه من الثقة المفرطة بالنفس والتخطيط الهزيل.

ولعـل الخسارة الكبرى هي عذاب الخوف من كشف الكاذب، الذي لا يحتمل أن يصبح أقوى ليحفز على الاعتراف إذا لم يعتقد الكاذب أن أحداً يستميله. يتبنى روس مولاني الخبير فـي تدريب محققـي الشرطة، ما يسميه إستراتيجية حصان طـروادة، حيث يتظاهر ضابط الشرطـة فيها بتصديـق المشتبه به لجعله يتكلم أكثر فيصبح متورطـاً بافتراءاته الخاصة. وعلـى الرغم من انخفاض الخوف من الانكشاف، فمن المرجح أن يقترف المشتبه به خطأ جسيمـاً. يقول مولاني: على المُحقِّق تشجيع المشتبه به، بخداعه واستمالته للبوح بمزيد من التفاصيـل، وبالمعنـى الحقيقي، يخدع المحقِّق المشتبه بـه بالتظاهر بتصديقه... فذلك لا يـؤذي المشتبـه به الصادق، وإذا كان المحقّق مخطئاً في شكوكه الأولية، وأنّ المشتبه به قد يكـون مخادعاً فلن تتسبب بظلمه، وأنّ حاجته إلى الخداع هي ما يجب أن يخشاه[5]». تذكرنا هـذه الإستراتيجية بنصيحة شوبنهاور: «إذا كان لديك سبب للشّكّ في أنّ شخصاً ما يكذب عليـك، عليك إيهامه أنك تصدق كلّ كلمة قالها، فهـذا سيشجعه على الاستمرار، وسيصبح أكثر عنفاً في تأكيداته، وفي النهاية سيخون نفسه[6]».

يُعتقـد أنّ شعور المتلقِّي الذي يصدّق قول الـكاذب يبدِّد خوف الكاذب من الانكشاف، لكـن مـن الصعب الخوض بكيفية تأثير المعرفة في المشاعـر الأخرى عن الكذب. قد يشعر بعض الكاذبيـن بذنب الخداع في تضليـل المتلقي الواثق بهم مقارنـة بالمتلقي الذي لا يثق

بهـم. وقد يشعر آخـرون بذنب أقلّ، مسوّغين ذلـك بقولهم: طالمـا أنّ المتلقِّي لا يعرف ولا يتعذب فلن يكون هناك أذى؛ وقد يعتقد هؤلاء الكذابون أنّ كذبهم هو نتاج اللطف في المقام الأول، وذلـك لتجنب جرح مشاعر ضحاياهم. وعليه، إذا كان الكاذب يعرف أنّ المتلقي يثق بما يقوله له، فربما تذهب لذة الخداع لأحد اتجاهين؛ الزيادة، أو النقصان. فقد يكون خداع ضحية واثقـة تماماً لذيذاً على وجه الخصوص، وتصبح مشاعر الانغماس والازدراء ممتعة. ومع ذلك، قد يكون خداع المتلقي غير الواثق به ممتعاً؛ بسبب تحديه.

إذن، لا توجـد طريقة للتنبؤ مـا إذا كان الكاذب أكثر أو أقـل عرضة لارتكاب الأخطاء إذا أظهـر المتلقِّـي شكوكه وجعلهـا معلومة له. وهنـاك فرصة أن لا يكون للشكـوك أساس، وقـد يكـون المشتبه به صادقاً. هل سيكون مـن الأسهل معرفة أنّ المشتبـه به صادق إذا لم يعـرف أنه كان موضـع شبهة؟ فإذا لم يعرف المشتبه به أنه مشبـوه بالكذب، فإنّه لا يخشى عـدم التصديق؛ ولن يكون هنـاك غضب ولا كرب بشأن الاشتباه به، ولـن تكون لديه فرصة للتصـرف كما لـو أنه فعل خطأ ما، حتى لـو ارتكب ذنباً فعلاً؛ لأنّ علامـات العواطف يمكن تفسيرها على أنها ببساطة قرائن خداع من غير الحاجة إلى القلق من أنها قد تكون بدلاً من ذلك مشاعر شخص صادق مشبوه، ويتم شراء هذا المكسب على حساب التكلفة المذكورة، فـي أنّ المشاعـر بشأن الكذب، والتي تنتج قرائن خـداع، وخصوصاً الخوف من الانكشاف، ستكون أضعف إذا كان هذا الشخص الذي لا يعرف أحداً، ويشتبه به بالكذب هو فعلاً كاذب. وعندما لا يعرف المشتبه به بوجود شبهة ما، يكون مكتشف الكذب أقل عرضة لارتكاب خطأ عـدم تصديق الحقيقـة؛ لأنّ علامات العاطفة إذا حدثت، أكثـر عرضة لتكون قرائن خداع. ولكـن قد يقع فـي خطأ تصديق الكـذب؛ لأنّ المشاعر حيال الكذب أقـلّ عرضة لتكون قوية بالشـكل الكافي لكشـف الكذب، وربما يحدث العكـس إذا عُرفت الشبهـة؛ أيّ عدم تصديق الحقيقة أكثر وتصديق الكذب أقل.

ولكـن تبقى هنالك مشكلتـان تعقّدان مسألة ما إذا كان مكتشف الكذب أفضل حالاً إذا لـم يعرف المشتبه به أنـه موضع شبهة؛ الأولى، قد لا يكون لـدى مكتشف الكذب فرصة؛ إذ لا تسمـح الحـالات جميعها للمتلقِّي بإخفـاء شكوكه، وحتى لو كان ذلـك ممكناً، لا يرغب كلّ مـن يعتقد أنه هدف للكذب بإخفاء شكوكـه، فيكذب ليكتشف الكاذب، ولا يتمتع كلّ مكتشف

كذب بالموهبة مثل الكاذب للنجاح بما هو غير مكتشف بخدعته. أمّا المشكلة الثانية فأسوأ؛ لأن محاولة مكتشف الكذب إخفاء شكوكه تعرضه لخطر الفشل في هذا الإخفاء من غير أن يدرك ذلك. وهو بالتأكيد لا يستطيع الاعتماد على الكاذب كي يكون صادقاً بالأمر! قد يواجه بعض الكاذبين أهدافهم بجرأة حال ملاحظتهم أنّ المتلقّي يشتبه بهم، وخصوصاً إذا كان بإمكانهم كشف محاولاته بالإخفاء. قد يمثّل الكاذب الادعاء بالاستقامة، والسخط، والأذى؛ لأنّ المتلقّي لم يكن محقاً بشكوكه، وحرم الكاذب من فرصة تبرئته لنفسه من غير إنصاف، وحتى لو لم تكن هذه الحيلة مقنعة، لكنّها قد تخيف على الأقل المتلقّي لبعض الوقت، ولكن ليس كلّ الكاذبين وقحين بهذه الطريقة. قد يخفي بعضهم اكتشاف أنّ المتلقّي أصبح مشتبهاً به لكي يكسبوا الوقت لتغطية آثارهم، ويعدون خطة هروب ...إلخ. مع الأسف، ليس الكاذب وحده من قد يخفي مثل هذا الاكتشاف؛ فقد يخفي الصادقون اكتشافهم أنهم موضع شبهة؛ ويمكن أن تختلف أسبابهم تماماً. فقد يخفون معرفتهم أنهم موضع شبهة؛ لتجنب مشهد ما، أو لكسب الوقت الذي يأملون فيه جمع الأدلة التي تدعمهم، أو لاتخاذ إجراءات لمصلحتهم إذا كانوا يعتقدون أنهم تصرفوا وهم غير مدركين أنهم موضع شبهة.

وتكمن الفائدة الأخرى المكتسبة من خلال كشف الشكوك في إمكانية تجنب آثارها؛ إذ يعرف المتلقّي على الأقل أنّ المشتبه به يعرف بوجود الاشتباه. وحتى عند ذلك، قد يحاول الشخصُ الصادق مثل الكاذب إخفاءَ المشاعر حيال كونه موضع شكّ. ومتى ما تم معرفة الاشتباه، ينبغي أن يرغب الكاذب بإخفاء خوف الانكشاف ولكن قد يحاول الشخص الصادق أيضاً إخفاء الخوف من عدم تصديقه، فيشعر بالغضب والضيق حيال الاشتباه به، بداعي الاهتمام من إساءة فهمها على أنّها دليل على الكذب.

لو كان الكاذبون فقط هم من يحاولون إخفاء المشاعر، لكان من السهل كشف الخداع. ولكن، إن كان الأمر كذلك فسيكون بعض الكاذبين أذكياء لدرجة إظهار مشاعرهم أيضاً.

وتكمن الفائدة الأخرى المكتسبة من صراحة المتلقّي بشأن شكوكه في كونه قد يتمكن من استخدام ما يسمى بتقنية معرفة المذنب. يعتقد ديفيد لايكن الطبيب النفسي الفسيولوجي، والناقد لاستخدام جهاز كشف الكذب، أنّ تقنية معرفة المذنب تحسّن دقة جهاز الكشف. فلا يسأل المحقق المشتبه به ما إذا ارتكب الجريمة، ولكنه بدلاً من ذلك يسأله عن المعرفة

التـي يمتلكهـا الشخص المذنب فقط. لنفترض أنّ شخصاً مـا متهم بجريمة قتل، مع وجود دافـع يدينــه، وأنّه شوهد قرب مسرح الجريمة، وما إلى ذلك مـن قرائن. استناداً إلى تقنية معرفة المذنب، يُسأل المشتبه به سلسلة من أسئلة الاختيار من متعدد، وفي كلّ سؤال يصف أحـد الخيـارات دائماً ما حـدث فعلاً، أمّا الاختيـارات الأخرى والتي تبـدو معقولة بالدرجة نفسهـا فتصف أشياء لـم تحدث. والمشتبه به المذنب لا البريء، فقط، يعرف أيّ الخيارات حدثت وأيّها لم تحدث. قد يُسأل المشتبه به مثلاً: هل كان المقتول ممدداً ووجهه إلى الأسفل أم إلـى الأعلى؟ هـل كان على جنبه أم جالساً؟ ويطلب إلى المشتبـه به الإجابة بالنفي، أو لا أعـرف، بعـد قراءة كلّ خيـار. فيعرف الشخص الـذي ارتكب الجريمة فقـط أنّ الميت كان ممـدداً ووجهـه إلى الأعلـى مثلاً. ولم يوجد في التجـارب المخبرية عن الكـذب أنّ المذنب يبدي تغيراً في نشاط النظام العصبي اللاإرادي الذي يكتشفه جهاز كشف الكذب عند ذكر الخيـار الصحيـح، في حين، يستجيـب الشخص البريء بالطريقة نفسهـا على جهاز كشف الكذب على البدائل جميعها، وعلى الرغم من محاولات المذنب إخفاء امتلاكه للمعرفة التي يمتلكها المذنب فقط، فإنّه سيُكتشف عند خضوعه لاختبار مِكشاف الكذب[7].

إنّ أهميــة اختبـار معرفة المذنب تكمن فـي عدم إمكان عزو ردود الفعـل غير العادية إلـى مشاعر البـريء حيال كونه مشتبهـاً به. وحتى لـو كان المتهم البـريء خائفاً من عدم تصديقــه، أو غاضبــاً؛ لأنّــه متهم، أو بائساً بسبـب المأزق الذي تورّط بـه؛ لأنه بالمصادفة فقـط يستطيع إظهار انفعال عاطفي على عبارة «ممدد ووجهه إلى الأعلى»، مقارنة بأوصاف البدائـل الأخرى. وباستخدام أسئلة اختيار من متعـدد كثيرة، سوف تتزايد ردود الفعل غير العاديـة التي يظهرهـا المشتبه به على بدائل الصـواب والخطأ. إذن، يُزيـل اختبار معرفة المذنـب الخطر الأعظم في كشف الخـداع، وهو خطأ عدم تصديق الحقيقة الذي يعزى إلى الخلط بين مشاعر الصادق حيال الاشتباه به مع مشاعر الكاذب.

مـع الأسف، لم تخضع هـذه التقنية الواعدة لكشف الأكاذيب لكثير من البحوث لتقييم دقتها، إضافة إلى أنّ الدراسات التي أجريت لا تبيّن الدقة دائماً مثل ما سلف في عمل لايكن الأصلـي. أفاد المكتـب الحديث لتقييم التقنية الذي يستعرض جهاز كشف الكذب أنّ اختبار معرفـة المذنب كشف عن نسبــة أقلّ قليلا من المتوسط لـدى الأشخاص المذنبين، مقارنة

باختبار جهاز كشف الكذب المعتاد. ووجدت نسبة أعلى نسبيّاً من أخطاء تذكر الكذب، ومعدلاً منخفضاً من أخطاء عدم تصديق الحقيقة[8].

في الأحوال جميعها، إنّ لاختبار معرفة المذنب استخداماً محدوداً خارج نطاق الاستجوابات الجنائية. وفي كثير من الأحيان، لا يمتلك الشخص الذي يعتقد أنه ضحية كذبة المعلومات التي يمتلكها الكاذب. ومن غير هذه المعلومات، لا يمكن استخدام اختبار معرفة المذنب. في رواية أبدايك (تزوجيني)، تعلم روث أنّها على علاقة، ومع من كانت تقيمها، وكان لدى زوجها جيري شكوك فقط؛ ولأنه لم يمتلك المعلومات التي تمتلكها زوجته المذنبة فقط، فإنّه لا يستطيع استخدام تقنية معرفة المذنب.

ولاستخدام هذه التقنية، ينبغي على مكتشف الكذب معرفة ما حدث، ولكنه غير متأكد عمن قام به.

حتى لو كان مكتشف الكذب يعرف البدائل جميعها، فإنّه لا يستطيع استخدام اختبار معرفة المذنب لمعرفة أيّ البدائل هو الذي حدث. يتطلب اختبار معرفة المذنب يقيناً مطلقاً من طرف مكتشف الكذب بشأن عمل أو حدث ما، والسؤال هو ما إذا كان المشتبه به هو الفاعل أم لا. وإن كان السؤال (ما الذي فعله هذا الشخص؟)، و(كيف يشعر هذا الشخص؟)، وإذا لم يعرف مكتشف الكذب ما الذي فعله المشتبه به حقيقة فإنّه لا يتمكن من استخدام اختبار معرفة المذنب.

الاحتياطات في تفسير القرائن السلوكية على الخداع

ينطوي تقييم قرائن الخداع السلوكية على خطورة، والقائمة أدناه تلخص الاحتياطات جميعها للتخفيف من هذه الأخطار، والتي تم تفسيرها في هذا الفصل. ينبغي لمكتشف الكذب تقدير احتمال أنّ الإيماءة، أو التعبير إشارة على الكذب أو الصدق؛ فنادراً ما يكون ذلك مؤكداً تماماً. وفي حالات تعارض العاطفة مع تسريب الكذبة من خلال تعبير الوجه الكامل والكلي، أو باندفاع جزء من المعلومات المخفية بالكلمات في أثناء الشتم، يدرك المشتبه به ذلك أيضاً ويعترف.

1. حاول جعل الصراحة أساس الحدس والبديهيات بشأن ما إذا كان أحدهم كاذباً أم لا. فمن خلال إدراكك لكيفية تفسيرك للقرائن السلوكية للخداع تتعلم كشف أخطائك، وتدرك الوقت الذي لا تتوافر لك فيه الفرصة للقيام بالحكم الصحيح.

2. تذكر أنّ هناك خطرين في الكشف عن الخداع، هما: عدم تصديق الحقيقة (الحكم على الصادق أنّه كاذب)، وتصديق الكذبة (الحكم على الكاذب أنّه صادق)، وليست هناك طريقة لتجنب الخطأين تماماً؛ لذا، فكر بعواقب المخاطرة بكلّ منهما.

3. لا يُعدّ غياب علامة الخداع دليلاً على الحقيقة؛ إذ لا يُسرّب بعض الأشخاص علامات على الخداع. إنّ وجود علامة على الخداع ليست دائماً دليلاً على الكذب؛ فقد يبدو بعض الأشخاص مضطربين أو مذنبين حتى عند صدقهم. يمكنك الحدّ من مخاطرة بروكاو التي تعزى إلى الفروق الفردية في السلوك التعبيري ببناء الحكم على التغيير في سلوك المشتبه به.

4. ابحث في دماغك عن الأفكار المسبقة التي قد تمتلكها عن المشتبه به، وفكر فيما إذا كانت أفكارك المسبقه تساعدك على القيام بالحكم الصحيح، ولا تحاول الحكم على شخص بالكذب أم الصدق إذا شعرت بتغلب الغيرة لديك أو بعاطفة جياشة تغمرك، تجنب ميل الاشتباه بالكذب؛ لأنه يفسر الأحداث التي لا يمكن تفسيرها بغير ذلك.

5. فكّر دائماً باحتمال أنّ علامة العاطفة ليست قرينة على الخداع بل قرينة لكيفية شعور الشخص الصادق حيال الاشتباه به بالكذب، وقم بإقصاء علامة العاطفة بوصفها دليلاً على الخداع إذا كان المشتبه به الصادق قد يشعر بتلك العاطفة؛ بسبب علاقتك الشخصيّة معه أو توقعاته.

6. ضع في حسبانك أنّ عدداً من قرائن الخداع علامات على أكثر من عاطفة، وتلك التي تكون علامة على أكثر من عاطفة لا بدّ من إقصائها إذا كانت إحدى هذه العواطف يمكن للمشتبه به الصادق الإحساس بها، في حين يحسّ بعاطفة أخرى إذا كان كاذباً.

7. فكّر فيما إذا كان المشتبه به يعرف أنه موضع اشتباه، وما المكاسب أو الخسائر في كشف الخداع في الحالتين.
8. إذا كنت تعرف أنّ لدى المشتبه به فقط معلومات عن حدث ما إذا كان يكذب، وأمكنك استجوابه، فالجأ إلى تقنية معرفة المذنب.
9. لا تتوصل إلى النتيجة النهائية بشأن كذب المشتبه به من صدقه، استناداً إلى تفسيراتك للقرائن السلوكية على الخداع فقط، وينبغي أن تخدم قرائن الخداع السلوكية تنبيهك للحاجة إلى مزيد من المعلومات والبحث؛ إذ لا تقدم القرائن السلوكية مثل جهاز كشف الكذب دليلاً قاطعاً.
10. استخدم القائمة المرجعية المتوافرة في الملحق (جدول4) لتقييم الكذبة، والكاذب وكذلك ذاتك؛ لتقدير احتمالية الخطأ أو الحكم الصحيح للصدق.

إنّ محاولة اكتشاف الكذب من خلال استخدام جهاز اكتشاف الكذب خطر أيضاً. على الرغم من تركيزي على القرائن السلوكية على الخداع، وليس على جهاز كشف الكذب، وعلى مجموعة متنوعة من الحالات التي قد يكذب فيها الأشخاص، أو يشتبه بكذبهم، وليس على الحدود الضيقة لاختبار كشف الكذب، فقد ناقشت في الفصل التالي دور جهاز كشف الكذب وعمله، ويعود السبب في ذلك إلى الازدياد في عدد الحالات المهمة مثل مكافحة التجسس والجرائم في مجال الأعمال التجارية بصورة كبيرة. باعتقادي، يساعد تحليلي للكذب في هذا الفصل والفصول السابقة الشخص على فهم نقاط قوة جهاز كشف الكذب وقصوره فهماً أفضل. فضلاً على أنّ التفكير بمشكلات إثبات دقة جهاز الكشف عن الكذب تسهم أيضاً في فهم مكتشف الكذب لأخطار اكتشاف الخداع من القرائن السلوكية. وهناك سؤال مهم وعملي ينبغي بحثه: أيهما أكثر دقة في كشف الأكاذيب، جهاز كشف الكذب أم القرائن السلوكية على الخداع؟

الفصل السابع

مِكشاف الكذب (البوليغراف)

تقدم ضابط شرطة من مدينة أخرى في كاليفورنيا بطلب التحاق إلى قسمنا، وبدا الضابط نموذجاً لما يجب أن يكون عليه أيّ ضابط شرطة، إنه يعرف الرموز، ولمّا كان له خبرة شرطية سابقة، فقد بدا أنه المرشح المثالي، ولم يدل بأيّ اعترافات خلال المقابلة التي سبقت اختبار كشف الكذب، ولم يعترف بأفعاله إلا بعد أن اكتشف جهاز كشف الكذب أنه كاذب، فاعترف بارتكاب أكثر من اثنتي عشرة عملية سرقة في أثناء قيامه بواجبه، واستخدام سيارة الشرطة لنقل البضائع المسروقة، ووضع مخدرات مسروقة في حوزة مشتبه بهم أبرياء كي يعتقلهم لاحقاً، إضافة إلى اعترافه بممارسة الجنس بضع مرات في سيارة الشرطة مع فتيات أعمارهنّ ستّ عشرة سنة.

– إجابة المحقق الرقيب و. س. ميك خبير جهاز الكشف عن الكذب في ساليناس، كاليفورنيا، قسم الشرطة لاستطلاع كيفية استخدام أقسام الشرطة لجهاز كشف الكذب[1].

اعتقل فاي في توليدو في عام 1978، ووجهت له تهمة القتل؛ بغرض سرقة أحد معارفه الذي أفاد قبل وفاته أنّ السارق المقنع يشبه بز (الاسم الذي عُرف به فاي). احتجز فاي من غير كفالة مدة شهرين في أثناء بحث الشرطة من غير جدوى على دليل يربطه بجريمة القتل، وأخيراً عرض عليه المدعي العام إسقاط التهم عنه إذا نجح باختبار كشف الكذب، ولكنه طلب إليه أن يتعهد بقبول النتائج في المحكمة إذا أشار الاختبار بوضوح إلى وجود خداع. وافق فاي وفشل في الاختبار، وفشل في اختبار ثانٍ أجراه فاحص آخر. وتمت

محاكمته وإدانته بالقتل، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة بعد أكثر من سنتين، ألقي القبض على القتلة الحقيقيين، واعترفوا بجريمتهم، وبُرِّئَ فاي، فتم إطلاق سراحه فوراً.

– هذه الحالة وصفها عالم النفس ديفيد لايكن في مقالة يسمي فيها اختبار الكذب «تقنية علمية زائفة[2]».

تغـذي الأمثلة من هذا القبيـل، المؤيدة والمعارضة، الجدل القائـم بشأن جهاز كشف الكـذب، ولكن هناك القليل مـن الأدلة العلمية بشأن دقته. ومن ضمـن أكثر من أربعة آلاف مقالـة منشورة أو كتب، هناك أقل مـن أربعمئة منها تنطوي فعليّاً على بحث عملي، ومن بين هذه لا يزيد عدد البحوث التي تلبي متطلبات البحث العلمي المعياري على ثلاثين إلى أربعين بحثـاً[3]. ولمّا كان الجدل بشأن جهاز كشف الكذب لم يُحْسم عن طريق الدراسات البحثية، فإنّـه يـزداد حدّة وسخونة. إنّ معظـم دعاة استخدام جهاز الكشف عـن الكذب من منفذي القانـون، ووكالات الاستخبارات، والأعمـال التجارية المهتمة بالسرقـة والاختلاس، وبعض العلمـاء الذيـن أجروا بعض البحوث. أمّـا ناقدوه فهم المهتمون بالحريـات المدنية، وبعض المحلفين، والمحامون، وعلماء آخرون ممن درسوا الجهاز.

إنّ هدفي من هذا الفصل هو جعل الجدل أكثر قابلية للفهم وليس حسمه، فأنا لا أقدم توصيـات متعلقة بسياسة استخدام جهاز كشـف الكذب من عدمه، ولكني أسعى إلى توضيح طبيعة الجدل لأولئك الذين عليهم اتخاذ هذه الأحكام، وأجعل الخيارات واضحة لهم، وحدود الدليل العلمي معروفـة. ولكني لا أخاطب المسؤولين الحكوميين فقط، أو رجال الشرطة، أو القضـاة، أو المحامين؛ إذ يجب على الجميـع اليوم أن يفهم الجدل القائم حول جهاز كشف الكذب؛ لأنّ زمـن استخدامه، وطريقة استخدام نتائجه تعدّ قضايا سياسية عامة مهمة. لن يتـم حسم تلـك القضايا من غير معرفة أفضل ما لدى العامة، وقد تكون هناك أيضاً أسباب شخصيـة لرغبـة الجميع بالاطلاع أكثـر. في كثير مـن الأعمال والوظائـف، وفي الوظائف المرتبطة بالحكومـة، التي تتطلب مستويات مرتفعة ومنخفضة من التعليم والتدريب، يُطلب إلـى الأشخاص غير المشبوهين بارتكابهـم جرائم الخضوعُ لاختبـار كشف الكذب بصفته جزءاً من التقدم للوظيفة للاستمرار في العمل أو للحصول على ترقية.

تنطبـق معظم الأفكار عـن القرائن السلوكيـة على الخداع، والتـي وردت في الفصول الستـة الأولـى، بالقوة نفسهـا على كشف الخـداع بجهاز كشـف الكذب. يمكـن أن ينكشف

الكاذبون في اختبــار جهاز كشف الكذب؛ بسبب الخوف من الانكشاف، وذنب الخداع، ولذة الخداع. وينبغي لمكتشفي الكذب الحذر من خطأ أوثلّو ومخاطرة بروكاو، والأخطاء الناجمة عن الفروق الفردية في السلوك العاطفي. وينبغي على مشغلي الجهاز التعامل مع المخاطرة بأخطاء تصديق الكذب وعدم تصديق الحقيقة. إنّ معظم الاحتياطات والأخطار في الكشف عــن الكذب هــي نفسها بصرف النظر عن اكتشاف الكذب؛ ســواء عن طريق هذا الجهاز أو القرائن السلوكية. ولكن هناك مفاهيم جديدة معقدة لا بدّ من تعلمها:

- **الفـرق بيـن الدقة والفائدة**؛ كيف يمكــن أن يكون جهاز كشف الكذب مفيداً حتى لو لم يكن دقيقاً؟
- **السعي إلى الحقيقة الأكيدة**؛ ما مدى صعوبة تحديد دقة الجهاز من غير التأكد من الكاذبين؟
- **المعدل الأساس للكذب**؛ كيف ينتج الاختبار الدقيق كثيراً من الأخطاء عندما تشتمل مجموعة المشتبه بهم على عدد قليل من الكاذبين؟
- **ردع الكذب**؛ كيف يمكن للتهديد بالاختبار منع بعض المُستجوبين من الكذب حتى لو كانت إجراءات الاختبار غير صحيحة؟

من الذي يستخدم اختبار جهاز فحص الكذب؟

إنّ استخـدام هـذا الجهاز للكشف عن بعض أشكال الكـذب واسع النطاق وفي ازدياد. مــن الصعب التأكد من عدد اختبـارات كشف الكذب التي تجرى في الولايات المتحدة؛ ربما تزيـد علـى المليون في السنة[4]، وأغلبهــا أي ثلاثمئة ألف تقريباً، يجريهــا أصحاب القطاع الخاص.

ويتــم إجراء هذه الاختبارات على أنّها جزء من فحوص ما قبل التوظيف للسيطرة على الجريمة الداخلية، وبصفتها جزءاً من الإجراءات المستخدمة في توصيات الترقيات أيضاً. ويعتمــد على فحوص مــا قبل التوظيف بكثرة أفراد الرابطة الوطنيــة للصيدليات، والرابطة الوطنيــة للمتاجر الكبرى، وشركة الحماية برنكس، والبقالون المتحدون[5]. وعلى الرغم من أنّ الطلب إلى الموظفين الخضوع للاختبار غير قانوني في ثماني عشرة ولاية، فإنّ أصحاب

العمـل يجدون طرقهم للالتفاف علـى هذه القوانين. قد يُعلِم أربـاب العمل الموظفين أنّهم مشتبه بهم بالسرقة، وأنّهم لن يصرفوا الموظف المتهم إذا تمكن من إثبات براءته[6]. يمكن الطلب إلى الموظف التقدم للاختبار في إحدى وثلاثين ولاية، وأرباب الأعمال الخاصة الذين يستفيـدون أكثـر من جهاز كشف الكذب هـم الذين يعملون في قطـاع المصارف، وعمليات تجارة التجزئة. علاوة على أنّ نصف عدد فروع متاجر ماكادونالدز للوجبات السريعة، والتي يبلغ عددها الإجمالي أربعة آلاف وسبعمئة، تخضع المتقدمين إلى العمل لاختبار الكشف عن الكذب قبل التوظيف[7].

بعد قطاع الأعمال التجارية، فإن التحقيقات الجنائية الأكثر استعمالاً لهذا الجهاز؛ إذ لا يستعمـل فقـط مع المشتبه بهم بالجرائم، بل أحياناً مع الشهـود، أو الضحايا الذين تكون إفاداتهم مشكوكاً فيها أيضاً. وتتبع وزارة العدل ومكتب التحقيقات الفيدرالي، ومعظم أقسام الشرطـة إجـراء استخدام هذا الجهاز بعد أن يضيّق المحققون قائمة المشتبه بهم، ولكن لا تسمح معظـم الولايات اعتماد نتائج اختبار الجهاز في المحاكمـات. هناك اثنتان وعشرون ولايـة فقـط تسمح باعتماد نتيجـة اختبار هذا الجهاز دليـلاً، إذا تمّ التّعهّـد مسبقاً للتقدم للاختبار، وكان هنـاك اتفاق بين طرفي الدفاع والادعاء على ذلك. يُبرم محامو الدفاع عادة مثل هذا الاتفاق مقابل موافقة الادعاء على إسقاط التهمة، إذا أظهر الجهاز أنّ المشتبه به صادق، وذلك ما حدث مع قصة بز (فاي) التي وصفتها في افتتاحية هذا الفصل. كما حدث في هذه القضية، لا يقدم الادعاء عادة عرضاً كهذا إذا كانت لديه أدلة دامغة يُعتقد أنّها تقنع هيئة المحلفين في إدانة المشتبه به.

يمكـن تقديم نتائج اختبار الجهاز في محاكـم نيومكسيكو وماساتشوستس على الرغم من اعتراض أحد الطرفين، ولا يمكن قبول النتائج ما لم يسبق ذلك تعهّد مقدم في معظم، وليـس جميع دوائر المحاكـم الجنائية الفيدراليـة للاستئناف. لم يحـدث أن أنكرت دوائر المحاكـم الأمريكية للاستئناف محاكمة محلية لإنكار قبول نتائج اختبار الجهاز، وحسب ما ذكـر ريتشارد ك. ليلارد؛ نائـب مساعد النائب العام في الولايات المتحدة الأمريكية: «ليس هنـاك حُكم محكمة عليا يقضي بقبول دليل جهاز اختبار الكذب في المحكمة الاتحادية[8]».

تعـدّ الحكومةُ الاتحادية المستخـدمَ الثالث الأكبر لجهاز الكشف عن الكذب؛ ففي عام 1982 تم إجراء 22,597 اختبـاراً في مختلف الوكالات الفيدرالية.* أُجري معظمها للتحقيق فـي الجريمة، باستثناء التي تجريهـا وكالة الأمن الوطني، ووكالـة الاستخبارات المركزية. تستخـدم هذه الـوكالات اختبـار الكشف عن الكذب فـي تحقيقات الاستخبـارات ومكافحة التجسـس، ويشمـل هذا اختبـار الأشخاصـ ذوي التصاريـح العليا الذين يشتبـه بتورطهم بأنشطة تعرض تصريحاتهم الأمنية للخطر، والمشتبه بتجسسهم، والذين يسعون للحصول على تصاريح أمنية. وتفيد تقارير وكالة الأمن القومي قيامها بإجراء 9,672 اختباراً للكشف عـن الكذب في عام 1982م، معظمها فحوص ما قبل التوظيف. لم تذكر وكالة الاستخبارات المركزية عدد المرات التي تطلب فيها اختبار الكشف عن الكذب، ولكنها تعترف باستخدام الجهاز في كثير من الحالات المشابهة لحالات وكالة الأمن القومي.

اقترحـت وزارة الدفـاع في عـام 1982م، بضعة تعديـلات على نظامها بشـأن اختبار الكشـف عن الكـذب. وربما كان الهدف من هذه التعديلات زيـادة استخدام اختبار الكشف عن الكذب في الفحص قبل منح التصريحات، وبالفحص الدوري للموظفين ذوي التصاريح الأمنية، جاء اقتراح تغيير كبير آخر من طرف وزارة الدفاع، حيث كان سيعني أنّ الموظفين أو المتقدميـن بطلبات للحصـول على وظيفة، والذين يرفضون التقـدم لاختبار الكشف عن الكـذب، ربما يكونون عرضة لعواقـب سلبية. وفي عام 1983م، اقتـرح الرئيس ريغان زيادة استخدام اختبار الكشف عن الكـذب، وأعطى صلاحيات للدوائر التنفيذية جميعها بالطلب إلـى الموظفين الخضوع لاختبـار الجهاز في أثناء التحقيقات للكشـف غير المصرح به عن معلومات سرية...(كما في التغييرات التي اقترحتها وزارة الدفاع المرفوضة). وقد ينجم عن التقدم لاختبار كشف الكذب عقوبات إدارية، وحرمان من التصاريح الأمنية (سياسة جديدة لـدى الحكومة)، من شأنها أن تسمح أيضـاً بالاستخدام الحكومي الواسع لجهاز الكشف عن

* يستخدم الآن جهاز الكشف عن الكذب كل من الجيش الأمريكي، وقيادة التحقيقات الجنائية، وقيادة الاستخبارات العسكرية والأمن الأمريكي، وخدمات التحقيق في البحرية، ومكتب القوات الجوية للتحقيقات الخاصة، وقسم تحقيقات مشاة البحرية الأمريكية الجنائية، ووكالة الأمن الوطني، وجهاز الخدمة السرية، ووكالة التحقيقات الفيدرالية، وخدمة التفتيش البريدي، وإدارة الكحول والتبغ والأسلحة النارية، وإدارة مكافحة المخدرات، ووكالة الاستخبارات المركزية، والمارشالات الأمريكيون، وخدمات الجمارك، ووزارة العمل.

الكـذب في فحوص ما قبل توظيف أفراد الأمن (والمتقدميـن لشغل الوظيفة)، الذين يُسمح لهـم الوصول إلى معلومات بالغـة السّرّيّة. تقدم السياسة الجديـدة لرؤساء الوكالات الذين لديهـم سلطة إعطاء اختبـارات الكشف عن الكذب دوريّاً أو غير دوري للموظفين المختارين عشوائيّـاً، والذين لديهم إمكانية الوصول إلى معلومات بالغة الحساسية، وحرمان الموظفين الذيـن يرفضـون التقدم إلى الاختبار من مثل هذه الإمكانيـة[9]». ردّ الكونجرس على اقتراح وزارة الدفاع بتشريع يؤجل تطبيق هذه السياسات حتى إبريل 1984م، وطُلب إلى مكتب تقييم التقنية إعداد تقرير عن الأدلة العلمية توضّح دقة الجهاز[10]. في تشرين الثاني 1983، نُشر التقريـر، وفي أثنـاء كتابتي لهذه الكلمات عدّل البيت الأبيض مقترح استخدام جهاز كشف الكذب، وستبدأ جلسات مجلس الشيوخ بشأنه في غضون أسبوع.

أعد مكتب تقييم التقنية وثيقة استثنائية تقدم استعراضاً شاملاً نزيهاً، وتحليلاً نقديّاً للأدلة بشأن الصحّة العلمية لاختبار الجهاز.*

لـم يكـن الأمر سهلاً؛ لأنّ القضايـا معقدة، والمشاعر عن شرعيـة الجهاز حتى داخل الأوسـاط العلميـة حسّاسة جدّاً. والأهم مـن ذلك أنّ الفريق الاستشـاري الذي أشرف على التقريـر شمل قادة أطـراف النزاع داخل الأوسـاط العلمية. لم يعتقد كلّ مـن عرفهم أنهم يستطيعـون الاتفاق على تقريـر مُنصف، ولكنهم فعلوا ذلك. والمراوغـات صغيرة جدّاً على الرغم من وجود بعض الاستياء.

يعتقـد بعض خبـراء جهاز الكشف عن الكـذب المحترفون خارج الأوسـاط العلمية أنّ تقريـر مكتـب تقييم التقنية عن دقـة اختبار الجهاز سلبيّ جدّاً، وكذلـك فعل خبراء الجهاز فـي وزارة الدفـاع. أمّـا تقرير وكالة الأمـن القومي في عـام 1983م، فيـرى أنّ دقة الجهاز واستخدامه مصرح به من قبل رؤساء الأقسام في الجيش، والبحرية، والقوات الجوية، ووكالة

* لقد أخذت الكثير من تقرير مكتب تقييم التكنولوجيا في الإعداد لهذا الفصل، وأنا ممتن للأشخاص الأربعة الذين قرأوا مسودة هذا الفصل وقدموا العديد من الاقتراحات المفيدة والمهمة: ليونارد ساكس (أستاذ مساعد في علم النفس/ جامعة بوسطن)، ودينيس دوغرتي (المحللة في مكتب تقييم التكنولوجيا المؤلفة والمؤلفة المشاركة على التوالي في تقرير المكتب)، وديفيد ل. لايكن (جامعة مينيسوتا)، وديفيد ر. راسكين (جامعة يوتاه). لقد أجابت دينيس دوغرتي بسخاء وصبر على العديد من استفساراتي في أثناء المراوغة بالجدل المتضارب والقضايا المختلفة.

Obeikandi.com

الأمن القومي[11]. لم يستفد التقرير الذي أُقِرّ وأُعِدّ في غضون ثلاثين يوماً من المشورة، أو مراجعة الأوساط العلميـة، باستثناء مراجعة شخص واحد مناصر لاستخدام الجهاز. يتفق تقريرا وكالتي الأمن القومي، ومكتب تقييم التقنية، على استخدام واحد للجهاز على الرغم مـن أنّ مكتب تقييـم التقنية أكثر حذراً من وكالة الأمن القومـي، ويتفق المكتبان على وجود دليـل يشير إلى أنّ اختبارات الجهاز تقدم نتيجة تفـوق المصادفة في الكشف عن الأكاذيب عنـد استخدامهـا في التحقيق في حـوادث جنائية محدّدة. سأقدم لاحقـاً شرحاً لخلافهما بشأن قوة هذا الجهاز، والصراع بينهما على استخدامه في حالات مكافحة التجسس.

لا يقـدم تقرير مكتب تقييـم التقنية نتيجة واحدة، أو بسيطـة، يمكن ترجمتها بسهولة إلى تشريعات. وكما كنا نتوقع، فإنّ دقة الجهاز (أو أيّ تقنية أخرى في الكشف عن الأكاذيب) تعتمـد علـى طبيعة الكذبـة، والـكاذب، ومكتشف الكذب (علـى الرغم مـن أنّ تقرير مكتب تقييم التقنية لا يستخدم هذه المصطلحات). إنّ مهارة الفاحص في إعداد الأسئلة الواجب طرحهـا، وكيفيـة تسجيل مخططات الجهـاز، تعتمد علـى مشغِّله، وعلى تقنيـة الاستجواب المحدّدة أيضاً.

كيف يعمل مِكشاف الكذب؟

يذكـر **قاموس ويبستـر** أنّ مصطلح **مِكشـاف الكـذب** يعني أداة لتسجيـل واقتفاء أثر نبضـات عدّة فـي الوقت نفسه. تُسجّـل النبضات بوساطـة ذبذبات أقـلام كاشف على لوح متحرك من الورق. وعادة ما يشار إلى جهاز كشف الكذب على أنه قياس التغيرات في نشاط الجهـاز العصبـي الـلاإرادي، مع أنّ أقـلام جهاز كشف الكـذب تستطيع قيـاس أيّ نوع من النشاط. لقد وضّحت في الفصل الرابع أنّ أنشطةَ الجهاز العصبي اللاإرادي، وهي تغيرات معـدل نبضات القلـب، وزيادة في ضغط الدم، ودرجة حرارة الجلـد وغيرها– هي علاماتٌ على انفعال عاطفيّ، ولقد ذكرت أنّ بعض هذه التغيرات مثل زيادة وتيرة التنفس، أو التّعرّق، أو تـورّد الوجـه، أو شحوبه يمكـن ملاحظتها من غيـر استعمال جهاز كشـف الكذب، ولكن الجهاز يسجّل هذه التغيرات بدقة أكبر، ويكشف عن أدقّ التغيرات أكثر مما يمكن مشاهدته، ويسجـل أنشطة الجهاز العصبي اللاإرادي، مثل معدل نبض القلب الذي لا يُرى أبداً، ويقوم

الجهاز بذلك من خلال تضخيم الإشارات المُلْتَقَطَة من المجسّات الموصولة بأجزاء مختلفة من الجسم، وبالاستخدام النموذجي للجهاز، توصل أربعة مجسّات على أنحاء متفرقة على جسم المُستَجوَب؛ حزامان مطاطيان حول صدره ومعدته لقياس التغيرات في عمق التنفس ومعدله، ويثبّت جهاز قياس ضغط الدم على العضلة ثنائية الرأس لقياس نشاط القلب، في حين يقيس المجس الرابع التغيرات الدقيقة في التعرق التي تلتقطها أقطاب معدنية توصل بالأصابع.

إنّ قاموس ويبستر محقّ في تسمية الجهاز أحياناً بكاشف الكذب، ولكنّ هذه التسمية غير دقيقة؛ لأنّ المِكشاف لا يكشف الكذب بحدّ ذاته، وسيكون الأمر أسهل بكثير لو كانت هناك علاقة مباشرة فريدة على الكذب، وليست علامة لشيء آخر. ولكن هذه العلامة غير موجودة. وعلى الرّغم من وجود جدل بكلّ ما هو متعلق بهذا الجهاز، فإنّ جميع من يستخدمونه يتفقون أنّه لا يقيس الكذب مباشرة، وكلّ ما يقيسه هو علامات الانفعال في الجهاز العصبي الذاتي؛ كالتغيرات الفسيولوجية (في وظائف الأعضاء) التي تنتج أساساً؛ بسبب انفعال الشخص عاطفيّاً. والأمر نفسه يحدث في قرائن الخداع السلوكية. تذكّر أنني شرحت في وقت سابق أنّه لا التعبير في الوجه، ولا الإيماء، ولا تغير الصوت تُعدّ علامة على الكذب بحدّ ذاته، وما هي إلّا سلوكات تشير إلى انفعال عاطفي أو اضطراب في التفكير فقط، ويمكن الاستدلال على الكذب منها؛ لأنّ العاطفة لا تناسب العبارة المنطوقة في حال كان المُستجوَب كاذباً. يقدم مِكشاف الكذب معلومات أقلّ دقة من القرائن السلوكية بشأن نوع العاطفة المنفعلة؛ فقد يكشف تعبير الوجه الدقيق أنّ أحدهم غاضب، أو خائف، أو مذنب، أو غير ذلك. بالمقابل لا يكشف المِكشاف إلّا عن وجود انفعال معين من غير الإشارة إلى نوعه.

ولاكتشاف الكذب، يقارن فَنِّيُّ المِكشاف النشاط المسجل على الرسم البياني عند سؤال المشتبه به السؤال الحاسم، السؤال المرتبط بإجراء الاختبار: هل سرقت سبعمئة وخمسين دولار؟ مع إجابة المشتبه به على بعض الأسئلة الأخرى التي لا علاقة لها بالسؤال الحاسم، مثل: هل اليوم هو الثلاثاء؟ هل سبق لك أن سرقت شيئاً ما فيما مضى؟ ويعدّ

obeikandl.com

المُستجوَب مذنباً إذا أظهر نشاطاً زائداً على المِكشاف عن السؤال الحاسم مقارنة مع الأسئلة الأخرى.

مثل القرائن السلوكية على الخداع، إنّ اختبار المِكشاف عرضة لما أسميته خطأ أوثلّو. تذكّر أنّ أوثلّو فشل في تفسير خوف ديزديمونة، في أنّه قد لا يكون ذنب معاناة الزانية حيال كشف أمرها، ولكنه قد يكون خوف الزوجة المخلصة من الزوج الذي لن يصدقها. قد ينفعل الأبرياء عاطفيّاً، وليس الكاذبون فقط، عندما يعلمون أنهم موضع اشتباه بالكذب. ربما ينفعل البريء الذي يُشتبه بارتكابه جريمة، أو يُستجوَب عن نشاط قد يعرض تصريحه الأمني اللازم للعمل للخطر أيضاً، وكذلك المشتبه بتسريبه وثيقة سرية للصحافة. إنّ مجرّدَ الطلب إلى شخص ما التقدم لاختبار المِكشاف كافٍ لإثارة الخوف لديه، قد يكون الانفعال قويّاً إذا وُجِد لدى المشتبه به سبب للاعتقاد أنّ مشغل المِكشاف والشرطة متحاملون عليه، وإنّ الخوف ليس هو العاطفة الوحيدة التي قد يحسّ بها الكاذب حيال كذبه، فقد يشعر الكاذب بذنب الانكشاف أو لذة الخداع أيضاً كما شرحت في الفصل الثالث. هذه المشاعر تُنتج نشاطاً في الجهاز العصبي اللاإرادي الذي يقيسه المِكشاف، وقد يشعر بهذه المشاعر الأبرياء أيضاً وليس الكاذبون فقط. ويعتمد نوع العواطف التي يشعر بها المشتبه به على شخصيته، والعلاقة السابقة بينه وبين مكتشف الكذب، وتوقعات المشتبه به كما سبق وشرحت في الفصل السادس.

تقنية سؤال التّحكّم

يدرك جميع الذين يستخدمون المِكشاف، والذين ينتقدون استخدامه، الحاجة إلى الحدّ من أخطاء أوثلّو. فهم يختلفون بشأن مدى تخفيف إجراءات الجهاز لتوجيه الأسئلة للحد من الأخطاء أو تلافيها. هناك أربعة إجراءات استجواب مستخدمة للجهاز، وأكثر من ذلك إذا أخذ بعض اختلافات هذه الإجراءات الأربعة بالحسبان. سنناقش الآن اثنين منها؛ أولها تقنية **سؤال التحكم**، ويستخدم في معظم الأحيان عند التحقيق مع المشتبه بهم الجنائيين.

لا يُسأل المشتبهُ به السّؤالَ الحاسم المرتبط بالجريمة فقط، مثل: هل سرقت سبعمئة وخمسين دولاراً؟ ولكن توجّه إليه أسئلة تدعى أسئلة التّحكّم أيضاً؛ أسئلة لا علاقة لها بالشبهة. ينبع كثير من الجدل بشأن هذه التقنية من الخلافات بما يتحكم به هذا السؤال وكيف سينجح.

سأستشهد بتفسير عالم النفس ديفيد راسكين لهذا؛ لأنه عالم رائد يدعم استخدام تقنية سؤال التّحكّم في التحقيقات الجنائية. لنفرض أنّ المُستَجوَب أنثى، قد يسأل المُستَجوِب: لأنّ الأمر يرتبط بالسرقة، أحتاج إلى سؤالك بعض الأسئلة العامة عن نفسك وعلاقتها بالسرقة، وتحديد ما إذا كنت من نمط الشخصية التي قد تسرق تلك النقود والكذب بشأنها لاحقاً؛ لذا، إنّ سألتك: هل سبق أن أخذت شيئاً لا يخصك خلال ثمانية عشرة سنة الأولى من عمرك؟ فكيف ستجيبين عن هذا السؤال؟ إنّ الطريقة التي يوجّه فيها السؤال إلى الشخص، وسلوك الفاحص، معدّان لجعل المستجوَب يشعر بموقف دفاعيّ والحرج للإجابة بالنفي (لا)…. إنّ تلك الطريقة، كما يكتب راسكين، مصممة لإيجاد احتمال أن يشهد الشخص البريء اهتماماً أكبر بما يتعلق بصدق إجابته عن أسئلة التحكم، مقارنة بالأسئلة المرتبطة بالسرقة. ومع ذلك يكون الشخص المذنب أكثر اهتماماً بإجاباته المخادعة عن الأسئلة المرتبطة؛ لأنّ هذه الأسئلة تمثّل الخطر المباشر الجديّ له. وعلى كلّ حال يعرف الشخص البريء أنه يجيب بصدق عن الأسئلة المرتبطة، ويصبح أكثر اهتماماً بشأن الخداع أو عدم التيقن من صدقه في ما يتعلق بإجاباته عن أسئلة التحكم[12]».

يُعدّ ديفيد لايكن، الأخصائيّ النفسيّ الذي يفضل اختبار معرفة المذنب الذي وُصف في نهاية الفصل السابق، الناقدَ الرئيس لاختبار سؤال التّحكّم. (ينتقد راسكين اختبار معرفة المذنب.)، وفي كتابه الأخير عن استخدام مِكشاف الكذب، كتب لايكن: حتى تعمل تقنية سؤال التحكم كما يُشاع عنها، ينبغي لكلّ شخص الاعتقاد أنّ الاختبار مؤكد النجاح تقريباً (وهذا غير صحيح)، وأنّ إعطاء إجابات تحكم قوية سيعرضه للخطر (والعكس هو الصحيح). ومن غير المعقول أن نفترض قدرة جميع فنّيي المِكشاف إقناع المُستجوَبين جميعهم بهذين الافتراضين غير الصّحيحين[13]».

لايكـن على حقّ فـي أنّ هذيـن الافتراضين اللذين علـى المشتبه بـه تصديقهما غير صحيحين. لا يعتقد جميع من يستخدم المِكشاف أنّ نجاح الجهاز في الكشف مؤكد، ولا حتى معظـم مناصريـه غير المنتقدين؛ فالجهـاز يخطئ، ولكن ربما يكون لايكـن محقاً للإشارة بوجـوب عدم علـم المشتبه به بذلك. إذا عرف المشتبه به غير البـريء أنّ المِكشاف مؤكد النجـاح فقـد يخاف طـوال الاختبار، ويخاف أن يسـاء الحكم عليه بتقنية غيـر دقيقة؛ لذا، قـد لا يبـدي المشتبه به غير الواثق الخائـف اختلافاً في الاستجابة لكلّ مـن أسئلة التّحكّم والمرتبطـة بالجرم، وإذا انفعل عاطفيّاً على الأسئلة جميعها، فإنّ فَنّيَّ المِكشاف لا يستطيع الحكـم عمّـا إذا كان مذنبـاً أو بريئاً. والأسـوأ من ذلك، قد يبدي المشتبـه به البريء الذي يعتقـد أنّ المِكشاف مؤكد النجاح خوفاً عند ذكـر الأسئلة المرتبطة بالجريمة. وعليه، يُدان على أنه مذنب.*

أما الاقتراح الثاني، الذي يفيد أنّ استجابات التحكم القوية تعرض المشتبه به للخطر، فهو كذلك خطأ. مرة أخرى، يعرف فَنّيّو المِكشاف جميعهم ذلك، والعكس صحيح؛ إذا أظهر المشتبه به استجابات لسؤال التحكم: هل سبق أن أخذت شيئاً لا يخصك خلال ثماني عشرة سنــة الأولى من عمـرك؟ مقارنة بالسؤال المرتبـط: هل سرقت سبعمئــة وخمسين دولاراً؟ فإنّــه قد أفلـت من الإدانة، وحكم عليه أنه غير كاذب، وبريء من الجرم، ويفترض أن ينفعل البريء أكثر بالسؤال المرتبط بالجرم.

وحتى يعمل اختبار المِكشاف، ينبغي أن يثير سؤال التحكم الشخص البريء بقدر إثارة السـؤال المرتبـط بالجرم إن لم يكن أكثر، والمأمول هو جعل المشتبه به البريء مهتمّاً أكثر بســؤال التحكم من اهتمامه بالسؤال المرتبط بالجرم، ويتـم تحقيق ذلك بجعله يصدق أنّ إجابتـه عن سؤال التحكم مهمة، وسوف تؤثر فـي كيفية الحكم عليه. مثلاً، يفترض فاحص المِكشاف أنّ الجميع تقريباً قبل سنّ الثامنة عشرة قد أخذ شيئاً لا يخصه، وقد يعترف عادة بعضـ الأشخاص في قيامهم بهـذا الجرم فيما مضى، ولكن في اختبار المِكشاف، لا يعترف

* على الرغم من أن منطق لايكن في هذه النقطة يبدو معقولاً ومتفقاً مع منطقي، إلا أن لايكن يشير إلى أن الدليل على ذلك ليس ثابتاً، وفي دراستين أجراهما عمد إلى ارتكاب أخطاء في الاختبار التمهيدي كي يعرف المشتبه به أن اختبار البوليغراف معرض للخطأ، فلم يكن هناك انخفاض ملحوظ في الكشف لاحقاً عن الكذب، ومع ذلك أن ملاءمة الدراسات التي نقلها راسكين مشكك بها، وهذه إحدى عدّة قضايا تتطلب المزيد من البحث.

المشتبـه بـه البريء بذلـك؛ لأنّ الفاحص جعله يعتقـد أنّ الاعتراف بالجـرم سوف يظهره شخصـاً قد يقدم على سرقة سبعمئة وخمسين دولاراً. يريد فاحص المِكشاف من الشخص البـريء الكـذب بسؤال التحكـم، والإنكار في أنه لم يأخذ ما لا يحقّ لـه طوال حياته، ويتوقع الفاحـص أنّ المشتبه به البـريء سيتضايق عاطفيّاً حيال الكذب، وأنّ ذلك الضيق سيُسجّل على الرسم البياني للمِكشـاف؛ فعندما تُسأل المشتبه بها البريئة السؤال المرتبط بالجرم: هـل سرقتِ سبعمئة وخمسيـن دولاراً؟ ستردّ المشتبه بها الصادقـة: لا. ولأنها لا تكذب فلن تتضايـق عاطفيّـاً، أو على الأقلّ لـن تتضايق كما تضايقت عندما كذبت عـن سؤال التّحكّم، ولـن يكون هناك نشاط يُذكر علـى الرسم البياني للمِكشاف، وسـوف تجيب السارقة أيضاً: لا، عنـد سؤالها إن كانت قد سرقـت سبعمئة وخمسين دولاراً، ولكنها ستكون منفعلةً عاطفيّاً بهذه الكذبة المرتبطة بالجرم مقارنة بالكذبة عن سؤال التحكم؛ لذا، من المنطق أن يُظهر الرسـم البياني للبريء انفعالاً عاطفيّاً أكثر بسؤال: هل سبق أن أخذت شيئاً» مقارنة بسؤال: هـل سرقت سبعمئة وخمسين دولاراً؟، والمذنبة فقط هـي التي ستُظهر انفعالاً عاطفيّاً أكثر عن هذا السؤال.

تستبعد تقنية سؤال التحكم خطأ أوثّلو فقط إذا كان المشتبه به البريء منفعلاً عاطفيّاً مـن سـؤال التحكم مقارنة بانفعاله تجـاه السؤال المرتبط بالجـرم، وبخلاف ذلك، يحدث خطـأ عـدم تصديق الحقيقـة. لنفكّر فيما يمكـن أن ينتج مثل هذا الخطـأ، وما الذي يجعل البـريء المشتبه به أن يكـون منفعلاً عاطفيّاً أكثر بسؤال التحكم (هـل سبق أن أخذت شيئاً لا يخصـك خلال ثمانية عشرة سنة الأولى من عمـرك؟* لا بدّ من تحقيق مطلبين؛ أحدهما فكريّ، والآخر عاطفيّ. ولا بدّ من أن يكون المشتبه به قد أدرك فكريّاً أنّ السؤالين مختلفان علـى الرّغـم من محاولة فاحـص المِكشاف إخفاء هـذه الحقيقة. وقد يلاحـظ المشتبه به البـريء أنّ سـؤال السبعمئـة وخمسين دولاراً هو بشـأن حدث حديث ومحـدّد، أو قد يدرك المشتبـه بـه البـريء أنّ السـؤال المرتبط بالجرم أكثـر تهديداً له؛ فهو بشـأن ما قد يجلب العقاب، في حين يتعامل سؤال التحكم بالأمور الماضية التي لم تعد تعرضه للعقاب.

---

* من الناحية العملية، يتم توجيه عدّة أسئلة مرتبطة بالجرم وأسئلة التحكم لكن ذلك لا يغير من جوهر تحليلي.

قــد يعمل المِكشــاف إذا أظهر المشتبه بــه البريء الاستجابــات العاطفية نفسها عند سؤالــه الســؤال الأكثر تحديداً والمهــدّد والمرتبط بالجرم. دعونا نفكر فــي بعض الأسباب لقيــام بعض المشتبه بهم الأبريــاء بالعكس، ويُحكــم عليهم بالذنب؛ لأنّهــم عاطفيّون أكثر بالاستجابة للسؤال المرتبط بالجرم مقارنة باستجاباتهم على أسئلة التحكم:

1. **الشرطــة عرضــة للخطــأ**: لا يتــمّ إخضــاع كلّ مــن ارتكــب جرماً معينــاً لاختبار المِكشــاف، ويعرف المشتبه به البريء الــذي يُطلب إليه التقدم لاختبار المِكشاف أنّ الشرطــة قــد أخطأت خطأً فادحــاً، ربما يكون قد شوّه سمعــة الشخص بمجرد الاشتبــاه به. لقــد قدمت المشتبه بهــا فعلاً تفسيــراً يبيّن عــدم ارتكابها الجرم، ولماذا لا يمكنها القيام بذلك، بل إنّها لم تقم به أصلاً. ومن الواضح أنهم لا يثقون بهــا على الرّغم مــن وجوب ذلك، وفي حيــن لا تستطيع المشتبه بهــا عدَّ الاختبار فرصــة مرحّباً بها لإثبات براءتها، فإنها قــد تخشى أيضاً أنّ أولئك الذين أخطؤوا فــي الاشتباه بها سوف يخطئــون أكثر. فإذا كانت أساليــب الشرطة مدعاةً للخطأ لدرجــة جعلهم يشتبهــون بها، فقد يكون اختبــار المِكشاف الــذي يجرونه عرضة للخطأ أيضاً.

2. **الشرطــة غير عادلة**: قــد لا يحبّ المتهمُ الموظفين المُكلفين بتطبيق القانون، ولا يثــق بهم ، حتى قبــل أن يصبح مشتبهاً به بجُرم ما. فــإذا كان المشتبه به البريء فــرداً ينتمي إلــى إحدى الأقليّات، أو صاحب ثقافة فرعيّــة تتنكّر للشرطة أو لا تثق بهــم، فمن المرجــح أن يتوقــع المشتبه به، ويخــاف أن يسيء فاحــص المِكشاف الحكم عليه.

3. **الأجهــزة عرضــة للخطــأ**: قد يعتقــد أحدهم أنّ ذلك معقول تمامــاً، وأنّ الشرطة تحقّــق مــع المشتبه بهــا بجُرم لم تقترفْــه. وحتى مثــل هذا الشخــص، قد لا يثق بالمِكشــاف. يمكن أن يعزى ذلك إلى عــدم الثقة بالتقنية بوجه عام، أو ربما يكون المتهــم قد قرأ إحدى المقــالات، أو المجلات، أو التفسيرات التّلفازيّة، التي تنتقد عمل هذا الجهاز.

4. **المشتبه به شخص خائف، أو مذنب، أو عدوانيّ**: قد يستجيب الشخص الخائف، أو العدوانـيّ للسؤال المحدّد، والحديث من حيـث زمن حصوله، والمهدّد، وكذلك يفعـل الشخص العدوانيّ وخصوصاً إذا مال إلـى الغضب تجاه السلطة لتسجل أيّاً من هذه العواطف على الجهاز.

5. **علـى الرغـم من براءته، لدى المشتبه به ردّ فعـل عاطفيّ تجاه أحداث الجريمة**: وليس المذنـب فقط الذي قد ينفعل عاطفيّاً للسؤال المرتبط بالجرم مقارنة بسؤال التحكـم. لنفترض أنّ شخصـاً بريئاً يشتبه بارتكابه جريمة قتـل شريكه في العمل؛ بسبـب غيرته منه. والآن، ولمّـا كان المنافس قد قضى نحبه، فقد يشعر المشتبه به بالنـدم حيال غيرته منه وببعضـ السعادة في «الفوز» بالمنافسـة، وبالذنب للشعور بالسعادة... وهلمّ جرّا، أو لنفترض أنّ المشتبه به البريء كان متضايقاً عندما وجد جثـة شريكه المشوّهـة غارقة في الدّم. وعنـد سؤاله عن الجريمـة، أيقظت ذكرى ذلـك المشهـد هذه المشاعر، ولأنّه رجل، تمنعه رجولتـه من الاعتراف بذلك. قد لا يـدرك المشتبه به هذه المشاعر جميعها، وسيُكتشـف أنه شخص كاذب في اختبار المِكشـاف، وهو كذلك. ولكن ذلك كان بسبب الشعور غير الحضاري، أو استعراضه لرجولتـه، وهو ما كان يخفيـه وليس الجريمة. في الفصل القادم، سأناقش مثل هذه الحالة، والتي فشل فيها المشتبه به البريء في اختبار المِكشاف، وأدين بتهمة القتل.

يقـرّ أنصار استخدام تقنيـة سؤال التحكم في التحقيقات بالحـوادث الجنائية ببعض مصـادر الأخطـاء، ولكنهم يدعون أنها نادرة الحدوث. لقد جـادل النقاد في أنّ نسبةً كبيرةً مـن المشتبه بهـم الأبرياء (يدعـى أشـد المنتقدين بـ50% مـن البراءة) يظهـرون انفعالاً عاطفيّاً أكثر تجاه السؤال المرتبط بالجرم مقارنة بسؤال التحكم. وعند حدوث ذلك، يفشل المِكشاف، ويقع في خطأ أوثلّو؛ أي تكذيب الشخص الصادق.

اختبار معرفة المذنب

يُزعم أنّ اختبار معرفة المذنب، الذي سبق شرحه في الفصل السابق، يقلّل من فرص ارتـكاب أخطاء عدم تصديق الحقيقة. ولاستخدام تقنيـة الاستجواب هذه، ينبغي لمكتشف

obeikandi.com

الكـذب معرفة معلومات عـن الجريمة لا يعرفهـا إلّا الشخص المذنـب. لنفترض عدم علم أحـد بالمبلغ المسروق، وأنه كان مـن فئة الخمسين دولاراً فقط إلا صاحب العمل، والسارق، وفاحص المِكشاف بالضبط.

مـن شأن اختبار معرفة المذنـب أن يسأل المشتبه بها: إذا سرقـتِ المال من صندوق الدفـع فستعرفيـن المبلغ الذي أُخذ، هل كان مئة وخمسيـن دولاراً، أم ثلاثمئة وخمسين، أم خمسمئـة وخمسين، أم سبعمئة وخمسين، أم تسعمئة وخمسين؟ و: لقد كان المبلغ المسروق جميعـه مـن الفئة النقدية نفسهـا. وستعرفين ماذا كانـت هذه الفئة. أو: هـل كانت من فئة الخمسة، أم العشرة، أم العشرين، أم الخمسين، أم المئة؟

إنّ نسبة أن تكون ردّة فعل الشخص البريء عن الإجابة الصحيحة في سؤال واحد هي واحد من خمسة، وتكون نسبة ردّة فعل الشخص البريء عن الإجابة الصحيحة في السؤالين معـاً هي واحـد من خمس وعشرين علـى الأكثر، في حيـن، تكون فرصـة ردّة فعل الشخص البـريء حول الإجابة الصحيحة هي واحد من عشرة ملاييـن إذا أُعِدَّ عشرة أسئلة مشابهة عـن الجريمة[14]. إنّ الفـرق النفسيّ الحاسم بين المشتبه به (المذنـب) والشخص البريء هـو أنّ أحدهما حاضر في مسرح الجريمة؛ ويعلم ما الذي يحدث هناك، ويحتوي ذهنه على صـور ليست متاحة للشخص البـريء. وبسبب هذه المعرفة، سيعترف المشتبه به (المذنب) بالأشخاص، والأشياء، والأحداث المرتبطة بالجريمـة، وسوف تحفّزه هذه المعرفة وتجعله منفعلاً[15]».

ولكـن يكمـن أحد محدّدات اختبار معرفة المذنب في عدم إمكانيـة استخدامه دائماً حتـى في التحقيقـات الجنائية. فقد تكون المعلومـات عن الجريمة منتشـرة انتشاراً واسعاً بحيـث يعـرف حقائقهـا البريء والمذنـب، حتى لو لـم تكشـف الصحف تلـك المعلومات، وستفعل الشرطة ذلك في عملية استجواب المشتبه بهم. فلا يصلح استخدام اختبار معرفة المذنـب بسهولـة في بعض الجرائم، ومن الصعب استخدامه في تقييم ما إذا كان الشخص الـذي اعتـرف بجريمة قتل كاذباً فـي ادعائه عند قوله إنّ ذلك كان دفاعـاً عن النفس، وقد يكـون المشتبه به البريء أحياناً حاضراً فـي مسرح الجريمة، ويعرف ما تعرفه الشرطة من تفاصيلها.

يدّعـي راسكين مناصر تقنية سؤال التحكم، أنّ إجـراءات اختبار معرفة المذنب تنتج أكثـر أخطاء تصديـق الكذب؛ لذا، يجـب الافتراض أنّ مرتكب الجريمـة يمتلك معرفة عن التفاصيـل التي تغطيها الأسئلـة التي سيجيب عنها، إنْ لم ينتبـه الجاني إلى هذه التفاصيل انتباهـاً كافيـاً، ولم تُهيّأ له فرصة مناسبة لمراقبة التفاصيـل، أو كان مخموراً عند الحدث، فلن يكون اختبار المعلومات المخفية مناسباً لذلك الشخص(16).

لا يكـون اختبار معرفة المذنب مفيـداً إذا كان المشتبه به من أولئك الذين لا يظهرون استجابـة لأنشطة الجهاز العصبيّ اللاإراديّ التي يقيسها المِكشاف. وكما ناقشت في قائمة الفصـل بما يتعلق بالقرائـن السلوكية على الخـداع، هناك فروق فرديّة كبيـرة في السلوك العاطفـيّ. وبصـرف النظر عن ما يُختبر، سواء تعبير الوجه كان، أم إيماءة، أم نغمة صوت، أم معـدل ضربـات القلب، أم وتيرة التنفس، فلن يكون حسّاساً لدى بعض الأشخاص. لقد أكـدت مسبقـاً أنّ غياب زلة اللسان، أو زلة الحركة الرمزيـة، لا تثبت أنّ المشتبه به صادق. وبالمثل، فإنّ غياب نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي كما يقيسه عادة المِكشاف، لا يثبت أنّ الشخـص غير منفعل. ففي اختبـار معرفة المذنب، تكون نتائج الأشخاص الذين لا يظهرون نشاطـاً في الجهاز العصبي اللاإرادي عندما يكونون عاطفيين غير حاسمة. يذكر لايكن أنّ ذلك نادر الحدوث، ولكن البحوث التي أجريت لمعرفة تكرار حدوثه بين الأشخاص المشتبه بهم بارتكاب الجرائم أو الجاسوسية وغيرها قليلة، وأنّ الأشخاص الذين لا يظهرون نشاطاً فـي الجهاز العصبيّ اللاإراديّ يحققّون نتائج غير حاسمة فـي اختبار سؤال التحكم؛ إذ، لا يكون هناك فرق بين استجاباتهم لسؤال التحكم والأسئلة المرتبطة بالتهمة.

قـد تثبّط المخدرات مـن نشاط الجهاز العصبـيّ اللاإراديّ. وعليـه، يحقق الشخص الـذي تعاطاها نتائـج غير حاسمة على المِكشـاف، سواء وجّهت إليه أسئلـة معرفة المذنب أو سـؤال التحكم. وسأناقش هـذا، ومسألة ما إذا كان المرضـى النفسيون يتهرّبون من كلا اختباري المِكشاف لاحقاً عند تلخيص الأدلة حتى الوقت الحالي.

وجـد مكتب تقييـم التقنية، الذي استعرض الأدلة جميعها بصـورة حاسمة، أنّ تقنيتَي الاستجـواب عرضة للأخطاء التي يدّعيها منتقدو كلتـا الحالتين. عادةً، ينتج اختبار معرفة المذنـب خطأ تصديق الكاذب، في حين، ينتج اختبار سـؤال التحكم خطأ تكذيب الصّادق.

ومع ذلك، حتى هذه النتيجة مختلف عليها بين مشغلي المِكشاف والباحثين. ويبقى الغموض جزئيّاً، بسبب وجود عدد قليل من الدراسات التي بحثت في ذلك؛ لأنّ من الصعوبة بمكان إجراء بحث يقيّم دقّة المِكشاف. يمكن إيجاد الأخطاء في معظم الدراسات التي أجريت حتى الآن،* والمشكلة الحاسمة هي الوصول إلى ما يسمى الحقيقة الأكيدة، وهي طريقة للمعرفة باستقلاليّة عن المِكشاف، وما إذا كان أحدهم صادقاً أم كاذباً. وإذا لم يعرف المحقّق النتيجة الأكيدة عمن كذب ومن كان صادقاً فليست هناك طريقة لتقييم دقة المِكشاف.

دراسة دقّة مِكشاف الكذب (البوليغراف)

تختلف الأساليب البحثية التي تناولت دقة المِكشاف في مدى تأكدها من الحقيقة الأكيدة، وتبحث الدراسات الميدانية في الحوادث الفعلية الواقعية. أمّا في الدراسات التماثلية، فتُدرس حالة ما شبيهة بما هي عليه في الواقع، وهي تجربة يعدّها الفاحص في الغالب. ولكلّ من الدراسات الميدانية والتماثلية نقاط قوة وضعف؛ ففي الدراسات الميدانية، يهتم المشتبه به باختبار المِكشاف؛ لذا، يرجّح أن تكون عواطفه قوية، وتتمثّل نقطة القوة الأخرى في نوعية الأشخاص المناسبين في عينة الدّراسة؛ أي المشتبه بهم الحقيقيون، وليس طلاب الجامعة الجدد الذين يشاركون في الدراسات التماثلية، وتكمن نقطة ضعف الدراسات الميدانية في غموض الحقيقة الأكيدة، واليقين بشأن هذه الحقيقة هي نقطة القوة الرئيسة للدراسات التماثلية. فمعرفتها أسهل؛ لأنّ الباحث يرتّب من سيقوم بالكذب ومن سيكون صادقاً، ونقطة ضعفها هي أنّ المشتبه به عادة لا يوجد لديه ما يخاطر به، ولا يحتمل أن تُثار العواطف نفسها، وكذلك قد لا يشبه الأشخاص المفحوصون نوع الأشخاص الذين يأخذون غالباً في الواقع اختبار المِكشاف.

---

* بينما كتبت آلاف المقالات عن البوليغراف إلا أن القليل منها تشتمل على البحوث، وقد عرض مكتب تقييم التكنولوجيا ل3,200 مقالة أو كتاب والتي منها 320 فقط تشتمل على البحوث، ولم تلبي معظمها المعايير العلمية بالحد الأدنى، وبحكم مكتب تقييم التكنولوجيا كان هناك حوالي ثلاثين دراسة علمية حسنة النية عن دقة البوليغراف في الكشف عن الكذب.

الدراسات الميدانيّة

دعونا نفكر في سبب صعوبة إثبات معيار للحقيقة في الدراسات الميدانية. يخضع المشبوهون بارتكاب الجرائم لاختبار المِكشاف على أنّه جزءٌ من التحقيق بالجريمة. بعد ذلك، تصبح المعلومات متوافرة عما إذا اعترفوا أو أُثْبِتَ أنّهم مذنبون أو أبرياء. ويبدو أنه بوجود تلك المعلومات جميعها سيكون من السهل إثبات الحقيقة، ولكنّ الأمر ليس بتلك السهولة، وسأقتبس من تقرير مكتب تقييم التقنية ما يلي: «يمكن إسقاط التهمة عن المتهم لعدم وجود أدلّة كافية بدلاً من ثبوت البراءة، واذا برّأت هيئة المحلفين متهماً ما فليس من السهل تحديد الدرجة التي شعرت بها الهيئة أنّ المتهم بريء حقيقةً، أو ما إذا شعرت بعدم وجود أدلة كافية لتلبية معيار (مذنب من غير أي شكّ معقول). إنّ كثيراً من حالات الإقرار بالذنب فعليّاً هي اعترافات بالذنب في حالات الجرائم الصغيرة؛ وكما يذكر راسكين: من الصعب تفسير معنى مثل هذا الاعتراف والإقرار بالذنب في التهمة الأصلية. والنتيجة هي أنّ باستخدام نتائج نظام العدالة الجنائية، تبدو اختبارات المِكشاف وفيها كثير من أخطاء عدم تصديق الحقيقة في حالات التبرئة، أو أخطاء تصديق الكذبة في حالات إسقاط التهم[17]».

وعلى الرّغم من احتمال حلّ هذه المشكلات ظاهريّاً من خلال وجود لجنة من الخبراء لمراجعة الأدلة جميعها، والتوصّل إلى قرار بالإدانة أو البراءة، فإنّ هناك صعوبتين أساسيّتين في ذلك؛ فالخبراء لا يتفقون دائماً. وإن اتفقوا، لا توجد هناك طريقة لمعرفة متى يكونون على خطأ. حتى الاعترافات ليست دائماً خالية من المشكلات. يعترف بعض الأبرياء، وحتى عندما تكون اعترافاتهم صادقة، فإنّها لا تحقّق نجاحاً كافياً إلا لنسبة قليلة من أولئك الذين يخضعون للاختبار. على وجه التّقريب، تعاني معظم الدراسات الميدانية من مشكلة أنّ مجتمع الدراسة غير محدّد.

الدراسات التماثليّة

مشكلات الدراسات التماثلية ليست أسهل، بل مختلفة فقط. هناك بعض من اليقين بشأن الحقيقة؛ لأنّ الباحث يطلب إلى بعض الأشخاص ارتكاب (جريمة وهميّة) من غير آخرين. ويكمن عدم اليقين فيما إذا كان بالإمكان أن تُعدّ الجريمة الوهمية كالجريمة

الحقيقة. لقد طوّر الباحثون جرائم وهميّة يقوم بها أشخاص، وحاولوا تحفيزهم بالمكافأة إذا نجحوا في اجتياز اختبار الجهاز من غير كشفهم. وفي بعض الأحيان، تُهدَّد العينة بالعقاب إذا اكتُشف كذبها. ولكن ولأسباب أخلاقية، يكون العقاب ثانويّاً (مثل إسقاط الساعات المعتمدة للمشاركة في التجربة)، وقد استعمل معظم الذين يستخدمون تقنية سؤال التحكم نسخة من الجريمة الوهمية التي استخدمها راسكين.

تسلّم نصف عدد أفراد العينة شريطاً تسجيليّاً يتضمّن تعليمات تفيد بوجود سرقة خاتم من مكتب في البناية، وأنه سيُخضع الجميع لاختبار الجهاز؛ للتثبّت من صدقهم أو كذبهم عند إنكارهم المشاركة في تلك السرقة.

وأُبلغوا أنّه في حال ظهور صدقهم في الاختبار فسيحصلون على مكافأة نقديّة كبيرة. في حين، أعطي النصف الآخر من أفراد العينة تعليمات عن الجريمة التي يجب أن يقوموا بها، بحيث يذهبون إلى غرفة في طابق مختلف من البناية، ويغرون السكرتيرة بالخروج من المكتب، ثم يدخلون إليه بعد مغادرتها، ويفتشون في أدراج المكتب على صندوق يحتوي على الخاتم وإخفائه معهم، ثم العودة إلى المختبر للتقدم لاختبار جهاز المِكشاف. وقد حُذِّروا من الكشف عن حقيقة مشاركتهم في التجربة لأيّ كان، ولتلفيق حجّة في حال فاجأهم شخص ما في غرفة السكرتيرة. كما حُذِّروا بعدم إفشاء أيّ تفاصيل عن الجرم للمحقّق الذي يدير الجهاز؛ لأنهم لن يحصلوا على النقود التي تُدفع لهم عادة، ولا يتمكنون أيضاً من الحصول على المكافأة؛ (عشرة دولارات)[18].

في حين تعدّ هذه المحاولة مثيرة للإعجاب لمشابهتها الجريمة الحقيقية، فإنّ السؤال هو ما إذا كانت العواطف بشأن الكذب قد أثيرت فيها. ولمّا كان المِكشاف يقيس الانفعال العاطفي، فإنّ الجريمة الوهمية تستطيع اطلاعنا على مدى دقة الجهاز إذا أُثيرت العواطف نفسها بالقوة ذاتها كما يحصل في الجرائم الحقيقية. في الفصل الثالث، أوضحت أنّ هناك ثلاث عواطف يمكن إثارتها عند الكذب. وشرحت لكلّ واحدة منها ما يحدّد مدى قوة الإحساس بها. دعونا نستعرض ما إذا كان ممكناً الإحساس بهذه العواطف في الجريمة الوهمية لدراسة دقة الجهاز.

الخــوف مــن الانكشاف: إنّ ما هو على المحــكّ هو المحدّد الأكثــر أهمية بمدى خوف المشتبــه به من الانكشاف. في الفصل الثالث، اقترحت أنّــه كلما كانت مكافأة النجاح أكبر وتضاعــف العقاب عند الفشــل، كان الإحساس بالخوف من الانكشــاف أكبر خوفاً من شدة العقــاب، وتؤثر شدة العقاب في خوف الشخص الصــادق أن يُساء الحكم عليه بالقدر نفسه لخوف الشخص الكاذب من الانكشاف، ويعاني كلاهما النتيجة نفسها.

فــي الجرائــم الوهميّة، تكون المكافآت غير مجزية، كمــا لا يوجد هناك عقاب؛ ويجب ألاّ يشعر الشخــص الصادق ولا الكاذب بالخوف من الانكشاف. قد يشعر الأشخاص ببعض القلــق حيال قيامهم بما يُدفع لهم القيام به، ولكن مــن المؤكد أنّ هذا الشعور أضعف بكثير من الخوف الذي يشعر به البريء أو المذنب عند التحقيق معه بجريمة حقيقية.

ذنــب الخــداع: يكون الذنب أقوى ما يكون عندمــا يتشارك كلّ من الكاذب والمتلقّي في القيــم ذاتهــا، وهو الأمر الذي يجب أن يكون ذاته في الجرائم الوهمية، ولكن الذنب يقلّ إذا كانــت هناك موافقة للكــذب، وهو مطلوب ومصــرّح به لقيام الشخص بعملــه. في الجرائم الوهميّــة، يُطلب إلى المفحوص الكذب، وبقيامه بذلك يساعد الجهود العلميّة. كما ينبغي أن يشعر الكاذبون بقليل من ذنب الخداع في الجرائم الوهميّة.

لــذّة الخــداع: إنّ اثــارة التحــدي، والبهجة فــي خداع أحدهــم، محسوسة بقــوة أكثر إذا اتصــف الــكاذب بسمــة صعوبــة كشفــه. يجب على خــداع الجهــاز أن يحقّــق مثل هذا التحــدي، ويجــب أن يكون الشعــور الأقوى على وجــه الخصوص إذا لم تكــن هناك عواطف أخــرى كالخــوف أو الذنــب للتخفيــف منــه،* والذي يشعــر بلذة الخــداع هو الــكاذب فقط وليس الصادق.

يشير هذا التّحليل إلى أنّ الجرائم الوهميّة تولّد واحدة فقط من المشاعر الثلاثة التي يمكــن الإحساس بها عندما يُشتبه بأحدهــم بجريمة حقيقية؛ إنّها عاطفــة لذة الخداع. زدْ علــى ذلك، يمكن للكاذب الإحساس بتلك العاطفة فقــط وليس الشخص الصادق. ولمّا كان

* قبل أن يطلع راسكين على تحليلي لاختبار البوليغراف أبلغني أنه يعتقد أن ما يكشف الكاذب هو الإستجابه للتحدي أكثر من الخوف من الانكشاف أو لذة الخداع، وفي حين، كون ذلك لا يثبت وجه نظري إلا أنه يقوي حجتي أن الجرائم الوهمية قد لا تكون تماثلية جيدة لمجموعة العواطف المحسوسة عند ارتكاب الجرائم الحقيقية، والأخطار للطرفين البريء والمذنب مرتفعة.

الـكاذب هـو الوحيد الذي يمكن أن ينفعل عاطفيّاً، فيجب أن يكون اكتشافه سهلاً وأيسر مما يكـون عليه عادة في الجرائم الحقيقية عندما يكون الشخص الصادق أكثر عرضة لامتلاك بعضـ المشاعر الموجودة لـدى الكاذب نفسها. وعليـه، يبالغ في تقدير دقـة المِكشاف في البحوث التي تعتمد الجرائم الوهميّة.

الدراسات المختلطة

هنـاك أسلوب بحثي ثالث يحـاول تجنّب نقاط ضعف كلا النوعين السابقين؛ الميداني والتماثلي، مـن خلال دمج أفضل خصائصهما معاً. ففي **الدراسـة المختلطة**، يُعِدُّ الباحث الأحـداث لكـي تحدث جريمـة حقيقية، وليس هنـاك شك بشـأن الحقيقة الأكيـدة كما في الدراسـات التماثلية. وهناك الكثير على المحك لكلّ مـن المشتبه به الصادق والكاذب كما في الدراسات الميدانية.

نتسـار داي؛ عضـو فـي وحدة التحقيـق العلمي في الشرطـة الإسرائيلية فـي القدس، أعـدَّ دراسة مختلطـة في أطروحة الماجستير، وكانت الكذبـة «حقيقية وأُخضعت للتجربة.. لـم يعتقـد أفـراد العينـة أنّ المحقِّق يعـرف مرتكب الفعـل، وانصبّ اهتمامهـم على نتائج اختبـار المِكشـاف... ولم يعرف فاحص المِكشاف نسبة الأشخاصـ المذنبين والأبرياء في العينـة[19]». بلغ حجم العينة واحداً وعشريـن شرطيّاً إسرائيليّاً تقدمـوا لاختبارٍ كتابيٍّ قُدّم على أنّه اختبار كفاءة. طُلب إلى أفراد العينة تصحيح اختباراتهم بأنفسهم، فأتاح لهم ذلك الفرصـة للغشّ؛ أي مراجعـة إجاباتهم الأولية، ولكـنّ أوراقهم عُولِجـت كيميائيّاً لكي يسهل الكشف عن الغش. قام سبعة من أصل واحد وعشرين بتغيير إجاباتهم الأولية. لاحقاً، أُبلغوا جميعاً أنّهم مشتبه بهم في الغش، وأتيحت لهم فرصة الخضوع لاختبار المِكشاف، وقيل لهم إنّ مسيرتهم المهنية قد تعتمد على نتيجة اختبار هذا الجهاز[20]».

مـن المنطقـي السمـاح لأفـراد الشّرطـة رفضـ الخضـوع لاختبـار المِكشـاف، فالتحقيقـات الجنائية تعدّ اختبـارات المِكشاف اختياريةً، وغير مفروضـة على المشتبه به رغم أنفه.

اعترف ثلاثة من الغشاشين السبعة بالغش. في حين، رفض شرطيّ قام بعملية الغش، واثنان آخران من المشتبه بهم الأبرياء التقدم لاختبار المِكشاف، ولم يظهر غشاش ثالث وقت الاختبار.* بالإجمال، خضع خمسة عشر شرطيّاً من واحد وعشرين لاختبار المِكشاف هم: اثنان ممن غشّوا، وثلاثة عشر ممن لم يغشوا. استُخدمت تقنية سؤال التحكم، فتم الكشف عمن غشّوا بدقة، ولكن حُكِم خطأً على اثنين من ثلاثة عشر ممن لم يغشوا بالكذب.

لا يمكن استخلاص نتائج من هذه الدراسة؛ بسبب صغر حجم العينة، ولكن يمكن أن تكون الدراسات المختلطة مفيدة جدّاً على الرغم من وجود محاذير أخلاقية في جعل أحدهم يقوم بالغش والكذب. ويعتقد المحققون الإسرائيليون أنّ ذلك مُسوّغاً؛ لأنّ التقييم الصحيح للجهاز في غاية الأهمية؛ ولأنّه يستجوب آلاف الأشخاص سنويّاً...، وتُتّخذ القرارات المهمة استناداً إلى نتائجه. ومع ذلك، لا يُعرف بعد مدى دقّة هذا الجهاز...»[21]، وربما يكون المسوّغ الأكبر لفرضه بهذه الطريقة على رجال الشرطة هو أنهم يضطلعون بأخطار خاصة تعدّ جزءاً من عملهم، وهم مشتركون على الأخص بحسن استخدام الجهاز أو سوء استخدامه. تكمن قوة هذه الدراسة المختلطة في أنّها حقيقية. حيث يغشّ بعض الشرطة في الامتحان. لقد أفاد تحقيق داخليّ سرّيّ من قبل مسؤولين رفيعي المستوى في وكالة التحقيقات الفيدرالية أنّ بضع مئات من موظفي المكاتب متورطون بالغش على نطاق واسع في اختبارات تعيينات العملاء الخاصين المطلوبين[22]». لم تكن التجربة الإسرائيلية المختلطة لعبة، ولم تكن تحدّياً للنجاح في خداع الفاحص؛ لذا، يكون الخوف من اكتشاف الكذب مرتفعاً، ولدى بعضهم، على الأقل، سيكون هناك أيضاً ذنب الكذب؛ لأنّ السمعة (إن لم يكن من أجل الحياة المهنية) على المحكّ.

نتائج البحوث

هناك عشر دراسات ميدانية، وأربع عشرة دراسة تماثلية استخدمت تقنية سؤال التحكم، وستّ دراسات تماثلية استخدمت اختبار معرفة المذنب الذي يلبي المعايير العلمية الدنيا. استناداً

* تشير هذه الأرقام إلى ما يدعيه فاحص البوليغراف، وبأن التهديد بتطبيق اختبار البوليغراف ينتج فعلاً اعترافات بين المذنبين، ولا يعد رفض التقدم لاختبار البوليغراف ضمانة مؤكدة للذنب.

إلــى هــذه الدراسات،* يبيّن الرسم البيانيّ أدناه أنّ المِكشــاف فاعل، فهو في أغلب الأحيان، نجح فــي اكتشاف الكاذبين، ولكنه قد يخطئ. ويعتمد عدد الأخطــاء ونوعها على ما إذا كانت الدراسة ميدانية أو تماثلية، وما إذا استخدم اختبار سؤال التحكم أو معرفة المذنب، وخصائص كلّ دراسة.

فيما يأتي عدد قليل من النتائج الشاملة:

1. الدقــة في الدراســات الميدانية أكبر مما هــي عليه في الدراســات التماثلية، وقد تشتمــل على عدد من العوامل: هناك انفعال عاطفي أكبر في الدراسات الميدانية، والمشتبــه به أقــل ثقافة، وهناك يقين أقــلّ بشأن الوصول إلــى الحقيقة، عدا عن تمثيل القضايا التي ستُختار للدراسة التماثلية.
2. فــي الدراسات التماثلية، أخطــاء تكذيب الصّادق مرتفعة، ما عــدا اختبار معرفة المذنب؛ لذا، فإنّ الحاجة ماسة إلى مزيد من البحث، خاصة في مجال الدراسات الميدانية والمختلطة باستخدام اختبار معرفة المذنب.
3. أخطــاء تصديق الكــذب مرتفعة، وهي أكثر ارتفاعاً عنــد استخدام اختبار معرفة المذنب.

* لقد استخدمت حكم مكتب تقييم التكنولوجيا بشأن أي مجال وأي دراسات سؤال التحكم التماثلية هي التي تلبي المعايير العلمية، لقد أبلغني لايكن أنه يعتقد أن مكتب تقييم التكنولوجيا صادقَ الدراسات الميدانية التي حددت السجلات المفحوصة بانتقائية، وعليه، فإن تقديرات الدراسات الميدانية مضخمة، لم يضمن مكتب تقييم التكنولوجيا أيّاً من نتائج اختبار معرفة المذنب في ملخصها، وقد أدرجتها كي يستطيع القارئ المقارنة بينها وبين نتائج اختبار سؤال التحكم، وقد أدرجت جميع الدراسات في الجدول باستثناء تجربة تيم التي لم تشتمل على أفراد أبرياء، وقد استخدمت بيانات الاختبار الأول من دراسة بالون وهولمز وبياناتEDR من دراسة برادلي وجانيس (H.W. Timm, «Analyzing Deception from Respiration Patterns,» Journal of Political Science and Administration 10 (1982): 47–51; K. D. Balloun and D. S. Holmes, «Effects of Repeated Examinations on the Ability to Detect Guilt with a Polygraphic Examination: A Laboratory Experiment with a Real Crime,» Journal of Applied Psychology 64 (1979): 316–22; and M. T. Bradley and M. P. Janisse, «Accuracy Demonstrations, Threat, and the Detection of Deceptio: Cardiovascular, Electrodermal, and pupillary Measures,» Psychlophysiology 18 (1981): 307–14)

obeikandi.com

دقَّة المِكشاف

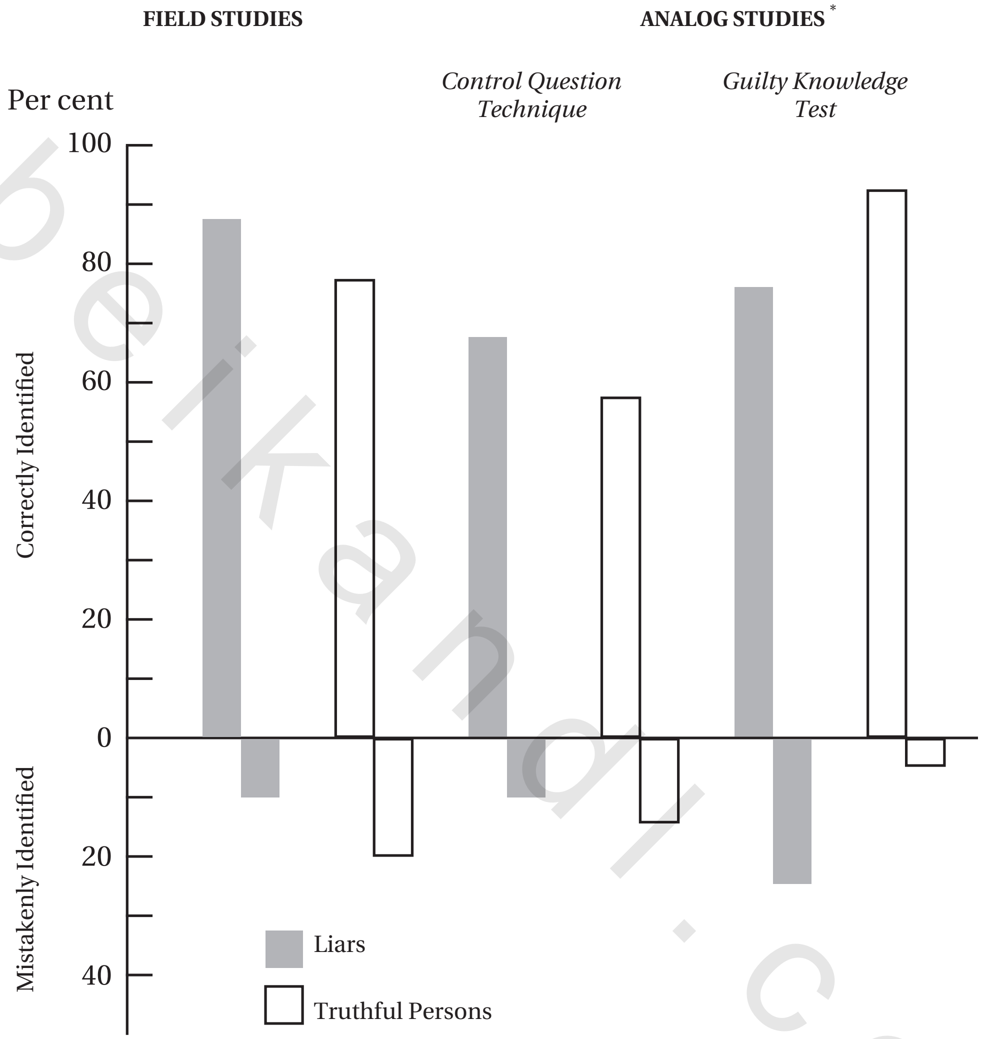

* يقدم الرسم البياني القيم المتوسطة التي لا تعدّ انعكاساً دقيقاً لمجموعة نتائج البحوث. والنطاقات هي كما يأتي: نسبة الكاذبين المحددين بالشكل الصحيح في الدراسات الميدانية: 71%–99%، وفي الدراسات التماثلية باستخدام تقنية سؤال التحكم، 35–100%، وفي الدراسات التماثلية باستخدام اختبار معرفة المذنب 61 %–95%. أمّا الصادقون الذين تم تحديدهم بالشكل الصحيح: في الدراسات الميدانية 13%–94%، وفي الدراسات التماثلية التي تستخدم تقنية سؤال التحكم 32 %–91% ، وفي الدراسات التماثلية التي تستخدم اختبار معرفة المذنب 80 %–100%، وللأشخاص الصادقين الذين حُدّدوا عن طريق الخطأ: في الدراسات الميدانية التي تستخدم تقنية سؤال التحكم 2 %–51%، وفي الدراسات التماثلية التي تستخدم اختبار معرفة المذنب 0 %–12%. أمّا الكاذبون الذين حُدِّدوا عن طريق الخطأ: فهم في الدراسات الميدانية 0 %–29%، وفي الدراسات التماثلية التي تستخدم اختبار معرفة المذنب 5 %–39%.

على الرّغم من اعتقاد راسكين أنّ الارقام في المخطط البياني تقلّل من دقة المِكشاف، واعتقاد لايكن عكس هذا، فإنّهما لا يختلفان مع هذه النتائج الثلاث العمومية. ويبقى الخلاف حول القضايا الأساسية لدى الثقة التي يجب وضعها في نتائج اختبار المِكشاف. هل وَضْع المرضى النفسيين أفضل في التهرب من كشف الجهاز؟ تتناقض الأدلة في تقنية سؤال التحكم، ويعتقد لايكن أنّ المرضى النفسيين يمكن كشفهم باختبار معرفة الكاذب، ويستنتج أنه حتى لو لم يظهر هؤلاء الخوف من أن يكتشف كذبهم (ما أسميه) لذة الخداع، وتعرفوا ببساطة الإجابة الصحيحة من مفردات الاختبار، فستصدر عنهم تغيرات لاإرادية. لا توجد دراسات تقييم ما إذا كانت اختبارات المِكشاف لمعرفة المذنب فاعلة مع المرضى النفسيين. وعلى هذا، فإنّ الحاجة ماسة إلى مزيد من البحوث التي تدرس المرضى النفسيين، وكذلك محاولة تحديد أنماط الأشخاص الآخرين المستجيبين بالحد الأدنى في اختبارات المِكشاف.

هل يمكن أن تنجح المحاولات التي يستخدمها الكاذبون لتجنب الانكشاف، على أنّها إجراءات مضادة؟ يمكن لمزيد من البحوث حلّ هذا الجدل، وأعتقد أنّ من الحكمة السماح لإمكانية نجاح عدد غير معروف من الكاذبين في تجنّب الانكشاف من خلال استخدام الإجراءات المضادة، وكذلك أعتقد أنّ ذلك ممكناً لو كانت هناك فرصة في تدريب الكاذب لأشهر على استخدام الإجراءات المضادة، واستخدام التقنية المعقدة. لا يعلم أحد ما إذا كان الجواسيس مُدرّبين جيداً على مثل هذا، وأرى أنّ من غير الحكمة افتراض أنهم ليسوا كذلك، فهناك شائعات تشير إلى مدرسة تدريب في الكتلة الشرقية في البلاد (روسيا) تدرّب عملاءها على كيفية خداع الجهاز، ويفترض أن تكون هذه المعلومات قد أُفصح عنها باعتراف عميل مخابرات روسيّ لم يتقن تدريبه بصورة جيدة.

تفيد الفقرة الختامية لتقرير مكتب تقييم التقنية أنّ بحوث المِكشاف تقدم دليلاً على صدق اختبار هذا الجهاز بصفته مساعداً في التحقيقات الجنائية لحوادث معينة.....[23]». أعتقد أنّ من الممكن الذهاب أبعد من ذلك الاستنتاج الحذر قليلاً، مع الحفاظ على بعض توافق الأداء بين الأنصار الرئيسين.

ينبغي إيلاء مزيد من الاهتمام بنتائج الاختبار التي تشير إلى أنّ المشتبه به صادق من تلك التي تشير إلى أنّه كاذب، وإذا لم تكن الأدلة بخلاف ذلك مقنعة، فقد يقرّر المحققون إسقاط التّهم عن المشتبه به الذي تكون نتيجة اختباره أنّه صادق. يقدم راسكين ورفاقه هذا الاقتراح، خصوصاً عند استخدام اختبار سؤال التحكم؛ لأنه يحتوي على عدد قليل من أخطاء تصديق الكذب، ويعتقد لايكن أنّ اختبار سؤال التحكم من غير فائدة، وأنّ تقنية معرفة المذنب فقط هي الواعدة للاستخدام في التحقيقات الجنائية.

عندما يشير اختبار المِكشاف إلى المشتبه به بالكذب فلا ينبغي اعتماد ذلك «أساساً كافياً للإدانة أو حتى للمضي في إجراءات القضية....؛ إذاً، يكون اختبار الجهاز المضلل ببساطة سبب متابعة التحقيق.»[24].

يتفق لايكن مع هذه المقولة لراسكين، ولكن عند تطبيقها على اختبار معرفة المذنب فقط وليس على سؤال التحكم. في الفصل الثامن، سوف أشرح ما أسميه التحقق من الكذب، وسأقدم في الملحق (الجدول رقم 4) قائمة تتضمن ثمانية وثلاثين سؤالاً يمكن توجيهها في الكشف عن أيّ كذبة؛ لتقدير فرص اكتشافها من الجهاز أو القرائن السلوكية. ويعدّ أحد الرسوم التوضيحية للتحقق من الكذب تفسيراً مفصلاً لاختبار المِكشاف لمشتبه به بجريمة قتل، ويقدّم هذا المثال فرصة أخرى لإعادة النظر في مسألة كيفية استخدام اختبار المِكشاف في التحقيقات الجنائية. دعونا الآن نفكر في استخدامات هذا الجهاز الأخرى، والتي تثير كثيراً من الجدل.

اختبار المِكشاف في التوظيف

يتفق كلّ من تقرير مكتب تقييم التقنية، وراسكين، ولايكن، في أنّهم جميعاً يعارضون استخدام المِكشاف في فحص ما قبل التوظيف للمتقدمين لوظيفة ما. بالمقابل، كثير من أرباب العمل يفضلون استخدامه، إضافة إلى فنِّيي الجهاز، وبعض المسؤولين الحكوميين، وخصوصاً العاملين في وكالات الاستخبارات، على الرغم من أنّ أخطاء اختبار الجهاز لمتقدمي الوظائف هو الأكثر شيوعاً. مع ذلك، لا توجد دراسات علمية تحدّد مدى دقة المِكشاف في اكتشاف المتقدم الذي يكذب بمعلومات إن عُرفت ستتسبب في عدم تعيينه. والأمر ليس صعباً لمعرفة سبب ذلك. إنّ معرفة الحقيقة في الدراسات الميدانية ليست سهلة،

ويأتـي أحد مقاييسها مـن دراسة وُظِّف المتقدمون جميعهم بصرف النظر عن نتائج اختبار الجهـاز. وبالمراقبة في أثناء العمل لهـؤلاء، تحدّد لاحقاً أيّهم سـرق، أو اشترك بإجراءات ضـارة أخرى، والأسلوب الآخر لتحديد الحقيقة سيكون بالتحقيق الحذر في السيرة الذّاتية الماضية للمتقدميـن جميعهم لتحديد الذين كذبوا بشأن ماضيهم. وللقيام بذلك بدقة، كي يكـون عدد الأخطاء أقـل، ستكون الكلفة مرتفعة. هنـاك دراستـان تماثليتان فقط؛ إحداهما وجـدت دقة كبيرة للمِكشاف، في حين، لم تجـد الأخرى ذلك، ولكن هنـاك اختلافات كثيرة بيـن الدراستين وصعوبات بكلّ منهـا لاستخلاص النتائج.* لا يمكن تقدير دقة المِكشاف في فحص ما قبل التوظيف بافتراض أنه نفسه كما وجدنا في دراسات الحوادث الجنائية (انظر الرسم البياني أعلاه).

قد يكون الأشخاص الذين يُستجوبون مختلفين تماماً، وكذلك الفاحص، وتقنية الاختبار المستخدمـة. ينبغي لمقدم الطلب في فحص ما قبـل التوظيف الخضوع للاختبار للحصول على الوظيفة، في حين، يُتاح الخيار للمشتبه بهم بالقبول أو الرّفض. يرى راسكين أنّ اختبار المِكشاف ما قبل التوظيف ضروريّ، ويحتمل أن ينتج مشاعر الاستياء التي يمكنها التأثير في دقّة نتائج الجهاز[26] علاوة على أنّ ما هو على المحك مختلف تماماً، ويجب أن يكون العقاب لكشف المِكشاف أقل في فحص ما قبل التوظيف مقارنة بالتطبيقات الجنائية؛ ولأنّ مستوى المجازفـة أقلّ، ينبغي أن يشعر الكاذبون بخوف انكشـاف أقلّ أيضاً، ويكون كشفهم أصعب. علـى كلّ حال، قد يخـاف الأبرياء الذين يرغبون في العمل بشدة من أن يساء الحكم عليهم، وبسبب ذلك الخوف يُساء الحكم عليهم فعلاً.

تكمـن الحجة المضادة التي يقولها الذين يناصرون استخدام المِكشاف في أنه فاعل. يقـوم كثير من مقدمـي الطلبات باعترافات خطيـرة بعد التقدم لاختبـار الجهاز ويعترفون بأشيـاء لـم يعترفوا بها سابقـاً. إنّ محور الجدل هو مدى فائدة الجهـاز. ولا يهمّ ما إذا كان يكتشـف الكاذبيـن بدقّة إذا حُدِّد مـن لا ينبغي توظيفهم من خلال التقـدم للاختبار، وهذا

* لقد استخدمت أحكام مكتب تقييم التكنولوجيا لهاتين الدراستين[25]. يعدّ الذين يفضلون اختبار البوليغراف في فحص ما قبل التوظيف الاختبار ذا مصداقية ومهمّة. حتى لو تم قبول الدراستين، إلا أنني أعتقد أن من المنطق القول بعدم وجود أساس علمي لاستخلاص أي نتيجة عن دقة البوليغراف في فحص ما قبل التوظيف؛ لأن الحاجة تزيد عن دراستين لقضية مهمّة وجدلية كهذه.

مـا يجعله مفيـداً. يذكر لايكن أنّ ادعاءات الفائدة نفسها قد لا تكـون صالحة[27]، وقد تبالغ تقارير الاعترافات الخطيرة في تقدير العدد الذي يحدث فعلاً، وقد تكون بعض الاعترافات الخطيرة زائفة وقعت تحت الضغط. إضافة إلى ذلك، فإنّ الذين ارتكبوا أموراً تتسبب بعدم توظيفهم قد يخافون من اختبار المِكشاف خوفاً كبيراً يدعوهم إلى عدم الاعتراف. ومن غير وجـود دراسات تؤكّد دقّته، لا توجد طريقة لمعرفـة عدد الذين يخفقون في اختباره ويكونون صادقين فعلاً، ولا معرفة عدد الذين يجتازون الاختبار، ومن ثمَّ يسرقون أرباب أعمالهم.

جـوردن بارلاند؛ طبيـب نفسانيّ تدرّب على يـد راسكين، يناصر استعمـال المِكشاف لما قبل التوظيـف بحجة أخرى مختلفة تماماً لاستخدامه. درس بارلاند أربعمئة طلب مقدَّم لوظيفـة قائد شاحنـة، وأمين صندوق، وبائع مخزن، وغيرهم والذيـن أرسلهم أرباب العمل لشركة متخصصة في اختبار المِكشاف، اعترف مئة وخمس وخمسون منهم بالكذب عندما أُبلغوا بنتائج المِكشاف. ووجد بارلاند أنّ أرباب العمل مضوا قدماً وعينوا ما نسبته 58% من هؤلاء الأشخاص الذين اعترفوا بالكذب. يلجأ كثير من أرباب العمل إلى اختبارات المِكشاف ليس للموافقة على التوظيف أم عدمه بقدر ما يرتبط الأمر بالمكان الذي سيُعيَّن فيه طالب الوظيفة؛ فالمدمن على الكحول مثلا يُعيَّن عاملاً في الميناء بدلاً من القيادة[28].

يشير بارلاند بحقّ إلى وجوب اهتمامنا بمصير ثمانية وسبعين شخصاً أظهرهم الجهاز كاذبين ولكنهم أنكروا ذلك؛ لأنّ هؤلاء قد يكونون ضحايا أخطاء عدم تصديق الكذب، ويقول بارلاند إلى وجوب الاطمئنان أنّ 66% منهم قد عُيِّنوا أخيراً. ولكن لا توجد طريقة لمعرفة ما إذا وُظِّفوا في أعمال مرغوبة عندهم كما كانوا سيوظفون لو لم يخضعوا إلى اختبار الجهاز. رُفض معظم الذيـن عُيِّنوا من الذين أنكروا الكذب على الرغم مـن إشارة الجهاز إلى أنّهم كذبوا وذلك بسبب المعلومات التي اعترفوا بها في المقابلة قبل التقدم لاختبار الجهاز، ولقد حُكِم على نسبة صغيرة فقط (أقل من 10%) من بين المتقدمين أنّهم مخادعون، ولكنهم لم يعترفوا بذلك، ورُفضوا من قِبَلِ ربّ العمل المحتمل لذلك السبب[29].

كيـف يفكر الشخص بالنسبة الأقل من 10%، وما قد تحدثه هذه النسبة من أثر سيئ، يعتمـد علـى معدل الكـذب الأساس. يشيـر مصطلح المعـدل الأساس إلى عـدد الأشخاص الذين يقومون بشيء ما، ربما يكون معدل الذنب الأساس بين المشتبه بهم الجنائيين الذين

يتقدمـون لاختبار المِكشاف مرتفعاً جدّاً، وربما يصل إلى 50%. عادةً، لا يخضع المتقدمون جميعهم لاختبار الجهاز بل مجموعة صغيرة مشتبه بها؛ بسبب التحقيقات الجنائية السابقة.

تشيـر دراسة بارلاند إلى أنّ نسبة معدل الكذب الأساس بين المتقدمين للوظيفة 20% تقريبـاً، ويكـذب نحو واحد مــن خمسة متقدمين عن شـيء يمكنه منعهم مـن التوظيف إذا عـرف. حتى لـو افترضنا أنّ اختبـار المِكشاف أكثر دقـة مما هو عليه، بوجـود نسبة معدل أساس 20% فـإنّ هناك بعض النتائج المؤسفة. يفترض راسكين في نقاشه ضد استخدام اختبـار مِكشاف ما قبل التوظيـف أنّ نسبة دقة الجهاز بلغت 90% أعلى مما يُعتقد أنها فعلاً كذلك.

إذا أخذنـا هذه الافتراضـات بالحسبان، فسيظهر اختبـار المِكشاف ما قبل التوظيف لعينـة مقدارهـا ألف شخص النتائج التالية: من بيـن مئتي شخص مخـادع سيكون هناك مئـة وثمانـون شُخِّصوا أنّهـم مخادعون، و عشـرون شُخِّصوا خطأ أنّهـم صادقون ومن بين ثمنمئة شخص صادق، سيُشخّص سبعمئة وعشرون فرداً تشخيصاً صحيحاً أنّهم صادقون، وسيُشخَّص ثمانون منهم بالخطأ على أنّهم مخادعون. ومن بين مئتين وستين شُخِّصوا أنهم مخادعـون، كان ثمانـون منهم صادقين. وعليه، من بين الذين وُجِـدَ أنهم مخادعون كان ما نسبتـه 31% فعليّاً صادقيـن، وهذا معدل مرتفع جدّاً من أخطاء عدم تصديق الحقيقة، مما يـؤدي إلى رفض المتقدِّم للوظيفة إذا كان اختبار المِكشـاف يُستخدم بصفته معدل أساس للقـرار. لن تكـون النتائـج متشابهة في سياقـات التحقيقـات الجنائيـة؛ إذ إنّ نسبة معدّل الأسـاس للخداع في تلك الحـالات 50% على الأقل أو تزيد، ولن تـؤدي دقة التقنية إلى هذا المعدل المرتفع(30).

قـد يكون الجدل المضـاد في أنّ نسبة 20% منخفضة جدّاً لتقدير معدل الكذب الأساس بيـن المتقدمين للوظائـف، وهي تعتمد على دراســة واحدة فقط على مجموعـة متقدمين في ولايـة يوتـاه، أو ربما تكون نسبة الكاذبين في الولايات التي يقطنها المورمونيون، حتى لو كانت مرتفعـة إلى حدّ 50%، فسيجيب خصوم فحص ما قبـل التوظيف إلى وجوب عدم اللجوء إلى المِكشاف من غير دليل على مدى دقته في الاستخدام، وربما تكون النسبة أقلّ بكثير من 90%.

إنّ دقة اختبار المِكشاف غير مهمة حقّاً؛ يتسبب التقدم للاختبار، أو التهديد بالخضوع إليه باعتراف الأشخاص بمعلومات ضارة لا يعترفون بها من غير الاختبار، وسيكون الرّدّ مرّة أخرى أنه من غير وجود دراسات الدقة لا توجد طريقة لمعرفة عدد الذين لا يعترفون بأمور ارتكبوها، ويمكن أن تؤذي ربّ العمل. يكمن الاستخدام المرتبط بالمِكشاف في اختبار الأشخاص الذين يعملون بصورة دورية، ويعدّ هذا الاستخدام عرضة للنقد الموصوف جميعه لاختبار ما قبل التوظيف.

المِكشاف لاختبار متقدمي طلبات الالتحاق بالشرطة

هذا مجال آخر يُطبّق فيه اختبار المِكشاف على نطاق واسع. تنطبق الحجج جميعها التي نوقشت سابقاً، والمتعلقة باستخدام المِكشاف في اختبارات ما قبل التوظيف للوظائف الأخرى هنا أيضاً. فأنا أتعامل مع مقدمي طلبات وظائف الشرطة على حدة، ولكن لنوفر بعض البيانات عن الاستخدام، ونسمح لطبيعة العمل بإضفاء مزيد من الجدل حول استخدام المِكشاف في اختبارات ما قبل التوظيف.

يوضح عنوان مقالة لِفَنّيّ المِكشاف المحترف ريتشارد آرثر فحوى الجدل: كم تعين دائرتك هذه السنة من اللصوص ومرتكبي الجرائم الجنسية؟ (لنأمل أن يُوظَّف ما نسبته 10% من هؤلاء فقط)[31]». تستند نتائج آرثر على ردود استطلاعية من اثنتين وثلاثين وكالة متنوعة من وكالات تطبيق القانون، (لا يقدّم أيّ معلومات عن النسبة التي تمثلها من الذين سعوا للحصول على معلومات منهم). يفيد آرثر أنّه في عام 1970م، تم إجراء ستة آلاف وخمسمئة وأربعة وعشرين اختبار مِكشاف قبل التوظيف من قبل الأشخاص المسؤولين عن تطبيق القانون، والذين أجابوا على الاستطلاع. كُشفت معلومات مهنية مهمة لأول مرة من ألفين ومئة وتسعة عشر من المتقدمين بالطلبات! يُعدّ هذا المعدل معدل عدم صلاحية عند ما نسبته 32%! إنّ الشيء المهم الذي يجب معرفته هو أنّ الغالبية العظمى من امتحانات مجمل العينة؛ ستة آلاف وخمسمئة وأربعة وعشرين، أجريت بعد نجاح المتقدمين باختبارات الخبرة.

يدعم آرثر حجته من خلال نقل كثير من الأمثلة عن مدى أهمية استخدام جهاز المِكشاف، وإليكم مثالاً أرسله نورمان لاكي، وهو مشغِّل الجهاز في قسم شرطة أوهايو،

كليفلانـد: «لقد كان الشخص بين العشرة الأوائل فـي قائمة التعيين المعتمدة عندما خضع لاختبـار الجهـاز الذي يسبق التوظيـف، فاعترف بتورطه فـي عملية سطو مسلّـح لم يُعرف مرتكبهـا[32]». وعلى الرّغم من هذه القصص المثيرة للأعجاب، والأرقام المذهلة عن عدد الذيـن يكذبون من المتقدمين لشغل وظائف في دوائـر الشرطة، يجب ألّا ننسى أنه لا يوجد حتـى الآن دليل مقبـول علمي بشأن دقة الجهاز في فحص طلبـات توظيف الشرطة. إذا بدا ذلك صعب التصديق، فسيكون ذلك بسبب سهولة خداع الجهاز. ولنفكر في ما يقوله لنا:

ما عدد المتقدمين الذين بينت اختباراتهم أنّهم يكذبون ولم يعترفوا بكذبهم؟ ولم يعترفـوا بقيامهـم بأيّ مخالفات؟ ماذا حدث لهم؟ إنّ هذه بيانـات مفيدة أيضاً. لكنّ معظم أنصار استخدام الجهاز لاختبارات ما قبل التوظيف يستبعدون هذه الأرقام. **من بين الذين بينت اختباراتهم أنهم كاذبون وأنكروا ذلك، ما عدد الذين قالوا الصدق وينبغي توظيفهم منهـم؟** وللإجابـة عن هذا السؤال، ومعرفة عـدد أخطاء عدم تصديـق الحقيقة المرتكبة، نحتاج إلى دراسة للدقة.

كـم عـدد الذيـن وجـد أنهـم كاذبـون كانـوا كذلـك؟ ما عـدد السارقيـن، واللصوص والمغتصبين....إلـخ الذيـن تحايلـوا على اختبار المِكشـاف؟ إنّ الإجابة عن هـذا السؤال، معرفـة عدد أخطاء تصديق الكذب الموجـودة، تحتاج إلى دراسة دقيقـة. إنّني دَهِشٌ لعدم وجـود دليل قاطع على هذا. لن يكون هذا سهلاً، ولكـن البيانات المفيدة غير كافية. إضافة إلـى عواقب عدم معرفـة أخطاء تصديق الكذب التي تحدث كثيراً جـدّاً، ناهيك عن أخطاء عدم تصديق الحقيقة.

ومن أجل الحصـول على ذلك الدليل، يمكن المحاججة لتطبيق اختبار المِكشاف على الأشخاص المتقدمين للوظائـف الشرطية، بغض النظر عن عدد الأخطـاء المُرْتكَبة؛ لأنها لا تبيـن العدد الكبير من غير المرغوب فيهم. حتـى لو لم يُعرفوا جميعاً، وحتى لو لم يُوظَّف بعض الأشخاص الذين سيصبحـون رجال شرطة جيديـن (ضحايا أخطـاء عدم تصديق الحقيقة)– فلن يكون ذلك ثمناً باهظاً.

هـذا حكم اجتماعي سياسـي، ويجب القيام به للعلم بعدم وجـود دليل بشأن مدى دقة الجهاز في اختبار المتقدمين للوظائف الشرطية. وأعتقد أنّ الذين يدعمون استخدام اختبار الجهـاز؛ لأنـه يستبعد على الأقـل بعض غير المرغـوب بهم، يجب عليهم الشعـور بالالتزام بمعرفـة أنـه في حين تنفيذهم هذا الأسلـوب ستُجرى دراسات لمعرفة مـدى دقته، ولو كان لمجرد معرفة عدد مرات رفض الأشخاص الأبرياء.

اختبار المِكشاف للقبض على الجواسيس

تقـدّم رقيب في الجيش كان لديـه إمكان الوصول إلى معلومـات التّرميز بطلب وظيفة مدنية [مع وكالة استخبارية]. وعندما خضع لاختبار الجهاز، انفعل حين وجّهت إليه مجموعة مـن الأسئلة المرتبطة، واعترف فـي المقابلة التي سبقت الاختبار بارتكاب مجموعة متنوعة من الجرائم والمخالفات الصغيرة. لاحظ مشغّل الجهاز ردود فعل معينة للأسئلة المرتبطة بالجـرم، وعندما أُعيد اختبار الرقيـب بعد بضعة أسابيع ظلّ الوضع على ما هو عليه. فجُرِّد من صلاحياته، ثم فُتح تحقيق، وفي أثناء التحقيق وُجِد مقتولاً في سيارته، فعُرف لاحقاً أنّه كان مرتبطاً في التجسس لمصلحة الاتحاد السوفييتي[33].

يقدم تقريـر وكالة الأمن القومي حول استخدامها المِكشـاف هذا المثال وكثيراً غيره للجواسيـس الذيـن يُقبض عليهم من خـلال بعض الأشخاص العاديين الصادقين تماماً والقابلين للتوظيف عن طريق اختبار الجهاز.

لا تقـدم وكالـة الأمن القومي معلومات عن عدد الجواسيـس المُكْتَشَفين أو عدد الذين أغفلهـم الجهاز لاحقـاً، ولكنها تقدم إحصائيَّـة عن عدد الذين يُرفضـون؛ بسبب مجموعة متنوعة مـن الاعترافات، مثـل تعاطي المخـدرات، والأنشطة الهدامة، والإدانـات الجنائية القديمـة، ومـا إلى ذلك. وهـذه إحدى مجموعـات البيانـات المذكورة عن ألفيـن وتسعمئة وشخصيـن تقدموا بطلبـات وظائف تتطلب تصاريـح أمنية، وخضعوا لاختبـار الجهاز قبل التوظيـف. بيّن الاختبار أنّ نسبة 43% منهم صادقون؛ ولكنّ المعلومات اللاحقة أظهرت أنّ سبعـة عشر من ألفين وتسعمئة وشخصين كانوا يخفـون معلومات لا يريدون الاعتراف بها. وعليـه، كانت النسبـة المعروفة لأخطاء تصديق الكذب أقلّ مـن 1% (سبعة عشر من ألفين

وتسعمئـة وشخصين وهم الأشخاص المفحوصون). فشل ما نسبته 21% من الأشخاص في الاختبـار، ثم قدمـوا اعترافات مهمة كانت السبب في عـدم توظيفهم. في حين، فشل 24% منهـم في الاختبـار، ثم قدموا اعترافات غير ذات أهمية لم تحـل من غير توظيفهم. أمّا ما نسبته8% ففشلوا في الاختبار، ولم يدلوا بأيّ اعترافات.

قد تكون نسبة 8% حالات أخطاء تكذيب الصدق. ولكن وكالة الأمن القومي لا تذكرهم فـي تقريرها، ولكنني أستخلص عددهم من الأرقام التي ذكروها. تؤكد وكالة الأمن القومي أنّ المِكشاف جهاز يُستخدم في تحديد من ينبغي توظيفه، ولكنه ليس صاحب القرار الأخير؛ إذ تتم مقابلة الأشخاص الذين يفشلون في الاختبار بعد ذلك في محاولةٍ لكشف أسباب إظهار الشخص ردّ فعل عاطفيّ على المِكشـاف تجاه سؤال معيّن. لقد أخبرني جوردون بارلاند أنّ وكالة الأمن القومي لا توظّف الأشخاص إذا لم يفسّروا فشلهم في اختبار المِكشاف.

مـرة أخـرى، علينا معرفة أنّ هذه بيانات فقط، وليسـت أرقاماً دقيقة، ومن غير وجود بيانـات عن الدقة، لا يمكن الإجابة عن الأسئلة التالية: كـم عدد الكاذبين الناجحين الذين مـا زالوا في أماكنهم في وكالة الأمـن القومي؟ تعتقد وكالة الأمن القومي أنّ النّسبة أقلّ من 1% ولكن لا توجد لديها دراسة دقيقة تدعم ذلك. وفي حين، قد تعتقد أنّ الجهاز لا يغفل عن الكاذبين فإنّها غير متأكدة من ذلك.

يفيـد تقرير مكتـب تقييم التقنيـة أنّ الأشخاص الذين ترغب الحكومـة الاتحادية في الكشـف عنهم بشـدّة (مثل مخترقي الأمـن القومي) قد يكونون الأكثر تحفيـزاً، وربما كانوا الأفضـل تدريباً لتجنب الانكشاف[34]». ليست هناك طريقـة للتأكد من عدد أخطاء تصديق الكذب المرتكبة من غير وجود دراسة دقيقة. وستكون الدراسة الدقيقة من غير شك صعبة الإجـراء، ولكنهـا ليسـت مستحيلة. وقد تكـون الدراسـات المختلطة مثل دراسـة الشرطي الإسرائيلي التي شرحتها سابقاً أسلوباً ممكناً.

هـل يمكـن أن تخدع الإجراءات المضـادة الجهاز؟ سيتضمن هـذا أنشطة بدنية، مثل عضّ اللسان، واستخدام المخـدرات، والتنويم المغناطيسي، والارتجـاع البيولوجي. هناك دراسـات تشيـر إلى أنّ الإجـراءات المضادة فاعلـة إلى حدّ ما، ولكن نظـراً لعواقب فقدان

شخص من بين المتقدمين لوكالة الأمن القومي وهو جاسوس؛ أي ارتكاب خطأ تصديق الكذب، يجب إجراء المزيد من البحوث، ويجب أن تركز على الحالات التي يستخدم بها (العميل) الإجراءات المضادة، ويحاول خداع الجهاز، ويكون قد حصل على مساعدة الخبراء، والمعدات التقنية، وأشهر من التدريب وهو ما يتوقع أن يحصل عليه العميل الحقيقي. حذّر الدكتور جون بيري الثالث، القائم بأعمال مساعد وزير الدفاع للشؤون الصحية سابقاً من أنّ اعتماد وزارة الدّفاع الأمريكيّة(البنتاغون) على المِكشاف يُعرّض الأمن القومي للخطر بدلاً من حمايته، وقد قيل لي إنّ السوفييت لديهم مدرسة في الجزء الشرقي للبلاد يعلّمون فيها عملاءهم التّحايل على المِكشاف؛ ولأنّ كثيراً من مديري وزارة الدفاع يعتقدون أنّ الجهاز فاعل، فإنّهم يحصلون على شعور زائف بالأمان. وعليه، يجعلون نجاح الجاسوس السوفييتي في اختبار الجهاز أسهل لاختراق البنتاغون[35]». وبالنظر إلى وجود هذا الاحتمال ، يكون من المستغرب أن تقوم وكالة الأمن القومي بمشروع تجريبي ضيّق النطاق على الإجراءات المضادة كما ذكر تقرير مكتب تقييم التقنية.

ما العدد الفعلي للكاذبين من نسبة 8% الذين جاءت نتائج اختبارهم أنّهم كاذبون ولكنهم أنكروا ذلك؟ الجواب: مئتان وخمسة وأربعون شخصاً حسب تقديري. ما عدد الصادقين الذين أساء الجهاز الحكم عليهم؟ الجواب: لا يمكن الحصول على إجابة من غير وجود دراسة تتحرّى الدّقّة. هناك دراسة واحدة عن الدقة استناداً إلى إجابة كلٍّ من وِكالَتَي الأمن القومي، والاستخبارات المركزية، عن استفسار مكتب تقييم التقنية، وهي دراسة تماثليّة، عينتها من الطلاب، حيث كان فيها شك في معايير إثبات الصّدق، ولم يكن للأسئلة الموجّهة علاقة بالأمن القوميّ! مُجَدَّداً، من المدهش ندرة الدراسات التي اهتمت بهذا الموضوع على الرغم من أهميته. وحتى لو لم يكن هناك اهتمام بأخطاء عدم تصديق الحقيقة، فعندما تكون الأخطار كبيرة، ينبغي إيلاء الأهمية القصوى لأخطاء تصديق الكذب.

ومما لا شكّ فيه حتى من غير وجود دقة في البيانات، قد تكون الحجة قوية لاستخدام المِكشاف في اختبار المتقدمين لوظائف يكون لهم فيها صلاحيات الوصول إلى معلومات سرِّيَّة، ويمكن أن تعرّض الأمن القومي للخطر إذا وصلت إلى خصم ما. يصيغ نائب المدعي العام ريتشارد ك. ويلارد ببلاغة ذلك، بقوله: «حتى لو كان استخدام المِكشاف يستبعد بعض

المرشحيـن المؤهلين فعليّاً، فإننا ننظر إليه مـن جهة أهميته في تجنّب توظيف المرشحين الذين قد يشكّلون خطراً على الأمن القومي[36]». يقدّم لايكن الحجة المضادة في تعليقه على القـرار البريطاني الأخير لاستخدام اختبار المِكشاف فـي وكالاتها التي تتعامل مع القضايا السرية، قائلاً: بصرف النظر عن الأذى الواقع على الأشخاص الأبرياء وسمعتهم، قد ينجم عـن هذا القرار فقدان الحكومة لمعظم الموظفيـن الحكوميين المدنيين أصحاب الضمائر الحيّـة؛ بسبـب الميل للإجـراءات الأمنية الأكبر ثمنـاً والأكثر فاعليّة. وحـال تقديم اختبار المِكشاف، قد يفتح هذا القرار الباب على مصراعيه للاختراق السهل للخدمات الأمنية عن طريق العملاء الأجانب المدربين على التّحايل على الجهاز[37]».

فحوص المِكشاف لمن هم على رأس عملهم

إذا كان إبقـاء الأشخاص غيـر المرغـوب فيهم بعيداً عـن أن يصبحـوا موظفين في الـوكالات الاستخباريـة، أو تجـارة الألماسـ، أو موظفـي متاجـر كبرى يستحـق المحاولة، فسيكـون من المفيد تقدمهم لاختبار المِكشاف دوريّـاً في حال توظيفهم للتأكّد مما إذا كان فشـل اختبـار الجهـاز دقيقاً عنـد استخدامه في التّعـرّف إلى أحدهم، ويتـم ذلك في كثير مـن المؤسسـات التجارية الكبرى. مـرة أخرى، لا تتوافر بيانات عمّـا إذا كان الجهاز دقيقاً عنـد استخدامه بهذه الطريقة. ربما ستكون معـدلات الأساس في الكذب أقل: وعليه، ينبغي أن يكـون كثيـر من الفاسدين قد استُبعـدوا في الاختبار الذي يسبـق التوظيف، ووجود عدد موظفيـن أقل من إجمالـي المتقدمين ممن قد يخفون أمراً ما. وكلّمـا كانت معدلات أسـاس الكـذب أكثـر انخفاضاً كان هناك أحكام غير صائبة أكثر، ولـو أخذنا المثال السابق للألف موظـف الذين افترضنـا أنّ نسبة الدّقّة لاختبـار الجهاز لهم سيكون 90%، ولكن هذه المرة، وبـدلاً من افتراض معدل أساس نسبتـه 20%، افترضنا نسبة 5% ، فإنّ النتيجة ستكون كما يأتي: سيُحدَّد خمسة وأربعون كاذباً تحديداً صحيحاً، ولكن سيُشخَّص خمسة وتسعون صادقاً على أنّهم كاذبون، في حين، سيُحدَّد ثمنمئة وخمسة وخمسون صادقاً تحديداً صحيحاً، ولكن خمسة كاذبين سوف يفلتون من الاختبار، ويُصنّفون أنّهم صادقون خطأً.

يوضّح الشكلان 7و 8 تأثيرات وجود معدل أساس للكذب منخفض، ولإبراز دور التفكير فـي معدلات الأساس على أعـداد الأشخاص الذين يُصنّفون أنّهم كاذبون خطأ فقد حافظت على نسبة الدقة المقدرة 90% ثابتةً. عندما تكون نسبة أساس الكذب 20%، يُكتشف كاذبَان اثنــان بالمعدل مقابل إساءة الحكم على شخص واحد أنه صادق، وعندما تكون نسبة معدل الأساس للكـذب 5%، ينعكس الوضع، ويُساء الحكم علـى شخصين صادقيـن لكلّ كاذب يُكتشف.

وينبغـي أن ينطبـق هنـا الجدل الذي يفيـد أن الاستيـاء حيال الاضطـرار إلى التقدم للاختبار قد يجعل أمر الحصول على نتائج دقيقة صعباً، وقد يشعر الموظفون بالاستياء أكثر حيال وجوب التّقدّم للاختبار بعد توظيفهم مقارنة بالسابق عندما كانوا باحثين عن عمل.

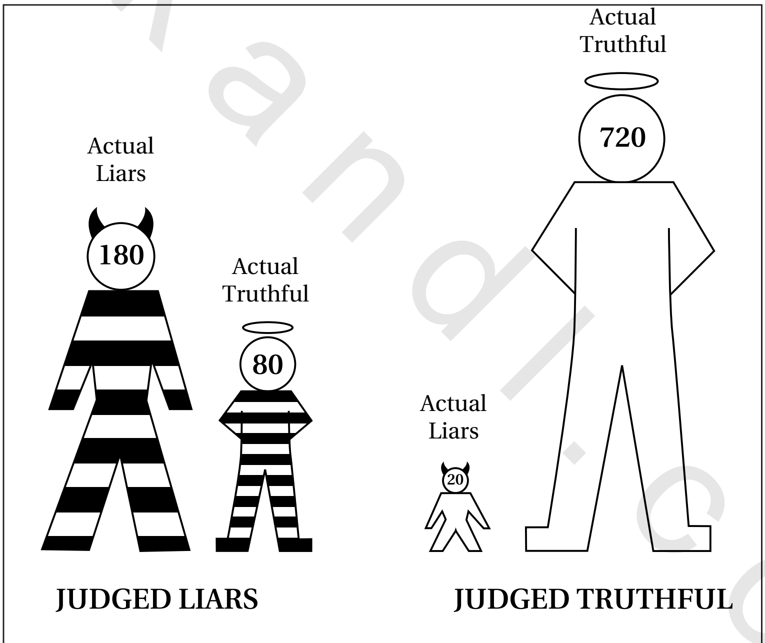

نتائج اختبار جهاز كشف الكذب لألف شخص تمّ اختبارهم، واتضح أنّ 20% (200 شخص) منهم كاذبون.

الشكل (7)

يمكـن إجـراء التّسويـغ نفسه لاختبار كشف الكـذب الذي يسبق التوظيـف على إجراء الاختبار في أثناء العمل مع رجال الشرطة أو موظفي وكالة ما، مثل وكالة الأمن القومي، لكنّ

opeikandi.com

الشرطة نادراً ما تقوم بذلك، على الرغم من إمكانية تقديم قضية لتسويغ مغريات العمل، وحوادث الفساد، ولكن وكالة الأمن القومي تجري اختبار كشف الكذب للعاملين، وإذا أخفق الموظف بالاختبار ولم تحلّ المقابلة اللاحقة سبب ذلك، فسيُصار إلى إجراء تحقيق أمنيّ. أمّا سؤالي عمّا يمكن أن يحدث إذا لم تُحلّ القضية إذا أخفق أحدهم في اختبار كشف الكذب مراراً وتكراراً ، ولم يكشف عن شيء ضار، قيل لي: إن ذلك لم يحدث مطلقاً.

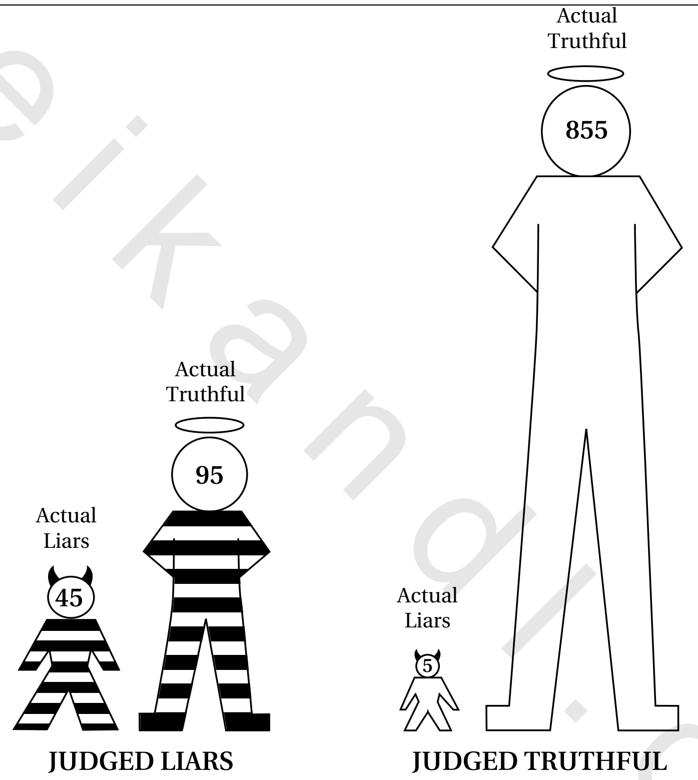

نتائج اختبار جهاز كشف الكذب لألف شخص تمّ اختبارهم، واتضح أنّ 5% (50 شخصًا) منهم كاذبون.

الشكل (8)

ليست هناك سياسة غير اتخاذ قرار لكلّ حالة على حدة. ولم تكن هناك حاجة إلى اتخاذ قرار، وستكون القضية حساسة، وسيكون أمر فصل شخص مضى على تعيينه سنوات أمراً صعباً إذا لم يكن هناك دليلٌ على ارتكاب المخالفات سوى مجرد الفشل المتلاحق باختبار جهاز الكشف عن الكذب.

ولو كانت المتهمة بريئة، فقد يغريها غضبها على الظلم الذي لحق بها من جرّاء الفصل مـن الإفصاح عن المعلومات السّرّيّة التي علمـت بشأنها في أثناء عملها. ومع ذلك، وفي كلّ مرّة إذا سُئلت: هل كشفت عن معلومات لعملاء معينين في بلد آخر في السنة الماضية؟ يبيّن جهـاز كشف الكذب انفعـالاً عاطفيّاً عند إجابتها بالنفي، وسيكـون من الصعب عدم القيام بأيّ إجراء.

اكتشاف التّسريبات ونظرية الرّدع

يكمـن أحد الاستخدامـات الجديدة المُقترحـة لجهاز الكشف عن الكـذب في تحديد الموظفيـن الحكوميين الذين كشفوا معلومـات سرّيّة غير مصرّح بكشفهـا من غير توريط وزارة العـدل. حتـى الآن، كان يجـب معاملـة مثل هذه على أنّهـا قضايا جنائيّـة، وإذا كانت التغييـرات التي اقترحتها إدارة ريغـان في عام 1983م ستأخذ حقّهـا عندها يكمن التعامل مـع الكشف غير المصرح بـه على أنّه شأنٌ إداريٌّ، ويستطيـع أيّ رئيس وكالة حكومية يعتقد أنّ موظفـاً لديـه أفشى معلومات الطلب إليـه التقدم لاختبار الكشف عـن الكذب، ومن غير الواضـح ما إذا كان هذا مطلوباً مِن جميع مَن لديهم الصلاحية للوثيقة المتسرِّبة. وفي كلتا الحالتيـن، سيكون معدل أساس الكذب منخفضاً، ومعدل الخطأ في استخدام جهاز الكشف عن الكذب مرتفعاً، أو فقط للأشخاص الذين أشارت التحقيقات إلى احتمال الاشتباه بهم.

يشيـر تقريـر مكتـب تقييـم التقنيـة إلـى عـدم وجـود دراسـات لتحديد دقـة جهاز فحـص الكـذب فـي الكشف عن كـذب الإفصاح عـن معلومات غيـر مُصرَّح بهـا. لقد قدّم مكتـب التحقيقـات الاتحـاديّ بيانـات تشير إلـى استخدام جهـاز كشف الكـذب بنجاح في سـتّ وعشريـن حالة مماثلة خـلال أربع سنـوات. والنجاح هو اعتراف جميـع من أخفق في اختبـار المِكشاف(38). ولكنّ استخـدام هذا المكتب لجهاز كشف الكـذب يختلف عما يمكن السماح به في اللوائح الجديدة.

لم يختبر مكتب التحقيقات الاتحاديّ الذين أفشوا معلومات غير مصرَّح بها جميعهم. (اصطلح على تسمية هذا الإجراء استخدام المتصيد لجهاز كشف الكذب). وبدلاً من ذلك، اختُبـرت مجموعـة أقلّ من المشتبه بهم الذين أشارت التحقيقـات السابقة إليهم؛ لذا، كان

معدل أساس الكذب أعلى والأخطاء أقل مقارنة بالمصيدة. تمنع لوائح مكتب التحقيقات الاتحاديّ استخدام اختبارات جهاز كشف الكذب في «فحص نمط التّصيّد لأعداد كبيرة من الأفراد أو بديلاً للتحقيقات المنطقية بالوسائل التقليدية[39]»، وقد تسمح اللوائح الجديدة التي اقتُرحت عام 1983م باختبار جهاز كشف الكذب المتصيّد.

إنّ نوعية الأشخاص المُستجوَبين، ومحتوى الاختبار وإجراءاته في اختبار كشف الكذب الإداري مختلفة تماماً عما عليه الحال عندما يخضع الأشخاص المشتبه بارتكابهم الأعمال الإجرامية لاختبار كشف الكذب، ويفترض أن يكون الاستياء مرتفعاً؛ لأنّ المتهم قد يفقد الصّلاحيّة بالوصول إلى المعلومات السرية ما لم يتقدم للاختبار. لقد وجدت دراسة استطلاعية أجرتها وكالة الأمن القومي لموظفيها أنّهم يشعرون أنّ اختبار كشف الكذب له ما يسوّغه. قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن ما لم يُجْرَ الاستطلاع بطريقة تضمن عدم الكشف عن الأسماء، فقد لا يعترف الأشخاص الذين يستاؤون من اختبار كشف الكذب به، ولكن ذلك أقل احتمالاً. باعتقادي، يشعر الموظفون الحكوميون في الوكالات الأخرى أنّ اختبار كشف الكذب له ما يسوّغه للكشف عن التسريبات، خصوصاً إذا تبيّن أنّ الغرض هو حجب المعلومات الأكثر ضرراً على الإدارة وليس على الأمن القومي.

ذكر ويلارد نائب مساعد المدعي العام، أمام مجلس الشيوخ عن مُسوّغ آخر لاستخدام جهاز الكشف عن الكذب، قائلاً: «الفائدة الأخرى لاستخدام جهاز كشف الكذب هي تأثيره الرّادع لبعض أنواع سوء السلوك التي يمكن أن يكون الكشف عنها من خلال الأدوات الأخرى صعباً. وقد يتراجع الموظفون الذين يعرفون أنهم عرضة لاختبارات الكشف عن الكذب عن القيام بذلك السلوك[40]»، وقد لا يعمل هذا كما يبدو. ومن المحتمل أن يخطئ اختبار الكشف عن الكذب أكثر في محاولة كشف الأشخاص الكاذبين حيال الإفشاء غير المُصرَّح به إذا لم يكن الأشخاص موظفين في وكالة استخباريّة. وحتى إن لم يكن الأمر كذلك، ولا أحد يعرف ما إذا كان الأمر كذلك، وإذا اعتقد الأشخاص المفحوصون بذلك، أو على الأقل علموا بعدم معرفة أحد، وقد لا يكون أسلوب الرّدع ناجحاً، ويكون اختبار الكشف عن الكذب فاعلاً إذا اعتقد معظم المتقدمين للاختبار بذلك، وقد يتسبّب استخدام اختبار كشف الكذب للكشف عن المعلومات غير المُصرَّح بها خوف البريء، سواء على حقّ كان أم لا، وبالتأكيد

غضبه حيال الاختبار بالقدر نفسه لغضب المذنب. يمكن القول: إن نجاح الاختبار من عدمه غيـر مهـم، وقد يكون له تأثير رادع في بعض المُستجوَبيـن، وليست هناك حاجة إلى معاقبة مـن يخفقون في الاختبار لتجنب المعضلـة الأخلاقيّة بمعاقبة البريء المحكوم عليه بالذنب خطـأ، ولكن إذا كانت نتائج الحكم على الـكاذب في اختبار كشف الكذب قليلة الأهمية، فلا يُرجّـح أن يكـون الاختبار فاعلاً أبداً، بالإضافة إلى أنه لا يكون لـه بالتأكيد قيمة رادعة، إذا عُلم أنّ أولئك الذين يفشلون لن يُعاقبوا.

مقارنة بين جهاز الكشف عن الكذب وقرائن السّلوك على الخداع

لا يقدم فاحصو جهاز كشف الكذب أحكامهم عمّا إذا كان المشتبه به كاذباً من مخطط الجهـاز وحده. ولا تقتصر معرفة الفاحص على جهاز الكشف عن الكذب على ما كشف عنه التحقيـق المُسبَـق، ولكنه أيضاً في مقابلة تسبق الاختبار يحصّـل المزيد من المعلومات في غضـون شرح إجـراءات الاختبار، وإعـداد الأسئلة التـي ستُستخدم في الاختبـار، ويحصل الفاحـص أيضـاً على انطباعات مـن تعابير وجه الشخـص المفحوص وصوتـه، وإيماءاته، وطريقـة حديثه، في أثناء المقابلة التـي تسبق الاختبار، وفي الاختبـار نفسه، وفي المقابلة التي تلي الاختبار. هناك مدرستان فكريّتان بشأن ما إذا كان على الفاحص ملاحظة القرائن السلوكية إضافة إلى مخطط الجهاز في تقييمه للمشتبه به بالكذب.

مع الأسف، إنّ الموادّ التي شاهدتها، والتي يستخدمها أولئك الذين يأخذون بالحسبان القرائـن السلوكية على الخداع قديمةٌ جدّاً، ولا تعتمد علـى أحدث نتائج البحوث المنشورة. إنّهـا تشتمل على خليط من أفكار غير صحيحة وأخرى صحيحة بشأن كيفية تفسير القرائن السّلوكية على الخداع.

هنـاك أربع دراسات فقـط قارنت الأحكام المبنية على اختبـارات جهاز كشف الكذب والقرائـن السّلوكيّـة مع الأحكام التي أدلى بها خبراء جهـاز كشف الكذب الذين لم يختبروا العينـة، بل تفقـدوا المخططات فقـط. أشـارت دراستان فقط إلـى أنّ الدقـة المبنيّة على القرائـن السّلوكيّـة فقط كانت مساوية لدقة مخططات جهـاز الكشف عن الكذب، في حين، توصلـت الدراسـة الثالثة إلى أنّ القرائن السّلوكيّة أنتجـت أحكاماً دقيقة ولكنها ليست بدقة

الأحـكام التي توافرت عن طريـق سجلات جهاز كشف الكذب. ولكن عاب الدراسات الثلاث مآخـذ رئيسة، هي: عدم اليقين بشأن الوصول إلـى الحقيقة الأكيدة، والعدد القليل للمشتبه بهـم المفحوصين، وقلّة عدد الفاحصين الذين يصدرون الأحـكام[41]. في الدراسة الرابعة التـي لم تُنشـرْ حتى وقت إعداد هذا الكتاب، عالج كلّ من راسكين وكيرشر هذه المآخذ[42]. لقـد وجد الباحثان أنّ الأحكام المبنية على القرائن السلوكية لم تكن أفضل من المصادفة، في حين، كانت الأحكام المبنية على مخططات جهاز الكشف عن المشاعر السلبية فقط من غير الاتصال مع المشتبه بهم أفضل بكثير من المصادفة.

غالبـاً ما يُضلّل مُراقب السّلوك، فيسيئ تفسيـر القرائن السلوكية أو يغفل عنها. تذكر تقريـري (في بداية الفصـل الرابع) من دراستنا التي وجـدت أنّ المفحوصين لم يستطيعوا التمييـز مـن أشرطة الفيديو مـا إذا كانت طالبـات التمريض يكذبن أو أنهـن صادقات في وصـف مشاعرهن. ومـع ذلك، نحن نعلم أنّ هنـاك قرائن غيـر معروفة على الخداع. عندما كذبت طالبات التمريض، بإخفاء السلبية التي أحسَسْنَ بها لدى مشاهدة الأفلام الجراحية، أصبحـت نبرة صوتهنّ أعلـى، واستخدمْن حركات باليدين أقل لتوضيـح حديثهنّ، وأظهرْن زلات حركات رمزيّة أكثر. لقد انتهينا تواً من تقييم تعابير الوجه لدى هؤلاء الأشخاص، ولم تسنـح لنا الفرصة بعد لنشر النتائج، ولكن يبـدو أنّها واعدة أكثر من الدراسات جميعها في تحديد الأكاذيب.

كانـت أقوى تقييمات تعابيـر الوجه تلك التي رصدت علامات خفية لحركات العضلات التـي تظهر الاشمئـزاز أو الازدراء المتسـرّب بابتسامات السعادة الظاهريـة. لا بدّ من أننا نقيس معلومات لا يعرفها الأشخاص أو لا يرونها. وفي السنة القادمة، سنعرف نوعها، وسوف ندرّب مجموعة من الأشخاص، ونعلمهم عمّ سيبحثون، ثم نعرض عليهم الأشرطة، فإذا بقيت أحكامهـم غيـر صحيحة فسنعلم أنّ الدقة فـي رصد القرائن السلوكية علـى الخداع يتطلّب عرضـاً بطيئاً متكرراً، وقياساً دقيقـاً أيضاً. وأتوقّع أنّ الدقة ستكـون جيدة نتيجة التدريب، لكنها ليست بدرجة الجودة بالقياس الدقيق.

في الدراسات التي تشبه دراسة راسكين وكيرشر، من المهم مقارنة دقة الأحكام التي تظهرها مخططات جهاز كشف الكذب بأقيسة قرائن الخداع السلوكية، ومع أحكام المراقبين

المُدرَّبيـن الخبـراء وليس أحكام البسطاء منهم، وأتوقع أن تزيـد الأقيسةُ السلوكية، إضافة إلـى الأحـكام الناتجة من مخططات جهـاز الكشف عن الكذب فقط، دقـة اكتشاف الكذب لبعضـ المشتبه بهم على الأقل. يمكن أن تقـدم القرائن السلوكية على الخداع معلومات عن نـوع العاطفة المحسوسة؛ أهي الخـوف، أم الغضب، أم المفاجأة، أم الكرب، أم الإثارة التي تنتج علامات الانفعال على مخطط جهاز الكشف عن الكذب؟

مـن الممكـن استخلاصـ معلومـات محـدّدة عن نـوع العاطفـة الصّادقة عـن طريق المِكشـاف، ولنتذكر النتائـج التي حصلنا عليها فـي نهاية الفصل الرابـع، والتي تشير إلى وجـود نمـط مختلف من نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي لـكلّ عاطفة. لم يحاول أحد حتى الآن تجربة هذا النهج في تفسير مخططات الجهاز في الكشف عن الكذب. يمكن لمعلومات العواطـف المحددة، المستمدة من القرائن السلوكية ومخطط جهاز الكشف عن الكذب، أن تسهم في تقليل حوادث أخطاء عدم تصديق الحقيقة وتصديق الكذب.

والأمر الآخر المهم الذي لابدّ من تقصّيه هو مدى جودة الإجراءات المضادة المتطورة فـي رصـد التهرب مـن الكشف عن الكذب، مـن خلال دمـج القرائن السلوكيـة وتفسيرات العواطف المحددة لمخططات جهاز الكشف عن الكذب.

يمكـن استخـدام جهاز المِكشاف مـع المشتبه بـه المتعاون، والذي وافـق على إجراء الاختبار عليه. ولكن يمكن قراءة القرائن السلوكية، دائماً من غير إذن من المتهم، أو إشعار مُسبق، ومن غير معرفة المشتبه به الكاذب أنّه موضع شُبهة. وفي حين، وجود إمكانية حظر اختبـار جهاز الكشف عن الكذب فـي بعض التطبيقات، فإنّه لا يمكـن لأحد حظر استخدام القرائـن السلوكيـة على الخداع، وحتى لو لم يعُتمد اختبار جهـاز الكشف عن الكذب قانونيّاً للقبضـ على موظفي الحكومة الذيـن يسرّبون المعلومات، لا يزال بإمـكان مكتشفي الكذب التدقيق في سلوك مَن يُشتبه بهم.

في كثيرٍ من الحالات التي يُشتبه فيها بوجود الخداع، سواء من زوج كان، أم رجل دولة، أم سمسار، فإنّ اختبار الكشف عن الكذب غير وارد. ولا يهمّ ما إذا كانت الثقة غير متوقعة، ولا يُسمـح بتوجيـه الأسئلة الاستجوابيـة أيضاً. وعندما تكون الثقة متوقعـة، كما يحدث بين

الأزواج، أو الأصدقــاء، أو بيــن الوالد وابنه، يعرّض توجيه الأسئلة بتوجه تسلسلي، وحتى من غيــر وجود جهاز الكشف عــن الكذب، العلاقة للخطر. حتى الوالــدة التي تمتلك سلطة على طفلها مقارنة بسلطة معظم مكتشفي الكذب على الذين يشتبهون بهم قد لا تكون قادرة على تحمل عــبء الاستجواب، وقد يقوّض الفشل في قبول ادعــاء الطفل بالبراءة العلاقة بينهما إلى الأبد، حتى لو سلّم الطفل بذلك، ولا يفعل كثير من الأطفال ذلك.

قد يشعر بعض الأشخاص أنّ من الأفضل أخلاقيّاً عدم محاولة ترصد الأكاذيب وقبول الأشخاص ومــا يقولونه، وأخذ الحياة على علّاتها، وعدم فعـل شيء للحدّ من فرص تعرّض الشخص للتضليل. ويتخذ مثـل هذا القرار لتجنّب عواقب اتهـام شخص ما بالكذب ظلماً، حتــى لو أنّ ذلك يعني زيادة خطر التعرض للخداع. وقـد يكون هذا أفضل الخيارات أحياناً. ويعتمـد ذلك على ما هو على المحـك، ومن الذي يكون موضع شكّ، ومــا احتمالية التعرض للتضليل، وموقف مكتشف الكذب تجاه الآخرين.

ما الذي سيخسره جيري في رواية أبدايك (تزوجيني) بتصديقه أن زوجته روث صادقة في حين هي كاذبة بشأن علاقتها الغرامية، وكيف يمكن مقارنة ذلك بما سيخسره أو يكسبه بتصديقــه أنهــا تكــذب إذا كانت بدلاً من ذلــك مخلصة له بصدق؟ قد يكــون ضرر الاتهام الباطـل في بعض حالات الزواج أكبر من الضرر الناجم عن السماح للخدعة بالاستمرار من غير تحديها، حتى يصبح الدليل قاطعاً. ولن تكون الحالة كذلك دائماً، بل تعتمد على تفاصيل كلّ حالــة؛ إذ قــد لا يكون لدى بعض الأشخاص كثير من الخيارات، وقـد يكونون متشككين بالمخاطـرة بتصديق الكــذب، وأكثر قدرة على المخاطرة بالقيــام بالاتهامات الباطلة بدل المخاطرة بانطلاء الكذبة.

إنّ الاقتــراح الوحيــد بشــأن ما يجــب أن يعدّ دائماً فــي حالة اتخاذ قــرار بالمخاطرة يكمــن في **عــدم التوصــل إلى نتيجــة نهائية عمّــا إذا كان المشتبه بــه يكــذب، أو أنه صادق بالاعتمــاد فقــط علــى اختبار الكشــف عــن الكــذب، أو القرائــن السلوكية علــى الخداع**. لقد ذُكــر في الفصل السادس الأخطار والاحتياطات التي يمكن اتخاذها للحدّ من هذه الأخطار في تفسير القرائن السلوكية. ولا بدّ من أنّ هذا الفصل قد أوضح الأخطار التي ينطوي عليها تفسيــر مخطط جهــاز الكشف عن الكذب بصفته دليلاً على الكذب. ينبغي أن يقدر مكتشف

الكـذب دائمـاً احتمال أن تشير الإيماءة، أو التعبير، أو علامـة جهاز كشف الكذب بالانفعال العاطفـي إلى الكـذب أو الصـدق؛ إذ، نادراً ما يكون ذلـك مؤكّداً تماماً. فـي هذه الحالات النـادرة، عندما تتسرب العاطفة التي تناقض الكـذب بتعبير وجه كامل، أو عند نطق أجزاء المعلومـات المخفية في أثنـاء الشتم، سيـدرك المشتبه به ذلك أيضـاً، وسيعترف بالتهمة الموجّهة إليه. إنّ ملاحظة وجود قرائن سلوكية على الخداع، أو قرائن صدق، كما يحدث في اختبار جهاز الكشف عن الكذب، قد تقدم أساساً لتحديد متابعة مزيد من التحقيقات أم لا.

ينبغي لمكتشف الكذب تقييم كذبة معينة من حيث احتمال عدم وجود أخطاء بتاتاً، وتعدّ بعض الخدع سهلة التحقق بحيث تكون فرصة ظهـور قرائن السلوك قليلة، وبعض الأكاذيب الأخـرى صعبة التحقـق بحيث يحدث كثير مـن الأخطاء، وسيكون هنـاك كثير من القرائن السلوكيـة للملاحظة. يصف الفصل القادم ما الذي ينبغي أخذه بالحسبان في تقدير ما إذا كان اكتشاف الكذب سهلاً أم صعباً.

الفصل الثامن

التّحقّق من الكذب

تنجح معظم الأكاذيب؛ لأنّ أحداً لا يتكفّل عناء مراجعة العمل لمعرفة كيفية اكتشافها. في العادة، هذا غير مهم. ولكن عندما تكون الأخطار مرتفعة؛ أي عندما يتضرّر المتلقّي بشدة إذا تعرض للتضليل، أو تعرض الكاذب للأذى الشديد إن اكتُشف واستفاد إذا حُكم عليه خطأ أنه صادق– يصبح القيام بذلك العمل أمراً جيّداً. إنّ مهمة التّحقّق من الكذب ليست سهلة ويمكن القيام بها بسرعة، بل يتعين أخذ كثير من الأسئلة بالحسبان لتقدير إمكانية وقوع الأخطاء. وإذا كانت كذلك، فما أنواع الأخطاء التي يجب توقعها؟ وكيف يمكن كشفها من القرائن السلوكية الخاصة؟ لا بدّ من توجيه الأسئلة المتعلقة بطبيعة الكذبة نفسها، ومعرفة خصائص كلّ من الكاذب والمُحقِّق، ولا يمكن أن يكون أيّ شخص متأكداً تماماً ما إذا كان الكاذب سيُكتشف أو ما إذا بُرِّئ الشخص الصادق. يقدم التحقق من الكذب تخميناً مطلعاً فقط. ولكن ينبغي أن يحدّ القيام بهذا التقدير من أخطاء تصديق الكاذب وتكذيب الصادق؛ فهو يجعل كلاً من الكاذب والمحقِّق مدركيْن مدى تعقيد التنبؤ بإمكان اكتشاف الكاذب على الأقلّ.

يتيح التحقق من الكذب للشخص المتشكك تقدير الفرصه في إثبات شكوكه أو نفيها، وأحياناً يكون جلّ ما يتعلمه هو عدم تمكنه من إيجاد ما عرفه أوثلّو، أو قد يعلم الأخطاء المحتملة، وما الذي يجب البحث عنه أو الاستماع إليه.

قد يكون التّحقّق من الكذب مفيداً للكاذب أيضاً؛ فقد يدرك بعض المتهمين أنّ الفرص جميعها تقف ضدهم فلا يشرعون بالكذب أو لا يستمرون بكذبتهم، وقد يتشجع آخرون بمدى سهولـة الإفلات بالكذب، أو يتعلمون ما الذي يركزون جهودهم عليه لتجنب الوقوع بالأخطاء التـي يُحتمل أن يقترفوها. في الفصل القــادم، سأوضح لماذا تساعد المعلومات الواردة في هذا الفصل والفصول الأخرى مكتشف الكذب أكثر من مساعدة الكاذب.

ينبغـي الإجابة عن ثمانية وثلاثيـن سؤالاً للتحقق من الكذب، وقـد سبق ذكر معظمها فــي سياق تفسيــر المسائل الأخرى في الفصول السابقة، وقد جمعتها الآن في قائمة واحدة، وأضفـتُ إليها أسئلة لـم أجد سبباً لشرحهـا سابقاً. سأحلّل عدداً مـن الأكاذيب المختلفة، وسأستخـدم القائمة لتوضيح أنّ بعض الأكاذيب سهلة وبعضها الآخر صعب. (تظهر القائمة كاملة بالأسئلة الثمانية والثلاثين في الجدول 4 في الملحق).

ينبغي أن تنتج الكذبـة السهلة لدى الكاذب بعض الأخطاء. وعليه، تكون صعبة الكشف علــى المحقـق. في حين، ينبغي أن تكـون الكذبة الصعبة سهلة الكشـف للمحقّق. إنّ الكذبة السهلـة لا تتطلـب الإخفاء، أو تزييف العواطف، وذلك لتوافر فرص كبيرة لممارسة الكذبة المحددة، وسيكون الكاذب متمكّناً في الكذب، ولن يكون المحقق متشككاً. لقد وصفت مقالة صحفية بعنـوان (كيف يتربّص صائدو الرؤوس بالمديريـن التنفيذيين في غابة الشركة)[1] عدداً من الأكاذيب السهلة جدّاً.

يستطيـع صائدو الرؤوس جلب المديرين التنفيذيين الذين يمكن استمالتهم من شركة للعمـل مع شركة منافسة أخرى. ولمّا كانـت الشركات لا تفضل فقدان الموظفين الموهوبين لمنافسيها، فـإنّ صائدي الرؤوس لا يستطيعون أن يكونوا مباشرين في محاولاتهم سبر غور مــن يصطــادون. قالت لنا سارة جونــز، صائدة رؤوس مع شركة في نيويــورك، كيف يمكنها الحصول على المعلومات التي تحتاج إليها من (العلامة التجارية) من خلال التعريف بنفسها علــى أنّها باحثــة صناعية: «نحن نقـوم بدراسة تتعلـق بالتعليم والمســارات الوظيفية. فهل يمكننــي توجيه بعض الأسئلة إليك؟ أنا لست مهتمة باسمك، بل بالإحصاءات عن مساراتك الوظيفيــة وتعليمك فقط، ثم أسأل الزميل عن كلّ شيء خاصّ به؛ مقدار النقود التي يحصل عليهــا، متزوج أم عــزب، عمره، عــدد أولاده... إلخ. يتلاعــب صائدو الرؤوســ بالأشخاص

obeikandl.com

للحصول على معلومات محــدّدة وبسرعة[2]». وصف صائد رؤوس آخر وظيفته قائلاً: عندما يسألني الآخرون في حفلة ما عن عملي أكذب عليهم قائلاً: «إنني أغش وأسرق كي أعيش[3]».

وتوضــح المقابلــة التي أجريتها مــع المريضة النفسية ماري التــي أوضحتُ حالتها في الفصل الأول مثالاً على كذبة صعبة جدّاً.

الطبيب: حسناً يا ماري، كيف تشعرين اليوم؟

ماري: بخير، وأتطلع لقضاء العطلة الأسبوعية، آه، مع عائلتي كما تعرف، فقد مرت، آه، خمسة أسابيع منذ حضرت إلى المستشفى.

الطبيب: لا مزيــد من مشاعر الاكتئاب يا ماري، ولا أفــكار للانتحار. هل أنت متأكدة من هذا؟

ماري: أنا في غاية الحرج من ذلك. لا أشعر... أؤكد لك أنني لا أشعر كذلك الآن. ما أريده هو الذهاب والبقاء في البيت مع زوجي فقط.

لقــد نجحت كلّ من ماري وسارة في كذبتيهمــا، ولم يُكتشفا، ولكن ربما أمكن اكتشاف ماري، وبجميع التفسيــرات كانت الفرص ضد ماري، وتفضل سارة من النواحي جميعها. أنَّ كذبــة ماري أكثــر صعوبة في جعل الآخريــن يصدقونها، وأنّ ماري أيضــاً كاذبة أقلّ مهارة، ولــدى الطبيب عدد من المزايا كمــا لو أنه مكتشف للكذب. أولاً، دعونا نتعرف الطرائق التي تختلف بها الأكاذيب نفسها، بصرف النظر تماماً عن خصائص الكاذبين ومكتشفي الكذب.

كان علــى ماري أن تكذب عن مشاعرها، فــي حين لم تضطر سارة لذلك. تخفي ماري الألــم الذي يحفّز خططها الانتحارية، وقد تتسرّب هذه المشاعر، أو قد يشير عبء إخفائها إلــى المشاعر الإيجابيــة التي تتظاهر بها. ليس على ماري الكذب عن مشاعرها فقط، ولكن علــى عكــس سارة، كان لديهــا مشاعر قوية حيال الكــذب في حدّ ذاته، وهــي مشاعر ينبغي لهــا إخفاؤها أيضــاً. ولأنّ كذبة سارة مشروعــة بصفتها جزءاً من سمــات وظيفتها، فهي لا تشعــر بالذنب تجاه كذبها هذا. بالمقابل، تنتج كذبة ماري غير المسموح بها شعوراً بالذنب؛ يُفترضــ أن تكون المريضــة صادقة مع الطبيب الذي يحاول مساعدتهــا، إضافة إلى علاقة

الاحترام الذي تكنّه إلى طبيبها تشعر ماري بالخجل أيضاً للكذب والتخطيط للانتحار. **إنّ أصعب الأكاذيب هي المتعلقة بالعواطف الصّادقة عند الكذب، وكلّما كانت العواطف أقوى، وزاد عدد العواطف المختلفة التي يجب إخفاؤها، زادت صعوبة الكذبة.** لقد شرحت سبب شعور ماري بالذنب والخجل، إضافة إلى الشعور بالألم. عندما ننتقل الآن من التفكير بالكذب، إلى تحليل الكاذبين، سنرى لماذا تشعر ماري بعاطفة رابعة لديها والتي يجب عليها أيضاً إخفاؤها.

تعدّ ماري أقل ممارسة ومهارة من سارة في الكذب، وهي لم تحاول من قبل إخفاء الألم وخطط الانتحار، وليست لديها خبرة في الكذب عن أيّ شيء مع طبيبها النفسيّ، وإنّ افتقارها إلى الممارسة يجعلها تخاف من افتضاح أمرها، وقد يتسرّب هذا الخوف بطبيعة الحال، مضيفاً عبئاً آخر إضافة إلى عبء العواطف التي يجب عليها إخفاؤها. ويجعلها مرضها النفسي عرضة، بوجه خاص، للخوف والشعور بالذنب والعار. وكذلك لا يرجح أن تكون ماري قادرةً على إخفاء هذه المشاعر.

لم تتوقع ماري الأسئلة جميعها التي يُرجّح أن يوجّهها الطبيب، وعليها تلفيق إجابات كاذبة في حال توجيه السؤال. ولكن وضع سارة هو عكس ذلك تماماً. فهي متمرّسة بهذا النوع من الكذب، وقد مارسته مرّات عدّة، وهي واثقة من قدرتها عليه بناءً على نجاحاتها السابقة، ولديها عبارات مختلقة جيداً تدرّبت عليها. لدى سارة أيضاً ميزة القدرة على التمثيل، مما مكنها من القيام بدورها بمهارة في كثير من الأحيان، لدرجة أنها تقتنع بها شخصيّاً.

أمّا الطبيب فيتمتع بثلاث مزايا على المدير التنفيذي بوصفه مكتشف كذب. إنّ اجتماعه هذا مع ماري ليس الاجتماع الأول، وتهيئ له معرفته السابقة بها فرصة أفضل لتجنب مخاطرة بروكاو؛ بسبب عدم مراعاة الفروق الفردية. وفي حين لا يتدرب الأطباء النفسيون جميعهم على كيفية اكتشاف علامات العاطفة المخفية فإنّ لدى طبيب ماري هذه المهارة.

وعلى عكس المدير التنفيذي، يكون الطبيب حذراً، وهو يقظ لاحتمال الخداع؛ فقد تعلّم أنّ المرضى الذين ينزعون للانتحار بعد قضائهم أسابيع عدّة في المستشفى قد يخفون مشاعرهم الحقيقية كي يتمكنوا من الخروج من المستشفى ومن ثمَّ الانتحار.

لقد كانت أخطاء ماري واضحة في حديثها، وصوتها، وحركات جسدها، والتعابير الصادرة عنها. وهي كاذبة غير حاذقة، وليست متحدثة سلسة، وتقدم قرائن على الخداع في خياراتها للكلمات وفي صوتها، عندها أخطاء في الكلام، وإسهاب في الحديث ، وعدم توافق في العبارات، وتوقف في أثناء الحديث. إضافة إلى أنّ المشاعر السلبية القوية التي تشعر بها أنتجت الأخطاء في حديثها وحدّة صوتها، إضافة إلى وضوح قرائن عواطف الألم، والخوف، والذنب، والخجل، في الدلائل المتسربة، مثل هزة الكتف، وحركات التلاعب، وقلة الحركات التوضيحية، وتعابير الوجه الدقيقة التي تبين هذه العواطف الأربع. تسربت العواطف الأربع جميعها في عضلات الوجه الصادقة على الرغم من محاولات إخفائها. ولأنّ الطبيب يعرف ماري حقّ المعرفة، كان ينبغي أن يكون أكثر قدرة على تفسير حركات جسمها التوضيحية والمموّهة التي قد يُساء تفسيرها؛ بسبب الفروق الفردية في أول لقاء. في الواقع لم يكن طبيب ماري قادراً على التقاط قرائن خداعها، على الرغم من افتراضي أنه لو تنبه إلى ما أوضحت، فسيكون هو ومعظم الآخرين قادرين على اكتشاف كذبتها.

أمّا سارة فوضعها لاقتراف الكذب مثاليّ؛ لا عواطف ينبغي إخفاؤها، لقد مارست هذه الكذبة بالتحديد، وأتيح لها وقت التدرّب عليها، وثقة سببها نجاحات سابقة، ومهارات طبيعية ومتطورة لتستغلها في الأداء، والتصريح بالكذب، وضحية لا تشك فيها مسؤولة عن الأخطاء في الحكم بسبب اللقاء الأول، وضحية غير موهوبة خصوصاً بوصفها حكماً على الآخرين. بالطبع، لم تتح لي الفرصة مع سارة على عكس ماري لدراسة فيلم مصور للبحث عن قرائن الخداع، فأنا أعتمد على ما تتناقله الصحف من تفسيرات فقط، ولم أستطع التّخمين من عدم قدرة أحد على إيجاد القرائن على خداعها، وقد كانت الخدعة بسيطة جدّاً، ولم تكن هناك أسباب لارتكاب الأخطاء.

والميزة الوحيدة الأخرى التي يمكن أن تملكها سارة هي المتلقّي المتعاون بنشاط في الخدعة، الذي يحتاج إلى تضليل لأسباب خاصة به. وهذا ما لا تمتلكه سارة وماري. كانت

هـذه الميزة متوافرة لدى روث، الزوجة اللعوب في القصة التي نقلتها في الفصول السابقة، وكانـت كذبتهـا صعبة جدّاً، ومليئة بالأخطـاء، ولكن المتلقّي المستعـد للخدعة لم يكشفها. تذكّـر أنّ جيـري زوج روث سمعها تتحدث هاتفياً مع عشيقهـا. ولملاحظته نبرة مختلفة في صوتها، يسألها عن المتحدث في الطرف المقابل، ولأنه أُمسك بها على غِرَّة، تلفّق روث الرّدّ فـي أنّ الهاتـف من مدرسة الأحد. ولكن جيري واثق أنّ هذا الرّدّ لا ينسجم مع ما سمعه، ولا يصـرّ جيـري أكثر من ذلك، ويلمِّح أبدايك أنّ جيري فشل فـي اكتشاف خداع روث لأنّ لديه سببـاً لتجنّب مواجهة الخيانـة الزوجية: فجيري نفسه يخفي أيضـاً علاقة غرامية له، وكما اتضح فيما بعد في القصّة، فإنّ العلاقة كانت مع زوجة حبيب روث!

دعونـا نقارن كذبـة روث الصعبة جداً غيـر المُكتشفة، مع كذبة سهلة جـدّاً، والتي لم تُكتشف أيضاً ولكن لأسباب مختلفة جدّاً تأتي هذه الكذبة السهلة من تحليل حديث للتقنيات التي يستخدمها الفنانون المحتالون.

فـي (اللعـب المعكوس)... يواجه الفنان المحتالُ الضحيّةَ وهو يُضمر فكرة خفية، وينزع منه سلاحه عن طريـق توقع المواجهة الفعلية التي تستشعرها الضحيّـة. دخل جون هامراك، أحد الرجال الأكثر خداعاً في السنوات الأولى من هذا القرن في المجر، مع شريك يرتدي زِيّاً فنيّاً إلى مكتب عضو مجلس المدينة المحلـي، وأعلن هامراك أنهما حضرا من أجل صيانة الساعة المقرر إصلاحها، وبسبب القيمة النقدية الكبيرة للساعة، تردّد عضو المجلس المحلي في تسليمها.

وبـدلاً من مزيد في إتقان الـدور، تجاوب هامراك بلفت انتبـاه عضو المجلس المحلي إلى قيمة الساعة غير العادية، وذكر أنه لهذا السبب بالذات حضر شخصيّاً. وعليه، يحرص المحتالـون على توجيه انتباه ضحيتهم إلى القضية الأكثر حساسية. إنّهم يتقنون دورهم عن طريق التظاهر بالضرر كأنّ القضية خاصة بهم[4].

تتمثـل المسألة الأولى الواجب التفكير فيهـا بتقدير ما إذا كانت دلائل الخداع موجودة أم لا، ومـا إذا كانـت الكذبـة تنطوي على العواطـف الصّادقة في لحظة الكـذب أم لا، وكما شرحـت في الفصـل الثالث، وأوضحت فـي تحليل كذبـة المريضة النفسية مـاري، تنطوي أصعب الأكاذيب على العواطف الصّادقة في لحظة الكذب. لا تُعدّ العواطف كلّ شيء، ويجب توجيه أسئلة أخرى للقيام بتقدير إمكان إخفاء العواطف بنجاح. ولكن السؤال عن العواطف مكان جيد للبدء.

قد يكون إخفاء العواطف الهدف الرئيس للكذب كما هو الحال مع ماري، ولكن ليس لروث، حتى عندما يكون الأمر غير ذلك؛ أي عندما يكون الكذب ليس عن المشاعر، قد تشترك المشاعر في الكذب. هناك أسباب كثيرة وراء شعور روث بالخوف من الانكشاف وذنب الخداع؛ لأنها، وبوضوح، تخشى العواقب إذا اكتُشفت محاولتها لإخفاء علاقتها. وليس الأمر أنّ روث لن تكون قادرة على الاستمرار في الحصول على المكافآت التي تقدمها علاقتها إذا فشلت كذبتها، بل إنها قد تتعرض للعقاب، وقد يتركها زوجها جيري إذا اكتشف خيانتها له، وإذا كان هناك طلاق، قد تسبب الشهادة عن الزنا في حرمانها ماليّاً. (كُتبت رواية أبدايك قبل عصر الطلاق من غير وجود خطأ من الزوجين). حتى في الولايات التي تجيز الطلاق من غير خطأ، قد يؤثر الزنا سلباً في حضانة الأطفال، وإذا استمر الزواج فقد يتعرض للفشل على الأقل لبعض الوقت.

لا يطال العقاب كلّ كاذب يُفتضح أمره، فلا تتعرض سارة صائدة الرؤوس، ولا المريضة النفسية ماري للعقوبة إذا فشلت أكاذيبهما. في حين أنّ هامراك المحتال الشبيه بروث قد يُعاقب، وتجعله عوامل أخرى يشعر بقدر أقلّ من الخوف من الانكشاف.

هامراك حاذق بهذا النوع من الكذب فقط، وهو يعلم أنّ لديه المقوِّمات الشخصيّة التي تساعده على الكذب. على الرغم من أنّ روث نجحت في خداع زوجها، غير أنها ليست حاذقة بما تتطلبه الكذبة تماماً، وهو تغطية المكالمة الهاتفية التي سمعها زوجها، ولا هي واثقة بقدرتها على الكذب.

تُعدّ معرفة روث بإمكان تعرضها للعقاب إذا فشلت كذبتها مصدراً واحداً لخوفها من الانكشاف؛ فهي تخشى العقاب من الكذب نفسه، وإذا اكتشف جيري أنّ روث كانت مستعدة وقادرة على خداعه، فيمكن أن يكون انعدام ثقته فيها مصدراً للمتاعب بعيداً عن خيانتها له. يدّعي بعض الدّيّوثين أنّ الأمر الذي لا يمكن غفرانه هو انعدام الثقة، وليس الخيانة بحدّ ذاتها. مرة أخرى، لاحظ أنّ العقاب لا يطال الكاذبين جميعهم على فعل الكذب نفسه، ويكون الأمر كذلك فقط عندما يكون للكاذب والضحية مستقبلٌ قد يتعرض للخطر بانعدام الثقة. أما إذا قُبض على سارة صائدة الرؤوس فإنها تفقد فقط إمكان الحصول على معلومات من هذه (العلاقة) الخاصة، وسيُعاقب هامراك ليس لقيامه بالانتحال، ولكن

للسرقة أو محاولة السرقة، حتى ماري المريضة النفسية لن تتعرض للعقاب بتهمة الكذب نفسه، ويجعل اكتشاف كذبها طبيبها أكثر حذراً، ولا تكون الثقة بافتراض أنّ الشخص الآخر سيكون صادقاً مفترضة أو مطلوبة في كلّ علاقة دائمة، ولا حتى في كلّ زواج.

ينبغي تضخيم تخوّف روث من الانكشاف عن طريق إدراكها أنّ جيري يشكّ فيها. فضلاً على أنّ ضحية هامراك عضو المجلس المحليّ، يشكّ أيضاً في كلّ من يريد إزالة ساعته القيّمة. ويكمن جمال (اللعب المعكوس) في أنّ مخاطبة الجمهور مباشرة، وجعل الشكّ الذي يحتفظ به المتلقّي عاماً، يقلّل من ذلك الشك. تعتقد الضحية أنّ اللص لن يكون جريئاً، وذلك لمجرد الاعتراف بمخاوف ضحيته، وقد يتسبب ذلك المنطق أيضاً بإقصاء التسرب؛ لأنه لا يُصدّق أنّ الكاذب قد يقع بهذا الخطأ.

لاحظ كلّ من دونالد دانيال وكاثرين هيربغ في تحليلهما للخداع العسكريّ أنّه كلّما كان التسرب أكبر، قلّ احتمال تصديق الضحية له؛ لأنه يبدو صعب التّصديق. (لقد تجاهل المخططون العسكريون التسريب في عدد من الحالات) ... بوصفه واضحاً جدّاً[5].

تتشارك روث والمريضة النفسية ماري القيم مع ضحيتها، وقد يشعران بالذنب لكذبهما، ولكن شعور روث أنّ كذبتها مسموح بها غير واضح، حتى الأشخاص الذين يُدانون بالزنا لا يوافقون بالضرورة على وجوب كشف الأزواج غير المخلصين عن الخيانة الزوجية. والأمر مع حالة هامراك أكثر يقيناً. ومثل سارة صائدة الرؤوس، لا يشعر هامراك بالذنب، فالكذب جزءٌ مما يفعله لكسب قوته. ربما يكون هامراك كاذباً بالفطرة أيضاً، أو مختلّاً عقليّاً؛ الأمر الذي من شأنه أنّ يقلّل أيضاً من فرصة الشعور بالذنب تجاه الكذب، وبين أقران هامراك يكون الكذب على (المشاهير) فِعْلاً مرغوباً فيه.

توضح أكاذيب روث وهامراك النقطتين التاليتين: لا تتوقع روث الوقت الذي تحتاج فيه إلى الكذب؛ لذا، فإنّها لم تلفّق عبارة وتتدرب عليها. ينبغي أن يضخّم الخوف من الانكشاف لدى روث عند بدء الكذبة؛ لأنها تفتقر إلى إجابات معدّة من قبل، حتى لو كان من المقرّر أن يُمسك بهامراك في مثل هذا المأزِق، وعادة لا ينكشف الكاذب المحترف في كثير من الأحيان؛ لأنّ لديه موهبة الارتجال، وهي موهبة لا تمتلكها روث. ولكن روث لديها ميزة

كبيرة تتفوّق فيها على هامراك، الميزة المستخدمة في تقديم هذا المثال أنّ لديها ضحية مستعدة، ولها أسبابها الخاصة التي لا ترغب معها أن يُمسك بها. أحياناً، قد لا تكون هذه الضحية مدركة لتورطها في الحفاظ على الخداع. يترك أبدايك القارئ غير متأكد عما إذا كان جيري يدرك تواطأه، وما إذا أدركت روث أنّ هذا ما يحدث فعلاً. هناك طريقتان تجعلان من خلالها الضحايا المستعدة مهمة الكاذب أسهل. يكون الكاذبون أقلّ خوفاً من أن يُمسك بهم إذا عرفوا أنّ ضحاياهم لا يرون أخطاءهم، ويشعر الكاذبون بالذنب أقلّ تجاه خداع هؤلاء الضحايا؛ لأنهم قد يعتقدون أنهم يفعلون ما تريده ضحاياهم.

حتى الآن، حلّلنا أربع أكاذيب، وحدّدنا سبب وجود قرائن على الخداع في حالتي ماري وروث، ولماذا لا يجب أن تكون هناك قرائن على الخداع في أكاذيب سارة و هامراك. دعونا الآن ندرس قضية حُكم فيها على الشخص الصادق بالكذب؛ لنعرف كيف يمكن أن يسهم التحقق من الكذب في منع مثل هذا الحكم الجائر. أُدين جيرالد أندرسون باغتصاب نانسي جونسون، زوجة جاره، وقَتْلِها. عند منتصف الليل، عاد زوج نانسي إلى البيت من عمله، فوجدها جثةً هامدة. ركض إلى بيت عائلة أندرسون، وأبلغهم أنّ زوجته ميتة وأنه لا يجد ابنه، وطلب إلى السيد أندرسون إبلاغ الشرطة.

جعلت حوادث عدّة أندرسون مشتبهاً به. ففي اليوم التالي لجريمة القتل بقي في منزله، وشرب حتى الثمالة في حانة قريبة من البيت، وتحدث عن عملية القتل. وعندما أحضروه إلى البيت ثملاً سُمع ينتحب ويقول لزوجته: لم أكن أريد فعل ذلك، ولكني كنت مضطراً، ولم يُصدّق ادعاؤه في وقت لاحق أنه كان يتحدث عن الخمرة لا القتل. وعندما سألته الشرطة عن بقعة على فرش سيارته، ادعى أندرسون أنّها كانت موجودة قبل شراء السيارة. في وقت لاحق، خلال التحقيق، اعترف أنّه كذب؛ لشعوره بالخجل من الاعتراف أنّه تجادل مع زوجته جدالاً حادّاً جعله يصفعها، وهذا ما تسبب في نزف أنفها. قال المحققون لأندرسون مراراً: إنّ هذا الحادث يثبت أنّه شخص عنيف وقد يقتل، وهو كاذب إنْ أنكر ذلك. في أثناء الاستجواب، اعترف أندرسون أنّه عندما كان في سنّ الثانية عشرة اشترك في جريمة جنسيّة عابرة لم تؤثر في الفتاة ولم تتكرر بتاتاً. ولكن تبيّن لاحقاً أنّه لم يكن في الثانية عشرة بل في الخامسة عشرة في ذلك الوقت.

وأصرّ المحققون أنّ هذا دليل آخر يثبت أنه كان كاذباً، ودليل على أنه كان يعاني مشكلة جنسية. وعليه، قد يكون هو الشخص الذي اغتصب نانسي ومن ثمَّ قتلها. حضر جو تاونسند؛ مشغّل محترف لجهاز الكشف عن الكذب، وعرّفه المحققون أنّه لم يخطئ مطلقاً في كشف الكاذبين.

أجرى تاونسند مجموعتين من الاختبارات على أندرسون، وحصل على بعض القراءات المحيِّرة والمتناقضة، وعند استجوابه عن جريمة القتل نفسها، أظهر أندرسون (نبضات) على الأشرطة كانت مؤشراً على الخداع في إنكار الذنب. ولكن عند استجوابه عن سلاح الجريمة، وكيفية التّخلّص منه، والمكان الذي أخفاه فيه، بيّن شريط الجهاز أنّه كان (بريئاً). وللتبسيط، أشار أندرسون إلى الذّنب حول جريمة قتل نانسي والبراءة بالأسئلة المرتبطة بالسلاح الذي طُعنت به القتيلة وقُطِّع جسمها به. وعند سؤاله عن كيفية حصوله على السكين، ونوعها، وكيفية التّخلّص منها، قال أندرسون: «لا أعرف»، فلم ينبض الشريط . . . .كرّر تاونسند السؤال عن سلاح الجريمة ثلاث مرات، وحصل على النتائج نفسها. وعندما انتهى جو تاونسند من الاختبار، قال لأندرسون: إنّه فشل في الاختبار[6].

تناسب حكم مشغّل جهاز الكشف عن الكذب مع اعتقاد المحققين في أنّهم قبضوا على المجرم، واستجوبوا أندرسون ستة أيام. كشفت شرائط تسجيل التحقيق مدى تعب أندرسون، وكيف اعترف أخيراً بجريمة لم يرتكبها. في النهاية تقريباً، ادعى البراءة، واحتج أنّه لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك؛ لأنه لا يتذكر أنه قتل أو اغتصب نانسي. فردّ المحققون بإخباره أنّ القاتل قد لا يتذكر شيئاً. ولا يثبت الفشل بتذكر هذا الفعل، على حدّ قولهم، أنه لم يرتكب الجرم. وقّع أندرسون على الاعتراف بعد أن ذكر له المحققون أنّ زوجته قالت إنها تعلم بقتله نانسي. في وقت لاحق، نفت زوجته ذلك التصريح بتاتاً. وبعد بضعة أيام، تنكّر أندرسون لاعترافه. ولكن بعد سبعة أشهر اعترف القاتل الحقيقي، المتهم بجريمة قتل واغتصاب أخرى بقتل نانسي جونسون.

يشير التّحليل إلى أنّ ردّ فعل أندرسون العاطفيّ على أسئلة جريمة القتل في أثناء اختبار جهاز فحص الكذب ربما يكون نتيجة كونه يكذب عندما قال إنه لم يرتكب الجريمة. تذكر أنّ اختبار الجهاز لا يكتشف الكذب، بل يكتشف الانفعال العاطفي فقط، وقضية ما

obeikandl.com

إذا كان أندرسون منفعلاً عاطفيّاً عندما استُجوب بشأن الجريمة تكون فقط بقتله لنانسي. هل هناك أسباب أخرى لانفعال أندرسون العاطفيّ بشأن الجريمة حتى لو لم يرتكبها؟ وإذا كانت هناك أسباب أخرى فسيثبت أنّ الجهاز غير دقيق.

إنّ الأخطار مرتفعة والعقاب شديد – بحيث إنّ معظم* المشتبه بهم المذنبين بجرائم مماثلة سيدبّ في قلوبهم الرعب، ولكن بعض الأبرياء فقط يخافون. يحاول مشغلو الجهاز التقليل من خوف البريء من ألّا يُصدَّق، وتعظيم خوف الشخص المذنب من أن يُكتشف من خلال إبلاغ المشتبه به أنّ الجهاز لا يخطئ أبداً، ويكمن أحد أسباب خوف أندرسون من عدم تصديقه في طبيعة الاستجواب الذي سبق الاختبار. يميّز خبراء الشرطة بين المقابلات التي تُجرى للحصول على المعلومات، والاستجوابات التي تفترض الذنب، وتُجرى بطريقة اتهامية ومحاولة الإكراه على الاعتراف. يستخدم المحققون عادة كما فعلوا مع أندرسون، قوة قناعاتهم الخاصة بذنب المشتبه به، الذي يعترفون به صراحة لإجبار المشتبه به على التخلي عن مطالبته بالبراءة. في حين قد يخيف هذا المذنب ليعترف، فإنّ ذلك يكون على حساب إخافة المشتبه به البريء الذي يدرك أنّ مستجوبيه لا يملكون ذهناً منفتحاً بشأن براءته، وبعد أربع وعشرين ساعة من الاستجواب من غير توقف، تقدم أندرسون لاختبار الجهاز.

قد تكون انفعالات أندرسون العاطفية بشأن أسئلة المحققين عن الجريمة قد نتجت بسبب شعوره بالخزي والذنب وليس من خوفه من عدم تصديقه. فعلى الرغم من كونه بريئاً، كان أندرسون خجلاً من ضربه زوجته، وارتكابه مخالفة جنسية في سن المراهقة. عرف المحققون أنّه كان يشعر بالخزي؛ لضربه زوجته وارتكابه المخالفة الجنسية بسن المراهقة، وشعر كذلك بذنب الخداع؛ لمحاولته إخفاء هذين الحدثين. استغلّ المحققون باستمرار هذين الحدثين لإقناع أندرسون أنّ شخصيته من النوع الذي يقتل ويغتصب، ولكن ربما يكون هذا قد ضخّم مشاعره بالخزي والذنب، وربط تلك المشاعر بالجريمة التي اتُّهم بارتكابها.

---

* أعتقد شخصيّاً أن معظم المشتبه بهم المذنبين يخافون؛ لأن ليس كل من يقتل يخاف الانكشاف اكتشافهم، لا المحترف، ولا حتى المريض النفسي.

Obeikandl.com

يفسّر التّحقّق من الكذب سبب كون علامات الخوف، أو الخزي، أو الذنب، مبهمة بوصفها قرائن على الخداع، سواء في تعابير أندرسون كانت، أو إيماءاته، أو صوته، أو حديثه، أو في نشاط الجهاز العصبي اللاإرادي، كما يقيسها الجهاز. وكانت هذه العواطف عرضة لتطفو على السطح إذا كان أندرسون بريئاً وكما لو كان قاتلاً أيضاً. والحادثة الأخرى التي لم يعلم المحققون بشأنها، والتي جعلت معرفتهم لها مستحيلة من انفعالات أندرسون العاطفية فيما إذا كان كاذباً أم لا، بعد خروج أندرسون من السجن، سأله الصحفي جيمس فيلان الذي ساعدت قصته أندرسون على نيل حريته عن الأمر الذي جعله يفشل في اختبار الكشف عن الكذب، فكشف أندرسون عن مصدر آخر لانفعاله العاطفي عن الجريمة التي لم يرتكبها. في ليلة مقتل نانسي، وعندما ذهب أندرسون إلى منزل جاره، نظر إلى جسد نانسي العاري مرات عدّة. وشعر أنّ هذا شيء فضيع للقيام به. ففي غفلة ارتكب جريمة مختلفة عن جريمة القتل، جريمة جعلته يشعر ويسجل مشاعر الخزي والذنب. فكذب، ليخفي فعلته المعيبة عن المحققين، ومشغل جهاز كشف الكذب، وبالطبع شعر بالذنب حيال كذبه على هؤلاء الأشخاص.

ارتكب المحققون مع أندرسون خطأ أوثلّو. ومثل أوثلّو، أدركوا أنّ المشتبه به منفعل عاطفيّاً، وكان خطؤهم في تحديد سبب تلك العاطفة التي بدت عليه، وفي عدم إدراك أنّ العواطف المحدّدة بصورة صحيحة يمكن الشعور بها، سواء المشتبه به مذنباً كان أم بريئاً. تماماً مثل شعور ديزديمونة اليائس الذي لم يكن بسبب خسارتها حبيبها، لم يكن خزي أندرسون، وذنبه، وخوفه، مرتبطاً بجريمة القتل، ولكن بسبب أفعال أخرى مَشينة. ومثلما كان أوثلّو، أصبح المحققون ضحايا أفكارهم المسبقة عن المشتبه به. كما لم يكن باستطاعتهم تحمّل عدم اليقين بشأن معرفة ما إذا كان المشتبه به كاذباً أم صادقاً.

امتلك المحققون معلومات وتفاصيل عن سلاح الجريمة، وهي المعلومات التي لا يعرفها إلا الشخص المذنب، ولن تكون معلومة لدى الشخص البريء. يجب أن توحي حقيقة أنّ أندرسون لم يجب عن أداة الجريمة؛ السكين في أثناء خضوعه للاختبار للفاحص أنه قد يكون بريئاً، وبدلاً من تكرار الاختبار ثلاث مرات، كان ينبغي للفاحص بناء اختبار معرفة المذنب باستخدام معلومات عن الجريمة لا يعلمها إلا الجاني.

يعدّ كلّ من هامراك اللص وأندرسون المتهم بالقتل، تجسيداً لنوعي الخطأ في المحاولات الدّؤوبة للقبض على المجرمين الذين يكذبون. في الاستجواب، وفي أثناء اختبار المِكشاف، قد يبدو هامراك غير منفعل عاطفيّاً، ويبدو بريئاً تماماً من ارتكاب أيّ جُرْم. لقد أوضح التحقق من الكذب سبب ندرة ارتكاب الخبير المحترف، أو الكذاب بالفطرة، أو المضطرب عقليّاً، الأخطاء عندما يكذبون. يُعدّ هامراك مثل الشخص الذي يصدّق كذبته. في حين، يمثّل أندرسون الأمر معكوساً. لقد كان بريئاً، ولكن بسبب تظافر القرائن الموجبة لإدانته ظلماً، حُكم عليه بالذنب، وهذا خطأ تكذيب الحقيقة. ليس غرضي من دراسة هاتين الحالتين رفض استعمال المِكشاف، أو اللجوء إلى القرائن التعبيرية على الخداع عند فحص المشتبه بهم.

وحتى لو رغب الشخص بذلك، فلا توجد طريقة لمنع الأشخاص من استخدام القرائن السلوكية على الخداع. يعتمد انطباع كلّ شخص عن الآخرين، جزئيّاً، على سلوك الآخر التعبيري. ينقل هذا السلوك الانطباعات عما هو أكثر من الصدق بكثير. إنّ السلوك التعبيري مصدر رئيس للانطباعات عما إذا كان أحدهم ودوداً، أو عصبيّاً، أو مسيطراً ، أو جذاباً، أو ذكيّاً، أو مهتمّاً، أو متفهّماً لما يقوله الآخر ...إلخ. تظهر هذه الانطباعات من غير قصد من غير أن يعي الشخص القرائن السلوكية التي يظهرها. لقد شرحت في الفصل السادس لماذا أرى أنّ الأخطاء أقلّ عرضة للحدوث إذا فُسِّرت الدّلائل على وجه صحيح، فإذا كان أحدهم مدركاً لمصدر انطباعات الآخر، وإذا عرف المتلقّي القواعد التي يتبعها الآخر في سلوكاته، يصبح احتمال الحكم الصائب أكبر. إنّ أحكام أحدهم أكثر إثارة للتحدي، من قبل زملائه، ومن قبل الشخص الذي يحكم عليه، ومن خلال التعلم بالتجربة ومعرفة أيّ الأحكام تكون صحيحة وأيّها خطأ. إنّ معظم تدريبات الشرطة لا تركّز على قرائن السلوك على الخداع. وافترض أنّ المحقق لا يعرف عادة الأسس الصريحة لحدسه أنّ هذا المشتبه به مذنب وذاك بريء. وفي حين تؤكد التدريبات الحالية لبعض فاحصي الجهاز على أهمية القرائن غير اللفظية على الخداع، فإنّ معلوماتهم عن نوع القرائن السلوكية على الخداع غير دقيقة، ولا أساس لها، وأنّ الاهتمام بما إذا كانت هذه القرائن عديمة الفائدة أو مضلّلة قليل جدّاً.

ليس من الممكن الاستغناء عن استخدام القرائن السلوكية للخداع في الاستجوابات الجنائية، ولا أعتقد أنّ ذلك يخدم العدالة لو كان الأمر كذلك. وفي الخدع الخطيرة جدّاً، عندما قد يُسجن الشخص الصادق ظلماً، ويُعدم على جريمة لم يقترفها، أو احتمال إفلات القاتل الكاذب من الإدانة، لا بدّ من بذل المحاولات القانونية جميعها للوصول إلى الحقيقة.

بدلاً من ذلك، فإنّ حجتي هي أن تكون عملية تفسير مثل هذه القرائن أكثر وضوحاً وأكثر حذراً. لقد أكدت احتمال ارتكاب الأخطاء، وكيف يمكن أن يقدِّر مكتشفُ الكذب عن طريق دراسة كلّ سؤال في قائمة التحقق من الكذب (الجدول 4 في الملحق) الفرصَ لاكتشاف الكذب أو معرفة الحقيقة، وأعتقد أنّ التدريب على كيفية اكتشاف قرائن الخداع، ومعرفة الأخطار والاحتياطات، والاشتراك في التحقق من الكذب قد تجعل المحققين أكثر دقة، وتحدُّ من أخطاء تكذيب الصّدق وتصديق الكذب. ولكن هذا يتطلب بحثاً ميدانيّاً يدرس المحققين في الشرطة والمشتبه بهم الجنائيين لمعرفة ما إنْ كنت محقّاً. لقد بدأ هذا العمل، ويبدو أنّ النتائج واعدة، ولكن– مع الأسف – لم يتسنّ لي إكماله[8].

عندما يلتقي زعماء دول على خلاف بسبب أزمة دوليّة، يمكن أن يكون الخداع قاتلاً أكثر مما هو عليه في عمل الشرطة، ويكون كشفه أكثر خطورة وصعوبة، إضافة إلى أنّ أخطار الحكم غير الصحيح (تصديق الكاذب وتكذيب الصادق) أكبر من معظم الخدع الجنائية.

كتب عدد قليل من علماء السياسة عن أهمية الكذب والكشف عن الخداع في الاجتماعات الخاصة بين رؤساء الدولة أو كبار المسؤولين. يقول الكسندر جروث: «إنّ مهمة تخمين التوجيهات والنّيّات والصدق لدى الجانب الآخر حاسمة في أيّ تقدير سياسيّ[9]». قد لا يرغب الزعيم الوطني في اكتساب سمعة كاذب صفيق الوجه، ولكن لهذه السمعة ما يسوّغها في العلاقات الدولية. يقول روبرت جيرفيز: ....عندما يمكن للخداع الناجح تغيير علاقات القوة الأساسية في النظام الدولي؛ لأنّ استخدام الكذب قد يساعد الدولة على تبوّء مركز عالميّ مسيطر. حينها، لن يكون الكذب عاراً[10].

يبدو أن هنري كيسنجر يختلف مع هذا، مؤكداً أنّ الكذب والخديعة ممارسات غير حكيمة، قائلاً: «الرومانسيون فقط هم من يعتقدون أنهم يمكن أن يسودوا في المفاوضات

بالخديعــة... إنّ الخديعة ليست سلوكاً حكيماً بل طريقة كارثيــة لممثّل الدولة(دبلوماسي)، ولمّا كان على الشخص أن يتعامل مع شخص آخر بعينه مرة بعد أخرى، فإنه يستطيع الإفلات مــن العقاب مرة على أفضــل تقدير، ولكن لن يدوم هذا طويلاً؛ فثمــن الإفلات سيكون قطع العلاقــة القائمة[11]» .ربما يلجــأ ممثّل الدّولة(الدبلوماسي) إلى الخــداع بعد انتهاء مسيرته الوظيفيــة، وذلك ليس في الوسائل الممكنة جميعها بالنسبة إلى كيسنجر. في الخلاصة، إنّ تفسير كيسنجر لجهــود الدبلوماسية الخاصة حافل بالأمثلة التي تبين مشاركته فيما أسميه أكاذيــب الإخفاء ونصف الإخفــاء، إضافة إلى كثير من الحالات التي تساءل فيها ما إذا كان نظراؤه مشتركين في أكاذيب الإخفاء أو التزييف.

يصــوغ ستاليــن الأمر بصدق، قائلاً: «يجــب ألّا تكون كلمات ممثــل الدّولة مرتبطة مع أفعالــه. وبخلاف ذلك، أيّ نوع مــن الدبلوماسية تلك؟.... فالكلمــات البرّاقة تخفي وراءها أفعالاً معيبة، والدبلوماسية الصادقة ليست أكثر من الماء الجاف أو خشب الحديد»[12] .من الواضح، أنّ هذا الرّأي متطرّف جدّاً؛ إذ يتحدث ممثلو الدّولة أحياناً بصدق، ولكن بالتأكيد لا يكون ذلك دائماً، وعند صدقهم النادر يضرون كثيراً بمصالح أمتهم. عندما لا يكون هناك شــكّ فــي أنّ سياسة واحدة فقط يمكنها تعزيز مصالح الأمــة، تعرف الأمم ما عليها توقعه، ولا يكون الكذب موضوعاً، وربما لن يُجرّب؛ لأنه سيكون بائن التّزوير. وفي كثير من الأحيان، تكــون الأمــور غامضة؛ تصدق إحدى الأمم أنّ الأخرى تعتقــد أنّها من الممكن أن تكسب من قيامها بالأعمال السرية بالغش أو الادعاءات المضللة حتى لو اكتشفت أفعالها غير الشريفة لاحقــاً. عندهــا، يكون تقييم المصالــح الوطنية غير كافٍ وكذلك كلمــات الأمة غير الواثقة أو أفعالهــا العامــة. وتدّعي الأمة المشتبــه فيها بالخداع بالصدق كما تفعــل الأمة الصادقة بالفعــل. يقــول جيرفيز: سواء كان الروس يغشّون [فيما يتعلق بخطــر التجارب النووية] أم لا فإنهم سوف يحاولون خلق انطباع الصدق، وسوف يجيب الرجل الصادق والكاذب بالإيجاب إذا سُئلوا عما إذا كانوا يقولون الصدق[13]».

إذن، لا عجــب أن تسعى الحكومات إلــى طرق لكشف الكذب لدى خصومها. قد يحدث الخــداع الدوليّ في عدد من المجالات المختلفــة لخدمة أهداف وطنية مختلفة تماماً، وأحد المجــالات التــي سبق ذكرها هي عند التقــاء الزعماء أو المسؤولين رفيعــي المستوى الذين

يمثلون الزعيم في محاولة لحلّ أزمة دولية. حينها قد يرغب كلّ جانب في خداع الآخر، وتقديم مواقف لا يدرك منها أنها نهائية، وأن يكون لدى الآخر نيّات صادقة غير مدركة. في بعض الأوقات، سوف يرغب كلّ جانب في التأكد من أنّ العدو يدرك هذه التهديدات بدقة، وأنها ليست خدعاً، وأنّها ستُنفَّذ على أرض الواقع.

إنّ المهارة في الكذب أو اكتشافه مهمان في إخفاء أو كشف الهجوم المفاجئ، لقد وصف العالِم السياسيّ مايكل هاندل مثالاً حديثاً: بحلول الثاني من يونيو (1967)، أصبح واضحاً لدى الحكومة الإسرائيلية أنّ الحرب لا يمكن تجنّبها، والمشكلة تكمن في كيفية شنّ هجوم مفاجئ ناجح تماماً، في حين أنّ كلاً من الجانبين مستعدّ تماماً. وبصفتها جزءاً من خطة خداع لإخفاء النّيّات الإسرائيلية في شنّ الحرب، أبلغ دايان وزير الدفاع الإسرائيليّ صحفيّاً بريطانيّاً بتاريخ الثاني من حزيران أنّ الوقت مبكر جدّاً ومتأخر جدّاً لإسرائيل للبدء بالحرب، وكرّر هذه العبارة في مؤتمر صحفي في الثالث من يونيو[14]». لم تكن هذه الوسيلة الوحيدة التي استخدمتها إسرائيل لخداع أعدائها، لكنّ مهارة دايان في الكذب مرتبطة في نجاحهم في تحقيق المفاجأة التامة بالهجوم في الخامس من حزيران.

ومع ذلك، فالاستخدام الآخر للخداع هو بتضليل الخصم بشأن مقدرة المخادع العسكرية. يقدم تحليل بارتون والي لإعادة تسليح ألمانيا سرّيّاً من 1939 – 1919 أمثلة كثيرة على مدى مهارة الألمان في القيام بذلك.

....(1) في شهر أغسطس من عام 1938، عندما كانت الأزمة التشيكوسلوفاكية تتصاعد تحت ضغط هتلر (مارشال الجو الألماني)، دعا هيرمان غورينغ القائد العام للقوات الجوية الفرنسية إلى جولة تفقدية للقوات الجوية الألمانية.

وافق الجنرال جوزيف فلمان رئيس هيئة الأركان الجوية العامة على الفور...، واصطحب الجنرال الألماني أرنست أوديت الجنرال فيلمان بطائرته الخاصة. عندما حلّقت طائرة الجنرال أوديت بسرعة قريبة من التوقف، وهي اللحظة التي خطط لها بعناية، تكون الفائدة من وصول الزوار قد تحققت؛ فجأة، ظهرت هينكل هي – 100 بسرعة خاطفة وبكامل قوتها. حطت الطائرتان وأخذ الألمان زوّارهم الفرنسيين المشدوهين لإكمال التفتيش.

obeikandi.com

سأل ميلخ باستهتار عفويّ: قل لي يا أوديت متى سنصل إلى الإنتاج الشامل؟

أجــاب أوديت على الفور: آه، إنّ خطّ الانتــاج الثاني جاهز، وسوف يكون الثالث جاهزاً في غضون أسبوعين.

بدا فيلمان مكتئباً، وقال لميلخ منفعلاً: لقد انهزمنا.

عــاد الوفد الفرنسي الجوي المفاوض إلى باريس بانطبــاع انهزاميّ في أنّ **النازيين** لا يمكن التغلب عليهم[15].

كانــت طائرة هي – 100 التي ضُخِّمت سرعتها بهذه الخدعة واحدة من ثلاث طائرات صُنِّعــت، وأصبــح هذا النوع من الخــداع والتظاهر بالقوة الجوية التــي لا يمكن التغلب عليها عنصراً رئيساً فــي مفاوضات هتلر الدبلوماسية، والتي أدت إلى سلسلة انتصاراته الباهرة، وبنيت سياسة الاسترضاء جزئيّاً على الخوف من السلاح الجوي الألماني[16].

فــي حيــن، لا تتطلب الخدع الدوليــة تواصلاً شخصيّــاً مباشراً بين الــكاذب وضحيته (يمكن تحقيق ذلك بالتمويه والبلاغات المزيفة وغيرها)، توضح هذه الأمثلة أنّ هناك عدداً من المناسبات التي يلتقي بها الكاذب وجهاً لوجه مع خصمه. ولا يمكن استخدام المِكشاف أو أيّ جهــاز آخــر يتطلــب من الخصم التعــاون في قيــاس صدقه؛ لذا، تحــول الاهتمام في السنــوات العشر الماضية إلى إمكان استخدام الدراسات العلمية للقرائن السلوكية للخداع. لقــد أوضحت في المقدمة أننــي عندما التقيت مع مسؤولي حكومتنا ومسؤولين من حكومات أخــرى، لم يبــد أن تحذيراتي عن الأخطاء كانت مقنعة لأيّ منهــم. وعليه، فإنّ أحد دوافعي فــي تدوين هذا الكتــاب هو عرض قضية الحذر مرة أخرى بمزيد مــن الرعاية والاستكمال، ولجعلهــا متوافرة لأكثــر من المسؤولين القليليــن الذين تشاورت معهم. وكمــا هو الحال مع الخــدع الجنائيــة، فإنّ الخيارات ليست سهلة. قد تساعــد القرائن السلوكية على الخداع في تحديــد ما إذا كان زعيم ما أو متحدث وطني آخــر يكذب، والمشكلة هي معرفة متى سيكون ذلــك ممكنــا ومتى لا يكــون، ومتى يمكن تضليــل القــادة بتقييماتهم الخاصــة، أو خبراتهم لقرائن الخداع.

دعونا نعود إلى المثال الذي استخدمته في الصفحة الأولى من هذا الكتاب، عندما التقى تشامبرلين وهتلر لأول مرة في بيرشتسغادن في 15 أيلول 1938 قبل 18 يوماً من مؤتمر ميونيخ،* سعى هتلر لإقناع تشامبرلين أنه لم يخطط للحرب ضد أوروبا، وأنه يتمنى حلّ مشكلة الألمان السوديت في تشيكوسلوفاكيا، ولو وافقت بريطانيا على خطته التي تنص على عقد استفتاء في مناطق تشيكوسلوفاكيا التي تقطنها غالبية سكان من السوديت الألمان، ولو صوت الناس لها، لضُمّت هذه المناطق لألمانيا. عندئذٍ، لن يسعى هتلر إلى الحرب، ولكنّه عقد النّيّة على الحرب سرّاً؛ لقد حرّك جيشه لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا في الأول من تشرين الأول، ولم تتوقف خططه للغزو هناك. تذكر العبارة التي استشهدت بها سابقاً من رسالة تشامبرلين إلى أخته بعد لقائه الأول مع هتلر: «هتلر رجل؛ إذا وعد أوفى، ويمكن الاعتماد عليه[17]»، وفي ردّه على انتقاد حزب العمال المعارض، وصف تشامبرلين هتلر «أنه مخلوق استثنائي للغاية، ورجل سيكون أفضل من كلمته[18]».

التقى تشامبرلين وهتلر للمرة الثانية بعد أسبوع، في جودزبيرغ. فقدم هتلر مطالب جديدة، وهي أنّ على القوات الألمانية احتلال المناطق التي يقطنها الألمان السوديت حالاً، وقد ينعقد الاستفتاء لاحقاً، وليس قبل الاحتلال الألماني العسكري، وكانت المناطق التي ادعى أنّ الألمان السوديت يقطنونها أكبر مما ذكر سابقاً. بعد ذلك، قال تشامبرلين لإقناع وزارته بقبول هذه المطالب: «من أجل فهم أفعال الأشخاص كان من الضروري تقدير دوافعهم ومعرفة كيف تعمل عقولهم... كان لدى الهرّ هتلر عقلاً ضيقاً، وكان متحيزاً بعنف لبعض الموضوعات، ولكنه لا يخدع شخصاً يحترمه ويتفاوض معه، ولقد كان واثقاً أنّ الهرّ هتلر شعر ببعض الاحترام له. فعندما يعلن الهرّ هتلر عن رغبته في القيام بعمل ما فسوف يفعله[19]». بعد هذا القول لتشامبرلين، يسأل المؤرخ تيلفورد تيلور: هل خدع هتلر فعلاً تشامبرلين تماماً، أم كان تشامبرلين يخدع زملاءه لكي يكسب القبول لمطالب هتلر؟[20]»، كما افترض تيلور، دعونا نفترض أنّ تشامبرلين صدق هتلر في لقائهما الأول في بلدة بيرشتسغادن.*

---

* بينما تقوم تفسيرات جميع الأطراف المشتركة في ذلك الوقت بهذا الحكم، إلا أن هناك استثناء واحد، يفيد تقرير جوزيف كينيدي إلى واشنطن بشأن لقائه مع تشامبرلين بأن جاء تشامبرلين حاملاً عدم إعجاب شديد (لهتلر) – فهو قاسٍ وطاغية ولديه نظره فاحصة... وسوف يكون بلا رحمة على الاطلاق في أهدافه وأساليبه» (تيلور، ميونخ، ص 752)

ربمـا جعلت هذه الأخطار المرتفعة هتلر يشعر بالخوف من الانكشاف، ولكنه لم يفعل. وكانت ضحيتة مستعدة لقبول الخدعة، وعرف أنّ تشامبرلين إنْ اكتشف أنه يكذب، فسيدرك أنّ سياستـه كلّها في استرضاء هتلر قـد فشلت. في ذلك الوقت، لم تكن سياسة الاسترضاء سياسـة وضيعة، بل محطّ إعجاب، ولكنّ النظرة إلى هذه السياسة تغيرت بعد بضعة أسابيع عندمـا أوضح هجوم هتلر المفاجـئ أن تشامبرلين خُدِع؛ وقُضي الأمـر. كان هتلر مصمِّماً علـى احتـلال أوروبا بالقوة. ولو أمكن الوثوق بهتلر، ولو أنه التـزم باتفاقياته، فربما استمتع تشامبرليـن بثنـاء العالم عليه؛ لأنه أنقذ أوروبا من نشوب الحـرب. أنا مدين لكتاب تيلفورد (ميونخ) (انظر الملاحظات) للمعلومات عن تشامبرلين وهتلر، علاوة على أنني ممتن للسيد تيلور لتحققه من دقة تفسيري للمادة واستخدامها.

أراد تشامبرليـن تصديـق هتلر، وعلم هتلر بذلك. والعامل الآخـر الذي قلّل من خوفه من الانكشاف هو معرفة هتلر تماماً متى يحتاج إلى الكذب، وما الذي عليه قوله؛ لذا، يمكنه الإعداد والتدرب على ما سيقوله. زِدْ على ذلك أنّه لم يكن لدى هتلر سبب للشعور بالذنب أو الخـزي من خدعته؛ فقد كان يرى أنّ خداع البريطانييـن عمل شريف، وهذا ما عليه القيام بـه بصفته زعيماً، وأنّ هـذا ينسجم مع تصوره للتاريخ. فليس الزعيم المحتقر مثل هتلر هو الـذي مـن شأنه الشعور بالخزي أو الذنب بشأن الكـذب على خصومه. ومن وجهة نظر كثير من المحللين السياسيين، أنه يمكن توقع الأكاذيب في العلاقات الدولية، ويكون مشكوكاً فيها عندما لا تخدم المصلحة الوطنية فقط، والعاطفة الوحيدة التي ربما يكون هتلر قد شعر بها هـي لذة الخداع؛ فقد عُلِمَ أنّ هتلـر يستمتع بقدرته على تضليل الإنجليز، وربما يكون حضور أشخاص ألمان آخرين يراقبون نجاح خدعته قد ضخّم هذه اللذّة لدى هتلر الذي كان كاذباً ماهراً، وقد منع حصول أيّ تسرب لهذه المشاعر.

عندما لا يتشارك كلّ من الكاذب وضحيته الثقافة ذاتها، ولا اللغة نفسها، يصبح كشف الخداع لعدد من الأسباب أكثر صعوبة.* حتى لو اقترف هتلر الأخطاء، ولو لم يكن تشامبرلين

---

* لاحظ جروث هذه المشكلة على الرغم من عدم إمكانيته تفسير كيف تحدث أو لم تحدث: «.... من المحتمل أن تكون الانطباعات الشخصية (للزعماء) مضللة للمعظم جزئياً لازدياد الفجوة السياسية والأيديولوجية والاجتماعية والثقافية.» (جروث، «النواحي الاستخباراتية» صفحة 848؛ انظر الملاحظات).

ضحيــة مستعــدة، فســوف يجد صعوبة فــي معرفة هذه الأخطــاء، ويعود أحــد الأسباب إلى أنّ محادثاتهمــا تمــت من خلال مترجمين، وهــذا يقدم ميزتين للــكاذب مقارنة بالمحادثة المباشــرة. فإذا ارتكــب أيّ أخطاء لفظيّة، كالزلات والوقفات الطويلــة، أو أخطاء الحديث، فإنّ المترجم يستطيع التغطية عليها.

أضف إلى هذا أنّ عملية الترجمة الفورية تسمح للمتحدث بالوقت بعد ترجمة كلّ عبارة للتفكيــر بصياغة العبــارة اللاحقة من الكذبة صياغة متقنة. وحتى لو كان المتلقِّي يفهم لغة الــكاذب ولم تكن لغته الأصلية، فمن المرجح أن تغيــب عنه الدقائق في التوصيل والصياغة التي يمكن أن تكون قرائن خداع.

قــد تخفي فــروق الخلفية الوطنية والثقافية تفسير قرائــن الصوت، والوجه، والجسم، علــى الخداع ولكن بطرق أكثر تعقيــداً. إنّ لكلّ ثقافة أنماطها الخاصة المحددة التي تحكم، إلــى حدّ ما، ارتفــاع الحديث، ومعدله، ولهجتــه، وكذلك استخدام اليديــن والوجه لتوضيح الكلام. وكما وصفت في الفصل الخامس، فإنّ علامات العاطفة في الوجه والصوت محكومة أيضــاً بقواعــد العرض التــي تملي إدارة التعبيــر العاطفي، وهذه أيضاً تتنــوع بتنوع الثقافة. فــإذا كان مكتشف الكــذب ليس على علم بهذه الاختلافات، ولــم يأخذها بالحسبان بصورة واضحــة، فإنه سيكون عرضة لإساءة تفسير هــذه السلوكات جميعها، وارتكاب خطأ؛ تكذيب الصادق وتصديق الكاذب.

فــي هذه المرحلة، قــد يسأل مسؤول فــي المخابرات: كم من تحليلاتــي للقاءات هتلر وتشامبرلين كان من الممكن إجراؤها في ذلك الوقت؟ وإذا كان ذلك ممكناً، وبعد سنوات عدّة عندما تظهر الحقائق التي لم تكن متوافرة في ذلك الحين، فلن يكون التحقق من الكذب ذا فائدة عملية للممثلين الرئيسين، أو مستشاريهم عندما يريدون مساعدة من هذا القبيل. إنّ قراءتي للتفسيرات في ذلك الوقت تشير إلى أنّ كثيراً من الأحكام التي أدليت بها واضحة في الأقــل لدى بعضهم. في عام 1938م، وكانت العواقب لتشامبرلين مرتفعة في رغبته تصديق هتلــر وآخريــن، وكان ينبغي أن يكون حذراً فــي الوثوق بأحكامه لتصديــق هتلر. وقد ورد أنّ تشامبرلين شعر بالتفوق على زملائه السياسيين وكان يتعالى عليهم[21]، وربما لم يكن ليتقبل هذه التحذيرات. لقد كان استعداد هتلر للكذب على إنجلترا راسخاً في لقاء بيرشتسغادن.

ولـم يكـن تشامبرليـن ملزماً بقـراءة أو تصديق مـا ذكره هتلـر في سيرتـه الذّاتية؛ (كفاحي). لقد كان هناك كثير من الأمثلة، مثل انتهاكاته للاتفاقية الأنجلو ألمانية البحرية، أو أكاذيبـه بشـأن نيّاته تجاه النمسا، وقبل أن يلتقي تشامبرلين بهتلر، أعرب عن شكوكه في أنّ هتلـر يكذب بشأن تشيكوسلوفاكيا، ويخفي خطة لاحتـلال أوروبا[22]» وقد عُرِف عن هتلر أيضاً أنه كذوب. ليس فقط من خلال التّحايل السّياسيّ والعسكريّ، ولكن أيضاً عند مواجهته لضحيتـه، وكان يستطيع تحويل نفسـه إلى شخص غاضب أو ساحر، ويستطيع ببراعة كبيرة التأثير في الآخرين أو تهديدهم، وكبت أو تزييف المشاعر والخطط.

يستطيـع خبراء العلـوم السياسية والتاريخ الذين تخصصوا فـي العلاقات الإنجليزية الألمانيـة فـي عام 1938 الحكـم إذا كنت مصيباً فـي أنّ المعروف كان كافيـاً للإجابة عن الأسئلـة في قائمة التحقـق من الأكاذيب (انظـر الملحق). لا أعتقد أنّ بإمـكان التحقق من الكذب في ذلك الوقت التنبوء بكذب هتلر على وجه اليقين، ولكن ربما قد يتنبأ باحتمال عدم تمكـن تشامبرلين من الإمساك بهتلر إذا كذب. هنـاك دروس أخرى عن الكذب يمكن تعلّمها مـن لقاء هتلر وتشامبرلين، ولكـن بحثها يكون أفضل بعد دراسة مثال آخر، عندما يمكن أن تُكتشف كذبة الزعيم من القرائن السلوكية على الخداع.

في أثناء أزمة الصواريخ الكوبية، وقبل يومين من لقاء الرئيس جون ف. كينيدي ووزير الخارجيـة السوفيتي أندريه غروميكو،* يوم الثلاثاء الموافق الرّابع عشر من تشرين أول من عـام 1962، أُبلغ الرئيس كينيدي من قبل ماك جـورج بوندي أنّ استطلاع طائرة U–2 فوق كوبـا حملت أدلة دامغة علـى أنّ الاتحاد السوفييتي كان يضع صواريخ في كوبا، وكانت هناك شائعـات متكررة حول ذلـك الموضوع. وباقتراب موعد الانتخابات فـي تشرين الثاني، «أكد خروتشوف (على حدّ تعبير العالم السياسي جراهام أليسون) للرئيس عبر القنوات المباشرة والشخصيـة أنـه يتفهّم مشكلة كينيـدي الداخلية، ولن يقوم بأيّ فعـل لتعقيدها، وخصوصاً إعطـاء خروشوف للرئيس تأكيدات رسميـة أنّ الاتحاد السوفييتي لن يضع صواريخ هجومية في كوبا[23]». اشتاط كينيدي غضباً (هذا ما ذكره آرثر شليزنجر)[24] على الرغم من غضبه

* أنا ممتن لفراهام أليسون لتحققه من دقة تفسيري للقاء بين كينيدي وغروميكو، كما تحقق أيضاً من تفسيري، وقد كان عضواً في إدارة كينيدي في ذلك الوقت، وكان على اتصال ودي مع جميع الأعضاء الأساسيين المشتركين بالحدث.

مـن جهود خروشوف لخداعه، فقد تقبّل الخبر بهـدوء وبتعبير ينمّ عن المفاجأة (تفسيرات ثيـودور سورنسون)[25]. وكما قـال روبرت كينيدي: «... عندما فسّـر ممثل وكالة المخابرات المركزيـة الصور التـي التقطتها طائرة U–2 في ذلـك الصباح... أدركنـا أنّ الوعود كلّها كاذبـة، كذبة كبيـرة منسوجة من أكاذيب عـدّة[26]». بدأت لقاءات كبـار مستشاري الرئيس فـي ذلك اليوم للتفكير فـي الإجراءات التي على الحكومة اتخاذهـا، وقرر الرئيس أنه يجب ألّا يكـون هنـاك كشف لمعرفتنا عن وجود الصواريخ في كوبا إلـى أن يُتّفق على إجراء معين والاستعداد له... كانت السّرّيّة ضرورية، وأوضح الرئيس أنه قد قرّر، ولمرة واحدة في تاريخ واشنطـن، ضرورة عـدم الإفصاح بتاتاً (روجـر هيلسمان الذي كان يعمل آنـذاك في وزارة الخارجية)[27].

بعد ذلك بيومين؛ أي يوم الخميس الموافق السّادس والعشرين من تشرين أول، وعندما كان مستشارو الرئيس يناقشون الإجراء الذي عليهم اتخاذه، رأى الرئيس كينيدي غروميكو. الـذي في الولايات المتحدة لأكثر من أسبوع، ولم يعـرف أيّ مسؤول أمريكي سبب بقائه...، وقـد طلب الحضور إلى البيت الأبيض، وجاء الطلب في الوقت نفسه الذي التقطت به طائرة U–2 الصـور. فهـل رغب بالحديث مع كينيدي لمعرفة ردّة فعلـه؟ أم هل سيقوم باستخدام هـذه المحادثة لإخبار واشنطـن أنّ خروشوف كان في هذه اللحظـة سيعلن عن الصواريخ، ويكشف عن انقلابه قبل أن تتمكن الولايات المتحدة من فعل شيء ما؟[28]».

كان كينيدي يتطلع إلى موعد اللقاء، ولكنه تمكّن من التبسم، ورحّب بغروميكو وأناتولي دوبرينيـن (السفير الروسـي) في مكتبه (بحسب سورنسـون)[29]. ولأنّهم غير مستعدين بعد لاتخـاذ إجـراء مـا، اعتقد كينيـدي أنّ من المهـم إخفاء مـا اكتشفه بشـأن الصواريخ عن غروميكو؛ لتجنب إعطاء الروس ميزة أخرى.*

بـدأ الاجتماع الساعـة الخامسة مساءً، واستمـر حتى السابعة والربـع. شاهد واستمع كلّ مـن وزير الخارجية دين رسك، ولويليـن تومسون (السفير السابق للولايات المتحدة لدى الاتحاد السوفييتي)، ومارتن هيلدبراند من جانب الولايات المتحدة، في حين، كان في الجهة

* تختلف عدة تفسيرات حول هذه النقطة، فيما يفيد سورنسون أن كينيدي لم تكن لديه شكوك حيال الحاجة لخداع غروميكو، تفيد إيلي هابيل (أزمة الصواريخ، صفحة 63، أنظر الملاحظات) أن ذلك تبعه سؤال كينيدي لراسك وتومسون ما إذا كان قد ارتكب خطأً في عدم إخبار غروميكو الحقيقة.

الأخـرى كلّ مـن دوبرينين وفلاديمير سيمينـور (نائب وزير الشـؤون الخارجية السوفييتي) ومسـؤول سوفياتـي ثالث. كما حضر المترجمـون من الجانبين. جلس كينيـدي على كرسيه المتحـرِّك مقابـل مدفأة الحائط، وإلـى يمينه غروميكو على أريكة بينـج. دخل المصورون، والتقطـوا الصور للأجيال القادمة (انظر الصورة) ثم غادروا. مال الروس إلى الخلف، وقد أسندوا ظهورهم إلى وسائد مقلمة، وبدؤوا الحديث...[30]».

بعد التحدث بإسهاب عن برلين، تحدث غروميكو أخيراً عن كوبا. وحسَب تفسير روبرت كينيـدي: قال غروميكو؛ إنه يرغب في مناشدة الولايات المتحدة والرئيس كينيدي نيابة عن رئيـس مجلـس الوزراء خروتشـوف والاتحاد السوفييتـي للتخفيف من حـدّة التوتر الموجود فيمـا يتعلق بكوبـا. استمع الرئيس كينيدي بدهشة، ولكن أيضـاً بإعجاب لجرأة غروميكو... (تحـدث الرئيـس)... بحزم، ولكن بكثير مـن ضبط النفس نظراً للاستفـزاز الحاصل[31]. وتعلـق الصحفية إيلي هابيل: منح الرئيس غروميكو فرصة واضحة لوضع الأمور في نصابها بالإشارة للتأكيدات المتكررة من خروتشوف.

من اليسار إلى اليمين: أناتولي دوبرينين، وأندريه غروميكو وجون ف. كينيدي.

ودوبرينيـن أنّ الصواريخ الموجودة في كوبا لم تكن غيـر أسلحة مضادة للطائرات... كـرّر غروميكو التأكيدات القديمة، التـي عرف الرئيس أنّها الآن أكاذيب، ولم يواجه كينيدي بالحقائـق[32]»، والتـزم كينيدي الصّمت ...ولـم يبدِ أيَّ علامة على توتّـر أو غضب» (حسَب مـا ذكره سورنسـون)[33]. كان غروميكو متهلّل الوجه (حسَب هابيـل)[34] عندما غادر البيت الأبيض.

سألـه الصحفيون عمّا دار في الاجتماع، فابتسم لهم، وكان واضحاً أنه في مزاج جيد، وقـال: «إنّ المحادثـات كانت مفيدة تمامـاً[35]»، ويذكر روبرت كينيدي: لقـد جئت بعد مدة وجيـزة مـن مغادرة غروميكو البيت الأبيض، ويمكن القـول: إنّ رئيس الولايات المتحدة كان مستـاءً مع المتحـدث باسم الاتحاد السوفيتـي[36]». في حين، قال كينيـدي: «لقد كنت أتوق لمواجهته بالأدلة التي لدينا. ووفقاً لأستاذ العلوم السياسية ديفيد ديتزر[37]. في مكتبه أمام روبرت لوفيت وماكباندي، الذي حضر وقتها، علّق كينيدي: قال غروميكو. . . في هذه القاعة قبـل مـا لا يزيد على عشر دقائق أكاذيب سافرة أكثر ممـا سمعت في وقت قصير جدّاً، وفي جميـع مـا نفاه. . . في الـدرج الأوسط في مكتبي، كانـت الصور التي التقطـت على مستوى منخفض، وكنت توّاقاً جدّاً لأبينها له[38]».

دعونا ندرس السفير دوبرينين أولاً. ربما كان الوحيد في الاجتماع الذي لم يكن يكذب. اعتقد روبرت كينيدي أنّ السوفييت كذبوا على دوبرينين لعدم ثقتهم بمهارته في الكذب، وأنه كان صادقـاً، وكان يعـرف ذلك. أي إنكار وجود أيّ صواريخ فـي كوبا في لقاءاته السابقة مع روبرت كينيدي.* وليس من غير المعتاد أن يُضلَّل السفير من قبل حكومته لمثل هذا الغرض. فعل جون كينيدي الشيء نفسه مع ستيفنسون أدلاي، فلم يُبلغه عن غزو خليج الخنازير، وكما

* يستمر النقاش عن دوبرينين «من هذا الاجتماع يعود أحد الأسئلة الدائمة عن دوبرينين. وهل عرف عن الصواريخ عندما، في الواقع، انضم إلى وزير خارجيته في محاولة خداع الرئيس؟ «لا بد وأنه قد علم»، يقول جورج و. بول، وزير الخارجية عندها: «عليه الكذب لمصلحة بلاده»، «لقد صدق الرئيس وشقيقه دوبرينين إلى حد ما»، كما يقول قاضي المحكمة العليا السابق آرثر ج. غولدبرغ: «لا يمكن التصور بأنه لا يعرف»، ولكن البعض الآخر أقل يقيناً. يقول مستشار كينيدي للأمن القومي، ماك جورج بندي: إنه خمن أن دوبرينين لا يعرف، ويتفق معه كثير من المتخصصين الأمريكيين، موضحين: إنه في ظل النظام السوفياتي كانت المعلومات عن المسائل العسكرية محفوظة بشكل وثيق وربما لم يكن دوبرينين مدركاً تماماً لطبيعة الأسلحة السوفياتية في كوبا» (Madeline G. Kalb, «The Dobrynin Factor,» New York Times Magazine, May 13, 1984, p. 63).

obeikandi.com

يشيـر أليسون: بالمثل، لم يبلـغ السفير الياباني عن بيرل هاربر، ولـم يبلغ السفير الألماني فـي موسكو عـن بربروسا (الخطة الألمانية لغـزو روسيا)[39]». وفي المـدة بين يونيو 1962، عندمـا يفترض أن يكون السوفييت قد قـرروا وضع الصواريخ في كوبـا، وهذا الاجتماع في منتصف أكتوبر، استخدم السوفييـت دوبرينين وجورجي بولشاكوف المسؤول الإعلامي في السفـارة السوفييتية؛ ليؤكدا مراراً لأعضاء إدارة كينيـدي (روبرت كينيدي، وبولز تشيستر، وسورنسـون) أنـه لا يجري وضع أيّ صواريخ هجومية في كوبا. لم يكن بولشاكوف ودوبرينين فـي حاجة إلى معرفـة الحقيقة، وربما في الواقع لم يعرفا، ولم يلتق خروشوف ولا غروميكو، ولا أيّ شخـص آخر يعرف الحقيقة مباشرة، مع خصومهم حتى الرّابع عشر من أكتوبر؛ أي قبل يومين من اجتماع غروميكو وكينيدي. التقى خروشوف في موسكو السفير الأميركي فوي كوهلـر، ونفى وجود أيّ صواريخ في كوبا، وعندها فقط، خاطر السوفييت لأول مرة باحتمال اكتشاف أكاذيبهم إذا ارتكب خروتشوف أو بعد يومين غروميكو خطأ ما.

فـي الاجتماع الـذي عُقد في البيت الأبيض كذبتان؛ الأولى قام بهـا كينيدي والأخرى غروميكـو. قد يجد بعض القراء أنّ من الغريب استعمال كلمة كـذب لوصف كينيدي، وليس غروميكو فقط؛ لأنّ معظم الأشخاص لا يرغبون في وصف من يعجبهم بهذا الوصف المزري. إنّهـم يـرون الكذب شرّ محض، ولكنـي لا أوافقهم على ذلك. تناسـب تصرفات كينيدي في ذلـك الاجتماع تعريفـي لكذب الإخفاء. أخفـى الرجلان؛ كينيدي وغروميكـو، ما يعرف كلّ منهما أنه واقع؛ أي أنّ هناك صواريخ في كوبا، ويشير التحليل سبب كون كينيدي أكثر عرضة من غروميكو لتقديم دليل على الخداع.

وطالمـا أعدّ كلّ منهما عباراته مسبقاً، وكان لدى كلّ منهما الفرصة للقيام بذلك، فلا ينبغي أن تكون هناك مشكلة في إخفاء أحدهما عن الآخر المعرفة التي يشتركان فيها.

قـد يكـون كلاهما شعر بالخوف من الانكشاف؛ فالعواقب وخيمـة، لا شكّ في أنّ القلق الذي شعر به كينيدي عندما كان في استقبال غروميكو كان الخوف من الانكشاف. قد تكون الأخطـار، ومن ثـمَّ الخوف من الانكشاف، أعظـم لدى كينيدي مقارنـة بغروميكو. لم تقرر الولايات المتحدة ما يجب القيام به بعد، ولا حتى المعلومات الاستخباراتية عن عدد الصواريخ فـي كوبا. ومرحلـة جاهزيتها، ومدى اكتمالها. رأى مستشـارو كينيدي ضرورة الحفاظ على

سرّيّــة ماالديهم من معلومات؛ إذا عرف خروتشوف ذلك قبل أن تتصرف الولايات المتحدة، فستعيــق معرفةُ خروتشوف، من خلال التهرب والتهديــدات، الإجراءاتِ الأمريكية، وتكسبه فرصــة إعــداد الخطط المناسبة للحــدث، وحسب ما ذكره ماك جورج بنــدي: قدّم الإخفاء فرقــاً، شعرت عندها ومنذ ذلك الحيــن، أنّ الروس تظاهروا بطريقة خرقاء في أنهم أخفوا مــا كان واضحاً للعالم أجمع أنهم قاموا به في الواقع[40]. أراد الرّوس أيضاً الوقت لاستكمال بنــاء قواعد الصواريــخ، ولكن هذا لا يهم كثيــراً إذا عرف الأمريكيون عــن الصواريخ. لقد عرف السوفييت أنّ طائرات U–2 الأمريكية سرعان ما ستكتشف الصواريخ إذا لم تكن قد فعلت ذلك فعلاً.

حتــى لو لم يكن هناك أيّ اختــلاف في الأخطار، فربما يكون كينيدي قد شعر بالخوف من الانكشاف أكثر من غروميكو؛ ربما لأنه شعر بثقة أقل بشأن قدرته على الكذب. وبالتأكيد كان أقــلّ ممارسة مــن غروميكو للكذب، وربمــا يشعر غروميكو بمزيد مــن الثقة إذ اشترك مــع خروشوف في الرأي عن شخصيــة كينيدي البسيطة، والذي عُقد فــي اجتماع القمة في فيينــا قبل عام. وبصرف النظر عــن إمكانية شعور كينيدي بالخوف مــن الانكشاف مقارنة بغروميكو، يقال: إنه أيضاً حمل عبء إخفاء العواطف الأخرى.

تفيــد التفسيرات التــي نقلتها أنه خلال لقائهمــا شعر كينيدي بالدهشــة، والإعجاب، والاستيــاء. وكان يمكــن أن يخونه تسرب أيّ من تلك العواطف؛ لأنّ هــذه المشاعر تشير في ذلك السياق إلى أنّ كينيدي عرف الخدعة السوفيتية. ومن ناحية أخرى، ربما يكون غروميكو قد شعر بلذة الخداع، وهذا يتّسق مع التقارير التي أفادت أنّه كان بشوشاً عند مغادرته.

لــن تكون فرص التسرب أو قرائن الخــداع كبيرة؛ فالرجلان ماهران، وكان لكلّ منهما سماتــه الشخصيــة التي جعلتــه قادراً على إخفــاء العواطف التي يشعر بهــا. ومع ذلك، كان عــبء كينيــدي أكثر من عــبء غروميكو؛ حيث أحسّ بمشاعــر أكثر، وكان أقــلّ مهارة، وأقلّ ثقــة، بمهــارة الخداع. يمكن أن تكون الاختلافات الثقافيــة واللغوية قد أخفت قرائن الخداع لديه، لكن كان ينبغي على السفير دوبرينين أن يكون في وضع يمكّنه من اكتشافها، ولدرايته الكبيــرة بالسلــوك الأمريكي بعد سنوات عــدّة مكثها في هذا البلد، ومعرفتــه التامة باللغة، وامتلاكــه ميزة كونه مراقبــاً لا مشاركاً مباشراً، فإنّه قادرٌ على فحص المشتبه به. وبالمثل،

كان السفير تومسون في وضع مماثل، أكثر قدرة على رصد أيّ قرائن سلوكية على الخداع في أداء غروميكو.

استطعت الاستفادة من كثير من تفسيرات هذا الاجتماع من الجانب الأمريكي، ولكن لا توجد لديّ معلومات من الجانب السوفييتي. وعليه، لا توجد طريقة لتخمين ما إذا شعر دوبرينين في الواقع بالحقيقة. بعد أربعة أيام، تشير التقارير إلى أنّ دوبرينين صعق وانتفض بوضوح عندما أطلعه وزير الدولة راسك على اكتشافهم الصواريخ، وبداية تفسير حصار البحرية الأميركية بصفته دليلاً على أنّ السوفييت لم يعرفوا حتى ذلك الحين ما لدى الأمريكان من معلومات في هذا الشأن[41]. فإذا كانت حكومته نفسها لم تعلمه بنصب الصواريخ، فسيكون هذا أول علمه بالموضوع.

حتى لو علم دوبرينين عن الصواريخ، وحتى لو عرف أنّ الولايات المتحدة قد اكتشفت وجودها في كوبا، ربما كان صعق وهزّه القرار الأميركي بالرّدّ عسكريّاً. يتفق معظم المحلّلين على أنّ السوفييت لم يتوقعوا ردّ كينيدي على نصب الصواريخ بعمل عسكريّ. الأمر لا يكمن في تحديد ما إذا كان إخفاء كينيدي قد انكشف، ولكن لتفسير وجود فرصة للانكشاف وإثبات ذلك، لم تكن ملاحظة قرائن الخداع مسألة سهلة. ذُكِر أنّ كينيدي شعر بعدم وجود أخطاء في أكاذيب غروميكو؛ لأنّ كينيدي عرف فعلاً الحقيقة، ولم تكن لديه حاجة إلى رصد قرائن الخداع، ويمكن أن يعجب كينيدي بامتلاكه هذه المعرفة بمهارة غروميكو.

في تحليل هاتين الخدعتين الدوليتين، قُلت: إنّ هتلر، وكينيدي، وغروميكو كاذبون بالفطرة، ومبتكرون، وأذكياء في التّلفيق، ومتحدثون على نحو سلس بطريقة مقنعة. وأعتقد أنّ أيّ سياسي يأتي إلى السلطة من خلال مهارته في النقاش والخطب العامة، وحذقه في التعامل مع الأسئلة التي توجّه في المؤتمرات الصحفية، بصورة تلفازية أو إذاعية لامعة، ولديه مواهب التخاطب، سيكون كاذباً بالفطرة. لم يصل غروميكو إلى السلطة بهذه الوسائل، ولكنّه على مدى زمن طويل جدّاً، وبحلول عام 1963، كان من ذوي الخبرة العالية في كلّ من الدبلوماسية وإدارة الصراعات الداخلية داخل الاتحاد السوفييتي، ويُعدّ هؤلاء الأشخاص مقنعين؛ وهذا جزء من متطلّبات منصبهم. وسواء اختاروا الكذب أم لا فإنّ

لديهم القدرات اللازمة للقيام بذلك أيضاً. بالطبع هناك طرائق أخرى للسلطة السياسية. والمهارات المرتبطة بالخدع بين الأشخاص ليست ضرورية لتنظيم انقلاب.

وليس من الضرورة أن يكون الزعيم الذي يصل إلى السلطة من خلال الخصائص التقليدية، بالتّوريث أو عن طريق التفوق بالذكاء على المنافسين المحليين من خلال محاولات خاصة – كاذباً بالفطرة، أو متحدثاً موهوباً.

ليست هناك حاجة إلى مهارة التخاطب؛ أي القدرة على إخفاء الكلمات وتزييفها عند نطقها بتعابير وإيماءات مناسبة، طالما لا يحتاج الكاذب إلى مواجهة هدفه أو التحدث معه. يمكن خداع المتلقّي عن طريق الكتابة، والوسطاء، والنشرات الصحفيّة، والأعمال العسكرية، وهكذا دواليك، ويفشل أيّ شكل من أشكال الكذب إذا كان الكاذب لا يملك المهارات الإستراتيجية، وغير قادر على التفكير خارج تحركاته، وتحركات ضحيته. أفترض أنّ القادة السياسيين جميعهم يجب أن يكونوا دهاةً، ومفكرين إستراتيجيين، ولكن بعضهم فقط يمتلك مهارات المحادثة التي تسمح لهم بالكذب وجهاً لوجه مع مكتشفي كذبهم في أنواع الخداع التي درسناها في هذا الكتاب.

ليس الجميع قادرين على الكذب، أو هم على استعداد للقيام بذلك. أفترض أنّ معظم القادة السياسيين على استعداد للكذب، وعلى ضحايا معينة، في ظروف محدّدة. حتى جيمي كارتر، الذي قاد حملة وعد فيها بعدم الكذب على الشعب الأمريكي، والذي من خلال الاعتراف بتخيلاته الشهوانية في مقابلة مع مجلة بلاي بوي، كذب في وقت لاحق؛ أخفى خططه لإنقاذ الرهائن المُحتجزين في إيران بالقوة. وقد حاول المحلّلون المتخصّصون في الخدع العسكرية تحديد القادة الأكثر استعداداً أو قدرة على الكذب، فكان أحد الاحتمالات أنهم يأتون من ثقافات تتغاضى عن الخداع[42]، ولكنّ الأدلة على وجود هذه الثقافات ضعيفة.*

* يقال: إنّ السوفيات أكثر سرية وصدقاً من الجنسيات الأخرى. ويذكر الخبير السوفياتي والتر هان أن السرية لديها تاريخ طويل وهي سمة روسية وليست سوفياتية («النوابض الرئيسة للسرية السوفياتية»، أوربس 47–719 :1964). ويقول رونالد هنغلي: إنّ الروس أسرع بالتطوع بالمعلومات عن جوانب حياتهم الخاصة، وأكثر عرضة للنطق بعبارات انفعالية في وجود الغرباء. وهذا لا يعني أنهم أكثر من ذلك أو أقل صدقاً من الجنسيات الأخرى. «يمكن أن يكونوا جافين، ومتقشفين، ومتحفظين وأكثر صمتاً أو من المناضلين الأنجلو ساكسون الأسطورة، بما أن مجال التنوع باللغة الروسية كبير كما هو الحال في علم نفس أي وطنية أخرى» (هنغلي، العقل الروسي، (نيويورك: سكريبنر، 1977)، ص 74).

وهنـاك فكرة أخـرى لم تُخْتَبَر بعد، تفيد أنّ الزعماء الأكثر استعداداً للكذب يأتون من البلـدان التي يضطلـع فيها الزعماء بدور قوي فـي القرارات العسكريـة[43]. (خاصة عندما يكون النظام متسلّطاً). لم تكن محاولة اكتشاف نمط السمات التي تميز القادة الذين يُعرف عنهـم أنهم كذبوا ناجحة، ولكن المعلومات حول هـذا العمل غير متوافرة لتقييم سبب عدم نجاحها[44].

بطريقـة أو بأخرى، لا توجد أدلة دامغة عمّـا إذا كان الزعماء السياسيون قادرين على أن يكونـوا كاذ بيـن في الواقع علـى نحو غير عادي، أكثر مهارة واستعـداداً للكذب من رجال الأعمـال. وإذا كانـوا قادرين فإنّ ذلك من شأنه أن يجعل الخدع الدولية أصعب، وهذا بدوره يشيـر أيضاً إلى أهمية قيام مكتشـف الكذب بتحديد الاستثناءات لرؤسـاء الدولة البارزين الذين لا يتمتعون بمهارات معتادة ليوصفوا بالكذب.

الآن، دعونا نناقش الجانب الآخر من الأمر؛ بعض رؤساء الدول أكثر قدرة من الآخرين علـى اكتشاف الكذب. وجـدت البحوث أنّ بعض الأفراد بارعـون براعة غير عادية بوصفهم مكتشفـي كذب، ولا علاقـة لتلك القدرة بالقدرة علـى الكذب[45]. ومع الأسـف، فقد دَرَسَتْ معظم هذه البحوث الطلبة الجامعيين. ولم تدرس أيّاً من القياديين في المنظمات المختلفة. فـإذا أشارت اختبـارات هؤلاء الأشخاص إلى أنّ بعضهم ماهر فـي اكتشاف الكذب، عندها يبـرز السؤال عمّا إذا كان بالإمكان تحديـد مكتشفي الكذب البارعين من على بُعد، من غير إعطائهـم اختباراً لمعرفة ذلـك، وإذا كان بالإمكان تحديد مكتشفـي الكذب البارعين غير الاعتياديـيـن مـن نوع المعلومات التي تتوافر بوجه عام عـن الشخصيات العامة، فقد يتمكن الزعيـم السياسي الذي يفكر بالكذب من معرفـة مدى قدرة خصمه بالكشف عن أيّ تسرّب أو قرائن خداع بدقّة.

مـا ذكره أستـاذ العلوم السياسية غـروث أقتعني؛ وهو أنّ رؤساء الـدول عادة ضعيفون، وغيـر قادرين علـى اكتشاف الكذب، وأقـل حذراً، من كبـار الموظفين المهنيين فـي الدّولة، بقدرتهـم على تقييم شخصيّـات خصومهـم ومصداقيّاتهم. «كثيراً ما يفتقـر رؤساء الدول، ووزراء الخارجيـة، إلـى المهارات الأساسيـة للتفاوض، والاتصـالات، أو معرفة معلومات عن خلفية خصومهم، التي من شأنها تمكينهم من إجراء تقييمات موفقة لهم[46]». يوافق جيرفيس

علـى ذلك مشيراً إلــى أنّ رؤساء الدول قـد يبالغون في قدراتهم بوصفهــم مكتشفي كذب إذا «اعتمد صعودهم إلى السلطة جزئيّاً على القدرة المتمكنة لديهم في الحكم على الآخرين[47]»، حتــى لو كان الزعيم محقّاً في الاعتقاد أنّه بارع بصورة غير عادية كمكتشف كذب، فقد يفشل في حساب مدى صعوبة الكشف عن الكذب عندما يكون المتهم من ثقافة ولغة أخرى.

لقــد أدليت بحكم عن تشامبرلين أنّه ضحية مستعــدة للخداع، ملتزمة بتجنب الحرب إذا كان ذلــك ممكنــاً، وأنه أراد – يائســاً – تصديق هتلر، والمبالغة فــي تقدير قدرته على قراءة شخصية هتلر. ومع ذلك، لم يكن تشامبرلين أحمقَ، ولا كان غير عالِم باحتمال كذب هتلر، ولكن كان لدى تشامبرلين دافعاً قويّاً للغاية لرغبته في تصديق هتلر؛ إنْ كَذَّبَهُ فستدقّ طبــول الحــرب على الأبــواب. إنّ مثل هذه الأخطاء فــي الأحكام التي يطلقهــا رؤساء الدول واعتقادهم غير الصحيح في قدراتهم الخاصة بوصفهم مكتشفي كذب، وفقاً لغروث، ليست غيــر اعتيادية. واستناداً إلــى شروطي، فإنّها مرجحة بصفة خاصــة كلّما ارتفعت الأخطار، وعند وقوع خطر فادح، قد يكون رئيس الدولة عرضة ليصبح ضحية مستعدة لخداع الخصم.

إليــك مثالاً آخر على الضحية المستعدة لقبول الكذب. اخترت هذه المرة للانتقام من الأمثلة الكثيرة التي قدمها غروث خصم تشامبرلين؛ ونستون تشرشل. أفاد تشرشل حقيقة.

تحــدّث ستالين في كثير من الأحيان عن (روسيا) على أنها (الاتحاد السوفييتي)، وأشار إلى الإلوهية[48]»، التي دعته يتساءل عما إذا كان ستالين يؤمن ببعض المعتقدات الدينية.* وفي حادثة أخــرى، وبعــد عودته من يالطا في عام 1945م، دافع تشرشل عــن إيمانه في تعهدات ستالين على النحــو التالــي: «أشعر أنّ كلمتهم هي ضمانتهــم، ولا أعرف أيّ حكومة أخــرى تقف وراء تعهداتها وتدعمهــا حتى لــو كانت ضدها أكثر مــن الحكومة الروسيــة[49]»، وقال أحد كتــاب سيرة تشرشل الذّاتية عنه: «بكل ما يعرفه عن ماضي الحكومة الروسية.... كان وينستون مستعداً لإعطاء ستالين

* أعجب جيمي كارتر بالمثل. استشهد كارتر من افتتاحية أول لقاء له مع الرئيس السوفياتي ليونيد بريجنيف الاستجابة الافتتاحية التي قدمت في التالي لبريجنيف: «لقد كان هناك تأخير مفرط في هذا الاجتماع، ولكن الآن بعد أن أصبحنا معاً أخيراً، يجب علينا أن نبذل أقصى تقدم. لقد كنت مندهشاً حقّاً أمس عندما قال لي الرئيس بريجنيف: «إذا لم ننجح، فلن يغفر لنا الله!»»، وعلق كارتر أن «بريجنيف بدا محرجاً بعض الشيء»، وبملاحظته أشار كارتر، مثل تشرشل، هذه كإشارة إلى الألوهية على محمل الجد (كارتر، الحفاظ على الإيمان (نيويورك: كتب بانتام، 1982)، ص 248).

فائدة الشك والثقة بنيِّاته، وكان من الصعب عليه القيام به خلاف الاعتقاد باستقامة من لهم تلك المنزلة الرفيعة ويتعامل معهم[50]». لم يرد ستالين بالمثل بهذا الصدد. نقل ميلوفان دجيلاس عن ستالين قوله في عام 1944م: «ربما كنت تعتقد أنّ مجرد كوننا حلفاء للإنجليز ... أننا نسينا من هم ومن هو تشرشل. فليس أشهى عندهم من خداع حلفائهم، وتشرشل من الرجال، الذين إنْ لم تراقبهم، قد يسرق كوبية (عملة روسية) من جيبك الخاص ...[51]»، قد يكون تركيز تشرشل على تدمير هتلر وحاجته إلى المساعدة من ستالين جعلته ضحية مستعدة لخداع ستالين.

لقد أعطيت مساحة أكبر للخداع بين رجال الدولة أكثر من أنواع الخداع الأخرى التي بحثتها في هذا الفصل كلّها. ليس لأنّ هذا هو المجال الأكثر مناسبة للكشف عن القرائن السلوكية في الخداع ولكن لأنه الأكثر خطورة؛ إذ يمكن أن تكون الأحكام الخائبة أكثر ضرراً؛ الخدعة فيها قاتلة.

ومع ذلك، وكما هو الحال مع الكشف عن الخداع بين المشتبه فيهم جنائيّاً، لا طائل في النقاش حول وجوب إلغاء الكشف عن الخداع من القرائن السلوكية، فلا يمكن الاستغناء عنها في أيّ دولة. فمن طبيعة الإنسان جمع مثل هذه المعلومات، على الأقل بصورة غير رسمية، من القرائن السلوكية. وكما أوضحت في مناقشة الأخطار للكشف عن الخداع في أثناء الاستجواب، ربما يكون أكثر أماناً إذا كان المشاركون ومستشاروهم على بيِّنة من إبقاء أحكامهم عن القرائن التعبيرية على الخداع في عالم الحدس والتخمين.

وكما أشرت فيما يتعلق بالكشف عن الخداع بين المشتبه فيهم جنائيّاً، وحتى لو كان من الممكن إلغاء تفسير القرائن السلوكية على الخداع في الاجتماعات الدولية، فإنني لا أعتقد أنّ ذلك سيكون مرغوباً فيه. فمن الواضح أنّ السّجلّ التاريخيّ يبيّن خدعاً دولية مَشينة جدّاً في التاريخ الحديث، فَمَنْ لا يريد لبلده أن يكون أفضل في القدرة على اكتشاف مثل هذه الأكاذيب! تكمن المشكلة في كيفية القيام بذلك من غير زيادة فرص الأحكام غير الصائبة. أخشى أنّ الثقة المفرطة لدى تشامبرلين وتشرشل في قدرتيهما على قراءة الخداع وقياس شخصية نظرائهما قد تضعف مقابل غطرسة خبير العلوم السلوكية الذي يجني رزقه بالادعاء بالقدرة على اكتشاف علامات الخداع لدى الزعماء الأجانب.

لقـد حاولت تحدِّي، ولـو بصورة غير مباشـرة، الخبراء السلوكييـن العاملين لدى أيّ دولـة بوصفهم مكتشفي خـداع، مما يجعلهم أكثر إدراكاً لتعقيـد مهمتهم، ويجعل عملاءهم المرضى أكثر تشكّكاً فيهم. يجب أن يكون التحدي غير مباشر؛ لأنّ هؤلاء الخبراء، إذا كانوا موجودين فعلاً فإنّهم يعملون سرّاً،* ويقومون بالبحوث السرية في كيفية الكشف عن الخداع بين المفاوضين أو رؤساء الدول. آمل أن أجعل هؤلاء الباحثين المجهولين أكثر حذراً، وأجعل أولئك الذين يدفعون لقاء عملهم أكثر شكّاً، وأكثر دقة بالادعاءات عن فائدة مُنْتَجِهِم.

لا ينبغي أن يُساء فهمي؛ فأنا أريد رؤية هذه البحوث على أرض الواقع، وأعتقد أنّ وجودها مُلِـحٌّ، وأفهم لماذا تجري الأمم علـى الأقل بعض هذه البحوث سرّياً، وأتوقع أنّ البحوث التي تحاول التعرف إلى الكذابين الجيدين والسيئين ومكتشفي الكذب بين مختلف أنواع الأشخاص الذيـن أصبحـوا صناع قرارات وطنية سوف يثبت أنّ من المستحيـل تقريباً فعل ذلك، ولكن ينبغـي معرفة الأمـر. وبالمثل، أعتقد أنّ البحث عن الحالات التـي تشبه اجتماعات القمة أو المفاوضات خلال الأزمات، والتي يكون فيها المشاركون من ذوي المهارات العالية ومن الأمم المختلفـة، وتُعدُّ الدراسات بحيث تكون الأخطـار عالية جدّاً (وليس تجربة المختبر المعتادة علـى طلاب السنة الأولى الجامعيين)، وسـوف يجدون أنّ العائد ضئيل جدّاً، ولكن ينبغي أن يُكتشف ذلك أيضاً، وإذا كان الأمر كذلك، فيجب أن تكون النتائج غير سرّيّة ومشتركة.

لقـد بيّن هذا الفصل أنّ نجاح الخـداع من عدمه لا يعتمد على المجال، والأمر لا يعقد بفشـل الخدع جميعها بيـن الأزواج، أو نجاح خـدع الأعمال التجارية جميعهـا، أو الجنائية، أو الدوليـة. فالفشـل أو النجاح يعتمـدان على تفاصيل الكذب، والـكاذب، ومكتشف الكذب. ويصبح الأمر أكثر تعقيداً على الصعيد الدوليّ مقارنة مع ما يدور بين الأم وابنها، ولكن يعلم الوالدان أنّه ليس من السهل دائماً تجنب الخطأ.

يبيّـن الجـدول رقم 4 فـي الملحق فقـرات قائمة التحقق مـن الكـذب، وعددها ثمان وثلاثون فقرة. يساعد ما يقرب من نصف هذه الأسئلة؛ ثمانية عشر، على تحديد ما إذا كان

* على الرغم من عدم اعتراف أحد بالعمل على هذه المشكلة، إلا أن هناك بعض المراسلات مع الأشخاص الذين تستخدمهم وزارة الدفاع وبعض المكالمات الهاتفية مع وكالة الاستخبارات المركزية التي تشير إلى وجود أشخاص يدرسون قرائن الخداع في مكافحة التجسس والدبلوماسية. والدراسة الواحدة غير سرية التي رأيتها والتي مولتها وزارة الدفاع، كانت مروعة جدّاً ولم تستوفِ المعايير العلمية المعتادة.

علـى الكاذب إخفاء عواطفه أو تزييفها. قد لا يقـدم استخدام القائمة تقديراً دائماً، فقد لا يعـرف مـا يكفي للإجابة عن كثير من الأسئلة، أو قد تكـون الإجابات مختلطة، يشير بعضها إلى سهولة كشف الكذب، وصعوبة بعضها الآخر.

ولكـن ينبغي أن تكـون معرفة ذلك مفيدة. حتى عند إمكانية إجراء تقدير، فقد لا يتنبأ بالصـورة الصحيحة؛ إذ قد يخون الـكاذب طرفاً ثالثاً وليس القرائـن السلوكية، وقد يُفوِّت أكثـر قرائن الخداع وضوحاً عن طريق المصادفة. وينبغي لكلّ من الكاذب ومكتشف الكذب معرفـة هذا الاحتمـال. من الذي يستفيد أكثر من تلك المعرفة: الكاذب أم مكتشف الكذب؟ هذه هي النقطة الأولى التي ستُناقش في الفصل اللاحق.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل التاسع

كشف الكذب في التسعينيّات

بدأت هذا الكتاب بوصف اللقاء الأول الذي جرى في عام 1938 بين أدولف هتلر مستشار ألمانيا النّازيّة، ونيفيل تشامبرلين رئيس الوزراء البريطاني. وقد اخترت هذه الحادثة؛ لأنها تُعدّ أحد أكثر اللقاءات ضرراً عبر التاريخ، وتحتوي درساً مهمّاً بشأن نجاح الأكاذيب. تذكّر أنّ هتلر أمر الجيش الألماني بالتعبئة لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا سرّاً، ولكن الإعداد يتطلب بضعة أسابيع؛ ليكون الجيش مستعدّاً تماماً للهجوم. أخفى هتلر رغبته في الاستفادة من الهجوم المباغت، وأخبر تشامبرلين بدلاً من ذلك أنّه على استعداد للعيش بسلام إذا وافق التشيكيون على مطالبه بشأن إعادة رسم الحدود بين البلدين. صدّق تشامبرلين كذبة هتلر، وحاول إقناع التشيكيين بعدم تعبئة جيشهم لرؤيته وجود فرصة سانحة لتحقيق السلام.

إلى حدٍّ ما، كان تشامبرلين ضحية مستعدة أرادت أن تُضلَّل. وإلا كان عليه مواجهة فشل سياسته بالكامل تجاه ألمانيا، وتعريض سلامة بلده للخطر. والدرس المُستفاد من هذه الحادثة هو أنّ بعض الضحايا يتعاونون من غير إدراك منهم في أنهم قد ضُلّلوا. عندها، تتوقف الأحكام النقدية، ويُتغاضى عن المعلومات المتناقضة؛ لأن معرفة الحقيقة أكثر إيلاماً، على الأقل على المدى القصير، مقارنة بتصديق الكذب.

أعتقد أنّ هذا الدرس ينطبق على كثير من الأكاذيب الأخرى، وليس الأكاذيب بين رؤساء الدول فقط. والآن، وبعد مرور سبع سنوات منذ كتابة هذا الكتاب، أخشى أنّ الاجتماع

بين هتلر وتشامبرلين قد يدلّ على درسين آخرين غير صحيحين بشأن الكذب، وقد يبدو أنه لـو لـم يشأ تشامبرلين أن يُضلَّل لفشلت كذبة هتلر. يشيـر البحث منذ نشر النسخة الأصلية مـن كتاب قول الأكاذيـب عام 1985م، إلى أنّ وينستون تشرشـل منافس تشامبرلين، والذي حـذره من هتلر، ربما لن يكون قادراً على كشف كذبـة هتلر. ولو جلب تشامبرلين خبراء في كشـف الكذب من شرطة سكوتلاند يارد، أو المخابرات البريطانية فلن يستطيعوا هم أيضاً أن يقوموا بأفضل مما فعل.

يشـرح هذا الفصـل النتائج التي توصلنا إليها من خلال بحثنـا الجديد، والتي قادتني إلـى هذه الاستنتاجات الجديـدة. فقد وصفت ما تعلمناه عمن يمكنـه كشف الكذب، وبعض الأدلـة الجديدة لكيفية اكتشاف الأكاذيـب، وسأضيف إلى ذلك بعض النصائح التي تعلمتها عـن كيفية تطبيق البحث التجريبي على الأكاذيب في الحيـاة الواقعية، اعتماداً على خبرتي فـي السنـوات الخمس الماضية التـي أمضيتها في تعليم الذين يتعاملـون يوميّاً مع أشخاص مشتبه بكذبهم.

لأنّ هتلـر شرّيـرٌ جدّاً، فقد يـدل هذا المثال أيضـاً على أنّ من الخطـأ دوماً أن يكذب الزعيم الوطني، وهذه نتيجة بسيطة جدّاً. يستكشف الفصل اللاحق المواقف التي يكون فيها الكذب مقبولاً في الحياة العامة، من خلال عدد من الأحداث المشهورة في التاريخ السياسي الأمريكـي الحديث. مثلاً، لنأخـذ ادعاءات الرئيس السابق لينـدون جونسون المزيفة حيال نجاحـات الجيشـ الأمريكي في حرب فيتنـام، وكذلك قرارات ناسا لإطـلاق مكّوك الفضاء تشالنجـر، في حين، كان هناك خطرٌ كبيرٌ يشير إلى إمكانية انفجاره، وسأثير مسألة ما إذا كانـت هذه الحالات حالات خداع الذات، فإن كانـت كذلك، فهل يجب أن يُحمَّل الذين كذبوا مسؤولية تصرفاتهم؟

من باستطاعته كشف الكاذبين؟

عندمـا دوّنـت كتـاب (**قـول الأكاذيـب**)، اعتقدت أنّ نمـط الكذب الذي كنـت أدرسه؛ الخدع المتخـذة لإخفاء العاطفة القوية الصادقة في لحظة الكذب– يرتبط ارتباطاً بسيطاً بالأكاذيـب التي يلفقّها الدبلوماسيون، أو السياسيون، أو المجرمون، أو الجواسيس. وخشيت

أن يكـون مكتشفـو الكذب المحترفون فـي الشرطة، وعملاء وكالة الاستخبـارات المركزية، وعلمـاء الأمراض النفسية والعقلية الذين يعملون مع الحكومة مفرطي التفاؤل بقدرتهم على معرفـة كـذب أحد ما من القرائـن السلوكيـة. وأردت تحذير أولئك الذيـن تتطلّب أعمالهم إصـدار أحـكام عن الكذب والصـدق بالتقليل من الثقـة بالقدرة على اكتشـاف الخداع من القرائـن السلوكيـة. أو ما يسميه نظام العدالة الجنائية بالسلـوك، وأردت تنبيههم أن يكونوا أقلّ ثقة بقدراتهم الخاصة على رصد الكاذب.

والآن، هنـاك أدلة قويّة علـى أنّني كنت محقّاً في تحذير مكتشفـي الكذب المحترفين ليكونـوا أكثر تنبّهـا لقدراتهم، ولكني وجدت أيضـاً أنني ربما أكون قد بالغـت في التّحذير. ولدهشتـي وجـدت أنّ بعضـ محترفي كشـف الكذب يجيـدون رصد الأكاذيب مـن القرائن السلوكية، فتعلمت منهم سبب قدرتهم على ذلك. ولدي الآن سبب للاعتقاد أنّ ما تعلمته عن الأكاذيب يمكن أن ينطبق على بعض الأكاذيب في سياقات السياسة، أو الإجرام، أو مكافحة التجسس.

وربما لم يكن بإمكاني معرفة هذا لو أنني لم أكن قد انتهيت من كتابة (قول الأكاذيب). فأستاذ علم النفس الذي يجري بحوثاً تجريبية مخبريّة حول الكذب والعاطفة لا يلتقي عادة مـع الأشخاصـ الذين يعملون في نظام العدالـة الجنائية، أو عالـم الجاسوسية، أو مكافحة التجسس. لقد سمع محترفو كشف الكذب عنّي، ولكن ليس من خلال منشوراتي العلمية التي ظهرت على مدى ثلاثين سنة، بل من خلال التفسيرات الإعلامية لعملي الذي تزامن مع نشر كتاب قول الأكاذيب.

وسرعـان مـا دعيت لتقديم حلقـة عمل لقضاة المـدن، والولايـات، والدولة، ومحامي الادعـاء، والشرطـة، وفنّيي اختبار جهـاز كشف الكـذب (البوليغراف) لمكتـب التحقيقات الاتحـاديّ، ووكالـة المخابرات، ودائرة الخدمـات السرية في الولايـات المتحدة، والجيش، والبحرية، والقوات الجوية الأمريكية. لا يُعدّ الكذب موضوعاً أكاديميّاً عند هؤلاء الأشخاص. فهم ينظرون إلى وظائفهم، وما يجب علي قوله بجدية مطلقة. فهم ليسوا طلاباً يقبلون كلام الأستـاذ؛ لأنـه من يمنحهم علامات. وإن كانـت هناك علّة تشعر بها هـذه المجموعات فإن ذلـك سيكون؛ بسبب مؤهلاتي الدراسية. إنهم يطلبون أمثلـة واقعيّة، وأن أتحدى خبراتهم،

وأواجـه تحدياتهم، وأعطيهم ما يستطيعون استخدامه في اليـوم التالي. ربما أُبلغهم بمدى صعوبة رصد الكاذب، ولكن عليهم الإدلاء بتلك الأحكام غداً، ولا يستطيعون انتظار مزيد من البحـوث، فهم يريـدون أيّ مساعدة ممكنة مني أكثر من مجرد تحذيرهم في أن يكونوا أكثر حيطة وتنبّهاً، ولكنهم متشككون جدّاً، ومنتقدون على الدّوام.

ولكـن مـن الغريب أنهم كانـوا أكثر مرونة مما وجـدت عند الأكاديميـيـن، وكانوا أكثر استعـداداً للتفكير في تغيير إدارتهم لأعمالهم أكثر من معظم لجان المناهج الجامعية؛ فقد سألنـي أحـد القضاة في استراحة الغداء ما إذا وجب عليه إعـادة ترتيب قاعة المحكمة كي يتمكـن مـن رؤية وجه الشاهد بدلاً من رؤية خلف رأسه. لـم تخطر هذه الفكرة البسيطة في ذهنـي مسبقـاً. ومنذ ذاك، كنت أقدم هذا الاقتراح عندما أتحـدث مع القضاة، فأعاد كثير منهم ترتيب قاعات المحاكم التي يديرونها.

أبلغنـي عميـل في الخدمة السّرّيّـة مدى صعوبة معرفة مـا إذا كان أحدهم يكذب عند تهديده الرئيس عندما يقول: إنّ التهديد لم يكن جادّاً، وقد قال ما قال لينال إعجاب صديق فقـط. لقـد كانت هناك نظرة رهيبة على وجه العميل عندمـا روى كيف أنهم قرروا أنّ سارة جيـن كانت «مخبولـة» وليست قاتلـة حقيقية، وأطلقـوا سراحها مخطئين قبـل ساعات من إطلاقهـا النار على الرئيس جيرالد فورد في الثانـي والعشرين من أيلول 1975. قلت للعميل إنّ حلقـة العمل التي يمكن أن أقدمها لهم تعطيهـم أضافة بسيطة، وربما لا تضيف أكثر من 1% لمستوى الدقة لديهم. فقال: عظيم، لنقم بذلك.

طالمـا بـدأتُ وزميلي مورين و. سوليفـان حلقة العمل التي نقدمهـا باختبار موجز عن مـدى معرفة المشاركين للكذب من خـلال السلوك، يبين اختبار كشف الكذب عشر طالبات تمريضـ كلّ جزءاً من التجربة التي وصفتها في الفصل الثاني (الصفحات 55–52)، أبدت كلّ واحدة منهنّ مشاعر سارّة في أثناء مشاهدة فيلم يعرض مناظر طبيعية وحيوانات أليفة؛ خمس منهنّ صادقات، والخمس الأخريات كاذبات؛ إذ، كانت الكاذبات في الحقيقة يشاهدن أفلام جراحية مروّعة، ولكنهـن حاولن إخفاء مشاعر الضيق لديهن، وإقناع الشخص الذي يقابلهنّ بأنهن يشاهدن أفلاماً ممتعة.

obeikandl.com

هناك سببان لإعطاء اختبار كشف الكذب. لم استطع تفويت الفرصة لمعرفة مدى دقة الأشخاص الذين يتعاملون مع الخدع الأكثر فتكاً برصد أحدهم عندما يكذب، وكنت أيضاً مقتنعاً أنّ التقدم لاختبار كشف الكذب سيكون افتتاحية جيدة؛ سيواجه الجمهور مباشرة مدى صعوبة معرفة وقت كذب أحدهم، وقد أغريتهم بالقول: ستحصلون على فرصة فريدة لمعرفة حقيقة قدراتكم على كشف الكذب، فأنتم تقومون بمثل هذه الأحكام كلّ الوقت، ولكن كم على وجه اليقين تجدون أنّ أحكامكم صحيحة أم لا؟ هذه فرصتكم، ففي خمس عشرة دقيقة ستعرفون الإجابة. بعد التقدم للاختبار مباشرة، كنت أعطي الإجابات الصحيحة، ثم أطلب إليهم رفع أيديهم إذا حصلوا على عشر إجابات صحيحة أو تسع وهكذا، ودونت النتائج على السبورة كي يستطيعوا تقييم أدائهم الخاص مقارنة بمجموعتهم.

وعلى الرغم من أنّ ذلك لم يكن هدفي، فإنّني عرفت أنّ هذا الإجراء كشف عن مدى قدرة كلّ شخص منهم. لقد توقعت ألّا يكون تحصيل معظمهم جيداً في الاختبار، وجعلتهم يتعلمون أنّ ذلك الدرس يناسب مهمتي؛ لجعلهم أكثر حذراً بشأن معرفتهم متى يكذب شخص ما. خلال حلقات العمل الأولى القليلة، خشيت أن يعترض (طلابي)، ولا يرغبون بالمخاطرة بالانكشاف علناً إذا تبين أنهم غير قادرين على رصد الكاذبين، وعندما عرفوا تدنّي تحصيل معظمهم، توقعت أن يتحدوا ويشككوا بمصداقية الاختبار، ومناقشتي أنّ الأكاذيب التي بينتها لم تكن مرتبطة بالأكاذيب التي تعاملوا معها، ولكن ذلك لم يحدث مطلقاً. فقد كان الموظفون من كلا الجنسين من مجموعات العدالة الجنائية، والمخابرات، مستعدين لكشف قدراتهم على كشف الكذب على الملأ وأمام زملائهم. لقد كانوا أكثر شجاعة مقارنة بزملائي الأكاديميين عندما عرضت عليهم الفرصة نفسها لتعلم مدى قدرتهم على كشف الكذب أمام زملائهم وطلابهم.

دفعت معرفة مكتشفي الكذب المحترفين مدى تدنّي أدائهم إلى التخلي عن قواعد الإبهام المسلم بها، والتي يعتمد عليها معظمهم. وأصبحوا أكثر حذراً حيال الحكم على الخداع من السلوك. كما حذرتهم أيضاً من كثير من الصور النمطية لدى الناس حول معرفة متى يكذب أحدهم؛ مثل فكرة أنّ الأشخاص الذين يتململون أو يشيحون بأبصارهم بعيداً عندما يتحدثون كاذبون دائماً.

obeikandi.com

وفــي الجانــب الأكثر إيجابية، أظهـرت لهم كيفية استخدام قائمــة التحقق من الكذب الــواردة في الفصل الثامن (ص. 241) على بعض أمثلــة الحياة الواقعية، وأكّدت كثيرا، كما فعلـت في الفصول السابقة، علـى كيفية كشف العاطفة للكذب، وكيفيــة رصد علامات هذه العاطفــة. وأريتهم عشرات الصور عن تعابير الوجه بإيجاز، بجزء من المئة من الثانية، كي يتعلموا رصد تعابير الوجه الدقيقة بسهولة.

واستخدمــت أمثلــة مصــورة بأشرطــة الفيديو لأكاذيــب مختلفة يستطيعــون ممارسة مهاراتهــم المتعلمة حديثاً عليها. في شهــر سبتمبر 1991، نُشِرَ ما توصلنا إليه عن محترفي الكشف عن الكذب[2]. وتبين أنّ مجموعة مهنية واحدة أحرزت نتيجة تفوق المصادفة، وهي مجموعة الخدمة السرية للولايات المتحدة. فقد سجل أكثر من نصف أعضائها تقريباً نسبة 70% أو أكثر في مستوى الدقة، ووصل الثلث تقريباً نسبة 80% أو أكثر، على الرغم من أنني لا أستطيــع أن أكــون متأكداً من إجادة أفراد الخدمة السريــة مقارنة بالمجموعات الأخرى، ولكنــي أراهــن أنّ سبب ذلك قيام كثير منهم بمهمّات الحمايــة ومراقبة الحشود لأيّ علامة على شخص ما قد تشكل خطراً للشخص الذي يقومون بحمايته، وذلك النوع من اليقظة من شأنه أن يكوِّن إعداداً جيداً لرصد القرائن السلوكية الخفية على الخداع.

مــن المدهش لكثيــر من الأشخاص عندما يعلمــون أنّ المجموعــات المهنية الأخرى جميعهــا المهتمــة بالكذب لا يسجلون نتائج تفــوق المصادفة؛ كالقضــاة، ومحامي الادعاء، ورجــال الشرطة، وفنّيي مكشــاف الكذب الذين يعملون لدى وكالــة الاستخبارات المركزية، أو مكتــب التحقيقــات الاتحاديّ، أو وكالــة الأمن القومــي، والخدمات العسكريــة، والأطباء النفسيين الذين يقومون بأعمال الطب الشرعي، والمدهش بالمثل أنّ كثيراً منهم لم يعرفوا أنهــم غير قادرين على كشف الخداع من السلوك، وكانت إجاباتهم عن السؤال الذي وجّهناه إليهــم قبــل خضوعهم للاختبار عمّا يتوقعــون الحصول عليه من نتائج لــم يكن مرتبطاً بما حصلوا عليه لاحقاً. كما كانت إجاباتهم عن السؤال نفسه الذي وجّهناه مباشرة بعد انتهائهم من الاختبار.

وقــد فوجئــت لكون أيٍّ من مكتشفي الكــذب المحترفين سيكون دقيقــاً للغاية في رصد الأكاذيــب؛ لأنّ أحــداً منهــم لم يحصــل على خبرة سابقــة بأيّ وضع خاص ولا بخصائص

الكاذبيــن الذين واجهوهم. وقد صممت الحالة الواضحة في شريط الفيديو كتقريب لمحنة المريضــة في مستشفى الأمراض العقلية التي تخفي خططهــا للانتحار، ومحاولتها التّهرّب من الإشراف الطبي كي تنتحر.

كان ينبغي لها إخفاء ألمها، والتصرف بطريقة مقنعة كما لو أنها لم تعد مكتئبة. (انظر المناقشــة فــي الصفحــات (17، 16 و 56–54). لقد حجبــت المريضة عاطفــة قوية سلبية شعرت بها بتلك اللحظة بقشرة من عاطفة إيجابية. الأطباء النفسيون، وعلماء النفس فقط هــم الذين لديهم خبرة بتلك الحالة، ولم تسجّــل مجموعتهم نتائج تفوق المصادفة. فلماذا كانت نتائج الخدمات السرية للولايات المتحدة مميزة في رصد هذا النوع من الخداع؟*

فــي البداية، لم يكن الأمر واضحاً في ذهني. ولكن تفكيري في النتائج أوحى لي بفكرة جديدة عــن إمكان الكشف عن الخداع من القرائن السلوكية. ولا يحتاج مكتشف الكذب إلى معرفــة ذلك القدر عن المشتبه به، أو الحالة إذا استثيرت عاطفة قوية. فإذا بدا شخص ما خائفاً، أو مذنباً، أو متحمساً، مع عدم توافق هذه التعابير مع ما يصدر عنه من حديث، فهذا دليــلٌ على أنّه يكذب، وعندما يكون هنــاك كثير من اضطرابات الكلام (كالوقفات وUmhh وغيرها)، وليس هناك سبب لوجوب معرفة المشتبه به لما يقوله، فهو لا يتكلم بهذه الطريقة عــادة، فإنّ المرجّح أن يكــون المشتبه به كاذباً، وتكون القرائــن السلوكية على الخداع أكثر تشتّتــا عندمــا لا تُستثار العواطف، فإذا كان الكاذب لا يخفــي عاطفة قوية، فذلك يتطلب أن يكون المحقّق أكثر دراية بتفاصيل الكذبة وخصائص الكاذب.

وكلّما كانت الأخطار عالية، تكون هناك فرصة أن يسمح الخوف من الكشف أو التحدي للتغلب على مكتشف الكذب (أو ما أسميه لذة الخداع، ص. 76) إجراء كشف دقيق عن الكذب من غير الحاجة إلى أن يكون لدى مكتشف الكذب كثير من تفاصيل الكذبة أو المشتبه به.

ولكن، لن تجعل الأخطار المرتفعة الكاذبين جميعهم يشعرون بالخوف من الانكشاف؛ وهــذه الملحوظــة على قــدر كبير من الأهميــة. فلن يخــاف المجرمون ممن لهــم خبرة في

* لربما أجادت المجموعات المهنية لو أننا أعطيناهم كذبة ليحكموا عليها بالحالة التي يتعاملون معها عادة، ولربما نكون قد عرفنا من هم مكتشفو الكذب الجيدون بصرف النظر عن الألفة الظرفية وليس من مكتشفو الكذب الجيّدون الذين يعملون في بيئاتهم المعتادة، وأعتقد أن الأمر ليس كذلك ولا يمكن استبعاد هذه الاحتمالية إلا بالمزيد من البحث.

الإفـلات منها، ولا زيـر النسـاء الذي نجح مرات عدّة في إخفاء علاقاتـه الغرامية السابقة، ولا المفاوض المتمرس. وقد تجعـل الأكاذيب عالية الخطورة بعض المشتبه بهم الأبرياء، الذين يخشون عدم تصديقهم، يبدون كاذبين (انظر النقاش بشأن خطأ أوثلّو في الصفحات 170–173).

إذا تشـارك الكاذب مـع المتلقّي في القيم واحترمه، فهنـاك فرصة لأن يشعر الكاذب بالذنب بشأن فِعلته، وستظهر علامات السلوك بسبب هذا الذنب، وستُكشف الكذبة أو تُحفّز الـكاذب على الاعتـراف. ولكن ينبغي أن يتجنـب مكتشف الكذب الغـرور بنفسه، وافتراض الاحترام الذي لا يستحقه. وعلى الأم غير الواثقة، أو شديدة الانتقاد، امتلاك معرفة ذاتية؛ لتـدرك امتلاكها لهذه الخصائص. وعليـه، يجب ألّا تفترض أنّ ابنتها ستشعر بالذنب حيال الكـذب عليها. وعلى ربّ العمل أن يعلم أنه بنظر موظفيه غير منصف، ولا يستطيع الاعتماد على علامات الذنب لكشف خداعهم.

ليس مـن الحكمة الثقة بأحـكام أحدهم بشأن كذب شخص ما مـن غير وجود معرفة عن المشتبه به أو الحالة، ولم يقدم اختبار كشف الكذب الذي قدمته الفرصة للتآلف مع كلّ شخـص يُراد الحكـم عليه، وينبغي بناء القرارات عمن كان كاذباً ومن كان صادقاً على رؤية الشخـص مرة واحدة، وبعدم وجود معلومات أخرى عنـه. وفي ظلّ هذه الظروف، تمتّع عدد قليل جدّاً من الأشخاص بالدقة، ولم تكن الدقة مستحيلة، بل صعبة لمعظم الأشخاص. لاحقاً سأفسر كيف أنّ الأشخاص الدقيقين تمكنوا من الحكم الصائب بتوافر قليل من المعلومات. لدينـا نسخة أخرى من الاختبار تبين مثالين لـكلّ شخص. وعندما يستطيع مكتشف الكذب مقارنـة سلـوك الشخص في حالتيـن يكون أكثر دقة، على الرغم مـن أنه حتى عندها سجل معظمهم نتائج أكثر بقليل من المصادفة[3].

ينبغـي أن تساعد قائمة التحقـق من الكذب الواردة في الفصـل الثامن على تقدير ما إذا كانت الأكاذيب عالية الخطورة، وتمتلك قرائن سلوكية. وينبغي أن تساعد على تحديد ما إذا سيكـون هناك خوف من الانكشاف، أو ذنب الخـداع، أو لذة الخداع. وينبغي ألّا يفترض مكتشف الكذب ببساطة أنّ هناك احتمالاً دائماً لكشف الخداع من القرائن السلوكية. ينبغي

أن يقاوم مكتشف الكذب توهّم قدرته على معرفة الكاذب من الصادق من خلال المبالغة بقدرته الخاصة على رصد الكذب.

على الرّغم من أنّ مجموعة الخدمة السرية كانت الوحيدة التي سجلت نتيجة تفوق المصادفة، سجّل بعض أفراد المجموعات الأخرى نتائج مرتفعة أيضاً، وما زلت أتابع البحث لمعرفة سبب دقة بعض الأشخاص فقط في كشف الخداع، وكيف تعلموها. ولم لا يعرف الجميع رصد الكذب بدقة. فهل هذه مهارة يمكن تعلّمها أم أنّها موهبة؟ وشيء إما أن تمتلكه أو لا تمتلكه؟ لقد واتتني هذه الفكرة الغريبة عندما وجدت أنّ ابنتي ذات الأحد عشر عاماً سجلت دقّة كما سجّل أفضل عملاء الخدمة السرية، وهي لم تقرأ كتبي ولا مقالاتي، ربما لا تكون ابنتي مميزة، وربما يكون معظم الأطفال أفضل من الكبار في رصد الكذب، وسنبدأ البحث لمعرفة ذلك.

تأتي معلومات الإجابة عن السؤال حول سبب دقة بعض الأشخاص بصفتهم مكتشفي كذب مما كتبه الأشخاص الذين تقدموا للاختبار عندما سألناهم عن قرائن الخداع التي استخدموها للحكم بشأن ما إذا كان الشخص كاذباً. وبمقارنة الأشخاص الذين اتسموا بالدقة في المجموعات جميعها، مع غير الدقيقين، وجدنا أنّ الدقيقين ذكروا استخدام معلومات عن الوجه والصوت والجسم، في حين، ذكر غير الدقيقين الكلمات التي قيلت فقط. تناسب هذه النتيجة ما ذكرته في الفصول السابقة في كتاب (قول الأكاذيب)، ولكن لم يقرأ أيّ شخص من الذين تقدموا للاختبار هذا الكتاب من قبل.

عرف بعض الأشخاص الدقيقون أنّ من السهل إخفاء الكلمات مقارنة بإخفاء التعابير، أو الصوت، أو حركات الجسم. لكن لا يعني ذلك أنّ الكلمات غير مهمة، فقد يكون التناقض فيما يقال مهمّاً جدّاً، وربما يكون التحليل المتطور للحديث كاشفاً للكذب(4)، ولكن لا ينبغي التشّديد على محتوى الحديث فقط؛ إذ ما زلنا في حاجة إلى معرفة سبب عدم ربط الكلمات مع تعابير الوجه والصوت.

نتائج جديدة في قرائن الكذب السّلوكيّة

تجسّد البحوث التي استكملناها في العامين الماضيين، وتضيف إلى ما يذكره كتاب **الأكاذيب** أهميةَ الصوت والوجه في الكشف عن الخداع. وبقياس تعابير الوجه المعروضة في الأشرطة التسجيلية لطالبات التمريض عندما كنّ يقلْنَ الصدق ويكذبْن، وجدنا اختلافات في نوعين من الابتسامات. وعندما كنّ مستمتعات حقّاً، أظهرن كثيراً من الابتسامات الصادقة (الصورة A5 في الفصل الخامس)، وعندما كُنَّ يكذبْن أظهرنَ ما يسمى بابتسامات الإخفاء. (في إخفاء الابتسامة إضافة إلى الشفتين المبتسمتين هناك علامات حزن (الصورة A3)، أو خوف (الصورة B3)، أو غضب (الصورة C3 أو 4)، أو اشمئزاز)[5].

لقد دعمت الفروق بين الابتسامات بمزيد من الدراسات على عينات مختلفة من الأطفال والبالغين في الولايات المتحدة وخارجها، وفي ظروف مختلفة، وليس فقط عندما يكذب الأشخاص. وقد وجدنا اختلافات فيما يحدث داخل الدماغ، وما يقول الأشخاص: إنهم يشعرون به عندما يبدون ابتسامة صادقة مقارنة مع أنواع الابتسام الأخرى. ويكمن الدليل الأمثل فيما إذا كانت الابتسامة حقيقية في اشتراك العضلة التي تحيط بالعين وليس فقط الشفاه المبتسمة[6]. ليس من السهل إيجادها بمجرد البحث كما توجد تجعيدات رِجْل الغراب على الزاويتين الخارجيتين للعينين؛ لأنّ ذلك لا ينجح دائماً.

إنّ تجاعيد رِجْل الغراب علامة مفيدة على الابتسامة الصادقة إذا كانت الابتسامة بسيطة والمتعة المشهودة غير قوية. أمّا في الابتسامة الكبيرة أو الواسعة، فإنّ الشفتين المبتسمتين تكوّنان تجاعيد رِجْل الغراب؛ لذا، عليك النظر إلى الحاجبين، فإذا كانت عضلة العين مشتركة؛ لأنّ الابتسامة صادقة فعلاً، فسيتحرك الحاجب نحو الأسفل حركة بسيطة. إنّ هذه القرينة صادقة، ووجدنا أنّها ممكنة الرصد من غير تدريب[7].

ووجدنا أيضاً أنّ نبرة الصوت أصبحت مرتفعة عندما كذبت طالبات التمريض عن مشاعرهن، ويدلّ هذا التغيير في نبرة الصوت على الانفعال العاطفي المتزايد، ولكنه ليس علامة على الكذب. فإذا كانت إحداهن تستمتع بمشهد مريح وسار فيجب ألاّ ترتفع نبرة صوتها. لا يبدي الكاذبون جميعهم علامات في الوجه والصوت على خداعهم، وباستخدام

مصـدري المعلومات، تـمّ الحصول على أفضل النتائج ومعدل دقّـة تعادل 86%. ولكن ذلك يعنـي أنّ 14% من الأخطاء ارتُكبت فعليّـاً. وبالاعتماد على مقاييس الوجه والصوت اعتقدنا أنّ المفحوصـ صادق في حيـن كان كاذباً، أو كاذباً في حيـن كان صادقاً؛ لذا، وعلى الرغم مـن أنّ المقاييس فاعلة على الغالبية العظمى مـن الأشخاص، فإنّنا لا نستطيع التّعميم على الجميع، ولا أتوقع أبداً أن نحصل على مجموعة مقاييس سلوكية تنطبق على الأفراد جميعهم مـن غير استثناء؛ فبعضـ الأشخاص ممثلون بطبعهـم بحيث لن يُكتشفـوا، وبعضهم الآخر متميزون بحيث إنّ ما ينجح في كشف الأكاذيب لدى غيرهم يقف عاجزاً أمامهم.

لقد وجدت أنا والدكتور مارك فرانك في العمل القائم الدليل الأول الذي يدعم فكرتي التـي تشيـر إلى وجـود كاذبين جيدين وممثليـن طبيعيين، وأنّ هناك كاذبيـن لا يستطيعون خـداع الآخرين. لقـد طلبنا إلى بعض الأشخاص الكذب أو قـول الصدق في مشهدَي خداع؛ فـي المشهد الأول، ارتكبـوا جريمة وهميّة، وأخـذوا خمسين دولاراً مـن حقيبة ما، يمكنهم الاحتفـاظ بها في حال أقنعوا المحقق أنّهم يقولون الصـدق عندما ادعوا عدمَ أخذ النقود، وفـي المشهـد الثانـي، يمكن أن يكونـوا كاذبين أو صادقيـن في التعبير عـن آرائهم بقضية مهمـة مثل الإجهاض أو عقوبة الإعدام. وجد فرانك أنّ الذين كانوا كاذبين ونجحوا في أحد المشهدين نجحوا في الآخر، والذين كان كشفهم سهلاً عندما كذبوا وهم يعبرون عن آرائهم كانوا أسهل كشفاً عند الكذب بشأن جريمة السرقة أيضاً[8].

قد يبدو هذا واضحاً جدّاً، ولكن قد يشير كثير من منطق الفصول السابقة إلى أنّ هذا يعـود إلى تفاصيل الكذبة، وليست قدرة الشخص علـى تحديد نجاح كذبة معينة. ربما يكون العامـلان مهميـن؛ فبعض الأشخاص جيـدون أو سيئون في الكذب بحيـث لا يكون الوضع أو تفاصيـل الكذبة مهمّاً كثيراً؛ فهـم يفلتون باستمرار بكذبهم أو يفشلـون. وأنّ ما يحدّد مدى إجادتهم الكذب هو كلّ من: المتلقّي، وموضوع الكذب، ومستوى المخاطرة.

احتمالات رصد الأكاذيب في قاعة المحكمة

إنّ ما توصلتُ إليه في تعليم رجال الشرطة، والقضاة، والمحامين، على مدى السنوات الخمس الماضية يشير إلى ملاحظة بارعة أراعيها الآن في حلقات العمل، هي: لا بدّ أن يكون

نظام العدالة الجنائية قد صُمِّم من قِبَلِ شخص يريد أن يجعل اكتشاف الخداع في السلوك أمراً مستحيلاً؛ للمآخذ الآتية:

1. يُعطي المشتبه به المذنب كثيراً من الفرص للتحضير لإجاباته والتّدرّب عليها قبل تقييم صدقه من خلال هيئة المحلفين أو القاضي، وبذلك يزداد ثقته بنفسه، ويضعف خوفه من انكشاف أمره. إنّ هذا المأخذ يُسجّل ضد القاضي أو هيئة المحلّفين.
2. يُجرى الاختبار المباشر والاستجواب الدقيق للشاهد بعد شهور، إن لم يكن بعد سنوات من حدوث الحادثة؛ لذا، تُثبّط العواطف المرتبطة بالحدث الجنائي.
3. بسبب التأخّر مدّة طويلة قبل بدء المحاكمة، يكون لدى المشتبه به الفرصة لتكرار تفسيراته الزائفة مرات عدّة بحيث يبدأ بتصديق كذبته، وعندما يحدث ذلك لا يكون بمعنى ما كاذباً عند التقدم للشهادة.
4. عند تحديه في الاستجواب الدقيق، يكون الظّنين عادة مستعدّاً، إن لم يكن قد تدرّب من خلال محاميه على الإجابة بسهولة عن الأسئلة الموجّهة بنعم أو لا.
5. بالمقابل، هناك المتهم البريء الذي يأتي إلى المحاكمة مرعوباً من عدم تصديقه، ولم يجب على القاضي أو هيئة المحلفين تصديقه، إذا لم يصدقه كلٌّ من الشرطة، والمدعي العام، والقاضي، في تحركات ما قبل المحاكمة لردّ الدعوى.

إنّ مكتشفي الحقيقة، من قضاة وهيئة محلفين، يعتمدون كثيراً على السلوك، وهذا الأمر ليس كذلك للشخص الذي يقوم بالمقابلة أو الاستجواب الأولي. في العادة، يكون هؤلاء من الشرطة، أو في حالات الإساءة للطفل، الأخصائي الاجتماعي. أولئك هم الأشخاص الذين تتاح لهم أفضل فرصة لمعرفة ما إذا كان الشخص يكذب من القرائن السلوكية. لا تتاح للكاذب الفرصة للتدرب على كذبته عادة، ومن المرجح أن يكون خائفاً من انكشاف أمره، أو أنه يشعر بالذنب حيال الفعل الخاطئ الذي ارتكبه. وفي حين، قد يكون رجال الشرطة والمتخصصون الاجتماعيون طيِّبي السريرة، فإن معظمهم غير مدربين على توجيه الأسئلة الموضوعية غير الذّاتيّة، وغير النّمطيّة. لم يُدرّبوا على كيفية تقييم القرائن

obeikandi.com

السلوكيـة للصدق والكذب، وهم منحازون في افتراضاتهم النّمطيّة[9]، ويعتقدون أنّ الجميع مذنبـون وكاذبون تقريباً، وقد ينطبق ذلك على الغالبيـة العظمى ممن يستجوبونهم. عندما قدمـت اختبار كشف الكـذب أول مرة لضبـاط الشرطة، وجدت أنّ معظمهـم حكم على كلِّ طالبـة تمريض رآها في شريط الفيديو أنّهـا كاذبة. «لا أحد يقول الحقيقة أبداً»، كما ذكروا لـي. لحسن الطالع، لا تتعرض هيئة المحلفين باستمـرار للمشتبه بهم الجنائيين، وعليه، لا يفترضون أن المشتبه به مذنب.

إشارات قائد الأسطول (الأدميرال) بويندكستر الاستكشافية

لا تعـد القرائـن السلوكية في الوجـه، والجسم، والصوت، وطريقـة التحدث، علامات علـى الكـذب في حد ذاتها. فقـد تكون علامات علـى العاطفة التي تتناسب مـع ما يقال، أو قـد تكـون علامات تـدل على أن المشتبـه به يفكر بما يقولـه قبل نطقه؛ فهـي إشارات تعلم المناطـق الواجب استكشافها، وهي تعلم مكتشف الكـذب أنّ شيئاً ما يحدث، وهو في حاجة إلـى المعرفة من خلال توجيه الأسئلة والتحقق من المعلومات الأخرى، وما إلى ذلك. دعونا نبحث في مثال واحد لكيفية عمل هذه الإشارات.

فـي منتصف عام 1986م، باعـت الولايات المتحدة أسلحة لإيـران بغية إطلاق سراح الرهائـن الأمريكان المحتجزين في لبنان من قبل مجموعات توجهها إيران أو أنها متعاطفة معها. وذكرت إدارة ريغان أنها لم تكن مجرد عملية تبادل بسيطة للسلاح مقابل الرهائن، بل كانت جزءاً من محاولة إعادة تأسيس علاقات جيدة مع القيادة الإسلامية المعتدلة الناشئة حديثـاً في إيـران بعد وفاة آية الله الخمينـي. ولكن فضيحة ذات أبعـاد كبيرة برزت عندما ذُكـر أنّ بعض الأرباح التي جُنيت من بيع الأسلحة لإيران استخدمت سرّاً في انتهاك مباشر للقانـون الصـادر عن مجلس الشيوخ (تعديـلات بولاند) لشراء أسلحـة للكونترا؛ المجموعة النيكاراغويـة المتمردة الموالية للولايـات المتحدة، والتي كانت تقاتـل القيادة الساندستية الموالية للاتحاد السوفييتي في أمريكا الوسطى، وكشف الرئيس رونالد ريغان والنائب العام أدويـن ميسـ في مؤتمر صحفي فـي 1986، عن تسريب الأموال للكونتـرا. وادعيا في الوقت نفسه عدم معرفتهما أيّ شيء عن ذلك، وأعلنا أنّ نائب الأدميرال جون بويندكستر مستشار

شؤون الأمن الوطني قد استقال، وأنّ زميله في البحرية العقيد المقدم أوليفر نورث أُعفي من واجباته في مجلس الأمن القومي. كانت تقارير الأخبار عن فضيحة إيران – الكونترا واسعة النطاق. أظهرت استطلاعات الرأي آنذاك أنّ غالبية الشعب الأمريكي لم يصدق ادعاء الرئيس ريغان أنه لم يعلم عن التسريب غير القانوني للأرباح للكونترا.

شهد المقدم نورث بعد ثمانية أشهر، أمام لجنة مجلس الشيوخ التي تحقق في العلاقات الإيرانية – الكونترا. فقال: إنه ناقش القضيّة برُمّتها في كثير من الأحيان مع وليام كيسي مدير وكالة الاستخبارات المركزية، وكان كيسي قد توفي قبل ثلاثة أشهر من شهادة نورث وأبلغ نورث اللجنة أنّ كيسي حذره أنّه سيكون كبش فداء، وأنّ على بويندكستر أن يشاركه ذلك الدور لحماية الرئيس ريغان.

وشهد بويندكستر الآن، وأبلغ لجنة مجلس الشيوخ أنه وحده من أعطى الموافقة للسير بخطة العقيد نورث لتحويل الأرباح من مبيعات الأسلحة للكونترا. وادعى أنه «مارس سلطته من غير إبلاغ الرئيس من أجل حمايته من «قضية سياسية عاصفة» انفجرت في وقت لاحق عليهم، وأعلن بويندكستر بنبرة واثقة: «أنا الذي اتخذت القرار[10]».

وفي مرحلة ما في الشهادة، وعند سؤاله عن الغداء الذي تناوله مع الراحل وليام كيسي مدير وكالة المخابرات المركزية، يقول بويندكستر إنه لا يتذكر ما قيل حينها، وما يتذكره فقط هو تناول الشطائر معاً. تابع عضو مجلس الشيوخ سام نان بويندكستر بشدة بشأن ذاكرته التي خانته، وخلال الدقيقتين التاليتين، بدا على بويندكستر تعبير غضب دقيق وسريع ونبرة صوت مرتفعة، وازدرد ريقة أربع مرات، وتوقف مرات عدّة في أثناء الحديث، وأجرى كثيراً من التكرارات. هذه اللحظة في شهادة بويندكستر توضح أربع نِقاط مهمة، هي:

1. عندما لا تقتصر التغيّرات السلوكية على طريقة واحدة (الوجه، أو الصوت، أو تغييرات الجهاز العصبي اللاإرادي التي يشير إليها ازدراد الريق)، فمن المهم الإشارة إلى أنّ شيئاً مهمّاً يحدث، ولا بدّ من استكشافه. في حين لا ينبغي تجاهل العلامات المقتصرة على نمط واحد من السلوك؛ إذ قد يكون هو كلّ ما لدينا، ومن

obeikandi.com

المحتمل أن يكون أكثر مصداقية، وأنّ العاطفة التي تحرك المتغيّرات أقوى عندما تتقاطع العلامات عبر الجوانب المختلفة للسلوك.

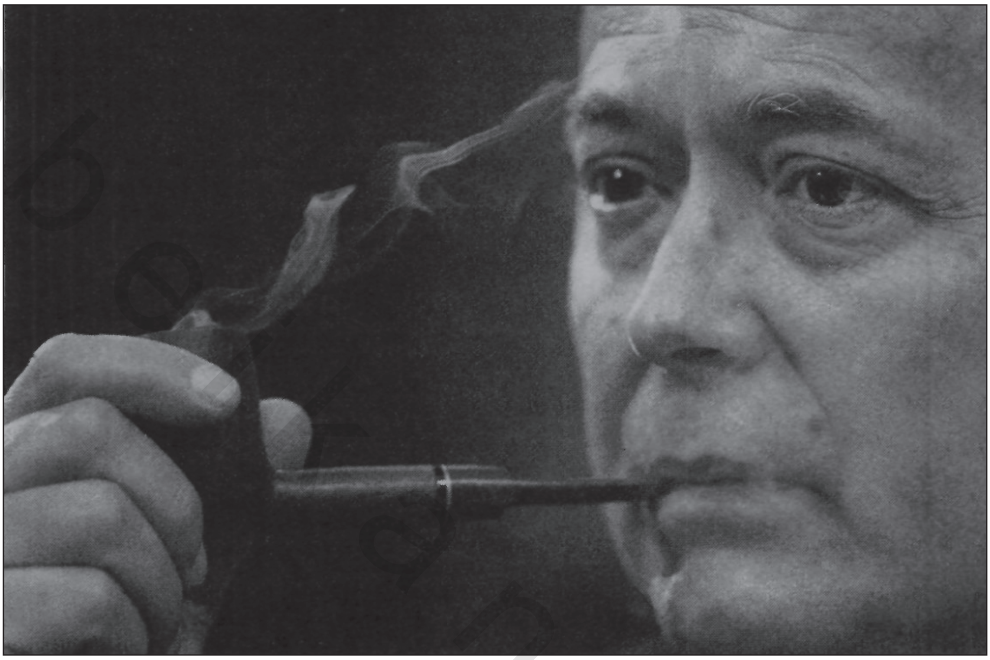

مستشار الأمن القومي الأسبق نائب الأدميرال جون بويندكستر.

2. يعدّ تفسير التغيير أقلّ مخاطرة مقارنة بتفسير بعض الملامح السلوكية التي يكرّرها الشخص. فلم يبدِ بويندكستر تردداً في الحديث ولا توقفاً، ولا ازدراد ريقه، أو ما شابه ذلك؛ لذا، ينبغي على مكتشف الكذب البحث دائماً عن التغيّرات في السلوك؛ بسبب ما أسميه مخاطرة بروكاو في الفصل الرابع (ص. 91)، ولن تخدعنا خصوصيات شخص ما إذا اهتممنا بتغيرات السلوك.

3. عندما تحدث تغيرات السلوك المرتبطة بموضوع محدّد أو سؤال ما، فإنّ ذلك يُعلم مكتشف الكذب أنّ هذه قد تكون منطقة حساسة ينبغي استكشافها. وعلى الرغم من ضغط عضو مجلس الشيوخ نان، وأعضاء آخرين في مجلس الشيوخ، على بويندكستر في كثير من التفاصيل، فإنّه لم يبدِ هذه السلوكات إلّا بعد أن استفزّه عضو مجلس الشيوخ نان بشأن جلسة الغداء مع كيسي. اختفى نمط سلوك المشتبه به الذي أبداه بويندكستر عندما توقف نان عن السؤال عن الغداء، وانتقل

obeikandl.com

إلـى موضوع آخر. كلما بدت مجموعة من التغيرات السلوكية بالارتباط مع موضوع محـدد، ينبغي لمكتشف الكذب محاولة التأكـد أنّه فعلاً موضوع ذو علاقة، وتكمن طريقـة القيام بذلـك بترك الموضوع قيد التهمة والانتقال إلـى آخر كما فعل نان، ثـمّ وعلى غيـر المتوقع، العودة إلـى الموضوع ذي العلاقة وملاحظـة ما إذا كانت مجموعة السلوكات تعاود الظهور أم لا.

4. ينبغي أن يحاول مكتشف الكذب معرفة التفسيرات البديلة لسبب حدوث التغيرات السلوكيـة، والتفكير في تفسيرات غير احتمال أن تكون هذه علامات على الخداع. فـإذا كان بويندكستـر كاذباً فـي إجاباته عن الغداء، فربما يكـون منزعجاً للقيام بذلك. فقد عُرف عنه أنه متديّن، وزوجته شمّاسة في كنيستهم، ومن المرجح وجود بعضـ التناقضـ لديه حيال الكذب حتـى لو اعتقد أنه مشروع مـن أجل المصلحة الوطنية. وقد يكون خائفاً من أن يكتشف كذلك، ولكن هنـاك بدائل أخرى لا بدّ من التفكير فيها.

لقد استمرت شهادة بويندكستر أياماً عدّة. لنفترض أنّه خلال استراحة الغداء يتحادث دائمـاً مع محاميه، ويتناول شطيـرة أعدتها زوجته. ولنفترض أنّ في هذا اليوم عندما يسأل زوجتـه مـا إذا كانت قد أعدت لـه الشطيرة تصيح غاضبة، وتقول: جـون، لا أستطيع إعداد شطيرتـك يوميّاً أسبوعـاً بعد أسبوع؛ فلـدي مسؤوليات أخرى أيضـاً. وإن كان زواجهما من النـوع الـذي نادراً ما يُنفّس فيه عـن الغضب فقد يكون بويندكستر متضايقـاً لهذه الحادثة. وعندمـا يسألـه نان لاحقاً فـي ذلك الصباح عن الغـداء، ويذكر تناولهمـا الشطائر، تعاوده العواطـف التـي لم تُحلّ بشـأن الخلاف مع زوجته، وتلـك المشاعر هي ما نـراه الآن، وليس الذنـب للكذب حيـال بعض جوانب العلاقة بيـن إيران– والكونترا، أو الخـوف من انكشاف تورطه في هذه القضية. لا يوجد لدي أيّ وسيلة لمعرفة ما إذا كان هذا التخمين مستنداً إلى أسسٍ أم لا، وتلك هي النقطة التي أريد إثارتها.

المقدم السابق أوليفر نورث

ينبغـي لمكتشف الكـذب محاولة التفكيـر بالتفسيـرات البديلة غير الكـذب، وتجميع المعلومات التي يمكن أن تساعد على استبعاد التفسيرات البديلة، وما كشف عنه بويندكستر هو أنّ هناك أمراً حسّاساً بشأن الغداء مع كيسي، ولكننا لا نعلم ما هو. وعليه، يجب ألّا نقفز إلى نتيجة أنه كاذب من غير استبعاد التفسيرات الأخرى.

قدرة أوليفر نورث على الأداء

توضّـح شهادة العقيـد نورث خلال جلسـات التحقيق في قضية إيـران– كونترا نقطة أخرى نوقشت في كتاب قول الأكاذيب. يبدو نورث مثالاً جيداً لما أسميه (ممثّل بالفطرة)[11].

ولا أقصد الإشارة إلى أنّ نورث كان فعليّاً يكذب (على الرغم من إدانته في شهادته الأولى أمام مجلس الشيوخ)، ولكن لن نستطيع معرفة إن كان كاذباً من سلوكه؛ فإن اضطر إلى الكذب فسيكون مقنعاً جدّاً، وأداؤه مقنع جدّاً وقابلٌ للتصديق(12).

أظهرت استطلاعات الرأي العام آنذاك، أنّ نورث كان محطّ إعجاب الشعب الأمريكي الكبير، وهناك أسباب كبيرة تدعوه للاستئناف، وربما يُنظر إليه على أنه داود ضد جوليت؛ حكومة قوية مقابل لجنة مجلس الشيوخ. أما آخرون، فساعده ذلك الزّيّ الذي يرتديه. وربما يكون قد ظهر على أنّه كبش فداء، وتحمل المسؤولية ظلماً عن الرئيس، أو عن تصرف وكالة الاستخبارات المركزية. إحدى السمات التي تميز فناني الأداء الطبيعي هو أنّه يجب تصديقهم ونحن نستمتع بأدائهم، وليس هناك سبب للاعتقاد أنّ هؤلاء الأشخاص يكذبون أكثر من الأشخاص العاديين (على الرغم من أنهم قد يقرّون أكثر؛ لأنهم يعلمون أنهم يستطيعون الإفلات بالكذب)، ولكنهم عندما يكذبون تكون أكاذيبهم سلسة.

تثير شهادة نورث قضايا أخلاقية وسياسية حيال مشروعية الكذب من قِبَلِ المسؤول العمومي. سأناقش هذا الحدث في الفصل القادم، وأحداثاً تاريخية أخرى.

الفصل العاشر

الكذب في الحياة العامة

فــي الفصل السابــق، وصفت نتائج أحدث البحوث، والبحوث قيــد الدّراسة. واستندت إلــى خبرتــي في تعليم مكتشفي الكــذب المحترفين. لا يعتمد هذا الفصــل على دليل علمي. ولكنــه يعتمــد على تقييماتــي الشخصية التي يفيد بهــا التفكير بطبيعة الكــذب والمحاولات البحثية لفهم السياق الأكبر الذي أعيش فيه.

تبرير أوليفر نورث للكذب

فــي إحــدى جلسات شهادتــه، اعترف العقيد نــورث أنّه قبل سنوات كــذب على مجلس الشيوخ بشأن تحويل الأموال الإيرانية للكونترا في نيكاراغوا المؤيدة للولايات المتحدة. وقال: إنّ الكــذب ليســ سهلاً عليّ، ولكن علينا أن نضع في الميزان الفــرق بين الأرواح والأكاذيب. كان نــورث يقتبســ المسوِّغ التقليدي للكذب الذي ناقشه الفلاسفــة لقرون عدّة، وماذا علينا قولــه لرجل يلوّح ببندقيته ويسأل: أين أخوك؟ سوف أقتله. لا يعدُّ هذا التّلويح معضلة لدينا، فلــن نكشــف عن مكان وجود أخينا، بل سنكذب ونعطي موقفاً مزيفاً. وكما قال أوليفر نورث: إذا كانــت الحياة بحــدّ ذاتها على المحك، فعليــك بالكذب. ويمكن ملاحظــة المثال الأكثر واقعية في التحذيرات التي يصدرها الأهل لأطفالهم الحاملين المفاتيح وعائدين إلى منازل ذويهــم بعد عودتهم مــن المدارس؛ ليظلوا من غير رقابة لحين عودة ذويهم عما يقولونه إذا قرع غريب ما باب منزلهم.

يُطلب إليهم القول أنهم ليسوا وحدهم في المنزل، والكذب والادعاء أنّ ذويهم في قيلولة. في كتابه الصادر بعد أربع سنوات من جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ، وصف نورث مشاعره حيال المجلس وحرج قضيته، قائلاً: «كان كثير من أعضاء مجلس الشيوخ وموظفيهم أشخاصاً أصحاب امتيازات، تخلّوا عن المقاومة النيكاراجوية من غير خجل، وتركوها تحت رحمة عدو قوي ومسلح تسليحاً جيداً. والآن، أرادوا إذلالي للقيام بما كان عليهم القيام به! (ص. 50)... لم أرَ نفسي يوماً فوق القانون، ولم يكن في نيَّتي القيام بما هو غير قانوني. لقد اعتقدت دائماً أنّ تعديلات بولاند لم تمنع مجلس الأمن القومي من دعم الكونترا، وما زلت أعتقد ذلك. وقد اشتملت أكثر التعديلات صرامة على ثغرات استخدمناها لضمان عدم التخلي عن المقاومة النيكاراجوية[1]». اعترف نورث في كتابه، أنّه ضلّل أعضاء مجلس الشيوخ في عام 1986م عندما حاولوا معرفة ما إذا كان يقدم مساعدة مباشرة للكونترا أم لا.

إنّ منطق كذب نورث في الدفاع عن الأرواح لا مسوّغ له؛ لأنه أولاً، غير متأكد من أن خياره كان واضحاً. فقد ادعى أنّ الكونترا سيُقضى عليهم؛ بسبب تعديلات بولاند، التي حظر مجلس الشيوخ بموجبها، في مرحلة معينة، أي مساعدة (قتاليّة) لهم، لكن لم يكن هناك توافق في الآراء بين الخبراء في أنّ حجب هذه المساعدات سيعني القضاء على الكونترا. لقد كان حكماً سياسيّاً، اختلف معه معظم الديمقراطيين والجمهوريين بشدة، وهذه ليست مقاربة لليقين أنّ القاتل الملتزم الذي يهدّد بالقتل سيفعل ذلك.

والاعتراض الثاني لادعاء نورث أنه يكذب لحماية الأرواح هو مشكلة المتلقِّي من أكاذيبه. فلم يكن يكذب على الشخص الذي أعلن عن نيته القتل، ولو كان القتل سيحدث، فسيكون من يقوم به هو الجيش النيكاراجوي وليس أعضاء مجلس الشيوخ.

وفي حين قد يدّعى الذين يختلفون مع تعديلات بولاند أنّ هذه ستكون النتيجة، فإنّها لم تكن النّيّة المعلنة لدى أولئك الذين صوتوا على التعديلات، ولا يمكن القول هذا ما يسعون إليه عمداً، حتى لو لم يكن ذلك معلناً في ذلك التشريع.

اختلف الحكماء والفضلاء عما ستكون عليه نتائج حجب المساعدة (القتاليّة)، وما إذا كانت تعديلات بولاند قد سدّت الثغرات جميعها. لم يستطع نورث معرفة ذلك لحماسته، أو أنه لو رأى ذلك فعلاً فلن يهتم بعدم وجود أيّ حقيقة يتفق عليها العقلاء جميعهم. وكانت تتمثل غطرسة نورث في إعطاء حُكمه وزناً أكبر مقارنة بحكم أغلبية أعضاء مجلس الشيوخ، وللتصديق أنّ ذلك كان مشروعاً لتضليل المجلس.

والاعتراض الثالث على منطق نورث بالكذب لحماية الأرواح هو أن كذبته انتهكت عَقْداً أبرمه يمنعه من الكذب على المجلس، فلا أحد ملزم بالرّدّ بصدق على القاتل الملتزم. تنتهك أفعال القاتل المعلن عنها القوانين التي نؤيدها ويؤيدها، فضلاً على أنّ أطفالنا غير ملزمين بالصدق تجاه الغريب الذي قرع باب البيت، على الرغم من أنّ الأمر قد يصبح أكثر غموضاً إذا ادعى ذلك الغريب أنّه في محنة ما، ولكنّ الجميع على كلّ حال ملتزم بالشهادة بصدق أمام لجنة التحقيق في المجلس، ويمكن أن يُقاضى بسبب الكذب. كان لدى نورث أسباب إضافية ليكون صادقاً بحكم مهنته؛ لقد أقسم العقيد نورث في الجيش للمحافظة على الدستور، ومن خلال الكذب على المجلس، انتهك نورث المقدمة الدستورية لتقسيم المسؤولية بين فرعي الحكومة، وخصوصاً قسم التحكم في الميزانية الذي يعطيه الدستور للكونغرس؛ ليتفحصه، مقابل السلطة التنفيذية للقانون[2]. لم يكن نورث من غير وسيلة لو شعر أنه مجبر على تنفيذ السياسات التي اعتقد أنها تهدد بطريقة غير أخلاقية الآخرين للخطر، وكان من الممكن أن يستقيل ثم يتحدث علناً ضد تعديلات بولاند.

يستمر الجدل اليوم إذ يُقاضى مسؤولو وكالة الاستخبارات المركزية الذين يُزعم أنّهم كذبوا على مجلس الشيوخ. وقد نُوقش مؤخراً في المجلس سؤال ما إذا كانت هناك مجموعة قواعد خاصة بمسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية، والذين بسبب الطبيعة السرية لعملهم، قد لا يكونون ملزمين بالصدق أمام المجلس. ولمّا كان نورث يتلقى تعليماته من مدير وكالة الاستخبارات المركزية كيسي، يمكن تبرير أفعاله على أنّه ينفّذ معايير موظفي تلك الوكالة. ذكر ديفيد ويبل مدير رابطة ضباط وكالة الاستخبارات المركزية السابقين قائلاً: «من وجهة نظري، إنّ كشف أقلّ قدر ممكن للمجلس إذا تمكن أحدهم من الإفلات بذلك ليس أمراً سيئاً، وأنا نفسي أجد صعوبة في لوم هؤلاء الرجال[3]». وقال راي كلاين ضابط متقاعد

مـن الاستخبارات المركزية: «في التقليـد القديم للاستخبارات المركزية، شعرنا أنه ينبغي حمايـة كبار ضبّاط الموظفين مـن التعرض للخطر[4]». يرى ستانسفيلـد تيرنر مدير وكالة الاستخبـارات المركزيـة في عهـد الرئيس جيمي كارتـر مـن 1981 – 1977م، وجوبَ عدم تصريـح الرئيس للاستخبارات بالكذب على مجلس الشيوخ، ويجب أن يكون معلوماً لموظفي الوكالة عدم حمايتهم إذا كذبوا[5].

إنّ مقاضـاة نـورث، و بويندكستر، وحديثاً مسؤولَي وكالـة الاستخبارات المركزية الآن فيـرز، وكلير جورج، بالكذب على المجلس قد تنقـل رسالة ما. إنّ جورج هو المسؤول الأعلى فـي وكالة الاستخبارات الذي يُقاضى بتهمة الكذب على لجنة المجلس التي تحقق في قضية إيـران– كونتـرا في 1987م. ولأنــه يُعتقد على نطاق واسع أنّ مديرهـا كيسي لم يلتزم بتلك القواعـد، يمكن للمرء القـول: إنّ من الخطأ معاقبة الأشخاص الذيـن وجهوا للاعتقاد على أنهم لا يقومون بما يريده الرئيس فحسب، بل يجب حمايتهم أيضاً إذا تعرضوا للخطر.

الرئيس ريتشارد نيكسون وفضيحة ووترغيت

ربمـا يكون الرئيس الأسبق نيكسـون المسؤول الحكومي الأكثر إدانة بالكذب، وكان أول رئيس يقدم استقالته، ولكن لم يكن ذلك بسبب كذبه.

ولم يُفرض عليه تقديم الاستقالة؛ لأنّ الأشخاص الذين كانوا يعملون في البيت الأبيض ضُبطوا في مكتب ووترغيت ومجمع الشقق في شهر يونيو 1972 يحاولون اقتحام مقر الحزب الديمقراطـي، بـل كان التستر الـذي اتهم به، والأكاذيـب التي قالهـا للمحافظة على ذلك. وكشفـت أشرطة المحادثات التسجيلية التـي سُجِّلت في البيت الأبيض، والتي كُشفت للعموم لاحقـاً، أنّ نيكسون قال في ذلـك الوقت: «لا آبه بما يحدث، أريد منـك المماطلة والتسويف بذلـك، والسمـاح لهم بالمرافعة على التعديل الخامس أو أيّ شيء آخر، فإن كان ذلك منقذاً فسوف ينقذ الخطة.»

نجـح التّستّـر مدّة سنـة تقريباً، حتى قـال أحد المُدانيـن لاقتحـام ووترغيت جيمس ماككـورد للقاضـي: «إنّ الاقتحام كان جزءاً مـن مؤامرة أكبر. بعد ذلك، ظهـر أنّ نيكسون

سجّل المحادثات التي دارت في المكتب البيضوي جميعها. وعلى الرّغم من محاولة نيكسون إخفاء المعلومات التي تدينه في هذه الأشرطة كلّها، فقد كان فيها دليلٌ كافٍ كي تقدم اللجنة القضائية موادّ إقالته، وعندما أمرت المحكمة العليا نيكسون بتسليم الأشرطة لهيئة المحلفين، قدم استقالته في التّاسع من أغسطس .1974م.

والمشكلة كما أراها لم تكن بكذب نيكسون؛ لأني أؤكد أنّ بعض الزعماء يفعلون ذلك أحياناً، بل كان ما كذب به نيكسون، ودافعه للكذب، وعلى من كذب، لم تكن هناك محاولة لتضليل حكومة أخرى، بل إنّ الشعب الأمريكي هم من كانوا ضحية كذبه. لم يكن هناك ادعاء محتمل للتبرير من حيث الحاجة إلى تحقيق أهداف السياسة الخارجية، ولقد أخفى نيكسون معرفته بالجريمة، وهي محاولة سرقة وثائق من مكتب الحزب الديمقراطي في مباني ووترغيت، وكان دافعُه البقاءَ في منصبه، وعدم المخاطرة برفض الناخبين له إن علموا أنه عرف عن انتهاك الذين يعملون معه للقانون؛ لتحصيل مكاسب في الانتخابات المقبلة.

اتهمت المادة الأولى من المساءلة نيكسون بإعاقة العدالة، واتهم بالمادة الثانية بإساءة استخدام سلطات منصبه وفشله في ضمان تنفيذ القانون، واتهم بالمادة الثالثة بعصيان مذكرات الجلب بالعمد الصادرة من اللجنة القضائية. علينا ألاّ ندين نيكسون ببساطة؛ لأنه كان كاذباً، مع أنّ هذه تُهم متكررة واجهها نيكسون من خصومه، وإلا فلن يستطيع الزعماء القيام بعملهم إذا حُرموا من الكذب بصورة مطلقة.

كذبة الرئيس جيمي كارتر المشروعة

يُعدّ ما حدث خلال مدّة رئاسة الرئيس السابق جيمي كارتر مثالاً جيداً للظرف الذي يُنظر فيه إلى أنّ كذبَ موظف عمومي مشروعٌ. انتُخب الحاكم السابق لجورجيا كارتر عام 1976 رئيساً بعد أن هزم جيرالد فورد الذي تولّى الرّئاسة بعد استقالة نيكسون وَعَدَ كارتر في حملته الانتخابية استعادة الأخلاق في البيت الأبيض، بعد سنوات من المحاولة وفضيحة ووترغيت، وكانت السمة المميزة لحملته نظره إلى آلات التصوير التّلفازيّة وقوله ببساطة إنّه لن يكذب على الشعب الأمريكي، ولكن بعد ثلاث سنوات، كذب مرّات عدّة لإخفاء خططه لإنقاذ الرهائن الأمريكان في إيران.

خلال السنوات الأولى من رئاسة كارتر، أُطيح بشاه إيران الذي طالما حصل على الدعم الأمريكي، بالثورة الإسلامية الأصولية، وعندما أُبْعِدَ منفياً، سمح له كارتر بالمجيء إلى الولايات المتحدة لتلقي العلاج الطبيّ، فاستولت عناصر مسلحة (ميليشيات) إيرانية؛ بسبب غضبها من ذلك على السفارة الأمريكية في طهران، واحتجزوا ستين رهينة. في حينها، استمرت الجهود البينيّة بين الدّولتين لتسوية أزمة الرهائن لأشهر من غير جدوى، وفي الوقت الذي أحصى فيه مذيعو الأخبار على شاشات التلفاز عدد الأيام ثمّ الشهور التي احتُجزَ فيها الأمريكان أسرى.

بعد احتجاز الرهائن بقليل، أمر كارتر جيشه بالتدرب لعملية الإنقاذ، ولم يتم إخفاء ذلك التدريب، ولكنّ ممثلي الإدارة أدلوا بإفادات مزيفة باستمرار؛ للتقليل من أهمية الشكوك عما كانوا ينوون عمله. ولأشهر عدّة، ادعى كلّ من البنتاغون والبيت الأبيض وإدارة الدولة أنّ مهمة تحرير الرهائن كانت مستحيلة التنفيذ. وفي الثّامن من يناير من عام 1980م، كذب الرئيس كارتر في مؤتمر صحفي قائلاً: «إنّ هذه العملية عرضة للفشل، وقد يكون مصيرها قتل». وفي أثناء قوله ذلك كانت قوة الدلتا العسكرية تتدرب لعملية الإنقاذ في الصحراء الجنوبية الغربية في الولايات المتحدة.

كذب كارتر على الشعب الأمريكي؛ لأنّه علم أنّ الإيرانيين كانوا يستمعون لما يقوله، وأراد تهدئة العناصر المسلّحة الإيرانية التي تحرس الرهائن؛ ليشعروا بالأمان، وجعل كارتر سكرتيره الصحفي جودي بويل ينكر أنّ الحكومة كانت تخطط لإنقاذ الرهائن في اللحظة نفسها التي كانت فيها مهمة الإنقاذ تتقدم على قدم وساق، وكتب كارتر في مذكراته: «إنّ أيّ اشتباه للعناصر بمحاولة الإنقاذ سوف يهدّد خطّتنا بالفشل؛ إذ يعتمد النجاح على عنصر المفاجأة[6]» تذكّر أنّ هتلر كذب أيضاً لكسب ميزة المفاجأة لدى الخصم، ونحن ندين هتلر، لا لأنه كذب بل لأهدافه وأفعاله. وعلى هذا، لا يُعدُّ كذب الزعيم الوطني لكسب ميزة على العدو خطأً في حدّ ذاته.

كان الإيرانيون الذين انتهكوا القانون الدولي من خلال احتجازهم موظفي السفارة الأمريكية رهائن، هم الهدف الرئيس في أكاذيب كارتر. ولم تكن هناك طريقة لخداعهم من غير خداع الشعب الأمريكي والمجلس، وكان الدافع هو حماية القوة العسكرية الخاصة بنا، لأجل قصير، على الرغم من إثارة بعض أعضاء المجلس مسألة ما إذا كان على كارتر

إبلاغهم بالمهمّة مسبقاً. ينصّ قرار قانون الحرب: ادعى كارتر أنّ عملية الإنقاذ كانت عملاً رحيماً، وليست عملية حربية. فيما بعد، أدين كارتر؛ لأنّ مهمة الإنقاذ فشلت، وليس لأنه خرق وعده بعدم الكذب.

كتب ستانسفيلد تيرنر مدير وكالة المخابرات المركزية في أثناء رئاسة كارتر، عن العلاقات الإيرانية – الكونترا، وحاجة مسؤولي المخابرات المركزية إلى توخّي الصدق مع مجلس الشيوخ، إضافة إلى أنّه أثار مسألة ما عليه فعله لو سأله مجلس الشيوخ ما إذا كانت المخابرات تُعِدُّ لمهمة إنقاذ، فقال: «كنت سأمر بمرحلة صعبة عند الإجابة، وأرجو أن أكون قد قلت شيئاً من قبيل أعتقد أنه من غير المناسب الحديث عن أيّ خطط جديدة لمعالجة مشكلة الرهائن لئلا يستنتج منها استدلالات غير صحيحة، وربما تسربت هذه الاستنتاجات للإيرانيين. بعد ذلك، ربما أستشير الرئيس عما إذا وجب علي العودة والإجابة عن السؤال بصدق(7)». لم يقل السيد تيرنر ما الذي عليه فعله لو أنّ الرئيس كارتر طلب إليه الرجوع إلى المجلس، وإنكار وجود أيّ خطط لإنقاذ الرهائن.

أكاذيب ليندن جونسون عن حرب فيتنام

كان الإخفاء الأكثر خطورة ما قام به الرئيس الأسبق ليندن ب. جونسون بإخفائه الحقائق الصّادمة عن الحرب في فيتنام عن الشعب. لقد فاز جونسون بالرئاسة بعد اغتيال جون ف. كيندي عام 1963م، ولكنه خاض الانتخابات عام 1964م. وفي أثناء حملته الانتخابية، قال السيناتور، وخصم جونسون الجمهوري من أريزونا، باري جولد ووتر: «إنه قد يكون على استعداد تام لاستخدام الأسلحة النووية لكسب الحرب. في حين اتخذ جونسون الوجهة المعاكسة، قائلاً: لن نرسل أولادنا الأمريكان تسعة أو عشرة آلاف ميل بعيدين عن ديارهم للقيام بما يفترض أن يقوم به الأسيويون أنفسهم. وبمجرد انتخابه واقتناعه باحتمال كسب الحرب من خلال إرسال قواته، أرسل نصف مليون من الفتيان الأمريكان إلى فيتنام خلال السنوات القليلة اللاحقة، وانتهى الأمر بإسقاط أمريكا لقنابل على فيتنام أكثر مما استخدم خلال الحرب العالمية الثانية.

اعتقـد جونسون أنه سيكون في موقف قوي للمفاوضة بنهاية مناسبة للحرب، فقط إذا اعتقد الفيتناميون الشماليون أنّ الرأي العام الأمريكي يدعمه؛ لذا، اختار جونسون ما كشفه للشعب الأمريكي عن تقدم الحرب، وأخبر قادته العسكريين أنه أراد نقل صورة أفضل نجاح ممكن للأمريكيين، مقابل فشل الفيتناميين الشماليين والفيتكونغ. وبعد مضي بعض الوقت، كانـت تلك المعلومات الوحيدة التي تلقاها من القـادة الميدانيين في فيتنام، ولكن المهزلة انكشفت بما حدث في كانون الثاني من عام 1968م؛ إذ كشف هجوم الفيتناميين الشماليين والفيتكونـغ، خـلال موسم عطلة التبت على الأمريكان للعالم مـدى بُعد الأمريكان عن كسب الحـرب، وحدث هجوم التبت خلال الحملـة الانتخابية الرئاسية الثانيـة. قال عضو مجلس الشيوخ روبرت كينيدي الذي نافس جونسون بصفته مرشح الحزب الديمقراطي: «إنّ هجوم التبت حطم الوهم الذي أخفينا من خلاله واقعنا المرّ حتى عن أنفسنا». أعلن جونسون بعد أشهر، قراره بعدم الترشح للانتخابات.

لا توجـد طريقة سهلة في ظـلّ الدّيمقراطيّة لتضليل أمة أخرى من غير تضليل شعبك، وذلـك مـا يجعل الخداع سياسة خطيرة جدّاً إذا كان نهجاً معتمداً. إنّ خدعة جونسون بشأن تقـدم الحـرب، لم تكن مسألة أسابيع أو حتى شهور فمن خـلال الإيهام بنصر وشيك، حرم جونسـون الناخبين من المعلومات التي يحتاجون إليها لاتخاذ القرارات السياسية الصّائبة، ولا يمكـن للديمقراطيّـة العيش إذا تحكّم حـزب سياسي معين في المعلومـات التي يمتلكها الناخبون حيال أمر حاسم يؤثر في تصويتهم لهذا المرشح أو ذاك.

وكمـا لاحظ عضـو مجلس الشيـوخ كينيدي، فإنّني أشـكّ أنّ ثمن هـذه الخدعة يكمن فـي أنّ جونسـون وبعض مستشاريه على الأقل كادوا أن يصدقـوا أكاذيبهم. ليس المسؤولون الحكوميـون وحدهم عرضة للوقوع في هذا الفخّ، وأعتقد أنّـه كلما كذب أحدهم أكثر أصبح الكـذب عليـه أسهل، وفي كلّ مرة تتكـرّر فيها الأكذوبة، يكون هناك اعتبـار أقل بما إذا كان من الصحيح الاندماج بالخدعة. بعد تكرار الكذبة، قد يصبح الكاذب مرتاحاً جدّاً بحيث لا يهتم بحقيقة أنّه يكذب، وإذا ما تمّ دفعه أو تحديه، فسيتذكر الكاذب أنه كذلك. وعلى الرّغم مـن أنّ جونسـون أراد أن يصدق ادعاءاته المزيفة بشان تقدم الحرب، وربما يكون في بعض الأحيان أعتقد أنها صادقة، فإنّني أشكّ في أنه نجح بالكامل في خداع نفسه.

كارثة مكّوك الفضاء تشالنجر وخداع الذات

أنّ يَخدعَ الشخص نفسَه أمر مختلف تماماً، ولا يدرك الشخص في خداع الذات أنه يكذب على نفسه، ولا يعرف دافعه الشخصي لخداع ذاته. أعتقد أنّ خداع الذات نادر الحدوث أكثر مما يدعيه الشخص الملوم لعذر نفسه، بعد حقيقة ارتكابه فِعْلةً ما. أثارت الأفعال التي أدت إلى كارثة مكوك الفضاء تشالنجر موضوع ما إذا كان الذين اتخذوا القرار لإطلاق المكوك، على الرغم من التحذيرات الشديدة عن الأخطار المحتملة، هم ضحايا خداع الذات. وإلاّ، فكيف يمكننا تفسير قرار أولئك الذين عرفوا أخطار المضيِّ قدماً بإطلاقه؟

في الثّامن والعشرين من يناير عام 1986، شاهد إطلاق مكوك الفضاء الملايين على شاشة التلفاز. وأُعلن عنه؛ لأنّ المعلمة كريستا ماك أوليف كانت من ضمن طاقمه، واشتمل الجمهور على كثير من أطفال المدارس بمن فيهم طلاب كريستا، والتي كان يفترض بها أن تعطي طلابها درساً من الفضاء الخارجي، ولكن بعد الإطلاق بثلاث وسبعين ثانية انفجر المكوك، وأسفر عن مقتل روّاده السبعة.

في الليلة التي سبقت الإطلاق، أوصت مجموعة من المهندسين في شركة مورتون ثايكول الشركة التي بنت الصواريخ المعززة بتأخير الإطلاق رسميّاً؛ لأنّ التوقعات بحدوث برودة في الطقس خلال الليل قد تقلل بشدة من مرونة الحلقات المطاطية العازلة المانعة للتسرب، وإذا حدث ذلك، قد يتسبب الوقود المتسرب بانفجار الصواريخ الداعمة، واتصل المهندسون في شركة ثايكول بإدارة شؤون الملاحة الجوية والفضاء (ناسا)، وحثّوا بالإجماع على تأجيل الإطلاق المقرر في صباح اليوم اللاحق.

لقد كان هناك فعلاً ثلاث مرات تأجيل لموعد الإطلاق، وبوعود ناسا أنّ المكوك الفضائي سيكون له جداول متوقعة، تناقش لورانس مولوي مدير المشروع الصاروخي التابع لناسا مع المهندسين في شركة ثايكول، وأفاد بعدم وجود أدلة تأثير للطقس البارد في الحلقات، وتحدث مولوي في تلك الليلة مع مدير شركة ثايكول بوب لند، والذي شهد لاحقاً أمام اللجنة الرئاسية المعنية للتحقيق بكارثة تشالنجر، شهد لند أنّ مولوي أخبره في تلك الليلة أن يضع (قبعة الإدارة) بدلاً من (قبعة الهندسة)، وقد غيّر لند بقيامه بذلك موقفه تجاه الإطلاق، وتجاهل المهندسين الذين يعملون معه. تواصل مولوي مع جو كيلمنستر أحد

نــواب الرئيس في شركة ثايكول، وطلب إليــه التوقيع على إطلاق إشارة البدء، وقد فعل ذلك الساعــة 11:45 مساءً، وأرسل إشــارة عبر النّاسخ (الفاكس) توحــي بالإطلاق لناسا. رفض آلــن ماكدونالد الذي كان مديراً لمشروع ثايكــول الصاروخي التوقيع على الموافقة الرسمية للإطلاق. وبعد شهرين، ترك ماكدونالد وظيفته في الشركة.

اكتشفت اللجنة الرئاسية لاحقاً، أنّ أربعة من كبار المديرين التنفيذيين الرئيسين عن التصريــح بكلّ إطلاق لم يُبلّغوا بالخلاف بين مهندسي ثايكول وفريق إدارة صاروخ ناسا في الليلة التي جرى فيها اتخاذ قرار الإطلاق.

طاقم مكوك الفضاء تشالجنر

وشهــد كلٌّ من روبــرت سيك مدير المكوك فــي مركز كينيدي للفضــاء، وجين توماس مديــر إطلاق **تشالنجر** في مركز كينيدي، وأرنولد الدريتش مدير أنظمة النقل الفضائي في

مركز جونسون للفضاء في هيوستن، ومدير المكوك مور، بعدم إبلاغهم أنّ مهندسي ثايكول يعارضون قرار الإطلاق.

كيف استطاع مولوي إطلاق الصاروخ وهو يعرف احتمال انفجاره؟ يشير أحد التفسيرات إلى أنه أصبح ضحية خداع الذات، وأصبح في الواقع مقتنعاً أنّ المهندسين كانوا يبالغون بما يمكن أن يُعدّ مخاطرة غير ذات شأن، وإذا كان مولوي ضحية خداع الذات، فهل يمكن تحميله المسؤولية لاتخاذه قراراً خائباً؟ لنفترض أنّ شخصاً آخر كذب على مولوي وأبلغه بعدم وجود مخاطرة، فلن نلومه بالتأكيد لاتخاذه هذا القرار غير الصّائب. وهل يختلف الأمر لو أنه خدع نفسه؟ لا أعتقد ذلك، لقد خدع مولوي نفسه حقّاً. والموضوع باختصار، هل كان الأمر خداع ذات، أم حكماً سيئاً؟

لمعرفة ذلك، دعوني أقارن ما أعرفه عن مولوي بأحد الأمثلة واضحة المعالم لخداع الذات التي ناقشها الخبراء الذين درسوا هذا الموضوع[8]. في أيامه الأخيرة، يحتفظ مريض السرطان الذي يعتقد أنه سيشفى، على الرغم من وجود أعراض كثيرة لورم خبيث يتطور بسرعة، وغير قابل للشفاء – باعتقاد غير صحيح؛ الشّفاء. تمسك مولوي أيضاً باعتقاد غير صحيح، معتقداً أنّ المكوك يمكن إطلاقه بأمان، وأعتقد أنه ينبغي استبعاد البديل الذي اعتقد به مولوي بالتأكيد أنّ المكوك سينفجر. يعتقد مريض السرطان أنه سيشفى، على الرغم من وجود دليل عكسي قوي، ويعلم مريض السرطان أنّه أصبح أضعف، وأنّ الألم يتزايد يوماً بعد يوم، ولكنه يصرّ على أنّ هذه نكسات مؤقتة، وكذلك تمسك مولوي باعتقاده الخطأ على الرغم من وجود دليل يدحض اعتقاده هذا. فقد عرف أنّ المهندسين يعتقدون أنّ برودة الطقس ستتلف الحلقات المطاطية، وإذا تسرب الوقود فقد تنفجر الصواريخ، ولكنه استبعد ادعاءاتهم، ووصفها بالمُبالغ فيها.

لا يبلغنا ما وصفت لغاية الآن ما إذا كان مريض السرطان أو مولوي كاذبين متعمدين، أو هما ضحايا خداع الذات، والشرط الحاسم لخداع الذات هو أنّ الضحية لا تدرك دافعها

obeikandl.com

للحفاظ على اعتقادها الزائف.* لا يعرف مريض السرطان باستمرار أنّ خدعته يحفّزها عدم قدرته على مواجهة خوفه من موته الوشيك، وهذا العنصرُ؛ أي عدم إدراك الدافع لخداع الذات، مفقودٌ عند مولوي. عندما أبلغ مولوي لند أنّ يعتمر قبعة الإدارة، أظهر أنه يدرك ما يحتاج عمله إلى الاحتفاظ بالاعتقاد أنّ عملية الإطلاق يجب أن تكون في موعدها المقرّر.

ريتشارد فينمن؛ الفائز بجائزة نوبل في الفيزياء، والذي عُيِّن في اللجنة الرئاسية التي كُلِّفت بالتحقيق بكارثة **تشالنجر**، كتب ما يلي عن العقلية الإدارية التي أثرت في مولوي: «عندما انتهى مشروع القمر، اضطرت ناسا لإقناع مجلس الشيوخ بوجود مشروع لا يستطيع أحد القيام به إلّا هي. وللقيام بذلك، فمن الضروري، في الأقل بدا أنه ضروري في هذه الحالة المبالغة؛ المبالغة في مدى اقتصادية المكوك، والمبالغة في عدد مرات إطلاقه، والمبالغة في الحقائق العلمية العظيمة التي ستُكتشف[9]». أيضاً، قالت مجلة نيوزويك ما يأتي: بدت الوكالة بمعنى ما ضحية دعاياتها وترويجها، وتصرفت كما لو أنّ رحلة الفضاء عاديّةٌ جدّاً وكأنّها رحلة في حافلة.

كان مولوي واحداً من كثيرين في ناسا ممن حافظوا على تلك المبالغات، ولا بدّ أنّه خشي ردّ فعل مجلس الشيوخ إذا أُجِّل إطلاق المكّوك للمرة الرابعة. فالدعاية المتشائمة التي تتناقض ومزاعم ناسا المبالغ فيها، قد تؤثر في اعتمادات المكوك المستقبلية، وربما بدت الدعاية الضارة من تأجيل آخر بحكم المؤكدة لذلك. وكانت خطورة الطقس احتمالاً فقط وليست يقيناً، حتى أنّ المهندسين الذين اعترضوا على الإطلاق لم يكونوا متأكدين تماماً من حدوث الانفجار، وأفاد بعضهم فيما بعد أنّهم فكروا قبل حدوث الانفجار بثوانٍ أنه لن يحدث.

علينا إدانة مولوي؛ بسبب قراره الخائب، وبسبب قراره بإعطاء وجهة النظر الإدارية وزناً أكبر من وجهة النّظر الفنيّة للمهندسين. وذكر هانك شوي الخبير في سلامة الصواريخ،

* لربما أجادت المجموعات المهنية لو أننا أعطيناهم كذبة؛ ليحكموا عليها بالحالة التي يتعاملون معها عادة، ولربما نكون قد عرفنا من مكتشفو الكذب الجيدون بغض النظر عن الألفة الظرفية وليس من هم مكتشفو الكذب الجيّدون الذين يعملون في بيئاتهم المعتادة، واعتقد أن الأمر ليس كذلك ولا يمكن استبعاد هذه الاحتمالية إلا بالمزيد من البحث.

obeikandl.com

والذي راجع الأدلة بناءً على طلب ناسا: «إنّ العيب ليس في التصميم بل في القرار الذي جانبه الصواب، وعلينا ألاّ نفسّر أو نسوق الأعذار لقرار غير صحيح بغطاء خداع الذات، وعلينا إدانة مولوي لعدم إبلاغه مرؤوسيه الذين لديهم السلطة النهائية لقرار الإطلاق»، ويقدم فينمان تفسيراً مقنعاً لسبب تحمل مولوي المسؤولية على عاتقه، قائلاً: «إنّ الأشخاص الذين يسعون إلى موافقة مجلس الشيوخ على مشاريعهم لا يريدون سماع أيّ رأي عن المشكلات والأخطار... إلخ، ومن الأفضل ألّا يسمعوا عنها، كي يكونوا أكثر (صدقاً)، فهم لا يريدون أن يكونوا في موقف الكذب على المجلس! بحيث تبدأ المواقف بالتغير سريعاً: ستقمع المعلومات المختلف عليها من الأساس (فنحن نواجه مشكلة مع الحلقات؛ ويجب أن نعالجها قبل الإقلاع ثانية)، وبابتسامات عريضة ومديرين من الدرجة المتوسطة يقولون: «إذا أبلغتني عن مشكلة الحلقات سيتعين علينا تفكيك المكوك وإصلاحه، أو بالقول: لا، سنبقى على موعد الإطلاق من غير تغييره؛ فبخلاف ذلك سيبدو الأمر سيئاً، أو: لا تقل لي شيئاً، ولا أريد أن أعرف عن ذلك. وقد لا يقولون صراحة: «لا تقل لي شيئاً»، ولكنهم يحاولون أن يثنوا الآخرين عن التواصل الذي يبلغ بالشيء نفسه[10]».

يمكن النظر إلى قرار مولوي بعدم إخبار مرؤوسيه بشأن الخلاف الحاد بإطلاق المكوك أنّه كذبة استغفال. تذكر تعريفي للكذب (في الفصل الثاني ص. 26) وهو أنّ شخصاً يضلّل عمداً وباختياره شخصاً آخر من غير إشعار مسبق بحدوث الخداع. ولا يهمّ ما إذا كانت الكذبة قد تحققت من خلال قول ما هو مزيّف، أو من خلال إخفاء معلومات حاسمة، فتلك خروقات في التقنية فقط؛ أمّا التأثير فنفسه.

إنّ الإشعار المسبق للكذب مسألة حاسمة؛ فالممثلون ليسوا كاذبين، بل منتحلين؛ لأنّ جمهور الممثل يعلم مسبقاً أن دوراً ما سيُؤدَّى. ويتمثّل الأمر الغامض بدرجة أكبر بلعبة البوكر، حيث تسمح القواعد ببعض أنواع الخداع مثل الاحتيال، وفي مبيعات العقارات حيث لا يتوقع أحد من البائعين الكشف بصدق عن سعر البيع الحقيقي في البداية. إذا كان فينمّان محقّاً، وإذا كانت تطلعات ناسا المرتفعة قد ثبّطت التواصل بالقول: «لا تقل لي شيئاً»، عندها يمكن النظر إلى ذلك على أنّه إشعار مُسبق. لقد عرف مولوي وآخرون على الأرجح أنّ الأخبار السيئة، أو القرارات الصعبة، لم يكن يُسمح لها بالوصول إلى المسؤولين الأعلى رتبة، وإذا كان الأمر كذلك فيجب عدم النظر إلى مولوي على أنّه كاذب بعدم إخباره مرؤوسيه؛ لأنهم أذنوا له أن

يخدعهم، وعلموا أنه لم يُبلَّغوا. على وَفْق ما أرى، يتقاسم المرؤوسون الذين لم يُبلَّغوا بعض المسؤولية تجاه الكارثة مع مولوي الذي لم يخبرهم، ويتحمّل المرؤوسون المسؤولية الكاملة، ليس لقرار الإطلاق فقط، ولكن لإنشاء البيئة الوظيفيّة التي عمل فيها مولوي، وأسهموا بالظروف التي قادته لاتخاذ قرار خاطئ، ولنيته عدم إشراكهم باتخاذ القرار معه.

يلاحظ فينمان الشبه بين الوضع في ناسا من جهة وكيفية شعور المسؤولين متوسطي المستوى في العلاقات بين إيران – الكونترا، مثل بويندكستر من جهة أخرى حيال إخبار الرئيس ريغان عمّا كانوا يفعلونه، وإيجاد بيئة يصدّق فيها المرؤوسون أنّ أولئك الذين يمتلكون السلطة العليا ينبغي عدم إعلامهم بالأمور التي يمكن لومهم عليها لاحقاً. إنّ توفير سياسة إنكار معقولة للرئيس يدمر الحكم. لقد قال الرئيس هاري ترومان: «تتوقف المسؤولية هنا بحق؛ لذا، ينبغي للرئيس أو الرئيس التنفيذي أن يراقب، ويقيّم، ويقرّر، ويكون مسؤولاً عن قراراته. وقد يكون أيّ اقتراح غير ذلك من غير فائدة على المدى القصير، ولكنه يعرّض أي منظمة هرمية للخطر، ويشجع على عدم الانضباط، وعلى وجود بيئة للخداع المشروع».

القاضي كلارنس ثوماس والأستاذة أنيتا هيل

تقدم الشهادة المتضاربة على نطاق واسع التي قدمها المرشح للمحكمة العليا كلارنس ثوماس وأستاذة القانون أنيتا هيل في خريف عام 1991م عدداً من الدروس الواقعية عن الكذب. بدأت المواجهة التّلفازيّة قبل موافقة مجلس الشيوخ على ترشيح ثوماس للمحكمة العليا بأيام، وشهدت الأستاذة هيل أمام اللجنة القضائية في مجلس الشيوخ أنّها كانت ضحية للتحرّش الجنسيّ بين عامي 1981 و1983م، عندما كانت مساعدة كلارنس ثوماس، في البداية في مكتب الحقوق المدنية في وزارة التعليم، ثم عندما أصبح ثوماس رئيس لجنة تكافؤ فرص العمل، وقالت عن ثوماس: «لقد تحدثَ عن أفعال رآها في أفلام إباحية مرتبطة بهذه الأمور، وتحدث في مناسبات عدّة عن قدراته الجنسية... وهدّدني قائلاً: «إنْ أخبرتِ يوماً أحدهم عمّا أقوم به من تحرّش فستكون نهايتي»، ولقد تحدثت أنيتا بهدوء تام، وكانت أقوالها متسقة ومقنعة لدى كثير من المراقبين.

بعد شهادتها في الحال، أنكر القاضي ثوماس اتهاماتها بقوله: لم أقل أو أفعل ما تدَّعيه أنيتا هيل، وأودّ البدء بقول قاطع لا لُبس فيه: إنني أنكر الادعاءات الموجهة ضدي في هذا اليوم كلّها، وادعى الغضب على اللجنة لجرحها كرامته واستقامته، وادّعى كذلك أنّه ضحية هجوم بدوافع عنصريّة».

وتابع القول: «لا أستطيع التخلص من هذه الاتهامات؛ لأنها أسوأ الصور النّمطيّة الموجودة في أذهاننا عن الرجال السّود في هذا البلد. مشتكياً بشأن المحنة التي جعله مجلس الشيوخ يعانيها»، ثمّ قال: «كنت أفضل تلقّي رصاصة قاتلة بدل عيش هذا الجحيم»، وتابع: «إنّ جلسة الاستماع هي إعدام عالٍ التقنية للسود». وكان شعار مجلة **التايم** الرئيس في ذلك الأسبوع: «كما يبدو على الأمة، يقدم شاهدان من ذوي المصداقية وجهات نظر متضاربة عما حدث قبل عَشْرِ سنوات تقريباً». وكتبت نانسي غيبس أحد كتّاب الأعمدة في **التايم**: حتى بعد الاستماع إلى الشهادات المؤلمة جميعها، فمن يستطيع الثقة بمعرفته لما حدث حقّاً؟ ومن الذي كان الكاذب الأكبر؟

كلارينس ثوماس

أُشدِّد هنا على السلوك الظاهر لدى هيل وثوماس في أثناء شهادة كلّ منهما، وليس على شهادة ثوماس أمام اللجنة قبل قضية أنيتا هيل، ولا تاريخهما، أو شهادة الشهود الآخرين عنهما، وبالتفكير في سلوكهما فقط، لم أجد ما هو جديد أو خاص. فقد استطعت ملاحظة ما كان واضحاً للصحافة فقط، وهو أنّ كلَّ واحدٍ منهما تحدث وتصرف بأسلوب مقنع، ولكن هناك دروس ينبغي تعلمها من هذه المواجهة عن الكذب والسلوك.

لم يكن من السهل على أيٍّ منهما الكذب متعمداً أمام الأمة جمعاء، وكانت الأخطار على كلٍّ منهما مرتفعة جدّاً. فكر فيما يمكن أن تؤول إليه الأمور لو تصرف أيٌّ منهما بطريقة يمكن الحكم عليه من خلالها بالخطأ أو الصواب، كما في الكذب أمام وسائل الأعلام والشعب الأمريكي، ولكن ذلك لم يحدث؛ إذ، بدا أنهما يعنيان ما يقولان.

لنفترض أنّ هيل كانت صادقة، وقرّر ثوماس الكذب عمداً. ولو أنّه رجع إلى الفصل الثاني من كتاب (**الأكاذيب**) لوجد نصيحتي؛ أفضل طريقة لإخفاء الخوف من انكشاف الكذب هي وضع قناع لعاطفة أخرى، وباستخدام المثال من رواية أبدايك الذي تقدم ذكره سابقاً، وكيف استطاعت الزوجة اللعوب خداع زوجها المتشكك من خلال الهجوم، وتصنّع الغضب، وجعله مدافعاً؛ بسبب عدم تصديقه إياها. هذا ما فعله كلارنس ثوماس تماماً، فقد كان غضبه شديداً، ولم يكن هدفه أنيتا هيل بل مجلس الشيوخ، وامتلك الميزة الإضافية المتمثلة بحشد التعاطف لدى كلّ من يشعر بالغضب من السياسيين بما يشبه القتال بين داود وجوليت.

وكان من الممكن أن يخسر ثوماس التعاطف لو أنه هاجم هيل، ولخسر أعضاء مجلس الشيوخ التعاطف لو أنّهم هاجموا ثوماس الرجل الأسود الذي يقول: «إنه سيُعدم؛ بسبب الغطرسة». ولو أنه أراد الكذب فسيكون من المنطق ألّا يشاهد شهادة أنيتا هيل كي لا يسأله أعضاء مجلس الشيوخ عنها.

أنيتا هيل

ربمـا يرضي هذا النّهج مـن التفكير الذين عارضوا ثوماس قبل جلسة الاستماع، ولكنه لا يثبـت أنه يكذب، وربما يكون قـد هاجم لجنة مجلس الشيوخ لو كان صادقاً. ولو كانت هيل هـي الكاذبـة، لكان لدى ثوماس الحقّ كلّه بالغضب من مجلس الشيوخ؛ لسماعهم ادعاءها، والحديث عـن ذلك في اللحظة الأخيرة على الملأ عندما بدا أنّ خصومه السياسيين فشلوا فـي منع ترشيحه. لو كانت هيل هـي الكاذبة، لكان ثوماس متضايقاً وغاضباً من عدم قدرته على مشاهدة شهادتها على التلفاز.

هــل كانت أنيتــا هيل تكذب؟ أعتقد أنّ ذلك غير وارد، وإذا، كانت كذلك، لكانت خائفة مــن عدم تصديقها، إضافــة إلى إنه لم تكن هناك علامة على الخــوف من الانكشاف، فقد أدت شهادتهــا ببــرود وهدوء وبتحفّــظ، وبقليل من علامــات العاطفة، لكنّ غيــاب القرائن السلوكيــة علــى الخداع لا يعنــي أنّ الشخص صادق، ولقد كان لدى أنيتــا هيل الوقت الكافي للتحضير لإفادتها والتدرب عليها، ومن المحتمل أن تكون قادرة على أداء ذلك بإقناع، ولكن هذا ليس وارداً.

على الرّغم من الاحتمال الأكبر أن يكون ثوماس هو الكاذب وليس أنيتا هيل، فإنّ هناك احتمالاً ثالثاً على أنّها الأكثر مصداقية. لم يَصْدُقْ أيٌّ منهما، ومع ذلك قد لا يكون أيٌّ منهما قــد كذب أيضــاً. لنفترض أنّ تحرّشاً ما قد حدث، ولكنه ليس بالقدر الذي ذكرته الأستاذة هيــل، وأكثــر مما اعترف به القاضي ثوماس، ولو أنّ مبالغتهــا وإنكاره تكرّرا مرة بعد أخرى، فستكــون هناك فرصــة ضئيلة أن يتذكر كلّ منهما في وقت شهادتهمــا أنّ ما يقوله الآخر لم يكن صحيحاً تماماً.

لربمــا نسي ثوماس ما فعله، أو حتــى إذا تذكر ما فعل فسيكون نسخة محسّنة، وعندها سيكــون غضبــه تجاه اتهاماتها له ما يسوّغه تماماً؛ فهو لا يكذب كما يعتقد، ويتذكر أنّه يقول الصــدق، واذا كان لدى هيل سببٌ لكره ثوماس لسبب تافــه، أو لإهانة حقيقية، أو متصوَّرة، أو لأيّ سبب آخر، فقد تزخرف، وتضخّم، وتفسّر ما قد حدث فعلاً، وهي أيضاً تقول الصدق كما تعتقد وتتذكر. يشبه هذا خداع الذات، والفرق الرئيس أن يكون كذلك في هذه الحالة هو أنّ الاعتقاد الزّائف يتطور ببطء بمرور الوقت، من خلال التكرار الذي تزداد تفاصيله في كلّ مرة، قد لا يعتقد بعض من يكتب عن خداع الذات أنّ هذا فرق ذو أهمية.

ليســت هناك طريقــة لمعرفة أيّ التفسيرات هي الصحيحة مــن سلوكهم، وما إذا كان هــو الكاذب، أم هي، أم أنّ الاثنين كاذبان؟ ولكن عندما يصرّ المتّهم على موقفه بقوّة حيال التحرش الجنســي، وعمن ينبغي أن يكــون في المحكمة العليا، وعن أعضــاء مجلس الشيوخ وعــن الرجال... وهلمّ جرّا، فمن الصعب احتمــال عدم معرفة النتيجة التي يَخلصون إليها. وبمواجهة ذلك الغموض، يسعى المستجوِبون إلى الحلّ عن طريق الاقتناع التام أنّهم قادرون

علـى معرفة الصادق مـن السلوك، ويكون ذلك عادة الشخص الـذي كانوا أكثر تعاطفاً معه في البداية.

لا يعنـي ذلك أنّ القرائـن السلوكية على الخداع عديمة الفائدة، ولكن ينبغي لنا معرفة متى تكون ذوات فائدة ومتى لا تكون كذلك، وكيفية تقبُّل الأمر عندما لا نستطيع الحكم على الشخص أنه صادق أم كاذب. هناك قانون تقادمٍ يُسْقِطُ تُهَمَ التحرش الجنسي؛ هذا القانون محدّد بتسعين يوماً. وأحد الأسباب الوجيهة لوجود ذلك القيد يكمن في جدّة القضايا، وربما تكـون القرائن السلوكية على الخـداع أكثر قابلية للكشف. فلو أمكن رؤية كلّ واحد منهم وهو يشهـد في غضون أسابيع من التحرشـ المزعوم، لكانت هناك فرصـة أفضل لمعرفة أيهما يقول الصدق من السلوك، ولربما كانت الاتهامات والإنكار مختلفة.

بلد الأكاذيب

قبـل بضع سنوات، اعتقدت أنّ أمريكا قد أصبحت بلـداً يغصُّ بالأكاذيب: من أكاذيب لينـدون ب. جاكسـون بشأن حرب فيتنـام، وفضيحة نيكسون ووترغيـت، وريغان والعلاقات الإيرانيـة– الكونترا، والغموض المستمر عن دور عضو مجلس الشيوخ إدوارد كينيدي بموت امـرأة صديقة في جابـا كويدك، وانتحال السينـاتـور بايدن الأدبي، إلـى كذبة عضو مجلس الشيوخ السابق غاري هارت خلال الحملة الرئاسية عام 1984م بشأن علاقته الغرامية خارج إطار الزوجية.

ليسـت السياسـة وحدهـا ملفَّعةً بالكـذب؛ فقد لفتـت الأكاذيب في الأعمـال التجارية الأنظار؛ في وولت ستريت، وفضائح القروض والمخدرات، والأكاذيب في الرياضة، مثل قاعة مشاهير كرة القاعدة (البيسبول) لبيت روز؛ لإخفاء لعبة القمار، والرياضي بن جونسون في إخفاء تعاطيه المخدرات.

أمضيـت خمسة أسابيع محاضراً في روسيا في شهر مايو من عام 1990. لقد دُهشت من أنّ الرّوسـ أصبحـوا أكثر صراحة؛ إذ، كنت فيها من قبل أستـاذاً في فولبرايت في عام 1979. فلم يعودوا خائفين من التحدث مع أمريكي، أو انتقاد حكومتهم؛ لقد أتيتُ إلى البلد المناسب. قيـل لي: هذه بلد الأكاذيب! سبعون سنة من الأكاذيب! وقال لي الروس: كيف أنهم عرفوا دائماً

مدى كذب حكومتهم عليهم. وعلى الرّغم من بقائي مدة خمسة أسابيع هناك فقد شاهدت مدى دهشتهم لمعرفتهم مزيداً من الأكاذيب التي لم يشكّوا في وجودها من قبل. والمثال المؤثر كان بالكشف عن الحقيقة المتعلقة بمعاناة شعب لينينغراد في أثناء الحرب العالمية الثانية.

فبعد الغزو النازي الألماني لروسيا في عام 1941م، حاصرت القوات النازية مدينة لينينغراد (سانت بيترسبيرغ حاليّاً) ودام حصارهم تسعمئة يوم، ويقال إنّ مليون ونصف المليون شخص قضوا في لينينغراد من جرّاء المجاعة. وقد ذكر كلّ شخص كبير السّنّ التقيته تقريباً عن أفراد من عائلة واحدة فُقدوا في أثناء الحصار. ولكن عندما كنت هناك، أعلنت الحكومة أنّ عدد المدنيين الذين ماتوا في الحصار قد ضُخِّم. وفي اليوم الذي تحتفل فيه البلاد بالانتصار على النازيين في شهر أيار، أعلنت الحكومة السوفييتية أنّ خسائر الحرب كانت مرتفعة؛ بسبب عدم وجود عدد كافٍ من الضباط لقيادة القوات السوفييتية. وقالت الحكومة: «إنّ القائد السوفييتي ستالين قتل كثيراً من مساعديه من الضباط في عملية تطهير قام بها قبل الحرب».

والأمر لا يقتصر على كشف الأكاذيب الماضية غير المتوقعة، بل تستمر الأكاذيب الجديدة بالحدوث. فبعد تولّي ميخائيل غورباتشوف السلطة، كانت هناك حادثة نوويّة كارثيّة في تشيرنوبيل؛ انتشرت سحابة من الإشعاع على أجزاء من أوروبا الغربية والشرقية، لكنّ الحكومة السوفييتية لم تكشف عن شيء في البداية؛ إذ سجّل العلماء في الدول الإسكندنافية مستوياتٍ عاليةً من الإشعاع في الجوّ. وبعد ثلاثة أيام، اعترف المسؤولون السوفييت أنّ حدثاً جلَلاً قد وقع، وقد لقي اثنان وثلاثون شخصاً حتفهم. وبعد انقضاء أسابيع عدّة، تحدث غورباتشوف علناً، وأمضى معظم الوقت ينتقد ردّة فعل الغرب. لم تعترف الحكومة مطلقاً أنّ الأشخاص الذين لم يُرحلَّوا في وقت مبكر من المنطقة، قد عانى كثيرٌ منهم أمراضاً؛ بسبب الإشعاع. ويقدّر العلماء الروس الآن أنّ ما يقارب عشرة آلاف شخص قد يلاقون حتفهم من جرّاء حادثة؛ تشيرنوبيل.

ولقد عرفت عن ذلك من طبيب أوكراني شاركني المقصورة في رحلة القطار الليلية في الطريق إلى كييف. أخلى مسؤولو الحزب الشيوعي عائلاتهم كما ذكر، في حين، أُبلغ الباقون أنّ الوضع آمن للبقاء. يعالج هذا الطبيب الآن، الفتيات صغيرات السّنّ المصابات

obeikandl.com

بسرطـان المبيض، وهـو مرض لا يكون في هـذه السّنّ المبكرة. وفي جنـاح الأطفال الذين يعانون أمراض الإشعاع، توهّجت الأجسام في الليل، ولم أكن قادراً على التأكد؛ بسبب صعوبة اللغـة مـا إذا كان يتحدث حرفيّاً عن ذلك أم مجازيّاً. قـال الطبيب: «لقد كذب غورباتشوف علينا كما كذب عليهم. إنه يعرف ما حصل، ويعرف أننا نعرف أنه يكذب».

التقيـت بطبيـب نفسـيّ كان مكلّفا بمقابلـة الذين يعيشـون في المناطـق القريبة من تشيرنوبيـل لتقييم كيفية تعاملهم مـع الضغط والتوتر بعد ثلاث سنوات. وأعتقد أنّ محنتهم ستكون أخفّ جزئيّاً إذا لم يشعروا أنّ حكومتهم قد تخلّت عنهم، وكانت توصيته الرسمية أن يتحدث غورباتشوف إلـى الأمة ويقول: «لقد اقترفنا خطأً فادحاً بالتقليل من خطر الإشعاع، وكان ينبغـي لنـا إجلاء الكثيرين بسرعـة أكبر، ولكن لم يتوافر المـكان المناسب لوضعهم. وبمجـرد علمنـا عن خطئنا كان ينبغـي أن نخبركم بالحقيقة المؤلمـة، لكننا لم نفعل ذلك. والآن، نريدكـم أن تعرفوا الحقيقة وتعلموا أنّ الأمة تعاني من أجلكم. سنقدم العناية الطبية التي تحتاجون إليها، ونأمل لكم الخير في المستقبل»، إلا أنّ التوصية ذهبت أدراج الرّياح.

لـم ينتـهِ الغضب بشأن الأكاذيب عن تشيرنوبيل بعد. ففي وقت مبكر من شهر ديسمبر عام 1991؛ أي بعـد مـرور أكثر من خمـس سنوات على الحادثة، طالب البرلمـان الأوكراني بمحاكمة ميخائيـل غورباتشوف وسبعة عشـر آخرين من المسؤولين السوفييـت والأوكرانيين، وقال رئيس اللجنـة التشريعيـة الأوكرانية التي حققـت بالحادثة فلوديمير يافورسكـي: «جميع القيادات، من غورباتشـوف ونزولا حتى معالجـي البرقيّات المرمّـزة، كانوا يدركون مستـوى التلوث الإشعاعي النشط، وذكر القادة الأوكرانيون أنّ الرئيس غورباتشوف أخفى شخصيّاً مدى التّسرّب الإشعاعيّ.

لقد تعلّم السوفييت لعقود أنهم إذا أرادوا إنجاز أيّ شيء فإنّ عليهم المراوغة والتهرب مـن القوانيـن، ولقد أصبح الكـذب والخداع فـي البلد أمـراً طبيعيّاً؛ إذ، عـرف الجميع أنّ النظـام فاسد وأنّ القوانين غير عادلة، ويتطلب البقاء على قيد الحياة الخروج عن النظام. لا تستطيـع المؤسسـات الاجتماعية العمل عندمـا يعتقد الجميـع أنّ القوانين جميعها يجب انتهاكهـا أو التّملّـص منها، ولست مقتنعاً أنّ أيّ تغيير فـي الحكومة سيغير بسرعة مثل هذه التوجيهات. ولا يصدق أحد الآن ما يقوله أيّ كان في الحكومة عن أيّ شيء.

يصـدّق عـدد قليل مـن الأشخاص الذين التقيت بهـم غورباتشـوف، وكان ذلك قبل انقـلاب 1991 الفاشـل. لا تستطيع الأمة البقاء إذا لم يُصـدَّق الزعيم، وربما يكون هذا هو مـا يجعل الشعب مستعداً ومتحمساً لإعطاء الـولاء لأيّ زعيم قويّ ذي ادعاءات جريئة جدّاً، وأفعاله قوية بما فيه الكفاية لكسب ثقتهم ثانية.

يمـزح الأمريكان عـن الساسـة الكاذبين بسؤالهـم: كيف تستطيع معرفـة متى يكذب السياسي؟ فيجيبون:عندمـا يحرك شفتيه. لقد أقنعتني زيارتي إلى روسيا أننا على العكس؛ فما زلنا نتوقع أن يكون زعماؤنا صادقين على الرغم من أننا نشك أنهم لن يكونوا كذلك.

تكون القوانين فاعلة عندما يعتقد الأشخاص أنّها عادلة، وعندما تكون الأقلية، وليست الغالبيـة العظمى، مـن يشعر أنّ من الحق انتهاك أيّ قانون جائـر. وفي الديمقراطية، تعمل الحكومة فقـط إذا اعتقد معظم الأشخاص أنهم يسمعون الحقيقة معظم الوقت، وأنّ هناك بعض الادعاء بالإنصاف والعدالة.

لا تـدوم أيّ علاقة مهمة إذا فُقـدت الثقة تماماً؛ فإذا اكتشفت أنّ زميلاً لك قد خانك، وكـذب عليك مـراراً لمصلحته، فلا يمكن أن تستمر تلك الصداقة، وكذلك لا يمكن أن يكون الـزواج سـوى حالة من الفوضى إذا علم أحد الزوجين أنّ الآخر كان مخادعاً، ليس مرة ، بل مـرات عـدّة. وأشكّ في بقاء أيّ شـكل من أشكال الحكومة طويـلاً إلا باستخدام القوة لقمع الشعب إذا اعتقد الشعب أنّ ديدن قادته الكذب.

لا أعتقد أننا وصلنا تلك المرحلة؛ فالكذب من جانب الموظفين العموميين ما يزال ذا أهميـة إخبارية ومُداناً، وليـس محطّ إعجاب. إنّ الأكاذيب والفساد جزءٌ من تاريخنا، وليس حديثاً، ولكنه يعدّ انحرافاً لا قاعدة، وما زلنا نعتقد أننا قادرون على استبعاد هؤلاء الأوغاد.

فـي حيـن، يمكن عدّ ووترغيت، والعلاقة بيـن إيران – الكونترا دليـلاً على أنّ النظام الأمريكـي قد فشـل، ويمكننا أيضـاً عدّها دليلاً على العكـس تماماً؛ إذ وجـب على نيكسون الاستقالـة. وعندما أشرف رئيس المحكمة العليا وارن برغر، على قسم جيرالد فورد لليمين الدستوريـة، ليحلّ محـلّ نيكسون، قال أمام أحـد أعضاء مجلس الشيـوخ الحاضرين: «لقد عمـل النظام، الحمد لله!»[11]، ويُحاكم الآن نـورث و بويندكستر وآخرون، بسبب كذبهم على

مجلس الشيوخ. انتقد عضو مجلس الشيوخ لي هاملتون أوليفر في أثناء جلسات الاستماع أمام اللجنة التي تحقق بالعلاقات بين إيران – الكونترا باقتباس من ثوماس جيفرسون: يتكوّن الفنّ كلّه في الحكومة من فنّ الصّدق.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الحادي عشر

نتائج وأفكار جديدة حول الكذب وكشفه

لقد كتبت هذا الفصل بمناسبة إصدار الطبعة الثالثة من كتاب (**الأكاذيب**)، ووصفت فيه موادّ جديدة غير موجودة في الطبعة الأمريكية الأخيرة في 1992. أولاً، أصف فيه الاختلافات بين الكذب والصور الأخرى من المعلومات غير الصحيحة، ثم أناقش الدوافع التي تؤدي بالشخص إلى الكذب. وأخيراً أناقش الأسباب الكثيرة التي قد تفسّر فشل الأشخاص في الكشف عن الكاذبين. وسأقدم في هذا القسم نتيجتين جديدتين:

1. نحن الآن أكثر نجاحاً في تحديد الكذب من تعابير الوجه مقارنة بما ذكرته في الفصول السابقة.
2. وجدنا مجموعات احترافيّة أخرى دقيقة بقدر دقة الخدمات الاستخبارية الأمريكية في اكتشاف الكاذبين من السلوك.*

* أنا ممتن لهيلين كرونين من جامعة لندن للاقتصاد لسؤالها الذي يستفسر عن سبب عدم إعداد التطور لنا كي نصبح مكتشفي كذب أفضل، وكذلك لمارك فرانك من جامعة روتغيرز وريتشاد شوستر من جامعة حيفا لتعليقاتهم الداعمة لهذه المخطوطة.

اختلافات جديدة

يعرف بوك[1] الإخفاء المتعمد **بالسّرّيّة**، وأعتقد أنّ ذلك يصعب الأمور؛ لأنّ الإشعار المسبق هو الأساس في تمييز السرية من الأكاذيب المخفية، وساحتفظ بمصطلح سرّيّة للحالة التي يُعطى فيها إشعارٌ مسبق حيال النّيّة بعدم الإفصاح عن معلومات ما.

فعندما نصف شيئاً ما بالسريّة، فإننا نعلن عن حقنا بعدم الإفصاح، والاحتفاظ بالخصوصية. قد يحتفظ الشخص بأسراره الخاصّة، أو قد يحتفظ شخصان أو أكثر بمعلومات يرونها سرّاً خاصّاً بهما، فإذا سألتُ ابنتي: ألديك صديق؟ فقد ترد علي بقولها: هذا سرّ خاصّ، فإنّ كان لديها صديق فعلاً، فقد تكون عندها قد أخفت الموضوع عني، ولكن لأنها تعترف بذلك، فهذا ما أدعوه سِرّاً. لنفترض أنني لم أسألها عن ذلك، ولكنها تعلم نِيَّتي من محادثات سابقة؛ فإذا لم يكن لديها صديق ولكنها لم تخبرني، فهي تخفي الحقيقة عني وهذا ليس سِرّاً؛ لأنها لم تعترف بحقّها في إخفاء الحقيقة، وهذه ليست أكذوبة؛ لأنها لم توافق على أنّ هناك التزاماً بإعلامي عن علاقاتها العاطفية.

لا يُعدُّ **عدمُ الوفاء** بالوعد كذباً؛ فقبل تسلُّم الرئيس كلينتون منصبه بأسبوع، اتهمه صحفي إنه قد نقض الوعد الذي قطعه على نفسه خلال حملته الانتخابية بشأن المهاجرين من هاييتي، في حين إنه يتبنى الآن موقف الرئيس السابق بوش، وهي سياسة كان قد انتقدها خلال حملته الانتخابية، وبوجود دليل على الغضب، دافع كلينتون عن نفسه قائلاً: «سيظنّ الشعب الأمريكي أنني أحمق إن لم أغيّر سياساتي عند تغيّر الظروف». من وجهة نظري، يُعدُّ كلينتون كاذباً إذا عرف أنه في الوقت الذي انتقد فيه بوش كان ينوي اتباع السياسة ذاتها بنفسه. لنفكر بالتهمة عندما رفع الرئيس بوش الضرائب عند اقتراب انتهاء مدّة رئاسته، عندها يجب عدّه كاذباً. وبالتأكيد، فقد كان وعد في حملته بعدم رفع الضرائب، ولكن يمكن أن يكون كاذباً إن أمكن إثبات أنّ نيّته عدم الوفاء بما تعهّد به عندما وعد بذلك.

إنّ **فشل التّذكّر** ليس أكذوبة، مع أنّ الكاذبين يحاولون عادة تسويغ أكاذيبهم إذا ما اكتُشفت بالادعاء بالنسيان. ليس أمراً خارجاً عن المألوف أن ينسى الشخص أفعالاً سيندم

obeikandl.com

عليها، ولكن إن حدث النسيان فعلاً، فعلينا ألّا نسمّي ذلك كذباً؛ لأنّه لا خيار بذلك. ولن يكون ممكناً تحديد ما إذا كان فشل التذكر حقيقيّاً، أو ما إذا كان اللجوء إليه بحدّ ذاته كذبة.

فـإذا قدّم أحدهـم تفسيراً غير صحيح لما حـدث فعلاً، فذلك لا يعنـي بالضرورة أنّ الشخـص أراد التضليـل، وإن لـم تكـن هناك نيّـة متعمدة للتضليـل، فلا تعـدّ العبارة غير الصحيحـة كذبـة. لماذا يجب أن يكـون ما نعدّه كذباً مهمّاً؟ الأمـر ببساطة موضوع معانٍ أو تعريفات؛ فإذا كان الشخص غير كاذب، وإذا اعتقد أنه غير مشترك في الخداع، في الوقت الـذي يقـوم فيه بالكذب، عندها أتوقع أن يكون سلوكه صادقـاً. ينبغي ألّا تكون هناك قرائن سلوكيـة تفيـد أنّ التفسير غيـر صحيـح إذا كان الشخص الذي يقدم التفسيـر لا يعتقد أنه يكذب في أثناء تفسيره. لا أملك دليلاً على هذا التنبؤ، ولكنه يتوافق مع نظريتي العامة بشأن وقت كشف السلوك للكذب. وتدعم الأدلة الأخرى[2] ذلك التفسير؛ إذ إنّ هناك بضع طرائق يقدم فيها الأشخاص معلومات خطأ وهم يعتقدون أنها صحيحة.

يسيء الأشخاص تفسير الأحـداث، وخصوصاً معنى تصرفات الآخرين والدوافع التي تجعلهـم يتصرفون بهذه الطريقة أو تلك. إنّ حقيقة أنّ أحدهم يفسّر الأمور بطريقة تنعكس بصـورة جيدة عليها، بطريقة تسمح لها بالاشتراك فـي التصرفات التي تجدها مرغوبة، لا تعني بالضرورة أنها تكذب بدلاً من أنّها تخطىء التفسير. لا أرى أنّ هذا التفسير بالضرورة حالـة خداع الـذات، فليست كلّ حالات عدم الفهـم أو إساءة التفسير هـي من حالات خداع الذات.

لنفكر في مغتصب يدّعي أنّ ضحيته راغبة في ممارسة الجنس معه، ومع أنّ المغتصبين يعلمـون أنّ ضحاياهم ليسوا كذلك، فإنّهم يدّعون ذلك دائماً، ويكذبون لتجنب العقاب. لكنّ الادّعـاء بحدّ ذاتـه لا يعلمنا أنه غير صحيـح. حتى لو كان مستبعداً، فمـن الممكن أن يكون صحيحـاً لنفترض مثلاً أنـه كان اغتصاباً بعد مواعدة، وأنّ الضحية كانت خجولة أو خائفة، واعترضت على ذلك مرة واحدة فقط، وبغير ممانعة، ثم توقفت عن المقاومة.

قد يسيء المغتصـب تفسير المقاومة المبدئية، ويفسّر لاحقاً عدم المقاومة والسكوت علامـة القبول والموافقة. فهل سيكـون ذلك المغتصب ضحية خداع الـذات؟ باعتقادي لا،

إلّا إذا كان مـن المؤكـد أنه لم يكن يدرك أنّ سوء تفسيره لسلوك ضحيته قد تعزز من خلال رغبتـه في إرضاء احتياجاتـه الخاصة. فهل حدث الاغتصاب؟ أعتقـد أنّ الإجابة ينبغي أن تكـون بالإيجاب، علـى الرّغم من اعتقـاد المغتصب عدم حدوث ذلك، وربمـا كان الصدق مـن ناحيته عند ادعائـه أنّ ضحيته راغبة حقيقة. ويكمن أحد الأسباب التي تجعل من يقدم هـذا الادعاء، يبدو صادقـاً في سلوكه، بتصديقـه لادعائه وعدم اعتقـاده أنه يكذب (راجع كروس وساكس[3] لمزيد من النقاش حول هذه المشكلة في سياق انتقادهما استخدام اختبار مِكشاف الكذب في حالات الإساءة الجنسية للأطفال).

لا يعـدّ ذلـك السبب الوحيد الـذي قد يبدو أحدهم بـه صادقاً تماماً، فلـدى الممثلين الطبيعيين القدرة على تقمّص الدور الذي يقومون به، فيصدقون على الفور – لبعض الوقت تقريبـاً – كلّ ما يقولونه، ولأنهم يعتقدون أنهم يقولـون الحقيقة، فإنّ سلوكهم يتوافق تماماً مع ما يدلون به من أقوال.

إنّ إسـاءة التفسير ليست الطريق الوحيد الذي مـن خلاله قد يعتقد الشخص تفسيره الخطـأ صحيحاً، فقد يعلـم الشخص في البداية أنه يكذب، ولكنه بمـرور الوقت قد يصدّق كذبتـه، وبمجـرد اعتقـاده أنّ كذبته تفسير صـادق لما يتضـح فقد يبدو صادقـاً. خذ مثلاً متحرشاً جنسيّاً بطفل، والذي ادعى عند اتهامه للمرة الأولى أنه كان يعانق الطفل فقط، ولم يكن يفعل ما قد يعدّ اغتصاباً، ولا أيّ شيء مما لم يرده الطفل. ومع أنه في البداية كان يعلم أنه يكذب في تفسيره، لكنه بمرور الوقت، وبتكرار كذبته مرات عدّة، قد يصدق، باعتقادي، أنّ إفادته المزيفة صحيحة، ومن الممكن أن يحتفظ في إدراكه بذكرى الحدث الحقيقي من إساءتـه للطفل بعنف، وبالاعتقاد الآخر في أنه عانق طفـلاً، بل قد تُمحى الذكرى الحقيقية بمرور الوقت، ليحلّ مكانها الادعاء الكاذب مؤقتاً، وقد تزول نهائيّاً.

خـذ مثلاً طفلة تكذب متعمدةً، قائلةً: إنّ مدرّستها أسـاءت إليها جنسيّاً، وهي تعلم أنّ ذلـك لم يحـدث مطلقاً، ولنفترض أنّ الطفلة الكاذبـة حفزّتها رغبة في معاقبـة المُدرِّسة لإهانتهـا لهـا في الصف؛ بسبب عـدم تمكنها من الحصول على علامـة جيدة في الاختبار. فـإذا شعـرت الطفلة أنّ من حقهـا الانتقام، فقد تستنتـج أنّ هذا النوع مـن المعلمات ربما تكـون أساءت إليها، أو ربمـا كان في نيّتها الإساءة إليها، وربما تكون قـد أساءت إلى أطفال

آخرين... وهكذا. أعتقد أننا لا نستطيع استبعاد احتمال أنْ تكون الطفلة قد صدّقت حصول الإساءة بمرور الوقت والتكرار والإسهاب. هذه الأمثلة مزعجة لأننا لا نعلم تكرار حدوثها، ولا نعرف ما إذا كان الأطفال أكثر عرضة للاعتداء مقارنة بالكبار لتصديق أنّ الاتهام صحيح، ولا نعلـم بوجـود ميزات شخصية مرتبطة بهذه الظاهـرة أم لا. ولكن، لا توجد طريقة أكيدة حتـى الآن لتحديـد مـا إذا كان الاتهام صحيحاً جزئيّـاً، أو أنّه صحيح تمامـاً. ولدي طريقة سأناقشهـا لاحقاً لتمييـز التفسيرات الخطأ، ولكن ذلك يكون فقـط عندما يعرف الشخص الذي يقدم التفسير أنه يعطي تفسيراً زائفاً.

دوافع الكذب

تشير المقابلات التي أجريتها مع الأطفال[4] والبيانات الناتجة من إجابات الكبار على الاستبانات إلى وجود تسعة دوافع مختلفة للكذب، هي:

1. تجنّب العقاب: إنّ هذا هو الدافع الأكثر شيوعاً لدى الصّغار والكبار على حدّ سواء، وقد يكون العقاب على جرم مقصود أو خطأ غير مقصود.
2. الحصـول على عائد إيجابيّ لا يمكن الحصول عليـه بغير الكذب: وهذا الدافع هو الأكثر شيوعاً لدى الصّغار والكبار على حدّ سواء أيضاً.
3. حماية شخص آخر من العقاب.
4. حماية الذّات من تهديد بالأذى الجسدي: وهذا يختلف عن العقاب؛ إذ إنّ التهديد بـالأذى لا يكـون على جـرم. ومثال ذلك، الطفـل الموجود في البيـت وحده، ويبلغ الغريب الموجود لدى الباب أنّ والده نائم الآن، وأنّ عليه الحضور لاحقاً.
5. كسب إعجاب الآخرين.
6. الخروج مـن مأزِق اجتماعي غريب: ومثال ذلك الادعـاء بوجود مشكلة مع جليسة الطفـل للتهرب من حفلة مملّة، أو إنهاء مكالمـة هاتفية بحجة وجود شخص يقرع باب المنزل.

7. تجنّب الحرج: فالطفل الذي يدعي أنّ البلل على الكرسي نتج من سكب الماء وليس من تبليل البنطال، فهذا الطفل ليس خائفاً من العقاب بل من الحرج فقط.
8. المحافظـة علـى الخصوصية من غير إعطاء إشعار في نيّـة المحافظة على بعض المعلومات الخاصّة.
9. ممارسة السلطة على الآخرين عن طريق التّحكّم في المعلومات التي يحصل عليها المتلقّي.

ولكني لست متأكداً من ملاءمة جميع الأكاذيب بالضرورة أيّاً من هذه الدوافع التسعة، ولكـن هذه هـي الدوافع التي ظهرت مـن بيانات المقابـلات التي جمعتهـا. هناك مجموعة متنوعـة من الخدع الصغيـرة، مثل أكاذيب اللياقة، ورجال السياسـة، التي تصنفها بسهولة هـذه الدوافـع التسعـة. واستناداً إلـى تعريفي للكذب، فإنّ هـذه ليست أكاذيـب؛ لأنّ قواعد اللياقـة تفترض وجود إشعار مسبق، والحالة الأصعب تشمل الكذبة المطلوبة للمحافظة على حفلة عيد ميلاد مفاجئة، التي ربما يلائمها دافع الخصوصية.

نتائج جديدة

لقد أكّدت في هذا الكتاب مدى صعوبة كشف الكذب عن طريق السّلوك، وتدعم النتائج الحاليـة، وتتناقض مع وجهة النظر تلك، ففي دراسات أكاذيب سرقة النّقود وأكاذيب الآراء التـي وردت سابقاً، نجحنا في تمييز الكاذبين من الصادقين في أكثر من 80% من الحالات التي استخدمت تعابير الوجه فقط، وأتوقع أنّه عند إضافة علامات حركات الجسم والصوت، والحديث سنتمكن من تحديد صحيح بنسبة تفوق 90%. يجب أن يؤخذ بالحسبان أنّ تطبيق هذه المقاييس يأخذ وقتاً طويلاً؛ قد يمتدّ إلى ساعات. وكما سأذكر بعد قليل، ما زلنا نجد أنّ معظـم الأشخاص الذين شاهدوا الأشرطة مرة واحدة يحصلون على نتائج تفوق المصادفة في تمييز الكاذب من الصادق.

لقـد وجدنا[5] أدلة للقدرة العامة على تمييـز الكاذب من الصادق. إنّ دقة الكشف عن كذبـة سرقة النقود ارتبطت بدقة الكشف عن الكذب حـول الآراء. وأعتقد أنّ الوضع كذلك؛

لأنه عندما تكون الأخطار مرتفعة تكون القرائن السلوكية متشابهة بصرف النظر عمّا تشير إليه الأكذوبة. وبالطبع تتنوع الأكاذيب كذلك بتكرار بعض أنواع القرائن. فعلى سبيل المثال، هناك كثير من القرائن في أكاذيب الرأي حول محتوى الحديث مقارنة بأكذوبة سرقة المال، بيد أنه كلّما كان عدد الكلمات التي يتحدث فيها الشخص أكثر في نوعي الكذب، كان الحكم عليها أكثر دقة. إنّ الذين يجرون المقابلات بصورة موفّقة يعرفون أنّ مهمتهم الرئيسة هي تمكين الشخص الذي يقابلونه من التحدث، وكلما كان الحديث أكثر كان ذلك أفضل. وهذا ما وجدناه فعلاً. ليس السبب في ذلك وجود قرائن أكثر في الكلمات، بل لأنه سيكون هناك قرائن أكثر في علامات الوجه، والجسم، والصوت عندما يتحدث الأشخاص أكثر.

وجدنا أيضاً (فرانك و إيكمان، بيانات غير منشورة) أدلة على أنّ القدرة على تلفيق أكذوبة تتقاطع مع نوع الكذبة. إنّ النجاح في ارتكاب كذبة الرأي ارتبطت بالنجاح في ارتكاب كذبة سرقة النقود.

حدّدنا[6] ثلاث مجموعات مهنية حققت نتائج ليست من قبيل المصادفة كمجموعة التمييز بين الكاذبين والصادقين حول الآراء. شملت أحدها أعضاء من مختلف الوكالات الاتحادية المتطوعين لحلقة عمل مدّة يوم، بحثت في كيفية الكشف عن الكذب من السّلوك، ولم يُلزم أحد منهم بالحضور، بل كان ذلك باختيارهم. بدأتُ حلقة العمل باختبار قدراتهم على كشف الكذب قبل أيّ شيء، كما فعلت مع المجموعات الأخرى، فسجّل الضباط الاتحاديون دقة أكثر من أعضاء مجموعات فرض القانون أو القضاة الاتحاديين. في حين تألفت المجموعة الثانية التي سجّلت مستوى دقة مرتفعاً من أفراد الشرطة من مختلف الدوائر، وقد تطوعوا لحضور دورة مدتها أسبوعان هدفها تدريبهم على إجراء المقابلات. استطاع معظمهم بعد التّدريب، إجراء المقابلات بصورة جيدة، وكانوا أكثر دقة من أعضاء مجموعات فرض القانون. أمّا المجموعة الثالثة، فتكوّنت من الأطباء النفسيين في القطاع الخاص الذين اختاروا التضحية بدخل عمل يومين من أجل أخذ مقرّر الخداع والسلوك. هؤلاء، كانوا أكثر دقة مقارنة مع مجموعة مقارَنة من الذين لم يختاروا حضور هذا المقرّر، ومجموعة أخرى من أكاديميي علم النفس.

لـم تسجل أيّ مــن المجموعات الأربع الدقيقــة، (كالخدمات السريــة التي ورد ذكرها في الفصــل التاسع، والضبــاط الاتحاديين، وعمداء لوســ أنجلوس، والأطبــاء النفسيين)، واقعيّــاً مستــوى دقة عنــد أو أقل من المصادفة، بل سجّل أكثر مــن الثلث 80% أو أكثر. وفي المجموعات الأخرى، سجّل أقل من 10% نتائج جيدة، في حين جاءت نتائج كثيرين بمستوى المصادفة أو أقلّ.

وبإعادة النظر في أنــواع الأشخاص الذين تمّت دراسة دقتهم جميعهم؛ علماء النفس، والقضــاة، والمحامين، ورجال الشرطة، والضباط الاتحاديــن، والأطباء النفسيين – وُجد أنّ الســنّ، ونوع الجنس، والخبرة العلمية، غير مرتبطــة بالدقة، وكان الأشخاص الأكثر دقة أكثر ثقة بقدراتهم من الآخرين، ولكن الثقة الإجمالية ارتبطت ارتباطاً ضعيفاً مع الدقة.

ارتبطت القدرة على رصد تعابير الوجه الدقيقة مع الدقة في تمييز الكذب من الصدق فــي وصف العواطف الصادقــة، سواء تعلق الأمر بسرقة النّقــود ،أم بالآراء في الموضوعات الاجتماعية. وسجلت المجموعات الأكثر دقة نتائج أفضل من غيرها في الكشف عن الكذب، ولــم تختلف كثيراً عــن الأخرى في تمييز الصــدق، مما يؤكد الحاجة إلــى تعليم الأشخاص تحديد الشخص الصادق المشتبه فيه بالكذب.

لماذا لا نستطيع الكشف عن الكاذبين؟

لنبحــث فيما نعرفه عن مــدى قدرة الأشخاص على كشف الكــذب من السلوك بنجاح، يأتي دليل عدم القدرة على كشف الأكاذيب من النمط التالي من التجارب؛ يُستعان بالطلاب ليقومــوا بالكــذب، أو إخبار عن أمر غير مهمٍّ بنظرهم، وليس له علاقة بماضيهم أو حياتهم المستقبلية. ولتحفيزهم، يقال لهم: المهم أن تكون قادراً على الكذب. أو: الأشخاص الأذكياء أو الناجحون هم من ينجحون في هذه المهمة، ثم تعرض الأشرطة التي سجلت سلوكهم على طــلاب آخريــن، ويطلب إليهم تحديد الكاذب والصادق، فيسجــل معظمهم نتائج عن طريق المصادفة أو أكثر بقليل. ولكن بحثنا اختلف بعدد من الطرق عن ذلك.

حاولنـا جعل الأكاذيب مرتبطة بالحياة، ورفع مستوى المخاطرة إلى أقصى حدّ ممكن (بالنجاح أو الفشل)؛ لسببين: الأول، لأنّ عاطفة الخوف، والذنب، والابتهاج أو ما أسميته لذة الخداع يُرجّح أن تُستثار وتكشف الكذبة في الأكاذيب مرتفعة الأخطار فقط. لا تعدّ تسريبات هـذه العواطـف القوية فقط ما يقدم قرائن سلوكية على الخـداع، ولكن قد تشوّش العواطف القويـة المعالجـة الإدراكيـة لدى الـكاذب، وتنتـج تفسيرات مراوغـة غير قابلـة للتصديق ومتعثرة. والثاني أنّ هذا الصنف من الأكاذيب له أثر كبير في المجتمع.

في أحد المشاهد التجريبية المذكورة في الفصل الثاني، بحثنا مدى قدرة الممرضات على إخفاء العواطف السلبية التي شعرْن فيها عند مشاهدة أفلام تعرض عمليات بتر وحروق، وقد حُفِّزْنَ بدرجة عالية لضمان نجاح هذه الكذبة. اعتقدتِ الطالبات أنّ التجربة تقدم لهنّ الفرصة لتنمية مهارة في حاجة إليها عند تعرضهنّ لمشاهد مزعجة في وظيفتهنّ مستقبلاً.

حصـل المشاركـون فـي تجارب أخـرى، علـى فرصة الاحتفـاظ بخمسيـن دولاراً إذا استطاعوا إقناع المُستجوِب أنهم لم يأخذوا النقود التي يجري استجوابهم بشأنها، واستطاع مـن لم يأخذ النقود كسـب عشرة دولارات بجعـل المستجوِب يصدق أنه لـم يأخذ خمسين دولاراً. وفـي التجربـة الثالثـة والأخيـرة، حدّدنـا أولاً الموضوعـات الاجتماعيـة التي شعر المشاركـون حيالها بمشاعر قوية، ثم طلبنا إليهم قول رأيهم بصدق، وكسب خمسين دولاراً إذا تم تصديقهم.

وفي أحدث أعمالنا، أتحنا للمشاركين الفرصة بالكذب، أو الصدق، كما يُتاح للأشخاص العادييـن في الحياة الواقعية. هنـاك كثير من الأسباب تجعل بعض الأشخاص يختارون عدم الكـذب؛ وأحدها معرفتهم الخاصة، اعتماداً علـى الخبرة السابقة، بانكشاف كذبهم دائماً. وباشتمال عينة الدراسة على هذا الصنف من الكاذبين؛ أي الذين لا يختارون الكذب إلا إذا أُجبروا على ذلك من قبل الفاحص، قد يزداد معدل الاكتشاف. في البحوث السابقة جميعها لأفـراد العينة، سـواء بحوث الخداع في العلاقـات الشخصية كانت أم فـي مِكشاف الكذب – لـم يتـح لهم الاختيار بيـن أن يكذبوا أو يصدقـوا، واستثناء ذلك دراسـة المِكشاف التي أجراهـا جنتـون داي جلعاد وبن شاخـار المذكورة في الفصل السابـع، والتي استطاعا فيها معرفـة الشرطي الذي غشّ في الامتحان ليتأهل للترقية. وعرف ستيفن وكورمان، وكريزك،

وسنايـدر[7] بطريقة مماثلـة أيّ الطلاب قام بالغش في الاختبـار المفاجئ. سمح برادلي[8] أيضاً للمشاركين الاختيار بين الكذب أو قول الصدق في دراسة المِكشاف.

تكمـن الميـزة الفريدة للتجارب الحديثة فـي أننا أبلغنا المشاركيـن بوجود عقاب ما، وسيكـون العقاب كبيراً إذا حكـم المُستجوِب عليهم أنّهم كاذبـون، وسيكون عقاب الصادق الـذي يحكم عليـه خطأ بالكذب كعقاب الـكاذب الذي يُكتشف كذبه. وعليـه، ولأول مرة في البحـث بشأن الكذب، قد يكون كل مـن الشخص الصادق والكاذب خائفاً من عدم تصديقه إذا كان صادقاً، وخائفاً من الانكشاف إذا كان كاذباً. فإذا كان الكاذب وحده من يخاف من الاتهـام بالكـذب، فإنّ الأمر يصبح سهلاً على مكتشف الكـذب، ولن يكون هناك ارتباط بما يجري في الواقع المَعيش، وإذا لم يخش الكاذب والصادق كلاهما العقاب، فلن يكون هنالك ارتبـاط بين الأكاذيب وعالـم الجرائم الجنائيـة، أو الأمن الوطني، ناهيـك عن الخلافات الزوجية، وخلافات الآباء والأبناء، وغيرها.

وعلى الرغم من إمكان ادعـاء تجاربنا الحديثة امتلاك مصداقية واقعية أكبر مقارنة بالدراسات القديمة، أو مقارنة بأكثر دراسات الخداع الشخصي، أو دراسات المِكشاف، فإنّ النتائـج بشأن كشف الكذب لم تكن مختلفة أكثر. فقد سجل معظم الذين شاهدوا الأشرطة التسجيلية، وأدلوا بأحكامهم، نتائج عند مستوى المصادفة أو أكثر بقليل. لقد اختبرنا حتى الآن آلاف الأشخاص، وبوجود أربعة استثناءات فقط، وهم:

1. أفراد النظام القضائي الجنائي (الشرطة والقضاة والمحامون).

2 و 3. رجـال المخابرات، والمعالجـون النفسيّون، الذين سجّلوا نتائـج فاقت المصادفة بقليل.

4. مجموعة رجال الشرطة الذين اختارتهم أقسامهم بوصفهم خبراء في الاستجواب، حيـث تلقى كلٌّ منهم تدريباً مدّة أسبوع لملاحظـة القرائن السلوكية على الخداع، وسجلوا مستويات مرتفعة في كشف الكذب بشأن الآراء.

وقبل المتابعة للبحث في ضعف الأشخاص بصفتهم مكتشفي كذب، دعونا نبحث في بعض محددات البحث التي قد تكون سبباً للتقليل من أهمية القدرة في كشف الأكاذيب من السلوك.

لم يكن للسواد الأعظم من المراقبين، الذين ميّزوا الكاذب من الصّادق، مصلحة قوية معرضة للخطر لتحقيق الدقة. فلم تقدّم لهم رواتب أعلى إن كانوا أكثر دقة، ولم يكن كشف الكاذبين مجزياً ذاتيّاً؛ إذ إنّ معظم هؤلاء الأشخاص لم يعتمدوا على كشف الكاذبين ليعتاشوا. عولج هذا المُحدِّد في دراساتنا[9]، وأعمال المجموعات البحثية الأخرى[10] التي بحثت في المحترفين المهتمين بالكشف عن الكاذبين، ووجدنا أنّ مكتب التحقيقات الاتحاديّ، ووكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة مكافحة الكحول والمخدرات والأسلحة النارية، وأطباء الطب الشرعي النفسي، ومسؤولي الجمارك، ورجال الشرطة، وقضاة المحاكم، ومحامي المحاكم لم يسجلوا نتائج أكبر من المصادفة.

ربما تكون الدقة أكبر لو كان الذين يدلون بالأحكام قادرين على توجيه الأسئلة بدلاً من أن يكونوا مجرد مراقبين فقط. لن أستطيع استبعاد هذا الطرح على الرغم من أنني أشكّ في أنه سبب النتائج. قد تنحرف متطلبات صياغة الأسئلة عن القدرة على معالجة المعلومات المقدمة من الشخص المُستجوَب. ولهذا السبب بعينه، يسأل بعض الأشخاص الأسئلة في كثير من الاستجوابات، في حين يراقب آخر استجابات المشتبه فيه فقط، ومن المثير للاهتمام وجود مستجوِبين محترفين يوجّهون الأسئلة في تجاربنا، ثم يحدّدون ما إذا كان الذين يشاهدون الأشرطة أكثر دقة مما وجدنا حتى الآن.

لم يكن مراقبونا يعرفون الأشخاص الذين حكموا عليهم، ويمكن القول: إنّ مثل هذه المعرفة تساعد على توخّي الدقة. بالطبع، هناك كثير من الحالات التي تُتخذ فيها أحكام عن الكذب من غير معرفة مسبقة بالشخص المُستجوَب، وترتبط تجاربنا بتلك الحالات على الأقل، ولكني أشكّ في أنّ المعرفة مفيدة دائماً في الكشف عن الكذب، بيد أنّها يجب أن توفر الأساس لإقصاء السلوك الشخصي مقابل ثمن معيّن.

إنّنا نميل إلى التّورّط في صداقاتنا وعلاقات العمل، وقد تؤدي الرغبة لحفظها بتطوير نوع من التغاضي عن السلوكات التي تنغّصها. إنّ الثقة تجعل الشخص أكثر عرضة للتضليل؛ إذ تقلّ المستويات المعتادة من الانتباه، وقد يؤدي التّورّط في علاقة ما إلى الثقة بقدرة الشخص على كشف الخداع، وقد تجعل هذه الثقة بحدّ ذاتها الشخص أكثر عرضة للتضليل.

ينبغي أن تكون للألفة فائدة تامة عندما تكون مع الشخص الذي يصعب عدم الثقة به، ولدى الشخص الذي اكتسب معرفة كيفية خيانة العلاقة وزمانها.

عُرض على المراقبين في تجربتنا، مقطع استمر دقائق عدّة من كلّ مقابلة، قبل أن يُطلب إليهم الإدلاء بحكم ما، ولكن قد لا تفيد العينات الأطول زمنا في الكشف عن الكذب. لقد أجرينا دراسة كانت عيناتها المعروضة ضعف المدّة عند غيرها، فلم تتغير الدقة عمّا كانت عليه، إضافة إلى أننا نعرف من المقاييس السلوكية التي طُبِّقت أنّ هناك قرائن على الخداع في العينات قصيرة المدة، ولكننا لا نستبعد هذا المحدِّد؛ فلو أُعطي الأشخاص عينات أطول لمدة ساعة أو ساعتين ليحكموا عليها فقد يتحسّن مستوى الدّقّة لديهم.

وربما يسأل أحد النّقّاد ما إذا كانت الدقة متدنّية؛ بسبب وجود عدد أقل من القرائن السلوكية على الخداع. ولكن كما ذكرت قبل قليل، ليس الوضع كذلك في تجربتنا. تبين المقاييس التي أجريناها مع المتعاونين معنا لحركات الوجه، والصوت، والحديث أنّ مستويات الدقة المرتفعة ممكنة، وتزيد على ما نسبته 80% من التصنيفات الصحيحة للكاذب والصادق. وفي حين، تتطلب هذه المقاييس إعادة بالسرعة البطيئة، فإننا نعلم أنّ الأحكام الدقيقة ممكنة بمجرد مشاهدة الأشرطة في الوقت الفعلي لها، وقد وصلت الدقة لدى نسبة بسيطة من عينة الدراسة إلى 80% أو تزيد، وقد جاءت النتيجة كذلك في الحكم على أكثر من مشهد؛ لذا، لا يرجح أن تكون الدقة عندهم مصادفة، كما وجدنا بعض المجموعات المهنية دقيقة للغاية بصورة إجماليّة.

لقد كان أفراد الخدمة السرية دقيقين جدّاً فيما يتعلق بكذبة العاطفة؛ فلم يسجّل أيٌّ منهم نتيجة عند مستوى المصادفة أو ما دون، بل سجّل ثُلُثُهُم أكثر من 80%. أظهر المستجوِبون المختارون بعناية لمهاراتهم المعروفة، الذين تدرّبوا مدّة أسبوع، دقّةً مشابهة في كذبة الرأي، وعلى الرّغم من أنّ الأخطار في الأكاذيب التي درسناها مرتفعة مقارنة بالبحوث الأخرى في الكذب، فإنّها ليست بقدر ارتفاع الأخطار في كثير من الحالات الجنائية أو الأمن القومي، وربما لو كانت الأخطار أعلى لاحتوت الأشرطة التسجيلية على كثير من العلاقات الواضحة على الخداع مما يحقّق دقة أكبر. لا أستطيع المجادلة بهذا الاحتمال،

ولكن كما وصفت قبل قليل، كانت هناك بعض المجموعات المهنية الدقيقة لدى حكمها على الأشرطة. ويبقى السؤال: لماذا لم تكن باقي المجموعات دقيقة؟

إنّ المعلومات موجودة أصلاً، ويمكن لبعضهم، وليس كلّهم، اكتشافها، وقبل التفكير بضعف الغالبية العظمى، لنفكر في ميزة أخرى في تجاربنا التي ربما تكون قد أفادت الدقة، وربما تكون قد جعلتنا نفرط في الثقة بالدقة بدلاً من التقليل من شأنها. لقد أخْبَرْنا المراقبين في دراساتنا جميعها أنّ زُهاء 40%– 60% من الأشخاص الذين سيقابلونهم كاذبون. ولم نقدّم هذه المعلومات في البداية. وجدنا في النتيجة أنّ مجموعة من رجال الشرطة حكمت على أنّ الأشخاص في الشريط كاذبون جميعهم، وفسّروا لاحقاً أنّ الجميع كاذبون، وخصوصاً بالكذب على رجال الشرطة. تعدّ معرفة معدل أساس الأكاذيب فائدة لا يمتلكها الأشخاص دائماً، وينبغي لها أن تزيد من الكشف عن الكذب. وسأناقش ذلك لاحقاً.

صحيح أنّ أدلتنا غير حاسمة، لكنّ الأشرطة تحتوي على قرائن سلوكية على الخداع يستطيع بعضهم ملاحظتها بدقة، ولكنّ الغالبية لا تستطيع تمييزها. ولأغراض النقاش، لنفترض أنّ هذا الدليل يشير إلى أنّ الأغلبية العظمى في الحياة الواقعية لا تستطيع كشف أكاذيب الأخطار المرتفعة من السلوك، فإنّ السؤال المطروح هو: لِمَ لا نستطيع جميعنا أن نكون أفضل من ذلك؟ ليس الأمر أننا غير مهتمين. تظهر استطلاعات الرأي العام على الدّوام أنّ الصدق من بين الخصائص الخمس العليا التي يرغب الأفراد بوجودها في القائد، أو الصديق، أو الحبيب، وأنّ عالم التسلية مليء بالقصص والأفلام والأغاني التي تصف العواقب الوخيمة للخيانة.

إنّ تفسيري الأول لعدم قدرتنا الكشف عن الكذب يعود إلى عدم استعدادنا بالتاريخ التطوري؛ لأن نكون بارعين في الكشف عن الكذب أو ملفّقي الكذب، وأشكّ في أنّ بيئة أسلافنا لم تكن مليئة بالفرص لكي يكذب شخص ويفلت بكذبته، وربما كان ثمن انكشاف الكذبة كبيراً. وإذا كان هذا التّوقّع صحيحاً، فربما لن يكون هناك خيار لهؤلاء الأشخاص الذين كانوا عادة بارعين في الكشف عن الكذب أو تلفيقه. ولا تشير سجلات الحفائر للكثير عن الحياة العامة؛ لذا، على الشخص أن يخمّن مواصفات الحياة البدائية (الصيد والجمع).

Obeikandl.com

أضيف إلى ذلك خبرتي على مدى ثلاثين عاماً بالعمل على ما كان يسمى آنذاك بالعصر الحجري، وثقافة ما قبل عصر الكتابة، بما يسمى الآن بابوا غينيا الجديدة.

كانت البيوت آنذاك، من غير أبواب؛ وقلّت الخصوصية، في هذه القرية الصغيرة، التي عرف الجميع فيها بعضهم بعضاً، والتقوا يوميّاً، وكانت الأكاذيب تكشف عادة عن طريق المتلقّي، أو شخص آخر يراقب التحركات التي تناقض الكذبة، أو بدلائل محسوسة أخرى؛ فالزنا كان سلوكاً يحاول الأشخاص إخفاءه في القرية التي سكنوا فيها، ولكن سرعان ما يُفتضح الأمر، ليس من خلال تفسير سلوك الزّاني الذي يدّعي الإخلاص، ولكن بضبطه مع عشيقته في الغابة.

ربما أمكن تجنب كشف الأكاذيب عن المعتقدات والعواطف والخطط في مثل تلك البيئة، ولكن بعض تلك الأكاذيب تؤدي في النهاية لتصرف معين يكشفها، ثم إنّ نقاشي يتناول صعوبة إخفاء أو تزوير السلوكات في وسط لا خصوصية فيه. وفي المجتمع الذي يعتمد فيه بقاء الشخص على الجهود التعاونية مع الأعضاء الآخرين في قريته، قد يكون تشويه السُّمعة ذا خطورة قاتلة. فقد يُقاطع الشّخص الذي يُعرف عنه الكذب، وهذا الوضع جدُّ خطير؛ لأنّنا لا نستطيع تغيير الزوج، أو الوظيفة، أو القرية بسهولة.

يقدم تشيني وسيفارث[11] في فصل عن خداع الحيوان نِقاطاً متشابهة، ينشأ المحدّد المهم ضد الكذب

> ... من بيئة الكائنات الاجتماعية. تواجه الحيوانات التي تقطن في مجموعات اجتماعية ثابتة مشكلات في أيّ محاولة للتواصل المخادع... ربما يجب أن تكون العلامات المخادعة بين الحيوانات التي تعيش اجتماعيّاً أكثر دقة، وتحدث بترددات منخفضة إذا أُريد لها عدم الانكشاف. وبالأهمية ذاتها، إذا كانت الحيوانات تعيش في مجموعات اجتماعية يكون فيها بعض التعاون ضروريّاً للعيش، ويمكن أن تقلّ الحاجة إلى التعاون من المعدل الذي تظهر فيه العلاقات غير الموثوقة.

ليكون لدى الشخص مهارة خاصة في الكشف عن الكذب (أو ارتكاب الكذب لذلك الشأن)، لن تكون لديه قيمة تكيفية بمثل هذه الظروف، وربما لم تحدث الأكاذيب الجدّيّة

obeikandi.com

مرتفعة الخطورة كثيراً؛ بسبب محدودية الفرص والثّمن الباهظ. وعندما كان يُشكّ بالأكاذيب يُكشف عنها. (لاحظ أنني ركزت على الأكاذيب داخل المجموعة، ومن المؤكد أنّ الأكاذيب ممكنة الحدوث بين المجموعات، وقد تكون عواقبها وكشفها مختلفين تماماً).

وفي حين، أنّ هناك أكاذيب إيثارية، فإنّ نقاشي قد بحث في الأكاذيب الأقل ودّيّة، الأكاذيب التي تحدث عندما يكسب شخص ما فائدة على حساب الضحية عادة، وعندما تُكتسب الفائدة من خلال انتهاك قاعدة، أو توقع ما؛ فهذا هو الغِشُّ بعينه. قد تكون الأكاذيب أحياناً مطلوبة لتحقيق الغِشّ، لكنّها مطلوبة دائماً لإخفاء القيام بالغِشّ.

لا يُقَدِّر الغشاشون عادة أن يغُشّوا ولديهم غريزة تدفعهم لكشف الأكاذيب الموجهة ضدهم، ولكن لم يحدث الغشّ كثيراً في بيئة أسلافنا لمنح فائدة ما لأولئك المهرة الذين كانوا غير عاديين في رصد زمن حدوث الغش. وكما ذكرت سابقاً، ربما كان هناك بعض الخصوصية بحيث يُكشف الغِشُّ بوسائل أخرى غير تمييز السلوكات الخطأ. وقد كتب عالِم الأحياء ألان جرافن[12]:

«يجب أن تكون حادثة الغِشّ بسيطة بحيث تبقى إشاراتها صادقة إجمالاً. ولأنّ الذين يتواصلون بالإشارات يزيدون من قدرتهم، ينبغي أن تكون الحالات التي يكون فيها الغش مفيداً محدودة. ربما يكون عدد الأشخاص الذين يتواصلون بالإشارات، ويستفيدون من الغِشّ قليلين، أو أنّهم لا يستفيدون إلا في حالات قليلة فقط... إنّ الغِشّ متوقع وفق نظم إشارة متقلبة، ولكن قد يكون النظام ثابتاً فقط إذا وجد تفسير لسبب فشل معظم حالات الغِشّ. يفرض الغِشّ بعض القيود على معنى الإشارة. والحقيقة الأساسية بشأن نظم الإشارة الثابتة هو الصدق. لذا، ينبغي أن يكون تقليل الغِشّ لمعنى الإشارة عند حدّه الأدنى إذا أردنا الحفاظ على الثبات» (ص. 533).

استناداً إلى هذا المنطق، فإنّ إشارات الغشاشين، والتي أسميها أكاذيب، ينبغي أن تكون منخفضة التأثير. تشير نتائج كوسمايدس وتوبي[13] إلى أننا طوّرنا حساسية تجاه قاعدة المخالفات، ونحن لا نكافئ الغشاشين، وقد يفسر هذا سبب عدم حدوث الغِشّ دائماً. وعلى كل حال، تشير النتائج إلى عدم احتمال اكتشاف الغشاشين، استناداً إلى قدرتنا على كشف أكاذيبهم من السلوك، ولكن بوسائل أخرى.

ولتلخيص وجهة النظر هذه، فإنّ بيئة أسلافنا لم تعدّنا لنكون مكتشفي كذب فطنين. وربما كان أولئك المهرة في تحديد الكاذب من السلوك يمتلكون فائدة دنيا في الظروف التي ربما يكون أسلافنا عاشوها، وربما لم تحدث الأكاذيب الخطرة في العادة؛ لأنّ ندرة الخصوصية جعلت فرص الكشف مرتفعة، وهذه الندرة في الخصوصية قد تعني أيضاً أنّ الأكاذيب تُكتشف في العادة بالملاحظة المباشرة، أو الدلائل المحسوسة الأخرى، بدلاً من الاعتماد على تفسير السلوك. وأخيراً، عندما يُكتشف كذب أحدهم في مجتمع تعاوني منغلق وصغير، فإنّ سمعته ستكون في الحضيض، وهذا ثمن باهظ لا مناص منه.

إنّ الوضع في المجتمعات الصناعية الحديثة يمثّل العكس تقريباً؛ إذ تتوافر فرص الكذب، مع وجود الخصوصية بسهولة، فهناك كثير من الأبواب الموصدة. وعند اكتشاف الكذب، ليس شرطاً أن تكون العواقب الاجتماعية كارثية؛ لأنّ الكاذب يستطيع تغيير وظيفته، أو زوجه، أو مكان سكناه. فلا تلحق السُمّعة المدمرة به بالضرورة. وعلى هذا، نعيش الآن في ظروف تشجع على الكذب بدلاً من تثبيطه. إنّ إخفاء الأدلة والسّلوك أكثر سهولة، وأصبحت الحاجة إلى الاعتماد على السلوك للإدلاء بالأحكام أكبر. فضلاً على أنّ تاريخنا التّطوريّ لم يسعفنا في أن نكون أكثر حساسية للأدلة السلوكية ذوات الصلة بالكذب.

وإذا ما سلمنا أن تاريخنا التطوري لم يعدّنا لكشف الكذب من السلوك، فَلِمَ لا نتعلم كيفية القيام بذلك ونحن ننمو ونتطور؟ الاحتمال الأول وهو تفسيري الثاني، يفيد أنّ أهلنا يعلموننا عدم كشف أكاذيبهم. فقد تتطلب خصوصيتهم غالباً تضليل أطفالهم عمّا يقومون به، وعندما يفعلون ذلك، ولماذا يفعلون ذلك. في حين، يُعدّ النشاط الجنسيّ أحد مجالات الأكاذيب الواضحة، فإنّ هناك أنشطة أخرى يحرص الأهل على إخفائها عن أطفالهم.

ويفيد التفسير الثالث أننا نفضل عدم الكشف عن الكاذبين عموماً؛ لأنّ الثقة هي ما يثري الحياة لا المواقف المشبوهة. لا يُعدّ الشّكّ، وكيْل الاتهامات الباطلة غير سارّ للذي يشكّ فقط، ولكنه يقوّض فرصة إنشاء علاقة حميمة في حالات الزواج، أو الصداقات، أو علاقات العمل المستمرة، ولا نستطيع تحمّل تكذيب أحد الأصدقاء، أو طفلنا، أو الزوج، عندما يقول الحقيقة؛ لذا، فإننا نخطئ بتصديق الكاذب. إنّ الثقة في الآخرين ليست مطلوبة فقط، ولكنها تجعل الحياة أسهل للعيش، وما أهمية الكشف عن كاذب يستفيد من

هــذه الثقــة إذا كان المتلقّي لا يعرف عن ذلك مطلقــاً! إنّ المصاب بجنون العظمة هو الذي يحــرم عقله من مثل هذا السلام، وأولئك الذين تتعرضـ حياتهم في الواقع لبعض الأخطار إذا لــم يكونوا متنبهين باستمــرار للخيانة. وبالاتساق مع هذه الصيغــة حصلنا (بيوجنتال، وشينــم، وفرانــك، وإيكمان[14]) علــى أدلة أولية تفيــد أنّ الأطفال المُعتــدَى عليهم، والذين يعيشون في بيئة مؤسسية كانوا أكثر دقة من غيرهم في كشف الأكاذيب من السلوك.

لقد ذكرت حتى الآن ثلاثة أسباب لعدم اكتشاف الكاذبين، هي:

1. عدم إعدادنا من قِبَلِ تاريخنا التطوري.
2. رغبة أسرنا في عدم كشف أكاذيبهم.
3. تفضيلنا الثّقة بالآخرين لا الشّكّ فيهم. أما السبب الرابع، فهو أننا غالباً ما نرغب فــي تضليلنــا، ونحن نتواطأ مع الكذب من غير قصــد؛ لأنّ لدينا مصلحة في عدم معرفة الحقيقة.

فكّــر فــي المثالين الآتييــن من أمثلة العلاقــات الزوجية: قد لا يكون فــي مصلحة الأم التــي لديهــا عدد من الأطفــال الصغار كشف كذبة زوجهــا الذي يخفي خيانتــه، خاصة إذا كانــت علاقته الغرامية عابــرة، ولم يحرمها من احتياجاتها هــي وأطفالها. أيضاً، لا يفضل زيــر النســاء افتضاح أمر خيانته؛ لذا، لدى كلٍّ منهما فائدة فــي عدم كشف الكذب. ويتضح المنطــق المماثل في فاعلية الكذبــة الإيثارية والاعتقاد المتواطئ فيمــا يأتي: تسأل الزوجة زوجها: «هل كانت هناك امرأة أخرى في الحفلة ترى أنها أكثر جاذبية مني؟» فيكذب الزوج بالادعــاء أنهــا كانت الأكثــر جاذبية، في حين، إنهــا ليست كذلك. فهو لا يريــد لها أن تكون غيورة، وأنه لا يريد التعامل مع وجود تلك المشاعر لديها، وقد تريد هي الاعتقاد بأنها الأكثر جاذبية.

فــي حالة التواطؤ، قد لا يستفيد المتلقّي الذي يريد أن يصدق الكاذب من الكذب، أو قد يستفيد فقط على المدى القصير. لنُعِدِ النظر فيما قد يكون المثال الأكثر قبحاً في هذا القرن لضحية أرادت تصديق كاذب تأبّط له شرّاً في سريرته؛ إنّه الاجتماع الذي ضمّ رئيس الوزراء البريطانــي نيفيــل تشامبرليــن وأدولف هتلر مستشــار ألمانيا في الخامس عشــر من سبتمبر

1938م، المذكور في بداية هذا الكتاب. لِمَ صدّق تشامبرلين هتلر؟ في حين، لم يصدقه الآخرون؛ وكان كثيرون في حزب المعارضة في بريطانيا وأماكن أخرى يعرفون أنّ هتلر لم يكن من الرّجال الذين يحترمون كلمتهم. في اعتقادي، تواطأ تشامبرلين عن غير قصد مع كذب هتلر؛ لأنه أراد تصديقه. ولو أقرّ تشامبرلين بكذب هتلر، لكان عليه مواجهة حقيقة أنّ سياسة المهادنة وضعت بلاده في خطر داهم، ولمّا كان عليه مواجهة هذه الحقيقة بعد أسابيع قليلة، فقد يتساءل المرء حينها عن السبب الذي جعل تشامبرلين يفشل في معرفتها خلال اجتماعه مع هتلر؛ هذا شأن عقلانيّ لا نفسيّ. يعمل معظمنا على المبدأ غير المكتوب؛ إنّه تأجيل الحاجة إلى مواجهة كلّ ما هو غير سارّ. وقد نفعل ذلك بالتغاضي عن أخطاء الكاذب.

لم يكن تشامبرلين فريداً في هذا التّواطؤ، حيث يرغب ضحايا الأكاذيب، عن غير قصد في كثير من الأحيان، في تصديق الكاذب. ويفسّر الدافعُ نفسه بعدم الرغبة في الاعتراف بالكارثة الوشيكة سببَ إغفال رجل الأعمال الذي عيَّن عن طريق الخطأ مختلساً، وعلامات الاختلاس بادية عليه، وما زال يتجاهل تلك العلامات: وبعقلانية، كلما كان كشف الاختلاس مبكراً كان ذلك أفضل. ولكن من الناحية النفسية، يعني ذلك الاكتشاف أنّ عليه مواجهة خطئه لتعيينه مثل هذا الوغد، وليس فقط ما يترتب على هذا التّعيين من خسائر لشركته. وبالمثل، قد يعرف الجميع ما يحدث باستثناء الزّوج المغفَّل، أو قد تقتنع فتاة في سنّ المراهقة وتتعاطى المخدرات أنّ والديها يعرفان بالتأكيد ما تقوم به، في حين يسعى والداها عن غير قصد، إلى تجنب اكتشاف الأكاذيب التي قد تجبرهم على التعامل مع احتمال فشلهم بالتربية. إنّهما سيعانيان صراعاً رهيباً من جرّاء ذلك. على وجه التّقريب، يكون الشخص أفضل حالاً دائماً على المدى القصير بالتّغاضي عن الكذبة، حتى لو كان ذلك يعني أنّ العواقب ستكون أسوأ غداً.

كانت الدوافع التي تؤدي إلى عدم كشف هدف الكذب على الكاذب واضحة في تفسير القبض على الدريتش إيمز بتهمة التجسس في عام 1994م، وهو موظف في وكالة المخابرات المركزية. لقد كان إيمز خلال السنوات التسع السابقة يزوّد الاستخبارات السوفييتية بمعلومات عن الروس المتعاونين مع وكالة المخابرات المركزية، وأُعدم بعد ذلك عدد منهم. لم يكن إيمز شخصاً حذِراً، فقد كان ينفق المال الذي دفعه له السوفييت ببذخ، واشترى

opelkandil.com

منزلاً وسيارة بثمن يعجز عنه راتبه الوظيفيّ. وقد وصف ساندي غرايمز الوكيل في مكافحة التجسس في وكالة الاستخبارات المركزية، والذي قبض أخيراً على إيمز عمله كما يأتي: إنّ أعظـم انقلاباتك وأروع انتصاراتك هي أسوأ هزائمـك.... عند القبض على جاسوس يعني ذلك بالطبع أنّ لديك مشكلة في الوكالة، لماذا لم تكتشف هذا الشخص مبكراً!

فـي حين، يستند السبب الخامسـ إلى كتابات إيرفنغ جوفمـان[15]؛ لقد تمت تنشئتنا؛ لنكـون مهذبين فـي تعاملاتنا، وليس لسرقة المعلومات التي لم نُخـوَّل في معرفتها. والمثال الرائع على ذلك، هو كيف أننا نشيح بأنظارنا من غير قصد عندما ينظّف شخص ما أذنه أو أنفـه ونحن نتحدث معه، ويضيف جوفمان أيضاً: قد تكون الرسالة غير الصحيحة في بعض الأحيـان هـي الرسالة الاجتماعية الأكثر أهمية من الحقيقة. إنهـا المعلومات المعترف بها، وهي تلك المعلومات التي يكون الشخص الذي يذكرها على استعداد لتحمل المسؤولية عنها. فعندما تجيب السكرتيرة التي تشعر بالبؤس، بسبب شجار وقع مع زوجها الليلة السابقة : أنا على ما يرام. ردّاً على سؤال رئيسها: كيف أصبحتِ؟ قد تكون تلك الرسالة الكاذبة ذات صلة بتعاملاتها مع رئيسها. فهي تقول له: إنها سوف تقوم بوظيفتها على ما ينبغي.

إنّــه لا يهتـم للرسالة الحقيقية (إنّها بائسة) على الإطـلاق إذا كان هذا لا يعيق أداءها الوظيفي.

لا تبيّن التفسيرات والأسباب التي عرضتها حتى الآن سبب ضعف معظم أعضاء العدالة الجنائيـة ومجموعات المخابرات فـي تحديد الكاذبين عن طريـق سلوكهم، ولا يثق محققو الشرطـة ومكافحة التجسس في المشتبه بهـم. وعليه، فهم لا يتواطؤون بالتضليل، وهم على استعـداد لاستـدراج المعلومات التي لم تُعطَ لهم. إذن، لِـمَ يفشلون في تحديد الكاذبين من تغيـرات سلوكهم؟ أعتقد أنهـم مقيدون بكميات كبيرة من التغذيـة الراجعة غير المشجّعة، حيـث معظم النـاس الذين يتعاملون معهـم يكذبون عليهم. يقـدّر الأشخاص الذين تحدثت إليهـم نسبة الكذب بأكثر من ثلاثة أرباع، وهذه النسبة المرتفعة ليست مثالية لتعلّم الفطنة فـي تفسير القرائن السلوكيـة الدقيقة على الخداع. في كثير مـن الأحيان، ينحصر هدفهم فـي كيفية الحصول على أدلة للإيقاع بالمشتبه به وليس كيفية اكتشاف كذبه. ولكن، عندما

obeikandl.com

يخطئـون، ويعلمـون أنّ شخصاً ما عُوقب ظلماً، تأتي ردّة الفعل تلك بعد فوات الأوان، وبعيدة كلّ البعد عن الحكم الخائب ليُصوَّب؛ فقد سبق السّيف العَذَل.

يشير هذا إلى أنك إنّ عرّضت المحققين لمعدل أساس منخفض للكذب؛ 50% تقريباً، ومنحتهـم تغذيـة راجعة بعد كلّ حكم يدلون به، قد يتعلمون جيداً كيفية تحديد الكاذب بدقة من السلوك، وهذه تجربة نخطط الآن للقيام بها، ولا أتوقع أن تصل الدقة إلى 100%. ولهذا السبب، لا أعتقد أنّ الأحكام عن الكاذب يجب أن تكون بيّنة دالة في المحكمة. على كلّ حال، توفر هذه الأحكام أساساً أفضل لتحديد من الذي ينبغي إجراء المزيد من التحقيق معه في البدايـة علـى الأقل، ومتى يجب توجيه مزيد من الأسئلة، بسبـب حدوث شيء غير عادي في السلوك.*

---

* ظهر الكثير من القسم الأول في فصل أول كتبته لكتاب Memory for everyday and Emotional events, ed. N. L. Stein, P. A. Ornstein, B. Tversky, and C. Brainerd (Hillsdale, New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates, 1996. ونشر المقطع الأخير في مجلة البحوث الاجتماعية، 17 – 801 :(Fall 1996) (3) 63.

الفصل الثاني عشر

تعابير الوجه الصغيرة، والدقيقة، والخطيرة

أيّها أكثر أهميّة؟

في السنوات السبع منذ عام 2001م، حدّدنا من خلال بحوثنا أهم القرائن في الخداع، وطوّرنا أدوات تدرب الأشخاص على كيفية ملاحظة هذه القرائن. وقد كان هذا ممكناً؛ لأنّ بحوثنا على الكذب مُوِّلت أوّل مرة، وسُمح لنا بدراسة كثير من الأفراد أكثر من ذي قبل، وبإنجاز تحليلات أكثر تطوّراً ومهارة.

تلقيتُ منحاً حكوميةً لمدة أربعين سنة لبحوث السلوك غير اللفظي والعاطفة التي أجريتها. ومع ذلك، لم أتمكن من الحصول على دعم لاهتمامي في فهم الكيفية التي يمكن فيها للسلوك أن يكشف الكذب، واضطررت إلى الاعتماد على نفقتي الخاصة. انضم إلي فرانك مارك في التسعينيّات، وهو حارس سابق لإحدى الحانات، حيث كانت أطروحته في جامعة كورنيل عن الأكاذيب خلال المقامرة، وقضى معي ثلاث سنوات بعد حصوله على الدكتوراة في المختبر زميلاً.

بعد أحداث 9/11 تغيّر كلّ شيء. ولأول مرة، موَّل فرع من وزارة الدفاع بحوثنا في الخداع، مما أتاح لنا قياس سلوك مئات الأفراد. لم يتناقض ما توصلنا إليه مع ما عرضناه في الفصول السابقة في الكتاب، ولكننا توسعنا في ذلك.

علمت أنّ البحوث التطبيقية التي يقوم فيها الأكاديميون تفشل عادةً بجلب اهتمام المستخدمين المستهدفين؛ وهم في هذه الحالة (الحكومة). أردت تجنّب وصول النتائج في نهاية المطاف لما تسميه المجتمعات الدفاعية بـ (وادي الموت)، مثوى نتائج البحوث التي لن يستخدمها أحدٌ بتاتاً.

واعتقدت في البداية أنّ المفتاح هو إحضار العملاء للإسهام في تصميم البحوث. دعوت موظفي تنفيذ القانون، وعملاء المخابرات في الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وإسرائيل للاجتماع معي ومع مارك فرانك جنباً إلى جنب مع زميلنا مورين أوسوليفان[1] في واشنطن العاصمة، مدّة يومين للتخطيط لدراسة الخداع الجديدة.

كانت التجارب التي صمّمناها معاً فريدة من نوعها من بين بحوث الخداع، سواء بحثت في علم وظائف الأعضاء، كما في بحوث مِكشاف الكذب (البوليغراف) أو سلوك الشخص. لقد ربطنا دراسة العينة بالخبرات الحيوية التي تلقاها أفراد العينة في الماضي، أو التي سيتجهون نحوها في المستقبل.* لم نحدّد عينة عشوائية من المجتمع،** وبدلاً من ذلك اخترنا أشخاصاً اهتموا بشدة بما سيفعلونه في تجربتنا، وما سيعنيه النجاح أو الفشل في الكذب أو قول الصدق لهم وللأشخاص الذين في دائرة اهتمامهم. لم نحدّد عينة عشوائية للكذب وقول الصدق لأننا نعرف مسبقاً أنّ الأشخاص أنفسهم يختلفون باختيارهم الكذب أو الصدق؛ فالذين يختارون اختراق القاعدة، والكذب حيال ذلك، واثقون من قدرتهم على الإفلات من العقاب، أمّا الأقل ثقة فلن يخترقوا القاعدة؛ لأنهم يتوقعون أن يُضبطوا إذا حاولوا تغطية فعلتهم بالكذب، وتركنا أفراد عينة البحث يختارون أن يكذبوا أو أن يكونوا

* في دراستي الأولى (الفصل الثالث، الصفحات 56-54)، كانت هذه الرابطة موجودة؛ لأن طالبات التمريض ووجهن بمشاهد طبية مقلقة علمن بأنهن سوف يواجهنها في حياتهن المهنية، وجعلنا الوضع مرتبط بحياتهن الماضية والمستقبلية في أحد التجارب اللاحقة (الفصل الحادي عشر) كذب فيها الأشخاص أو صدقوا بشأن آرائهم، بما أنها وجب أن تكون رأياً يتمسكون به بقوة ويهتمون فيه، ولكن في تجربة أخرى كذبوا فيها أو صدقوا بشأن إما أخذهم لمبلغ من النقود أم لا، كان التصرف غير مرتبط البتة بحياتهم السابقة أو اللاحقة، كما هي الحال مع جميع بحوث الخداع السابقة التي أجراها العلماء الآخرين.

** إن معظم بحوث علم النفس فعليّاً لا تأتي من عينات عشوائية ولكن بدلاً من ذلك من الطلاب الجامعيين ذاتيي الاختيار الذين أتموا متطلبات مقرّر عن طريق التطوع ليكونوا عينة بحث.

صادقين، تماماً كما يحدث معهم في الواقع، مع العواقب النفسية جميعها التي ينطوي عليها هذا الاختيار.

كانت الأخطار، وخاصة من حيث العقوبة، مرتفعة بالدرجة التي تسمح بها لجان الجامعة التي تضطلع بمهمة حماية أفراد العينة من الأذى. وخلافاً للتجارب السابقة جميعها، عرف الجميع أنّهم سيُعاقبون إذا حكم عليهم ضابط تطبيق القانون الذي يُجري معهم المقابلة أنهم غير صادقين، وكما في الواقع، يتلقى الشخص الذي حُكم عليه بالصدق المعاملة نفسها للكاذب الذي ضُبِط.

اخترنا الأفراد الذين كانوا أعضاء في جماعات نشطة سياسيّاً، ولم يُسألوا عمّا إذا كانوا قد انتهكوا القانون من قبل، ولكن كان عليهم الإيمان بعدالة قضية جماعتهم بما في ذلك تسويغ السلوك المتطرف لتعزيز أهداف مجموعتهم. أعطيناهم فرصة فتح مظروف مختوم موجه إلى مجموعة نشطة سياسيّاً معادية لهم، ويمكنهم اختيار أخذ الأموال من المغلف، والتي يمكن أن تذهب إلى المجموعة الأخرى. وإذا كان باستطاعتهم إقناع ضابط تنفيذ القانون الذي يستجوبهم بعد ذلك أنهم لم يأخذوا المال، وأنّ مجموعتهم حصلت عليه، وتلقوا مالاً إضافيّاً لاستخدامهم الشخصيّ. ويمكنهم أيضاً اختيار عدم أخذ المال من المغلف. وإذا أقنعوا ضابط تنفيذ القانون أنهم أخذوا المال فستحصل مجموعتهم على بعضه، وستحصل المجموعة المعارضة على بعض المال كذلك. يمكنهم أيضاً الحصول على بعض المال لاستخدامهم الشخصي، وإن كان المبلغ أقلّ مما لو حاولوا أخذ المال. فإذا حكم المحقّق عليهم أنّهم يكذبون بعد ذلك بصرف النظر عما فعلوه في الواقع، فلن يحصلوا على أيّ مبلغ من المال، وستحصل المجموعة الأخرى على بعض المال، وسيواجهون عقوبة بدنية غير مريحة للغاية.

وقد قِيسَ السلوك الذي يمكن ملاحظته لدى أكثر من مئة فرد: حركات الوجه، والحملقة، وحركات الرأس، والإيماءات، وكلّ من الكلمات، ونبرة صوت المشاركين.*

---

* قاد مارك فرانك عملية جمع هذه البيانات وتحليلها، وبعد أن تم تصميم الدراسة، كان دوري استشاريّاً أو شريكاً أصغر. وتم قياس سيكولوجية الجهاز العصبي الذاتي، ولكن درجة حرارة الجلد هي ما أمكن إدراجه في التحليل؛ بسبب مشكلات في أجهزة التسجيل.

أمدّنـا التحليـل الإحصائيّ بنتيجتين مهمتيـن غير متوافرتين فـي دراساتنا السابقة: الأولـى، توصّلنا إلى مستـوى تحقيق عالٍ جداً من الدقة(90% تقريبـاً) في تحديد من الذي كذب، ولكن فقط عندما أخذت مقاييس سلوكية عدّة بالحسبان، لم يسفر أيّ مصدر وحده؛ كالوجـه، أو الجسم، أو الصوت، أو الكلام، أو درجة حرارة الجلد عن نسبة نتائج عالية. أمّا النتيجة الثّانية، فهي أنّ تعابير الوجه بصفته مصدراً سلوكيّاً منفرداً أعطت مستوى دقة أكثر من 70%. وقد حصلنا على النتيجة نفسها في دراسة أخرى ذات صلة. وكما اتضح في عملنا السابـق، فقد كانت أكثر هذه التعابير دقيقة؛ أي أنّها كانت ترتسم على الوجه وتختفي خلال أقـل من نصف ثانيـة. لقد أثبتت مجموعة بحثيـة مستقلة[2] نتيجة وجود مثـل هذه التعابير الدقيقـة وحدوثها عند كذب أحدهـم. ومن المهم معرفة أنّ بعض الكاذبين الذين أظهروا هذه التعابير الدقيقة في دراستنا ذكروا أيضاً أنّهم حاولوا بعد ذلك إخفاء تعابير الوجه من أجل خداع المحقق، لكنّ ذلك كان واضحاً في تعابيرهم الدقيقة.

تعابير الوجه الدقيقة

تُعدّ تعابير الوجه الدقيقة (بطول 1/2 إلى 1/25 جزء من الثانية) سريعة بحيث يمكنك تفويتهـا بمجرد طرفة عيـن. أظهرت بحوثنا أنّ معظم الأشخاص، حتى من غير أن تطرف عيونهم، لا ينقلون المعلومات الواردة في التعابير الدقيقة، وقد اكتشفنا هذه التّعابير عندما كنـا ندرس، بالعرض البطيء، المقابلـة التي أجريت مع المريضة النفسية ماري، التي كانت تخفـي كربهـا من أجل الحصول على عطلـة نهاية الأسبوع، بحيث تصبـح حال تحررها من إشـراف المستشفى قادرة على الانتحار (انظر الصفحات 17 – 16). وباستعراض الشّريط في وقته الحقيقي، بدت طبيعية تماماً، ولم تُكْتشف نِيَّتُها إلا عندما شاهدنا التعابير الدقيقة بالعرض البطيء.

قـد تحـدث التّعابير الدقيقـة لسببين مرتبطين معـاً ولكنهما مختلفان جـدّاً: وكما هو الحـال مع ماري، يمكن أن تكـون التعابير نتيجة الإخفاء المتعمد المـدرك، أو أن تكون نتاج

الكبـت، الذي لا يدرك الأشخاص الذين يظهرون التعبير الدقيق من خلاله ما يشعرون به.* ولم أجد فرقاً في مظهر التعبير الدقيق، سواء نتيجة الكبت كان أم القمع.

فـي كثير مـن الأحيان ولكـن ليس دائماً، يكـون التعبير الدقيـق مكثفاً جـدّاً، وظاهراً بالكامـل علـى الوجه ككل. في النسخـة الأولى من هـذا الكتاب، عرضـت محاولاتنا الأولية لتعليـم الأشخاص كيفية التّعـرّف إلى التّعابير الدقيقة عند حدوثهـا الحقيقي. ودهشت لأنّ الأشخاص تعلموا هذه المهارة في أقل من ساعة واحدة.

تقـدم أداة التدريب على اكتشـاف التعبير الدقيق (METT) التـي صممتها نوعين من التدريـب؛ ففي الحركـة البطيئة، تقارن تبايـن المشاعر واختلافاتها التـي غالباً ما يختلط ببعضهـا بعضاً؛ كالغضـب، والاشمئزاز، والخوف، والمفاجأة، والخـوف، والحزن، مع تعليق حـول كيفية اختلاف كلّ زوج مـن هذه العواطف، وتوفر (METT) أيضـاً التدريب لملاحظة التّعابيـر الدقيقـة. في كل مادة تدريـب، يظهر شخص مختلف، لا يبدي هـذا الشخص أولاً أيّ تعبيـر، وفجـأة، يظهر تعبير وجه من بين سبع من العواطف لمـدّة قصيرة جدّاً، والعودة فـوراً إلى الوجـه الخالي من التعابير. علـى المتدرّبين اختيار أيّ العواطـف السبع عُرِضت؛ الغضـب، أم الخوف، أم الاشمئزاز، أم الاحتقار، أم الحزن، أم المفاجأة، أم السعادة. تزوّد الشاشـة المتدربين بتغذية راجعة عمّا إذا كانت إجابتهم صحيحة أم لا. فإن لم تكن كذلك، يُسمح لهم مرة أخرى الحكم على الصورة حتى يصلوا إلى الإجابة الصحيحة، وقبل الانتقال إلـى التعبيـر الوَمْضيّ التالي، يُشجّع المتدربون على إيقـاف التعبير ودراسته، ومن ثم تكرار عرضــه حتى يُعرف في أثناء العرض القصير. وفي الإصـدار القياسي من (METT)، يُقدَّمُ للمتدرّبيـن واحـدة وعشرون فرصة ممارسـة مماثلة، وفي النسخة المتقدمـة، هناك اثنتان وأربعون فقرة تدريب.

تشتمـل (METT) أيضاً على اختبارات ملاحظـة للتعابير الدقيقة قبل التدريب وبعده. يكتسـب المتدربـون نسبة مستوى دقة 30%–40% عادةً. فـي حين، يصل كثير منهم إلى ما نسبتـه 80%، أو أفضل فـي ساعة واحدة، أو أقل. لقد لوحظت هـذه الميزات في مجموعات

* لقد كان هاغارد وآيزاك أول من أفاد بوجود التعبيرات الدقيقة الناتجة من الكبت، وكنا نحن أول من أفاد بوجود تعبيرات دقيقة ناتجة عن القمع.

متنوعة، مثل طلاب الجامعات الأمريكية، ورجال الأعمال اليابانيين، وأفراد الأمن الأمريكي، والشرطة الاتحادية الأسترالية، وغيرهم.

كانت النسخة السابقة لـ (METT) مماثلة، ولكنها أظهرت تعابير مجموعتين فقط من المجموعات العرقية السّتّ في النسخة الحالية (أسميناها METT2؛ لتمييزها عن الأصلية). تقدم هذه النسخة ممارسة وتدريب أقلّ. ومع ذلك، نجم عنها تحسن ملحوظ. تم الحصول على معظم البحوث التي أثبتت فوائد (METT) باستخدام (METT) الأصلية.

في سلسلة من الدراسات التي أجريتها مع مارك فرانك وموررين أوسوليفان، استخدمنا (METT) اختباراً يظهر التّعابير الدقيقة. يُطلب فيها إلى الأشخاص الحكم على العواطف التي عُرضت لمدّة وجيزة جداً، من غير أن يوفّر لهم أيّ تدريب. أيضاً، شاهد المشاركون أشرطة فيديو لأشخاص يكذبون أو يقولون الصدق عن المشاعر التي شعروا بها، وعن آرائهم، أو ما إذا أخذوا مبلغاً من النّقود، وكان الاختبار الوحيد الذي يرتبط بالدقة في تحديد الأكاذيب (جرّبنا كثيراً من اختبارات الشخصية المختلفة)، هو دقة اختبار التّعابير الدقيقة، ولم يكن الارتباط قويّاً (0.30 – 0.20) ولكنه متّسق وذو دلالة إحصائية. وجدنا أنّ كلّاً من طلاب الجامعات وأفراد حرس السواحل الأمريكان الذين دُرِّبوا لمدة أقل من ساعة واحدة بأداة (METT) استطاعوا اكتشاف التّعابير الدقيقة التي أبداها الأشخاص الذين كانوا يكذبون[3].

وفي دراسة مختلفة، قدّم راسيل[4] تدريب (METT) لمرضى الفصام ومجموعة أخرى ضابطة. وكما هو متوقع، تفوّقَ الأشخاص الطبيعيون على مرضى الفصام في الاختبار التمهيدي. في حين تحسّن أداء كلتا المجموعتين بعد التدريب. ولكن مرة أخرى، تفوّق الأشخاص غير المصابين بالفصام على مرضى الفصام، وكانت دقّة مرضى الفصام بعد التدريب مماثلة لدقّة غير المصابين قبل التدريب بنتيجة لافتة! وباستخدام آلة تصوير لتتبع ما تطلع إليه الأشخاص في الوجه، نظر المصابون بالفصام الذين تدربوا من خلال (METT) على مناطق الوجه التي تحتوي على المعلومات، وهو أمر لم يفعلوه قبل التدريب[5].

فــي السنوات القليلة الماضية، انضمّ إليّ ديفيـد ماتسوموتو في كثير من البحوث التي ستــرد تاليــاً. فقد أعدّ أطروحتــه معي منذ أكثر من خمسة وعشرين عامــاً في أوجه التشابه والاختلاف الثقافي في الاعتراف بتعابير الوجه. يُعدّ ديفيد مدرب الجودو الحائز على الحزام الأسود، وصاحــب مدرسة خاصة، والمدرب الأمريكي السابق للجودو الأولمبية، ومؤلف كتب فــي رياضة الجودو مصدر إلهام لي، وليس في مجال البحث فقط. في أحد البحوث، وجدت وديفيــد أنّ مندوبي المبيعات الذين دُرِّبــوا بـ (METT2) كانوا أكثر نجاحاً في أداء وظائفهم بعد بضعة أسابيع مقارنة مع مندوبي المبيعات الذين لم يحصلوا على هذا التدريب[6].

تعابير الوجه الدقيقة

قد تكون أيٌّ من العواطف السبع التي تعدّ تعبيراً عالميّاً؛ كالغضب، والخوف، والاشمئزاز، والاحتقــار، والحزن، والمفاجأة، والسعادة، مهمة في كشــف الأكاذيب فقط عندما تتناقض مع ما يقال، أو مع ما تبناه الشخص. فإذا كان تعبير الوجه يتناسب مع الكلمات أو مع ما تم تبنيه، فلا دلالة له لكشف الكذب.

أستخدم مصطلح (دقيق) للتعابير التي تستمر مدة كافية على الوجه لكي تُلحظ وتُفسّر بسهولة، وهي في العادة تستمر من نصف ثانية إلى بضع ثوانٍ. ليست هناك حاجة إلى تعليم الأشخاص كيفية رصد التّعابير الدقيقة وتفسيرها ما لم يكن هناك عائق عقليّ مثل الفصام أو التّوحّــد. ولكن وَفْق بحوثنا، يميل معظم الأشخاص إلى تجاهل تعابير الوجه التي تتعارض مــع الحديــث المنطوق[7]، ولكننا لا نعرف مــا إذا كان الأشخاص لا يلاحظــون هذه التعابير حقيقــةً، أو يلاحظونها ولا يعطونها وزناً في أحكامهم. قبل كلّ شيء، يتأثّر معظم الأشخاص بالكلمات المنطوقة، ويتجاهلون السلوكات غير اللفظية المتناقضة جميعها.

التّعابير الخفية

هــي تعابيــر صغيرة جدّاً، وهي تظهر علــى جزء فقط من الوجه، أو علــى أنحاء الوجه كلّــه. ولكن هذه التّعابير تكون صغيرة جدّاً. يحدث هذا النّوع من التّعابير لأسباب كثيرة؛ قد تكون العاطفة المُشاهدة طفيفة جدّاً، علاوة على أنها تحدث عند بدء العاطفة فقط لتصبح

أكبـر إذا شعر بها الشخص بشدة، ويمكن أن تحدث أيضاً إذا تـمّ الشعور بها بقوة، ولكنها تُثبّط بفاعلية، وكلّ ما يتسرب هو جزء منها. لا نعرف ما إذا كان من الممكن أن نستشف من التعبير الخفي نفسه سبب حدوث العاطفة الطفيفة، أو بدئها، أو تسرب عاطفة قوية.

لقـد صممت أداة التدريب علـى التعبير الخفي (SETT) لزيادة قـدرة الأشخاص على رصـد هـذه الإشارات الصغيـرة. أظهرت دراسة حديثـة أعدها فريق بحـث مستقل أنّ دقة الفقـرات في (SETT) مرتبطة بالدقة في الكشف عن الأكاذيب العاطفية المماثلة لتلك التي بـدت في تجربة طالبات التمريض في إخفـاء المشاعر[8]. أعتقد أنّ (SETT) ستكون مفيدة فـي إنشـاء صلات، مضيفـاً إلى الفوائد التي تـم الحصول عليها مـع (METT). لقد أنهيت العمل مع مارك فرانك على نسخة محدّثة من(SETT) و (SETT2).

كاشف السلوك الخطر (D - cube)

منـذ أكثر مـن عشرين عاماً مضت، أعارنـي جهاز الخدمة السريـة الأمريكي شريطاً مصـوّراً جمّعوه من محاولات الاغتيال من أنحاء العالم، والذي قام بتصويره هاوٍ أو شخص يعمـل بصحيفة يصـور الحشد الذي كان ينتظر رؤية زعيم سياسي. أحياناً، كنت أرى تعابير وجه القاتل من خمس إلى عشرين ثانية قبل الكشف عن السلاح وإطلاق النار، وكانت أوضح الرؤيـة لجون هينكلي الذي حاول اغتيال الرئيس ريغان في عام 1981م، واستطعت أيضاً في عدد آخر رؤية التعبير على وجه القاتل.

يحـدث العنـف (أستخدم هذا المصطلـح للإشارة إلى الاعتـداءات الجسدية؛ بهدف الإيـذاء البدنـيّ أو إحداث الوفاة) مع سبـق الإصرار والترصد فـي الاغتيالات، وفي ظروف أخـرى، لا يكون فيها الهدف شخصية سياسية أو أحد المشاهير. وعلى الرّغم من أنّ العنف مـع سبق الإصرار يحـدث بين أفراد الأسـرة الواحدة، فقد يحدث أيضـاً عراك طارئ غير مخطّـط له بين شخصيـن، من غير نيّة مبيّتـة للعنف، ولكن يحتدّ الجـدال، ويفقد أحدهم السيطرة أو كلا الشخصين المشتركين بالجدال، فيكون العنف.

ولعدم وجود عينة عنف ناجمة عن فقدان السيطرة على الانفعالات، طلبت إلى ممثلين محترفين إعادة تمثيل مشهد من حياتهم الشخصية فقدوا فيه السيطرة فعلاً، وضربوا شخصاً ما. وقبل البدء، أوعزت لهم تثبيت (لا تضربني!) – في آخر لحظة قبل فقدهم السيطرة، فأبدى نحو تسعين ممثلاً تعبير الوجه نفسه، وكان هؤلاء موزّعين بالتساوي بين ذكور وإناث، ومن ستّ مجموعات عرقية، وبعضهم من المهاجرين.

طلبت إلى أحد الممثلين القيام بتعابير الإصرار وفقدان السيطرة، وبعدد من تعابير الغضب والازدراء والاشمئزاز أيضاً. ورتبت الصور التي التقطتها لهم، وعددها اثنتا عشرة بانتظام، وعرضتها على ضباط شرطة الجريمة–الخطرة في خمسة بلدان؛ اثنان من دول غير أوروبية أو أمريكية. وسُئل الشرطة عمّا إذا كانوا في أيّ وقت مضى ضحية اعتداء بدني أو شاهد على ذلك؛ فكان معظمهم كذلك، ثم سُئلوا عمّا إذا حصلوا على تعبير وجه المهاجم قبل الفعل العنيف وتذكروه، فكان أكثر من 85% كذلك، وطلب إلى من تذكر التعبير الذي شاهده قبل هجوم الإصرار والترصد يشبه أيّاً من الاثنتي عشرة صورة التي شاهدها، والتي تعود إلى فقدان السيطرة على الانفعالات. أشارت النتائج إلى تشابه قوي بينهم بصرف النظر عن الدولة التي ينتمي إليها ضابط الشرطة.

عرضنا النتائج التي توصلنا إليها على مجموعة أخرى من ضباط شرطة الجريمة الخطرة فأكدوا تماماً أنّهم وجدوا ما شاهدوه.

صمّمتُ وديفيد ماتسوموتو نسختنا الأولى الإلكترونية على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) لأداة التّدريب على كشف السلوك الخطر.

تحذيرات

على الرّغم من أنّ التّعابير الدقيقة تظهر عواطف مخفية، فإنّ هناك تحذيرين على قدر كبير من الأهمية:

1. ليست هناك طريقة لمعرفة ما إذا كان الإخفاء متعمّداً، أو أنّ الشخص الذي يبديه لا يعرف حقيقة شعوره.

2. لا يثبت إخفاء العاطفة بحدّ ذاته أنّ الشخص قد ارتكب بالفعل، أو ينوي ارتكاب جُرْمٍ ما.

وكما في باقي التّعابير العاطفية، لا يعلمنا التعبير الدقيق عن مصدره، ولا بالحدث الذي سبّبه. مثلاً، قد يحدث الغضب المخفي لدى شخص بريء تماماً، ولكنه عن طريق الخطأ دخل في دائرة الشبهة، وهو قيد الاستجواب. يمكن أن يقوم الاعتراف والبحث بمزيد من الأسئلة عن سبب ظهور العاطفة المخفية في تجنب خطأ أوثلّو، بافتراض أنّ هناك دافعاً وحيداً للعاطفة، وهو الدافع الذي يناسب التصورات المسبقة للمحقق (انظر الصفحات 171 – 170).

يمكن أن يكون أحد الاستخدامات الممتعة للتعابير الدقيقة في الحد الأدنى من الخطورة، ويظهر البرنامج الأول في المسلسل التّلفازيّ (اكذب عليَّ)، والذي أعد بصفتي مستشاراً علميّاً فيه، والذي يُستجوب فيه سجين أمريكي نازي. يعرف السّائل أنّ السجين زرع قنبلة في كنيسة يرتادها الأمريكان الأفارقة ولكنه لا يعرف أيّها، والسجين لا يجيب عن الأسئلة بشأن ذلك، ولكنّ تعابيرَ وجه السجين الدقيقة تشي بالسرور عند سؤاله عن الكنيسة التي ينوي فريق الاستخبارات الاتحادية تفتيشها يشيرُ إلى أنّ هذه الكنيسة ليست المُستهدفة. في حين، تبدو التّعابير الغاضبة عند ذكر اسم كنيسة أخرى هي التي وضع فيها القنبلة، وقد ذُكر لي أنّ الإجراء نفسه يستخدم في منطقة الشرق الأوسط عند استجواب مشتبه به عن مكان سلاح ما أو عبوة ناسفة.

في تفسير التّعابير الخفية، تكون القضية الأولى متعلقة بما إذا كانت هذه التّعابير علامة على عاطفة غير قويّة، أو أنها عاطفة قوية على وشك البدء، أو جزء من عاطفة يحاول أحدهم إخفاءها. وإذا كان التعبير الخفي تسريباً لخوف، أو غضب، أو اشمئزاز، فعلى المقيم أن يستبعد إمكانية أن تكون هذه العواطف ردّة فعل لعملية التقييم، وهي ليست دليلاً على الكذب عن الحادثة التي يجري التحقيق بشأنها.

هناك مجموعة مختلفة من التحذيرات بشأن استخدام تعابير الوجه في السلوك الخطير. وهي تحذيرات النية بالتسبب بالأذى، وهي ليست دليلاً قاطعاً، وقد تكون بالانتباه

obeikandl.com

أنّ الشخص الذي يبدي تعبيراً خطيراً يرتكب فعلاً عنيفاً، في الأقل حاليّاً. ويكمن الأمر المهم الآخر في احتمال وجود تعابير خطيرة لم نستطع حتى الآن تحديدها، فنحن نعرف كيفية إيجادها، ولكننا لم نتوصل إلى نتائج حاسمة في هذا الشأن. ولا نعلم أيضاً ما إذا كانت التّعابير الخطيرة التي حدّدناها يمكن ملاحظتها لدى الجهاديِّين، أو الانتحاريين. مرّة أخرى، نحن نعرف كيفية إيجاد العلاقة، ولكن هذا العمل لم يُنجز بعد.

لعل أهم استخدام للتّعابير الدقيقة والخفية، وربما أيضاً الخطرة، يكمن في إقامة نوع من الألفة وكسب التعاون. أعتقد أنّ الجميع لديه قصة ما يريد أن يرويها إذا صدّق أنّ المستمع لديه ذهن متفتح ويريد الفهم. إنّ مسار كسب تلك الثقة على نحو ما يتمثل في أن يكون الشخص حسّاساً لكيفية شعوره، خاصة نحو المشاعر التي لا يدرك شعوره بها أو قد يكون مهتمّاً بكشفها.

لمعرفة كيفية ملاحظة التّعابير الدقيقة والخفية والخطرة، ارجع إلى الرابط:
www.ekmangroup.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الخاتمة

ينبغــي أن يساعــد ما كتبته مكتشفي الكذب أكثر من الكاذبيــن، وأعتقد أنّ من الأسهل تطوير قدرة الشخص على كشف الخداع بدلاً من القيام به. إنّ ما يجب فهمه هو أكثر قابلية للتعلـم، فلا داعي لوجـود موهبة خاصة لفهم أفكاري عن كيفيـة اختلاف الأكاذيب. ويمكن لأيّ شخصـ مجتهد الاستفادة مـن قائمة التحقق من الكذب؛ لتقدير مـا إذا كان الشخص الـكاذب عرضة لارتكاب ما يكشف أمره. وكي يصبـح الشخص أكثر قدرة على رصد قرائن الخداع، عليه أكثر من مجرد فهم ما ذكرت سابقاً؛ عليه تطوير مهارة خاصة بذلك من خلال التدريب، ولكن أيّ شخص يقضي الوقت في المشاهدة والاستماع بعناية، والمراقبة للقرائن المذكورة في الفصلين (الرابع والخامس) قد يستفيد من ذلك. لقد قمنا مع آخرين بتدريب الأشخاص على كيفية المشاهدة والاستماع بعنايـة وبدقة، واستفاد معظمهم، حتى من غير تدريب مُمنهج، يستطيع الأشخاص في أماكن عملهم رصد قرائن الخداع.

نستطيـع إنشاء مدرسـة لتعليم اكتشاف الكذب، ولكن من غيـر المنطق إنشاء مدرسة للكاذبيـن؛ فالكاذب بطبعه لا يحتـاج إليها. في حين لا يمتلك الآخـرون الموهبة للاستفادة منهـا. يعرف الـكاذب الطبيعي فعلاً معظم ما كتبت عنه، ويستخدمـه على الرّغم من أنه لا يـدرك معرفته؛ فالكذبُ المُتقنُ موهبةٌ خاصة، لا تُكتسـب بسهولة، وينبغي أن يكون الكاذب ممثلاً بطبعه، وناجحاً في تمرير كذبه على الآخرين، وساحراً بطبيعته.

إنّ هـؤلاء الأشخاص قادرون بالسليقة علـى التّحكّم في تعابيرهـم، وإعطاء الانطباع الذي يسعون إلى نقله لغيرهم، زد على هذا عدم حاجتهم إلى كثير من المساعدة.

obeikandi.com

يحتاج معظم الأشخاص إلى تلك المساعدة، ولكنهم يفتقرون إلى القدرة الطبيعية للأداء، ولن يكونوا قادرين أبداً على إجادة تلفيق الكذب، ولن يستفيدوا مما شرحت عمّا يكشف الأكذوبة وما يجعلها تبدو مصدقة. لا بل قد تجعلهم أسوأ مما كانوا عليه من قبل، ولا يمكن تحسين الكذب من خلال معرفة الواجب القيام به، ومالا يجب القيام به. وأشكّ أن تفيد الممارسة بذلك؛ فالكاذب ذاتي الإدراك، والذي يخطّط لكل حركة يقوم بها، يكون مثل المتزحلق الذي يفكر بكلّ خطوة في أثناء انزلاقه نحو أسفل المنحدر.

هناك استثناءان؛ درسان عن الكذب يمكنهما مساعدة أيّ شخص:

1. ينبغي أن يهتم الكاذبون أكثر لتطوير عبارات أكذوبتهم وحفظها، فلا يتوقع معظم الكاذبين الأسئلة جميعها التي قد تُطرح عليهم، ولا الأحداث غير المتوقعة التي قد يواجهونها. على الكاذب أن يكون جاهزاً ومتدرباً على الإجابات لمزيد من الحالات الطارئة التي قد يواجهها، حيث يتطلب إعداد إجابة مباشرة، سريعة ومقنعة، إجابة متسقة مع ما قيل الآن ولاحقاً، قدرات عقلية وهدوءاً تحت الضغط، وهو أمر لا يمتلكه إلا القليل.
2. صعوبة الكذب من غير ارتكاب أخطاء. يفلت معظم الأشخاص من الكشف؛ لأنّ ضحاياهم غير مهتمين في اكتشافهم، ومن الصعب منع التسريبات أو قرائن الخداع.

لم أحاول فعليّاً تعليم أيّ شخص الكذب جيداً، ويستند حكمي إلى أنني لم أكن قادراً على المساعدة، على المنطق وليس الدليل، وآمل أن أكون محقاً؛ لأنّني أفضل لبحثي أن يساعد مكتشف الكذب أكثر من مساعدة الكاذب، ولا يعود ذلك إلى اعتقادي أنّ الكذب شرّ متأصل في النّفس البشرية. لقد ناقش كثير من الفلاسفة بإقناع إمكانية تسويغ بعض الأكاذيب أخلاقيّاً؛ فالصدق أحياناً قد يكون قاسياً[1].

ومع ذلك، فأنا أتعاطف مع مكتشف الكذب أكثر من تعاطفي مع الكاذب. قد يكون ذلك لأنّ عملي العلمي هو البحث عن قرائن كيفية شعور الأشخاص الحقيقي، ويهمني التّمويه، ولكن التحدي يكمن في كشف العاطفة الحقيقية خلفه. ولاكتشاف كيفية اختلاف التّعابير

الصّادقـة والمزيفـة، ولإيجـاد أنّ الإخفاء ليس ناجحـاً، وأنّ التّعبير المزيـف يشبه التعبير الحقيقـي للعاطفـة ولكنه يختلف عنه أمر كافٍ للحصول على الانشـراح. إنّ دراسة الخداع، وَفْـق هـذه الشروط، أكثـر بكثير من الخـداع نفسه؛ فهو يوفـر الفرصة لمشاهـدة الصراع الداخلي غير العادي بين ما هو إراديّ ولا إراديّ في حياتنا، ولمعرفة مدى قدرتنا على إجادة التحكم في السلوكات الخارجية لمشاعرنا الدّاخليّة.

وعلـى الرّغم من تعاطفي مع مكتشف الكذب لا الـكاذب، أدركت أنّ كشف الكذب ليس فضيلـة كبـرى؛ فالصديق الذي يخفي مللـه بلطف يشعر بالحـرج إذا ما كُشِفَ، والزوج الذي يتظاهـر بالاستماع عندما تخبره زوجته نكتة سيئة، والزوجة التي تتظاهر بالاهتمام بتفسير زوجها لكيفية إصلاحه أداة ما، قد يشعران بالإساءة إذا تمّ كشف تكلّفهما وتصنّعهما.

فـي الخـداع العسكري، من الطبيعي أن تكون مصالـح الشخص الوطنية المناسبة مع الـكاذب، وليس مكتشف الكذب. ففي الحرب العالمية الثانية، على سبيل المثال، مَنْ لم يرد فـي الدول الحليفـة أن يضلل هتلر بشـان أي شاطئ فرنسي، نورمانـدي أم كاليه كان هو ما ستحط عليه قوات الحلفاء.

صحيـح أنّ لهتلـر الحقَّ كلَّه فـي محاولة كشف كذبـة الحلفاء، ولكـنّ اكتشاف الكذب لا يوجـد ما يسوغـه دائماً، وتكون المصلحـة أحياناً بالتكريم، بصرف النظـر عمّا يشعر أو يفكـر به. أحيانـاً، للشخص الحقُّ في تصديـق كلمات الآخر كما هـي. ينتهك كشف الكذب الخصوصية، وللشخص الحقُّ في الاحتفاظ ببعض الأفكار أو المشاعر الخاصّة به. في حين إنّ هناك حالات يكون فيها ذلك مُسوَّغاً، كالتحقيقات الجنائية، أو شراء سيارة، أو التّفاوض لتوقيع عقد عمل... وما إلى ذلك. إذن، هناك حالات يفترض فيها الأشخاص الحقّ في سرّيّة خصوصيّاتهم وأفكارهم، والتوقع أنّ ما سيقولونه سيُقبل على علّاته.

إنّ الأمـر لا يرتبط بالإيثـار أو احترام الخصوصية التي يجب أن توقفنا عن استمرارية كشـف الكذب. فمن الأفضل أحياناً تضليـل أحدهم، وقد يكون المضيف أفضل حالاً إذا كان ضيفه مسروراً، والزوجة أكثر سعادة عند سماع قَهْقَهَ زوجها لدى سماعه نكتتها، وقد لا تكون رسالـة الـكاذب المزيفة أكثر قبولاً، بل قد تكـون أكثر فائدة من الحقيقـة أيضاً. فقد يقدم

ادعــاء النجــار أنه بخير لرئيسه الذي يسأل: «كيف حالك اليوم؟» معلومات أكثر مما يفيد به جوابــه الصحيــح لا زلت أشعر بضعف من المشاجرة التي حدثـت في المنزل ليلة البارحة.» وتفيد أكذوبته بصدق نيته أداء عمله على الرغم من انزعاجه الشخصي. هناك طبعاً، تكلفة للتضليـل حتــى في هذه الحالات التي تأخـذ بالحسبان مشاعر الآخريـن. فقد ينظّم المدير مهمّــات عمله تنظيماً أفضل لو أدرك ضيق النجار الحقيقي. وقد تتعلم الزوجة سرد النكات جيّداً، أو تلجأ إلى عدم سرد النكات بعدئذٍ إذا اكتشفت خداع زوجها. وعلى الرغم من ذلك، أعتقــد أنّ من غيــر المهم أحياناً أن يقــوم مكتشف الكذب بانتهاك العلاقــة، وخيانة الثقة، وسرقــة المعلومــات التي لم تُعْطَ لأسباب وجيهة. ينبغي أن يــدرك مكتشف الكذب أنّ قرائن الخــداع المُكتشفــة افتراضية، فهي تؤخذ مــن غير إذن على الرغم من عــدم رغبة الطرف الآخر.

لــم تكــن هناك طريقة لمعرفة مــا سأجده حين شرعت في دراســة الخداع. فقد كانت الآراء متناقضة. قال فرويد: «من لا يملك عينين يرى بهما وأذنين يسمع بهما، قد يقنع نفسه أن لا أحــد يستطيــع الاحتفاظ بسرٍّ ما. فإذا كانــت شفتاه صامتتين، فقــد يتحدث بأطراف أصابعــه، ويظهر عليــه ما يدور في داخله، ممــا يفشي السّرّ الذي في داخلــه[2]». ومع ذلك، عرفــت عدداً من الحالات كان فيهــا الكذب ناجحاً تماماً، ووجدت فــي الدراسة الأولى التي أجريتها أنّ الأشخاص سجّلوا نتائج تفوق المصادفة في كشف الخداع؛ إذ لم يسجل الأطباء النفسيون وعلماء النفس نتائج أفضل من نتائج الآخرين.

لقد سررت بالإجابة التي وجدتها. فنحن لسنا مثاليين ولا غير مثاليين ككاذبين، وليس كشــف الخداع سهلاً كما ادعى فرويد، ولكنه ليس مستحيلاً، ولكنه يجعل الأمور أكثر تعقيداً وأكثر إمتاعاً. إنّ قدرتنا غير الكاملة على الكذب أساسيّة، وربما كانت ضرورية لوجودنا.

فكّــر بما ستكون عليــه الحياة إذا استطعنا جميعاً تمرير كذبنــا على الآخرين، أو كيف ستكون الحياة إذا لم يستطيع أحد الكذب بتاتاً. لقد فكرت في هذا أكثر فيما يتعلق بالأكاذيب عــن العواطف؛ لأنها الأكاذيــب الأصعب وأنّ العواطف هي ما يهمنــا. وإذا لم نستطع معرفة شعور أحدهم، وإذا عرفنا أننا لن نتمكن من ذلك، فستكون الحياة واهية. نحن متيقنون من معرفــة أنّ كلّ مظهــر من مظاهــر العاطفة قد يكون مجرد عرض للإرضــاء، أو التلاعب، أو

التضليل، فيصبح الأشخاص أكثر على غير هدى، وتصبح ملحقات العواطف أقل ثباتاً. فكر للحظة بمعضلة أحد الأبوين إذا استطاع الطفل بعمر الشهر إخفاء مشاعره وتزييفها بقدر إجادة الكبار لذلك. عندها، سيكون أيّ بكاء وصراخ كعواء (الذئب). نحن نسير في حياتنا معتقدين أنّ هناك أساساً للحقيقة العاطفية، وأنّ معظم الأشخاص لا يستطيعون تضليلنا، أو لا يريدون ذلك. لو كانت الخيانة بالعواطف بمدى سهولتها بالأفكار، ولو أمكن إخفاء التّعابير والإيماءات وتزويرها بسهولة تزوير الكلمات، فستكون حياتنا العاطفية جافّة، وأكثر حذراً مما هي عليه.

وإذا لم نستطع الكذب بتاتاً، وإذا كانت ابتسامتنا صادقة، ولا تغيب أبداً عند الشعور بالمتعة، ولا تظهر من غير متعة، فستكون الحياة أقسى مما هي عليه، ويَصعُب عندئذٍ الإبقاء على كثير من العلاقات بيننا. وستزول الكياسة واللباقة، وإخفاء المشاعر التي يتمنى المرء أنه لم يشعر بها، ولن تكون هناك طريقة لمعرفة ذلك. علاوة على أنه لن تكون هناك فرصة لرفض الكلام أو لعق الجراح إلا منفرداً. فكّر في صديق، أو زميل عمل، أو حبيب؛ شخص يشبه من حيث السيطرة على العواطف والتستر عليها مثل طفل بعمر ثلاثة أشهر، ولكنه من حيث المناحي الأخرى جميعها، كالذكاء والمهارات وما إلى ذلك قادرٌ تماماً مثل أي بالغ. إنّ هذا الاحتمال مؤلم جدّاً.

لكننا لسنا شفافين كالطفل ولا متنكرين تماماً؛ يمكننا أن نكذب أو نصدق، ويمكننا رصد الخداع أو إغفاله، ويمكننا السماح لغيرنا بتضليلنا أو نعرف الحقيقة؛ نحن نملك الخيار وهذه هي طبيعتنا.

obeikandl.com

ملحق

يلخص الجدولان 1 و 2 معلومات قرائن الخداع الواردة في الفصلين 4 و 5 جميعها .نظم الجدول 1 وفق القرينة السلوكية. في حين نظم الجدول 2 وفق المعلومات المنقولة. ولمعرفة مـا قد تكشـف معلومات محدّدة سلـوكاً معيناً، على القارئ مراجعة الجـدول 1، ولمعرفة ما يقدم السلوك لنوع معين من المعلومات، انظر الجدول 2.

تذكّـر أنّ هنـاك طريقتين رئيستين للكذب؛ الإخفاء والتزويـر. يتعامل الجدولان 1 و 2 علـى حدّ سواء مع الإخفاء. أمّا الجـدول 3 فيشير إلى الأدلة السلوكية على التزوير. في حين يوفر الجدول 4 قائمة كاملة للتحقق من الأكاذيب.

الجدول رقم 1

كشف المعلومات المخفية مرتبة وفقاً للقرائن السلوكية

قرائن الخداع	المعلومات التي تشير إليها
زلات اللسان	قد تكون محددة بالعاطفة، وقد تسرب معلومات لا علاقة لها بالمشاعر.
الشتائم	قد تكون محددة بالعاطفة، وقد تسرب معلومات لا علاقة لها بالمشاعر.
الكلام غير المباشر	عبارة لفظية غير معدة، أو عواطف سلبية؛ على الأرجح الخوف.
الوقفات وأخطاء الكلام	عبارة لفظية غير معدة، أو عواطف سلبية؛ على الأرجح الخوف.
علو نبرة الصوت	عواطف سلبية؛ ربما تكون الغضب و/أو الخوف.

انخفاض نبرة الصوت الكلام الأعلى والأسرع	عواطف سلبية؛ ربما تكون الحزن. ربما الغضب، و/أو الخوف، و/أو الابتهاج.
الكلام البطيء المنخفض	ربما الحزن و/أو الملل.
الحركات الرمزية	قد تكون محددة بالعاطفة، وقد تسرب معلومات لا علاقة لها بالمشاعر.
انخفاض الحركات التوضيحية	الملل، والعبارة غير المعدة، أو وزن كل كلمة.
ازدياد الحركات التلاعبية	عاطفة سلبية
التنفس السريع أو السطحي	عاطفة غير محددة
التعرّق	عاطفة غير محددة
البلع المتكرر	عاطفة غير محددة
التّعابير الدقيقة	أيّ من العواطف المحددة
التعبيرات المكبوتة	عاطفة محددة، ربما تبين فقط أنه جرى مقاطعة عاطفة ما ولكن لا توجد إشارة لنوعها.
عضلات الوجه الموثوقة	الخوف أو الحزن
الغمز المتزايد	عاطفة غير محددة
توسع الحدقة	عاطفة غير محددة
الدموع	الحزن، الضيق، الضحك غير المسيطر عليه.
تورّد الوجه	الحرج، الخجل، أو الغضب، وقد يكون الذنب.
ابيضاض الوجه	الخوف أو الغضب

obeikandl.com

الجدول رقم 2 كشف المعلومات المخفية، مرتبة وفقاً لنوع المعلومات	
نوع المعلومة	قرينة السلوك
العبارة اللفظية غير معدّة	الكلام غير المباشر، الوقفات، أخطاء الكلام، تناقص الحركات التوضيحية.
معلومات غير عاطفية (مثال، الحقائق، والخطط، والخيالات)	زلة لسان، شتيمة، حركة رمزية.
العواطف (السعادة، المفاجأة، الكرب)	زلة لسان، شتيمة، تعبير دقيق، تعبير مكبوت.
الخوف	الكلام غير المباشر، الوقفات، أخطاء الكلام، ارتفاع نبرة الصوت، كلام أعلى وأسرع، عضلات وجه موثوقة، ابيضاض الوجه.
الغضب	ارتفاع نبرة الصوت، كلام أعلى وأسرع، تورّد الوجه، ابيضاض الوجه.
الحزن (ربما الذنب أو الخزي)	انخفاض نبرة الصوت، الكلام أبطأ وأكثر ليونة، عضلات الوجه الموثوقة، الدموع، والنظر إلى الأسفل، احمرار الخجل.
الحرج	احمرار الخجل، والنظر نحو الأسفل أو بعيداً.
الابتهاج	ازدياد الحركات التوضيحية، ارتفاع نبرة الصوت، الكلام أعلى وأسرع.
الملل	انخفاض الحركات التوضيحية، الكلام أبطأ وأكثر ليونة.
العواطف السلبية	الكلام غير المباشر، الوقفات، أخطاء الكلام، ارتفاع نبرة الصوت، انخفاض نبرة الصوت، ازدياد الحركات التلاعبية.
انفعال أي عاطفة	تنفس متغير، التعرق، البلع، التعبيرات المكبوتة، الغمز المتزايد، اتساع القزحية.

* لا يمكن أن تنقل الحركات الرمزية عدداً من الرسائل المختلفة كما تنقل زلات السان أو الشتائم. هناك ما يقارب ستين رسالة بين الأميركيين لها حركات رمزية.

opeikandi.com

الجدول رقم 3 الدلائل على أنّ التعبير مزيف	
العاطفة المزيفة	**القرائن السلوكية**
الخوف	غياب تعبير الجبهة الموثوق
الحزن	غياب تعبير الجبهة الموثوق
السعادة	عضلة العين غير مشتركة
الحماس أو التورط بما يقال	فشل الحركات التوضيحية في التزايد، أو أن توقيت الحركات التوضيحية غير صحيح.
العواطف السلبية	غياب: التعرق، التنفس المتغير، أو ازدياد الحركات التلاعبية.
أي عاطفة	التعبير غير متناظر، يظهر ويختفي فجأة، الموقع في الكلام غير صحيح.

obeikandl.com

الجدول رقم 4

قائمة التحقق من الكذب

	بالنسبة إلى مكتشف الكذب	
	صعبة	سهلة
1. هـل يستطيع الـكاذب توقـع وقت حاجته إلى الكذب؟	نعم؛ لأنّ العبارة معدّة، وقد تم التدرّب عليها.	لا؛ العبارة غير معدّة.
2. هل تشتمل الكذبة على إخفاء فقط من غير الحاجة إلى التزييف؟	نعم	لا
3. هل تنطوي الكذبـة على العواطف الصادقة بلحظتها؟	لا	نعم؛ صعبة، خاصّة إذا: أ. وجب إخفاء العواطف السلبية أو تزييفها، مثل: الغضب، أو الخوف، أو الحزن. ب. على الكاذب أن يبدو من غير مشاعر، ولا يستطيع استخدام عاطفة أخرى؛ لتغطية العواطف الصادقة التي يجب عليه إخفاؤها.
4. هـل سيكون هناك عفو إذا اعترف الكاذب بكذبه؟	لا؛ تعزز دافعية الكاذب للنجاح	نعم؛ فرصة لاستمالة الاعتراف.
5. هل الأخطار من حيث المكافآت أو العقوبات مرتفعة جدّاً؟	صعبة التنبؤ: مع أنّ الأخطار المرتفعة قد تزيد الخوف من الانكشاف. فهذا يجب أن يحفّز الكاذب على بذل جهد أكبر.	

obeikandl.com

	بالنسبة إلى مكتشف الكذب	
	صعبة	سهلة
6. هل هناك عقوبات شديدة لضبط الشخص بالكذب؟	لا؛ الخوف من الانكشاف منخفض، ولكن قد ينتج الإهمال.	نعم؛ يعزز الخوف من الانكشاف، وربما يخاف أيضاً تكذيبه، فينتج أخطاء إيجابية مزيفة.
7. هل هناك عقوبات شديدة لفعل الكذب بحدّ ذاته بعيداً عن الخسائر؛ بسبب فشل الخداع؟	لا	نعم؛ يعزز الخوف من الانكشاف، قد يقرر الشخص العدول عن البدء بالكذبة إذا علم أن عقاب محاولة الكذب سيكون أسوأ من الخسارة المتكبدة بعدم الكذب.
8. هل يعاني المتلقِّي عدم الخسارة. أم أنه يستفيد من الكذبة؟ هل الكذبة إيثارية ولا تفيد الكاذب؟	نعم؛ ذنب الخداع أقل إذا اعتقد الكاذب بذلك.	لا؛ يقلل من ذنب الخداع.
9. هل الوضع يرجح فيه أن يثق المتلقِّي بالكاذب، ولا يشك في أنه تم تضليله؟	نعم	لا
10. هل سبق أن خدع الكاذب الضحية بنجاح مسبقاً؟	نعم؛ يقلل من الخوف من الانكشاف، وإذا كان المتلقِّي يشعر بالخزي أو يعاني معرفة أنه انخدع، فقد يصبح ضحية مستعدة.	لا
11. هل القيم بين الكاذب وضحيته مشتركة ؟	لا؛ يقلل من ذنب الخداع.	نعم؛ يقلل من ذنب الخداع.
12. هل الكذب مسموح به؟	نعم؛ يقلل من ذنب الخداع.	لا؛ يزيد من ذنب الخداع

obeikandi.com

	بالنسبة إلى مكتشف الكذب	
	صعبة	سهلة
13. هل الضحية مجهولة؟	نعم؛ يقلل من ذنب الخداع.	لا
14. هل يعرف الضحية والكاذب بعضهما شخصيّاً؟	لا	نعم؛ يكون مكتشف الكذب أكثر قدرة على تجنب الأخطاء الناجمة عن الفروق الفردية (مخاطرة بروكار).
15. هل يجب أن يخفي مكتشف الكذب شكوكه عن الكاذب؟	نعم؛ قد يصبح مكتشف الكذب متورّطاً بحاجته إلى الإخفاء ويفشل في أن يكون منتبهاً لسلوك الكاذب.	لا
16. هل يمتلك مكتشف الكذب المعلومات التي يمتلكها الشخص المذنب فقط وليس البريء؟	لا	نعم؛ قد يجرب استخدام اختبار معرفة المذنب إذا أمكن استجواب المشتبه به.
17. هل هناك جمهور يعرف أو يشك أنّ المتلقّي يتم خداعه؟	لا	نعم؛ قد يزيد من لذة الخداع، أو الخوف من الانكشاف، أو ذنب الخداع.
18. هل يشترك كلّ من الكاذب والمتلقّي في اللغة والثقافة والبلد؟	لا؛ مزيد من الأخطاء في الحكم على قرائن الخداع.	نعم؛ أكثر قدرة على تفسير قرائن الخداع.

obeikandl.com

أسئلة عن الكاذب		
19. هل الكاذب متمرس بالكذب؟	نعم؛ خصوصاً إذا كان متدرّباً على هذا النوع من الكذب.	لا
	بالنسبة إلى مكتشف الكذب	
	صعبة	سهلة
20. هل يُعدّ الكاذب مبتكراً وخلاقاً في التلفيق؟	نعم	لا
21. هل يمتلك الكاذب ذاكرة جيدة؟	نعم	لا
22. هل الكاذب متحدث سلس، ولديه أسلوب مقنع؟	نعم، أكثر قدرة على الإخفاء، أو تزييف تعابير الوجه.	لا
23. هل يستخدم الكاذب عضلات الوجه الموثوقة بوصفها حركات صادقة؟	نعم	لا
24. هل الكاذب ماهر كممثل قادر على استخدام منهجية ستانسلافسكي؟	نعم	لا
25. هل يحتمل أن يصدّق ما كذب، ويعتقد أنّ ما يقوله صحيحاً؟	لا	لا
26. هل هو/ هي كاذب طبيعي أم أنه/ مضطرب عقليّاً؟	نعم	لا

obeikandl.com

27. هل تجعل شخصية الكاذب الكاذب عرضة للخوف، أو الذنب، أو لذة الخداع؟	لا	نعم
28. هل الكاذب خجل ممّا ما يخفيه؟	من الصعب التنبؤ بذلك؛ ففي حين يمنع الخزي الاعتراف، فإنّ تسرب ذلك الخزي قد يكشف الكذبة.	
29. هل يمكن أن يشعر الكاذب المشتبه به بالخوف، أو الذنب، أو الخزي، أو لذة الخداع حتى لو كان بريئاً ولا يكذب أو يكذب بشيء آخر؟	نعم، لا يستطيع تفسير قرائن العواطف.	لا، علامات هذه العواطف قرائن على الخداع.
أسئلة عن مكتشف الكذب		
30. هل يمتلك مكتشف الكذب سمة صعوبة تضليله؟	لا، خصوصاً إذا كان الكاذب في الماضي ناجحاً في خداع مكتشف الكذب.	نعم، يزيد من الخوف من الانكشاف، وقد يزيد أيضاً من لذة الخداع.
31. هل يمتلك مكتشف الكذب سمة أنه شكّاك؟	من الصعب التنبؤ بذلك؛ قد تقلل هذه السّمة من ذنب الخداع، وقد تزيد أيضاً الخوف من الانكشاف.	
32. هل يمتلك مكتشف الكذب سمة الإنصاف؟	لا، من المحتمل أن يشعر الكاذب بالذنب حيال خداعه مكتشف الكذب.	نعم، يزيد ذنب الخداع.
33. هل مكتشف الكذب شخص غير معروف، يتجنب المشكلات ويميل إلى التفكير بأفضل ما لدى الآخرين؟	نعم، قد يتغاضى عن قرائن الخداع، وهو عرضة للأخطاء السلبية المزيفة.	لا

obeikandi.com

34. هل يستطيع مكتشف الكذب عادة تفسير السلوكات التعبيرية بدقة؟	لا	نعم
35. هل لدى مكتشف الكذب تصورّات مسبقة تجعله متحيّزاً ضد الكاذب؟	لا	نعم، على الرغم من أن مكتشف الكذب سيكون أكثر انتباهاً لقرائن الخداع، فسوف يتحمل مسؤولية الأخطاء الإيجابية المزيفة.
36. هل لدى مكتشف الكذب أيّ معتقدات تمنعه من اكتشاف الكذب؟	نعم، يتجاهل مكتشف الكذب قصداً أو من غير قصد قرائن الخداع.	لا
37. هل يجد مكتشف الكذب صعوبة في تحمل عدم اليقين عمّا إذا كان مخدوعاً؟	من الصعب التنبؤ بذلك؛ قد يسبب أخطاء إيجابية أو سلبية مزيفة	
38. هل يمتلك مكتشف الكذب اللهيب العاطفي؟	لا	نعم، سوف يتم ضبط الكاذبين، ولكن سوف يحكم على الأبرياء بالكذب (أخطاء إيجابية مزيفة).

obeikandl.com

قائمة المراجع

الفصل الأول: المقدمة

39. I am indebted to Robert Jervis's book *The Logic of Images in International Relations* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1970) for much of my thinking about international deceit and for bringing to my attention the writings of Alexander Groth. This quote was analyzed in Groth's article "On the Intelligence Aspects of Personal Diplomacy," *Orbis* 7 (1964): 833–49. It is from Keith Feiling, *The Life of Neville Chamberlain* (London: Macmillan, 1947, p. 367).
40. Speech to the House of Commons, September 28, 1938. Neville Chamberlain, *In Search of Peace* (New York: Putnam and Sons, 1939, p. 210, as cited by Groth).
41. This work was reported in a series of articles in the late 1960s and in a book I edited entitled *Darwin and Facial Expression* (New York: Academic Press,1973).
42. This work is reported in my first article on deception: Paul Ekman and Wallace V. Friesen, "Nonverbal Leakage and Clues to Deception," *Psychiatry* 32 (1969): 88–105.
43. Roberta Wohlstetter, "Slow Pearl Harbors and the Pleasures of Deception," in *Intelligence Policy and National Security,* ed. Robert L. Pfaltzgraff, Jr., UriRa'anan, and Warren Milberg, (Hamden, Conn.: Archon Books, 1981), pp.23–34.

obeikandl.com

الفصل الثاني: الكذب، والتّسرّب، وقرائن وجود الخداع

1. *San Francisco Chronicle,* October 28, 1982, p. 12.
2. *The Compact Edition of the Oxford English Dictionary* (New York: Oxford University Press, 1971), p. 1616.
3. See Paul F. Secord, "Facial Features and Inference Processes in Interpersonal Perception," in *Person Perception and Interpersonal Behavior,* " ed. R. Taguiri and L. Petrullo (Stanford: Stanford University Press, 1958). Also, Paul Ekman, «Facial Signs: Facts, Fantasies and Possibilities," in *Sight, Sound and Sense,* ed. Thomas A. Sebeok (Bloomington: Indiana University Press, 1978
4. Argument persists about whether or not animals can deliberately choose to lie. See David Premack and Ann James Premack, *The Mind of an Ape* (New York: W. W. Norton & Co., 1983). Also, Premack and Premack, "Communication as Evidence of Thinking," in *Animal Mind—Human Mind,* ed. D. R. Griffin (New York: Springer–Verlag, 1982).
5. I am grateful to Michael I. Handel for citing this quote in his very stimulating article "Intelligence and Deception," *Journal of Strategic Studies* 5 (March 1982): 122–54. The quote is from Denis Mack Smith, *Mussolini's Roman Empire,* p. 170.
6. This distinction is used by most analysts of deceit. See Handel, "Intelligence," and Barton Whaley, "Toward a General Theory of Deception," *Journal of Strategic Studies* 5 (March 1982): 179–92 for discussions of the utility of this distinction in analyzing military deceits.
7. Sisela Bok reserves the term *lying* for what I call falsification and uses the term *secrecy* for what I call concealment. The distinction she claims to be of moral importance, for she argues that while lying is *"prima facie* wrong, with a negative presumption against it, secrecy need not be" (Bok, *Secrets* [New York: Pantheon, 1982], p. xv.
8. Eve Sweetser, "The Definition of a Lie," in *Cultural Models in Language and Thought* ed. Naomi Quinn and Dorothy Holland, (in press), p. 40.

obeikandl.com

9. David E. Rosenbaum, *New York Times,* December 17, 1980.
10. John Updike, *Marry Me,* (New York: Fawcett Crest, 1976), p. 90.
11. Ezer Weizman, *The Battle for Peace* (New York: Bantam Books, 1981), p. 182.
12. Alan Bullock, *Hitler* (New York: Harper & Row, 1964, rev. ed.), p. 528. As cited by Robert Jervis, *The Logic of Images in International Relations* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1970).
13. Robert Daley, *The Prince of the City* (New York: Berkley Books, 1981), p. 101.
14. Weizman, *Battle,* p. 98.
15. Jon Carroll, "Everyday Hypocrisy—A User's Guide," *San Francisco Chronicle,* April 11, 1983, p. 17.
16. Updike, *Marry Me,* p. 90.

الفصل الثالث: لماذا لا تنطلي الأكاذيب؟

1. John J. Sirica, *To Set the Record Straight* (New York: New American Library, 1980), p. 142.
2. James Phelan, *Scandals, Scamps and Scoundrels* (New York: Random House, 1982), p. 22.
3. Terence Rattigan, *The Winslow Boy* (New York: Dramatists Play Service Inc. Acting Edition, 1973), p. 29.
4. This story is contained in David Lykken's book *A Tremor in the Blood: Uses and Abuses of the Lie Detector* (New York: McGraw–Hill, 1981).
5. Phelan, *Scandals,* p. 110.
6. Robert D. Hare, *Psychopathy: Theory and Research* (New York: John Wiley, 1970), p. 5.
7. Michael I. Handel, "Intelligence and Deception," *Journal of Strategic Studies* 5 (1982): 136.
8. *San Francisco Chronicle,* January 9, 1982, p. 1.
9. *San Francisco Chronicle,* January 21, 1982, p. 43.
10. William Hood, *Mole* (New York: W.W. Norton & Co., 1982), p. 11.

Obeikandl.com

11. Bruce Horowitz, “When Should an An Executive Lie?” *Industry Week,* November 16, 1981, p. 81.
12. Ibid, p. 83.
13. This idea was suggested by Robert L. Wolk and Arthur Henley in their book *The Right to Lie* (New York: Peter H. Wyden, Inc., 1970).
14. Alan Dershowitz, *The Best Defense* (New York: Random House, 1982), p. 370.
15. Shakespeare, Sonnet 138.
16. Roberta Wohlstetter, “Slow Pearl Harbours and the Pleasures of Deception,” in *Intelligence Policy and National Security,* ed. Robert L. Pfaltzgraff, Jr., UriRa’anan, and Warren Milberg (Hamden, Conn.: Archon Press, 1981).

الفصل الرابع: كشف الخداع من خلال الكلمات، أو الصوت، أو حركات الجسم

1. In “Facial Signs: Facts, Fantasies and Possibilities,” in *Sight, Sound, and Sense,* ed. Thomas A. Sebeok (Bloomington: Indiana University Press, 1978), I describe eighteen different messages conveyed by the face, one of which is the mark of unique individual identity.
2. See J. Sergent and D. Bindra, “Differential Hemispheric Processing of Faces: Methodological Considerations and Reinterpretation,” *Psychological Bulletin* 89(1981): 554—554.
3. Some of this work was reported by Paul Ekman, Wallace V. Friesen, Maureen O’Sullivan, and Klaus Scherer, “Relative Importance of Face, Body and Speech in Judgments of Personality and Affect,” *Journal of Personality and Social Psychology* 38 (1980): 270—77.
4. Bruce Horowitz, “When Should an Executive Lie?” *Industry Week,* November 16, 1981, p. 83.
5. S. Freud, The psychopathology of everyday life (1901), in James Strachey, tr. and ed., *The Complete Psychological Works,* vol. 6 (New York: W. W. Norton, 1976), p. 86.
6. Freud gave many interesting, briefer examples of slips of the tongue, but they are not as convincing as the one I selected, because they had

to be translated from the original German. Dr. Brill was an American, and Freud quoted this example in English. Ibid., pp. 89–90.

7. S. Freud, Parapraxes (1916), in James Strachey, tr. and ed., *The Complete Psychological Works,* vol. 15 (New York: W. W. Norton, 1976), p. 66.
8. John Weisman, “The Truth will Out,” *TV Guide,* September 3, 1977, p. 13.
9. A number of new techniques developed to measure the voice promise breakthroughs in the next few years. For a review of these methods, see Klaus Scherer, “Methods of Research on Vocal Communication: Paradigms and Parameters,” in *Handbook of Methods in Nonverbal Behavior Research,* ed. Klaus Scherer and Paul Ekman (New York: Cambridge University Press, 1982).
10. These results are reported by Paul Ekman, Wallace V. Friesen, and Klaus Scherer, “Body Movement and Voice Pitch in Deceptive Interaction,” *Semiotica* 16 (1976): 23–27. The findings have been replicated by Scherer and by other investigators.
11. John J. Sirica, *To Set the Record Straight* (New York: W. W. Norton, 1979), pp. 99–100.
12. Richard Nixon, *The Memoirs of Richard Nixon,* vol. 2 (New York: Warner Books, 1979), p. 440.
13. Sirica, *To Set the Record Straight,* pp. 99–100.
14. Ibid.
15. John Dean, *Blind Ambition* (New York: Simon & Schuster, 1976), p. 304.
16. Ibid., pp. 309–10.
17. For critical reviews of these various voice stress lie detection techniques, see David T. Lykken, *A Tremor in the Blood* by (New York: McGraw–Hill, 1981), chap. 13 and Harry Hollien, “The Case against Stress Evaluators and Voice Lie Detection,” (unpub. mimeograph, Institute for Advanced Study of the Communication Processes, University of Florida, Gainesville).

openkandi.com

18. A description of our method for surveying emblems and the results for Americans is contained in Harold G. Johnson, Paul Ekman, and Wallace V. Friesen, “Communicative Body Movements: American Emblems,” *Semiotica* 15 (1975): 335—53. For comparison of emblems in different cultures, see Ekman, “Movements with Precise Meanings,” *Journal of Communication* 26 (1976): 14—26.
19. Efron’s book, *Gesture and Environment,* published in 1941, is back in print again under the title *Gesture, Race, and Culture* (The Hague: Mouton Press, 1972).
20. For a discussion of manipulators, see Paul Ekman and Wallace V. Friesen, “Nonverbal Behavior and Psychopathology,” in *The Psychology of Depression: Contemporary Theory and Research* ed. R. J. Friedman and M. N. Katz (Washington,D.C.: J. Winston, 1974).
21. For a current exponent of this view, see George Mandler, *Mind and Body: Psychology of Emotion and Stress* (New York: W. W. Norton & Co., 1984).
22. Paul Ekman, Robert W. Levenson, & Wallace V. Friesen, “Autonomic Nervous System Activity Distinguishes between Emotions,” *Science 1983,* vol. 221, pp. 1208—10.

الفصل الخامس: قرائن الوجه في الخداع

1. The descriptions of the impairment of voluntary and involuntary systems with different lesions is taken from the clinical literature. See, for example, K. Tschiassny, “Eight Syndromes of Facial Paralysis and Their Significance in Locating the Lesion,” *Annals of Otology, Rhinology, and Laryngology* 62 (1953): 677—91. The description of how these different patients might have difficulty or success in deception is my extrapolation.
2. For a review of all the scientific evidence, see Paul Ekman, *Darwin and Facial Expression: A Century of Research in Review* (New York: Academic Press, 1973). For a less technical discussion, and photographs illustrating universals in anisolated, preliterate, New Guinea people, see Ekman, *Face of Man: Expressions of Universal*

Emotions in a New Guinea Village (New York: Garland STMP Press, 1980).

3. Ekman, *Face of Man,* pp. 133–36.
4. *The Facial Action Coding System,* Paul Ekman and Wallace V. Friesen (Palo Alto: Consulting Psychologists Press, 1978), is a self–instructional package— containing a manual, illustrative photographs and films, and computer programs— that teaches the reader how to describe or measure any expression.
5. See E. A. Haggard and K. S. Isaacs, "Micromomentary Facial Expressions," in *Methods of Research in Psychotherapy,* ed. L. A. Gottschalk and A. H. Auerbach (New York: Appleton Century Crofts, 1966
6. *Unmasking the Face,* Paul Ekman and Wallace V. Friesen (Palo Alto: Consulting Psychologists Press, 1984), provides the pictures and instructions on how to acquire this skill.
7. Friesen and I developed a Requested Facial Action Test, which explores how well someone can deliberately move each muscle and also pose emotion. See by Paul Ekman, Gowen Roper, and Joseph C. Hager, "Deliberate Facial Movement," *Child Development* 51 (1980): 886–91 for results on children.
8. Column by William Safire, "Undetermined," in the *San Francisco Chronicle,* June 28, 1983.
9. "Anwar Sadat—in his own words," in the *San Francisco Examiner,* October 11, 1981.
10. Ezer Weizman, *The Battle for Peace* (New York: Bantam, 1981), p. 165.
11. Margaret Mead, *Soviet Attitudes toward Authority* (New York: McGraw–Hill, 1951), pp. 65–66. As cited by Erving Goffman, *Strategic Interaction* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1969), p. 21.
12. *San Francisco Chronicle,* January 11, 1982.

openkanal.com

13. Harold Sackeim, Ruben C. Gur, and Marcel C. Saucy, “Emotions Are Expressed More Intensely on the Left Side of the Face,” *Science* 202 (1978): 434.
14. See Paul Ekman, “Asymmetry in Facial Expression,” and Sackeim’s rebuttal in *Science* 209 (1980): 833–36.
15. Paul Ekman, Joseph C. Hager, and Wallace V. Friesen, “The Symmetry of Emotional and Deliberate Facial Actions,” *Psychophysiology* 18/2 (1981): 101–6.
16. Joseph C. Hager and Paul Ekman, “Different Asymmetries of Facial Muscular Actions,” *Psychophysiology,* in press.
17. I am grateful to Ronald van Gelder for his help in this unpublished study.
18. *San Francisco Chronicle,* June 14, 1982.
19. See Paul Ekman and Joseph C. Hager, “Long Distance Transmission of Facial Affect Signals,” *Ethology and Sociohiology* 1 (1979): 77–82.
20. Paul Ekman, Wallace V. Friesen, and Sonia Ancoli, “Facial Signs of Emotional Experience,” by *Journal of Personality and Social Psychology* 39 (1980): 1125–34.

الفصل السادس: الأخطار والاحتياطات

1. David M. Hayano, “Communicative Competence among Poker Players,” *Journal of Communication* 30(1980): 117.
1. 2. Ibid., p. 115.
2. William Shakespeare, *Othello,* act 5, scene 2.
3. Richards J. Heuer, Jr., “Cognitive Factors in Deception and Counterdeception,” in *Strategic Military Deception,* ed. Donald C. Daniel and Katherine L. Herbig (New York: Pergamon Press, 1982), p. 59.
4. Ross Mullaney, “The Third Way—The Interroview,” unpublished mimeograph, 1979.

openkandil.com

5. Schopenhauer, “Our Relation to Others,” in *The Works of Schopenhauer,* ed. Will Durant (Garden City, New Jersey: Garden City Publishing Company, 1933).
6. See Lykken’s book *Tremor in the Blood* (New York: McGraw–Hill, 1981) for a full description of how to use the Guilty Knowledge Technique with the polygraph in criminal interrogations.
7. *Scientific Validity of Polygraph Testing: A Research Review and Evaluation—A Technical Memorandum* (Washington D.C.: U. S. Congress, Office of Technology Assessment, OTA–TM–H–15, November 1983).

الفصل السابع: مكشاف الكذب (البوليغراف)

1. Richard O. Arther, “How Many Robbers, Burglars, Sex Criminals Is Your Department Hiring This Year?? (Hopefully, Just 10% of Those Employed!),” *Journal of Polygraph Studies* 6 (May–June 1972), unpaged.
2. David T. Lykken, “Polygraphic Interrogation,” *Nature,* February 23, 1984, pp. 681–84.
3. Leonard Saxe, personal communication.
4. Most of my figures on the use of the polygraph come from *Scientific Validity of Polygraph Testing: A Research Review and Evaluation—A Technical Memorandum*(Washington, D.C.: U. S. Congress, Office of Technology Assessment, OTATM– H–15, November 1983). Essentially the same report will appear as an article entitled “The Validity of Polygraph Testing,” by Leonard Saxe, Denise Dougherty, and Theodore Cross, in *American Psychologist,* January 1984.
5. David C. Raskin, “The Truth about Lie Detectors,” *The Wharton Magazine,* Fall 1980, p. 29.
6. Office of Technology Assessment (OTA) report, p. 31.
7. Benjamin Kleinmuntz and Julian J. Szucko, “On the Fallibility of Lie Detection,” Law and Society Review 17 (1982): 91.

obeikandi.com

8. Statement of Richard K. Willard, Deputy Assistant Attorney General, U.S. Department of Justice, before the Legislation and National Security Committee of the Committee on Government Operations, U. S. House of Representatives, October 19, 1983, mimeograph, p. 22.
9. OTA report, p. 29.
10. The OTA was created in 1972 as an analytical arm of Congress. The report on the polygraph is available by writing to the Superintendent of Documents, U.S. Government Printing Office, Washington, D.C. 20402.
11. Marcia Garwood and Norman Ansley, *The Accuracy and Utility of Polygraph Testing,* Department of Defense, 1983, unpaged.
12. David C. Raskin, "The Scientific Basis of Polygraph Techniques and Their Uses in the Judicial Process, in *Reconstructing the Past: The Role of Psychologists in Criminal Trials,* ed. A. Trankell (Stockholm: Norstedt and Soners, 1982), p. 325.
13. David T. Lykken, *A Tremor in the Blood,* (New York: McGraw–Hill, 1981), p. 118.
14. David T. Lykken, personal communication.
15. Lykken, *Tremor in the Blood,* p. 251.
16. Raskin, "Scientific Basis," p. 341.
17. OTA report, p. 50.
18. Raskin, "Scientific Basis," p. 330.
19. Avital Ginton, Netzer Daie, Eitan Elaad, and Gershon Ben–Shakhar, "A Method for Evaluating the Use of the Polygraph in a Real–Life Situation," *Journal of Applied Psychology* 67 (1982): 132.
20. OTA report, p. 132.
21. Ginton et al., "Method for Evaluating," p. 136.
22. Jack Anderson, *San Francisco Chronicle,* May 21, 1984.
23. OTA report, p. 102.
24. Statement by David C. Raskin at hearings on S.1845 held by the Subcommittee on the Constitution, United States Senate, September 19, 1978, p. 14.

open4kandil.com

25. OTA report, pp. 75–76.
26. Raskin, Statement, p. 17.
27. Lykken, *Tremor in the Blood,* chap. 15.
28. Gordon H. Barland, “A Survey of the Effect of the Polygraph in Screening Utah Job Applicants: Preliminary Results,” *Polygraph* 6 (December 1977), p. 321.
29. Ibid.
30. Raskin, Statement, p. 21.
31. Arther, “How Many,” unpaged.
32. Ibid.
33. Garwood and Ansley, *Accuracy and Utility,* unpaged.
34. OTA report, p. 100.
35. Daniel Rapoport, “To Tell the Truth,” *The Washingtonian,* February 1984, p. 80.
36. Willard, *ibid.,* p. 36.
37. Lykken, “Polygraphic Interrogation,” p. ?.
38. OTA report, pp. 109–110.
39. OTA report, p. 99.
40. Willard, Statement, p. 17.
41. Ginton et al., “Method for Evaluating.” Also, John A. Podlesny and David C. Raskin, “Effectiveness of Techniques and Physiological Measures in the Detection of Deception,” *Psychophysiology* 15 (1978): pp. 344–59 and Frank S. Horvath, “Verbal and Nonverbal Clues to Truth and Deception During Polygraph Examinations,” *Journal of Police Science and Administration,* 1 (1973): 138–52.
42. David C. Raskin and John C. Kircher, “Accuracy of Diagnosing Truth and Deception from Behavioral Observation and Polygraph Recordings,” ms. in preparation.

obeikandl.com

الفصل الثامن: التّحقّق من الكذب

1. Randall Rothenberg, “Bagging the Big Shot,” *San Francisco Chronicle,* January 3, 1983, pp. 12–15.
2. Ibid.
3. Ibid.
4. Agness Hankiss, “Games Con Men Play: The Semiosis of Deceptive Interaction,” *Journal of Communication* 3 (1980): pp. 104–112.
5. Donald C. Daniel and Katherine L. Herbig, “Propositions on Military Deception,” in *Strategic Military Deception,* ed. Daniel & Herbig (New York: Pergamon Press, 1982) p. 17.
6. I am indebted for this example to John Phelan’s fascinating account in chapter 6 of his book *Scandals, Scamps and Scoundrels* (New York: Random House, 1982), p. 114. I have only reported part of the story. Anyone interested in detecting lies among people suspected of crimes should read this chapter to learn about other pitfalls that may occur in interrogation and lie detection.
7. I am indebted for my knowledge about interrogations to Rossiter C. Mullaney, an FBI agent from 1948 to 1971, and then coordinator of Investigation Programs, North Central Texas Regional Police Academy, until 1981. See his article “Wanted! Performance Standards for Interrogation and Interview,” *The Police Chief,* June 1977, pp. 77–80.
8. Mullaney began a very promising series of studies training interrogators in how to use clues to deceit and evaluating the usefulness of that training, but he retired before completing that work.
9. Alexander J. Groth, “On the Intelligence Aspects of Personal Diplomacy,” *Orhis 1* (1964): 848.
10. Robert Jervis, *The Logic of Images in International Relations* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1970), pp. 67–78.
11. Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston: Little, Brown and Company, 1982), pp. 214, 485.
12. As quoted by Jervis, *Logic,* pp. 69–70.

obeikandl.com

13. Ibid., pp. 67–68.
14. Michael I. Handel, “Intelligence and Deception,” *Journal of Strategic Studies* 5 (1982): 123–53.
15. Barton Whaley, “Covert Rearmament in Germany, 1919–1939: Deception and Mismanagement,” *Journal of Strategic Studies* 5 (1982): 26–27.
16. Handel, “Intelligence,” p. 129.
17. This quote was analyzed by Groth, “Intelligence Aspects.”
18. As cited by Groth, “Intelligence Aspects.”
19. Telford Taylor, *Munich* (New York: Vintage, 1980), p. 752.
20. Ibid., p. 821.
21. Ibid., p. 552.
22. Ibid., p. 629.
23. Graham T. Allison, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Missile Crisis* (Boston:Little, Brown and Company, 1971), p. 193.
24. Arthur M. Schlesinger, Jr., *A Thousand Days: John F. Kennedy in the White House* (New York: Fawcet Premier Books, 1965). p. 734.
25. Theodore C. Sorensen, *Kennedy* (New York: Harper & Row, 1965), p. 673.
26. Robert F. Kennedy, *Thirteen Days: A Memoir of the Cuban Missile Crisis* (New York: W. W. Norton, 1971), p. 5.
27. Roger Hilsman, To Move a Nation (Garden City, N.Y.: Doubleday & Co., 1967), p. 98.
28. David Detzer, *The Brink* (New York: Thomas Crowell, 1979).
29. Sorensen, *Kennedy,* p. 690.
30. Detzer, *Brink,* p. 142.
31. Robert F. Kennedy, *Thirteen Days,* p. 18.
32. Elie Abel, *The Missile Crisis* (New York: Bantam Books, 1966), p. 63.
33. Sorensen, *Kennedy,* p. 690.
34. Abel, *Missile,* p. 63.
35. Detzer, *Brink,* p. 143.

obeikandl.com

36. Kennedy, *Thirteen Days,* p. 20.
37. Detzer, *Brink,* p. 143.
38. Ibid., p. 144.
39. Allison, *Essence,* p. 135.
40. Abel, *Missile,* p. 64.
41. Allison, *Essence,* p. 134.
42. Daniel and Herbig, "Propositions," p. 13.
43. Herbert Goldhamer, reference 24 cited by Daniel and Herbig, "Propositions."
44. Barton Whaley, reference 2 cited by Daniel and Herbig, "Propositions."
45. Maureen O'Sullivan, "Measuring the Ability to Recognize Facial Expressions of Emotion," in *Emotion in the Human Face,* ed. Paul Ekman (New York: Cambridge University Press, 1982).
46. Groth, "Intelligence Aspects," p. 847.
47. Jervis, *Logic,* p. 33.
48. Winston Churchill, *The Hinge of Fate* (Boston: Houghton Mifflin, 1950), pp.
49. 493, as cited by Groth, ibid., p. 841.
50. Lewis Broad, *The War that Churchill Waged* (London: Hutchison and Company, 1960), p. 356, as cited by Groth, "Intelligence Aspects," p. 846.
51. Broad, *War,* p. 358, as cited by Groth, "Intelligence Aspects," p. 846.
52. Milovan Djilas, *Conversations with Stalin* (New York: Harcourt, Brace, Jovanovich,1962), p. 73, as cited by Groth, ibid., p. 846.

الفصل التاسع: كشف الكذب في التسعينيّات

1. My colleague and friend Maureen O'Sullivan, at the University of San Francisco, has worked with me for many years to develop this test, collaborated in the research on professional lie catchers, and also gave some of the workshops.

obeikandl.com

2. “Who Can Catch a Liar” by Paul Ekman and Maureen O’Sullivan appeared in the September 1991 issue of the journal *American Psychologist.*
3. Those findings were reported in “The Effect of Comparisons on Detecting Deceit” by M. O’Sullivan, P. Ekman, and W. V. Friesen. *Journal of Nonverbal Behavior* 12 (1988): 203–15.
4. Udo Undeutsch from Germany developed a procedure called statement analysis, and a number of American researchers are testing its validity in evaluating children’s testimony.
5. These findings are reported in “Face, Voice, and Body in Detecting Deceit” by Paul Ekman, Maureen O’Sullivan, Wallace V. Friesen, and Klaus C. Scherer in the *Journal of Nonverbal Behavior,* vol. 15 (1991): 203–15.
6. “The Duchenne Smile: Emotional Expression and Brain Physiology II” by P. Ekman, R. J. Davidson, and W. V. Friesen. *Journal of Personality and Social Psychology* 58 (1990).
7. These findings are reported in M. Frank, P. Ekman, and W. V. Friesen, “Behavioral markers of recognizability of the enjoyment smile.” Paper under review.
8. A paper entitled “The ability to lie across situations” currently being written by Mark Frank reports these findings.
9. Professor John Yuille at the University of British Columbia has been directing a program to train social workers in better techniques for interviewing children.
10. *Time* magazine, July 27, 1987, p. 10.
11. In earlier chapters I used the phrase *natural liar,* but that I have found implies that these peopie may lie more often than others, when I have no evidence that is so. The phrase *natural performer* better describes what I mean, which is that if they lie they .J so flawlessly
12. Not having met North nor had the opportunity to question him directly I cannot be certain my judgment is correct. His performance on television, however, certainly fits my description.

الفصل العاشر: الكذب في الحياة العامة

1. Oliver L. North, *Under Fire* (New York: HarperCollins, 1991), p. 66.
2. For a recent discussion of the constitutional issues in this case see an article by Edwin M. Yoder, Jr., entitled "A Poor Substitute for an Impeachment Proceeding," *International Herald Tribune,* July 23, 1991.
3. Stansfield Turner, "Purge the CIA of KGB Types," *New York Times,* October 2, 1991, p. 21.
4. Ibid.
5. Ibid.
6. Jimmy Carter, *Keeping Faith: Memoirs of a President* (New York: Bantam Books, 1982), p. 511.
7. See reference 3.
8. For a recent discussion of the various views on this topic see *Self–Deception: An Adaptive Mechanism?* edited by Joan S. Lockard and Delroy L. Paulhus (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice–Hall, 1988).
9. Richard Feynman, *What Do You Care What Other People Think? Further Adventures of a Curious Character* (New York: W.W. Norton, 1988).
10. Ibid., p. 214.
11. *Time,* August 19, 1974, p. 9.

خاتمة

1. For the arguments against falsification, see Sisela Bok, *Lying: Moral Choice in Public and Private Life* (New York: Pantheon, 1978). For an argument in favor of concealment in private, not public, life, see Bok, *Secrets* (New York: Pantheon, 1982). For the opposite view, advocating the virtues of lying, see Robert L. Walk and Arthur Henley, *The Right to Lie: A Psychological Guide to the Uses of Deceit in Everyday Life* (New York: Peter H. Wyden, 1970).
2. Sigmund Freud, Fragment of an analysis of a case of hysteria (1905), *Collected Papers,* vol. 3.; (New York: Basic Books, 1959), p. 94.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com